

الدكتور
عبد الحليم محمود

قضية التصوف

المدرسة الشاذلية

الطبعة الثالثة



دار المعارف

قضية التصوف

المدرسة الشاذلية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على خير المرسلين وخاتم النبيين . سيدنا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين . وعلى آله وصحبه أجمعين .

هذا الكتاب :

لقد اضطررت إلى كتابته اضطراراً . وحمّلت على تأليفه حملاً . وما كان لي في تحديد زمن كتابته من إرادة حرة أو اختيار يبيح لي التأجيل الطويل . وسأذكر قصة تأليفه . سواء أسخر الناس منها أم لم يسخروا . وسواء أصدقوها أم أنكروها .

إنني أروى هنا ما وقع لي شخصياً . أرويه كما حدث دون زيادة أو نقص وما من شك في أن مثله . بل أغرب منه . يحدث كل يوم . ومع ذلك فإن المنكرين والشاكين والساخرين لا يزيدهم ذلك إلا شكاً وإنكاراً واستمراراً في السخرية . فلنصرف النظر عنهم ولنزو الأمر كما حدث :

منذ أكثر من خمس عشرة سنة كنت في زيارة أحد الأصدقاء . وأخذ الحديث مجراه في نواح عدة . ثم تطرق إلى أبي الحسن الشاذلي . وكنت في ذلك الوقت أجهل الكثير عن هذا القطب الكبير . كنت أسمع اسمه

فى كل مكان ولكن الظروف لم تكن قد أتاحـت لى بعد أن أـتصل به اتصالا يـزيد على سماع الاسم إلا قليلا .

وسألت الصديق عما إذا كان عنده من المراجع ما يعطينى صورة موجزة صادقة عن الشيخ تـزيل بعض الجهل به .

وقدم لى الصديق كتاب الأستاذ السندوبى عن أبى العباس المرسى . وذلك لأن المؤلف كتب فيه عن أبى الحسن الشاذلى صفحات عدة . ولم يكن عند الصديق غيره للتعريف بأبى الحسن .

وأخذت فى قراءة ما كتبه الأستاذ السندوبى فوجدت فى نفسى رغبة ملحة فى أن أزداد معرفة بالشاذلى . وفى أن أكتب عنه إذا يسر الله ذلك .

وأخذت أسأل عن المراجع هنا وهناك . ووجدت فى دار العشيرة المحمدية كتاب « المفاخر العلية » لابن عياد مخطوطاً بقلم الشيخ العروسى نفسه . بخط جميل . على ورق جميل فاخر . وقد راجعه الشيخ بعد كتابته وأثبت ما نسيه . وصحح ما أخطأ فى نقله . ولم يبخل فضيلة رائد العشيرة المحمدية علىّ به . ووجدت فى الدار أيضاً الكتاب النادر كتاب (دُرّة الأسرار) وهو من أنفس المراجع عن أبى الحسن الشاذلى . استقى فيه مؤلفه أخبار أبى الحسن عمن التقوا به مباشرة . وعن أصحاب أصحابه .

ولقد سافر من أجل ذلك إلى عدة أقطار ، وبين فى مقدمة كتابه كيفية جمعه إذ يقول : « وكان من جملة منن الله سبحانه علىّ ، وعلى من سلف لى ، هو تتبع ما لسيدنا الشيخ الولى الصديق العارف المحقق الغوث القطب الشريف الحسنى أبى الحسن على المعروف بالشاذلى من الآثار ، وتقييد ما له من الدعوات والأذكار . وكنت أطلبها وأجهد فى جمعها ، وأصرف الرغبة فى التوجه إلى من عرف بها .

فنها ما أخذته تلقياً بتونس من سيدنا الشيخ الصالح أبي العزائم ماضى بن سلطان ، تلميذ سيدنا الشيخ أبي الحسن وخادمه .
ومنها ما أخذته بأرض المشرق ، من سيدنا الشيخ أبي عبد الله محمد . المدعو بشرف الدين ، ولد سيدنا الشيخ الصالح ياقوت الحبشى ، رضى الله عنه .
ومنها ما أخذته عن غيرهم من معتقدى طريق الشيخ ، وأصحاب أصحابه من أهل المشرق والمغرب ، حتى اجتمع عندى من ذلك ما يبهج سماعه ، ويعز اجتماعه » اهـ .

ولم تبخل على العشيرة المحمدية أيضاً بهذا الكتاب النادر .
وأخذت - مع الزمن - أشتكل المراجع ، فكان من أهمها كتاب « لطائف المنن » ، فى مناقب الشيخ أبى العباس وشيخه أبى الحسن ، تأليف ابن عطاء الله السكندرى ، وهو تلميذ أبى العباس المرسى أكبر تلاميذ أبى الحسن والخليفة بعده ، وقد حصلت على الطبعة المصرية حيثئذ .
واستغرقت فى القراءة والدراسة فترة من الزمن . وكتبت فى مجلة الأزهر مقالا بعنوان « أبو الحسن الشاذلى ومعركة المنصورة » .
ثم صرفتنى الصوارف ، وطويت صحف أبى الحسن ، وشغلت بأمر أخرى ، ومضت الأيام والسنون وصحف أبى الحسن مطوية . .
حتى إذا كانت سنة ١٩٦٢ دعيت إلى تونس أستاذاً زائراً ، لمدة شهر - بجامعة الزيتونة ، فتجددت عندى الذكريات عن أبى الحسن ، وأخذت أتسم عبيره فى تونس ، لقد صعدت إلى الجبل الذى كان يتعبد به ، ودخلت المغارة التى كان يعتكف بها ، وهى مغارة تتسع فى المبدأ لمجموعة من الناس ، ثم ينزل بها الإنسان فيصل إلى مكان يتسع لأفراد قليلين ، وينزل فيها من جديد حتى يصل إلى المكان الأخير الذى لا يتسع إلا لشخص واحد ، ونزلت إلى نهايتها ، وجلست خاشعاً

متعبداً حيث كان يتعبد أبو الحسن ، وحيث كان يقضى الساعات الطوال ليلاً ونهاراً ، وحيث كان يخلو - فريداً - بربه متضرعاً ، يغلبه الشوق ، وتغمره المحبة ، ويعمر قلبه اليقين .

وشعرت في المغارة بطمأنينة النفس ، وبالسكنية تملؤني ، وبتجمع خواطري بصورة عجيبة ، وبالتركز الذهني الذي يندر ويعز وجوده . وترددت على المغارة في أعلى الجبل .

وفي كل مرة أزور فيها المغارة ، تتردد ذكريات الكتاب على ذهني ، والصحف التي طويت ، وتتجدد مع ذلك الرغبة في الكتابة عن أبي الحسن . ومع ذلك بقيت الصحف مطوية . بيد أن المراجع عن أبي الحسن قد ازدادت ، فهأنذا أجد طبعة تونسية لكتاب « لطائف المنن » .

وها هو ذا شيخ الجامع الذي في أعلى الجبل عند المغارة يزودني بأحزاب أبي الحسن التي طبعوها في تونس .

وهأنذا أحضر الحضرات الشاذلية في المكان نفسه الذي كان يقيمها فيه أبو الحسن رضي الله عنه .

وفي هذه الفترة كان الأستاذ علي سالم عمار ينشر دراسة مستفيضة مرواة في جزأين عن أبي الحسن .

كل ذلك جعل عدتي للكتابة عن أبي الحسن تزداد عتاداً ، وتزداد قوة . . ولكن الصحف ما تزال مطوية .

ثم كانت ملابسات عديدة ، وظروف متناسقة ، جعلتني آخذ الطريق الشاذلي ، وأندمج في جو المريدين ، وأواظب على الأوراد والأذكار الشاذلية ، ومكثت كذلك إلى أن كان شهر مارس سنة ١٩٦٤ .

كنت في ليبيا أستاذاً زائراً للجامعة الإسلامية هناك ، وكنت قد انتهيت من إلقاء

المحاضرات في الدار البيضاء ، وبنى غازي ، وزليطن ، وطرابلس ؛ وكنت قد اتخذت الإجراءات للسفر حاجاً إلى بيت الله الحرام .

وبينا أنا في طرابلس أنتظر أن أبحر منها إلى الأراضي المقدسة إذا بي أرى - فيما يراه النائم - شخصاً أعرفه ، اسمه « توفيق » ، أراه في ملابس غير ملابسه العادية ، أراه يلبس ملابس شرطى ، ويمسك بيده قيداً ويقول لى آمراً : « اكتب عن أبى الحسن الشاذلى » .

وتلكأت في الاستجابة ، وأردت أن أهمل الموضوع ، وأن أتحدث معه في شيء آخر . فإذا به يهدد بوضع القيد في يدي ، وإذا به ينذر ويتوعد ، فقلت له : هل معنى ذلك أن أترك ما بيدي من أعمال لأكتب عن أبى الحسن الشاذلى ؟ . فقال : نعم : اترك ما بيدك من أعمال واكتب عن أبى الحسن ، ورضى « توفيق » حينما وعدت بالكتابة . . واستيقظت . ويسر الله أمر الحج والحمد لله .

وحينما عدت إلى القاهرة حاولت - مع وضوح الرؤيا في ذهني ومع تذكري لها - أن أرجئ أمر الكتاب عن أبى الحسن . لماذا ؟ لست أدري .

وأخذت في دراسة سهل بن عبد الله التستري ، فقد كنت موطناً النفس على أن أعطي طلبة كلية أصول الدين محاضرات عن التفسير الصوفي ، وأن آخذ الأمثلة من سهل بن عبد الله ، ورأيت أن من الخير أن يكون بين يدي الطلبة كتاب عن هذا الصوفي الذي لم ينل حظه من الدراسة .

وبينا أنا سائر في البدايات الأولى من الدراسة والكتابة ، إذا بعاصفة من هذه العواصف التي تمر بالإنسانية من آن لآخر ، تبعدني عن التستري ، وعن التفسير الصوفي ، تبعدني عنه في المكان ، وتبعدني عنه في الجو الروحي ، وطويت صحف التستري بل زالت من نفسي - وأرجو أن يكون ذلك مؤقتاً - الطاقة الدافعة التي كانت تحفزني على الكتابة عنه وعند ذلك تذكرت الرؤيا ، وتذكرت « توفيق »

وهو يقول : « اترك كل شيء واكتب عن أبي الحسن الشاذلى » .
ومضت أسابيع لم أشتغل فيها إلا بالقراءة السهلة فى مختلف الموضوعات كيفما
اتفق . وفى خلال هذه الأسابيع أخذ الانفعال الذى سببه تذكر الرؤيا ، والرؤيا
نفسها ، يزول من نفسى شيئاً فشيئاً ، وبمرور الزمن لم تعد الرؤيا فى بؤرة الشعور
وأصبحت فى الهامش البعيد .

ثم رأيت - ولست أدري الآن كيف جاءت الفكرة حينئذ - أننى كتبت فيما
مضى ، فى فترات متباعدة ، عن موضوع « الإيمان » وأن هذا الموضوع - وقد
فكرت فيه فيما مضى وكتبت فى زوايا منه ، وتحديث عنه فى الإذاعة والتلفزيون -
يسهل على تناوله بالبحث والدراسة ، ويتيسر أن أعود فيه إلى المراجع من جديد ،
وإلى ما كتبت ، فأنسق وأضيف ، وأحذف وأزيد آملاً أن أنشر دراسة لعلها تفيد
فى العصر الحاضر .

وذات يوم أخذت بعض المراجع عن موضوع الإيمان فى رحلة إلى الريف ،
آمل أن أجد فى هدوء الريف وصفائه ما يساعد على التركيز ذهنى والسرعة فى إنجاز
الموضوع ، وكنت مع بعض الأصدقاء . . . ونزلنا من السيارة - سيارة أجرة - أمام
القرية ، وعادت السيارة من حيث أتت ، عادت وبداخلها المراجع ، ولم نتذكرها
إلا بعد أن أصبحت السيارة بحيث لا أثر لها من رقم أو عنوان ، أو غير ذلك من
آثار . وكما تذكرت الرؤيا عند عاصفة التستري ، تذكرتها عندما أصبحت
السيارة لا عيناً ولا أثراً : « اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلى » .

وقلت فى نفسى لنكتف بهذه الدروس ولنبدأ - والله المستعان وبه التوفيق -
بالشاذلى ثم يكون ما يريد الله بعد ذلك من مؤلفات ، وعدت إلى الشاذلى
ووجدت المراجع مستكملة :

المراجع الأصلية . والمراجع الثانوية . وكتب الطبقات . وجدت المراجع القديمة والمراجع الحديثة .

لقد وجدت كل ما أحتاج إليه عن الشاذلى فى متناول يدى . ووجدت العمل ميسراً سهلاً ووجدت الصدر منشراحاً والحمد لله .

هذه قصتى مع أبى الحسن رويتها كما حدثت دون زيادة أو نقص . ولقد كان لأبى الحسن أثر هائل فى هداية الناس على مر الزمن ، لقد كان له أثر ينتقل أريجُه الزكى من شخص إلى شخص ، ومن عصر إلى عصر حتى وقتنا الحاضر ، ولقد بدأ هذا الأثر بالثمرة اليافعة فى العارف بالله ، القطب الكبير أبى العباس المرسى وفيمن حول الشيخ من أصدقاء ومريدين وأسلم أبوالعباس المشعل - مشعل الهداية - إلى شيخ العلماء وشيخ الصوفية فى عصره : ابن عطاء الله السكندرى صاحب الحكم ، التى قال عنها أحد كبار العلماء : كاد الحكم أن يكون قرآناً ، رضى الله عنه .

لقد حمل ابن عطاء الله المشعل فأثار به من حوله واستنار به من بعده ، وبقي النور للآن فى كتبه يضيء الطريق للسالكين ، وبقي متنقلاً من جيل إلى جيل يشير بسنائه إلى أبى الحسن كمنبع من منابع الهدى ، وكعلم من الأعلام الذين اتبعوا هدى الله فى كتابه العزيز ، واقتفوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً ، واتخذوه أسوة فى سلوكهم فى اليسير من الأمور والعظيم منها .

لقد بقي نور أبى الحسن للآن ، وإن المدرسة الشاذلية الحديثة فى عصرنا الراهن بقادتها وهم كالنجوم وبمريديها يسرون فى ضوئهم لخير دليل على الأثر الضخم الذى تركه أبو الحسن رضى الله عنه .

يقول الله تعالى : (سنكتب ما قدّموا وآثارهم) .

وما من شك فى أن آثار أبى الحسن ستملاً سجلات وسجلات بمن هداهم الله

إلى سلوك طريق الحق على يديه ، وعلى يدي أتباعه سلسلة بعد سلسلة إلى ما شاء الله . ولقد رأينا بمشيئة الله أن نبين في وضوح أثر الإمام الشاذلى فى العصر الحديث ، خاصة ، فتخطينا القرون ، منذ أن دعا الشاذلى إلى الله ، حتى وصلنا إلى القرن الرابع عشر الهجرى .

والقرن الرابع عشر الهجرى ملئ بالمقربين من أعلام الشاذلية ، الذين أرضوا الله ورسوله فتخلقوا بأخلاق الله واتبعوا سنة رسوله ، ولكننا تخيرنا ، بتوفيق الله ، من بين أولياء الله المقربين شيخين جليلين : لاتصالنا بهما عن قرب ، وكان هذا الاتصال هو السبب فى اختيارهما . .

أحدهما من أوربا : فرنسى ، من أعماق فرنسا ، عاش شبابه فى باريس ثم تابع حياته فى القاهرة يعرفه الغرب كله : أمريكا وأوربا ، لأنه من نابهى قادة الاتجاه الصوفى الأصيل ، يذكره المؤرخون للأديان ، ويذكره المتصلون بالروحانية ، ويذكره أئمة الدعوة إلى إصلاح الحضارة الحديثة ، والسمو بها إلى المستوى المثالى ، إنه العارف بالله الشيخ عبد الواحد يحى .

وهو من الذين أخذوا العهد الشاذلى ، أخذه على يد العارف بالله المرحوم الشيخ سلامة الراضى . إن الكبار فى السن من أتباع الشيخ سلامة الراضى عليه رضوان الله ، لا يزالون يذكرون ذلك « الشيخ » الأوربى ، بحبته الخضراء ، وعمامته البيضاء ، وقامته الفارعة الأقرب إلى النحافة منها إلى السمنة ، ولا يزالون يذكرون وجهه المشرق بالنور ، وسمته الملائكى ، ومشيته الوقورة ، وجلوسه بين يدي الشيخ متواضعاً مهذباً محاولاً أن يسكت كل سائل فى تلىظ ظاهر ، حتى يستمر الشيخ فى حديثه منطلقاً مع المدد لا تحده حدود الأسئلة ولا يتزل به مستوى الأفهام البشرية ، إنه شاذلى من الغرب .

والثانى شاذلى من الشرق : إنه العارف بالله ، الشيخ عبد الفتاح القاضى ،

وهو برهان واضح على قوله عليه الصلاة والسلام : « الخير فيّ وفي أمّتي إلى يوم القيامة » وعلى قوله ﷺ فيما رواه البخاري بإسناده عن معاوية : « لا يزال من أمّتي أمة قائمة بأمر الله ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

لقد استمسك الشيخ عبد الفتاح القاضى بالحق منذ سنه المبكرة ، استمسك به في الصورة القرآنية التي أتقنها حفظاً وعلماً وعملاً ، واستمسك به في الصورة النبوية التي أحبها روحاً وسلوكاً ، وتأسى بها حساً ومعنى ، واستمسك به في صور الصالحين وسلوكهم .

لقد جاهد . واختلى وذكر ، وصلى على رسول الله ﷺ ، وصام ، وصلى ، واستمر على ذلك مواصلاً ليله بنهاره حتى استوت سفينته على الجودي ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، ثم انبسط في الخلق هادياً ومرشداً ، وفي المريدين مهذباً ومعلماً وقائداً إلى الله سبحانه .

لقد جاهد في الحياة هادياً إلى الله فكان كوكباً تألق في سماء الروح . وانعكس ضوؤه على أتباعه ومريديه .

إنه باق بروحه في هؤلاء الدعاة إلى الله الذين يجمعهم كل يوم مسجد القاضى بشبلنجة . هذا المسجد الرائع الذي وضع الشيخ رسمه . فاشترى أرضه وتم المسجد بعد وفاته ، وبقي أثراً من آثاره . ونرجو من الله التوفيق فيما نكتبه عن إمامنا الشاذلى وعن تابعيه .

ولقد اقتصرنا في أحزاب الشاذلى - معتمدين - على ما أورده ابن الصباغ في درة الأسرار ، وما أورده ابن عطاء الله في لطائف المنن . بيد أن بعض إخواننا طلب في إلحاح أن نضع ضمن الأحزاب حزب اللطف على الأقل . والواقع أن هذا الحزب الجليل يدل بأسلوبه وبروحه على أنه للإمام الجليل .

ومن أجل ذلك - ودون أن نخل بما التزمناه عمداً - فإننا نلبي في سرور رغبات الأصدقاء ، وسيجد القراء حزب اللطف باعتباره من أورد الشيخ القاضي . ونعتذر إلى الأصدقاء إذ فعلنا ذلك ، رعاية لما التزمناه .

وسيجد القراء مجموعة من نصائح الإمام الشاذلي : نوردها بعد أحزابه ، وهذه الوصايا ذكرها الكمال الدميري عند الكلام على الإنسان ، وقد نقلناها عن الكتاب المبارك : « المختصر في معاني أسماء الله الحسنى » للأستاذ محمود سامي بك ، الذي قال عنها : إنها جمعت خيري الدنيا والآخرة .

ونحن لا نعتقد أن هذه الوصايا قد ألفها الإمام الشاذلي مجموعة مرتبة على وضعها في الكتاب ، بل قد جمعها - فيما نرى - أحد أتباع الإمام من درره المتأثرة هنا وهناك ، أو جمعها الكمال الدميري نفسه ، وهي على كل حال من نفيس كلام أبي الحسن .

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سواء السبيل ، وأن ينفع بهذا الكتاب كما نفع بأبي الحسن ، وأن يهدي له ويهدي به إنه قريب مجيب . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

عبد الحلیم محمود

الفصل الأول

العارف بالله (أبو الحسن الشاذلي)

١ - حياته

يقول الشيخ أبو العباس ، رضى الله عنه : كنت مع الشيخ أبي الحسن بالقيروان ، وكان شهر رمضان ، وكانت ليلة جمعة ، وكانت ليلة سبع وعشرين . فذهب الشيخ إلى الجامع ، وذهبت معه . فلما دخل الجامع ، وأحرم ، رأيت الأولياء يتساقطون عليه ، كما يتساقط الذباب على العسل ، فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ :

ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة ، وكانت ليلة القدر ورأيت الرسول ﷺ وهو يقول : يا علىّ طهر ثيابك من الدنس ، تحظ بمدد الله في كل نفس .

قلت يا رسول الله : وما ثيابي ؟

قال : اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع : خلعة المحبة ، وخلعة المعرفة ، وخلعة التوحيد ، وخلعة الإيمان ، وخلعة الإسلام .

فمن أحب الله هان عليه كل شيء .

ومن عرف الله ، صغر لديه كل شيء .

ومن وحد الله لم يشرك به شيئاً .

ومن آمن بالله آمن من كل شيء .

ومن أسلم لله قل ما يعصيه ، وإن عصاه اعتذر إليه ، وإن اعتذر إليه قبل عذره . ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل : (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)^(١) .

ويقول ابن عطاء الله عن أبي الحسن الشاذلي :

« لم يختلف في قطبانيته ذو قلب مستنير ، ولا عارف بصير » .

جاء في هذا الطريق بالعجب العجائب ، وشرع في علم الحقيقة الأطناب ، ووسع للسالكين الرحاب ، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي الإسلام تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله يقول :

« مارأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، رضي الله عنه » . اهـ .

وإذا كان هذا هو رأي مفتي الإسلام تقي الدين القشيري ، فإن الشيخ مكين الدين الأسمر يقول :

مكثت أربعين سنة يشكل على الأمر في طريق القوم فلا أجد من يتكلم عليه ، ويزيل عني إشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شيء أشكل علي^(٢) .
ولما قدم بعض الدالين على الله إلى الإسكندرية ، والتقى به الشيخ مكين الدين الأسمر قال : « هذا الرجل يدعو الناس إلى باب الله ، وكان الشيخ أبو الحسن يدخلهم على الله » .

على أن الشهادة التي يقدرها حق قدرها أهل الباطن ، وأهل الظاهر وأهل الحقيقة ، وأهل الشريعة ، إنما هي شهادة شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ، يقول ابن عطاء الله في لطائف المنن :

« أخبرني الشيخ العارف مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قال :

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله ص ٤٨ الطبعة التونسية .

(٢) لطائف المنن لابن عطاء الله ص ٥٨ الطبعة التونسية .

حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مفتي الأنام : عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين بن تقي الدين علي بن وهب القشيري المدرس ، والشيخ محيي الدين بن سراقه ، والشيخ مجد الدين الإخميمي ، والشيخ أبو الحسن الشاذلي ، رضي الله عنهم ، ورسالة القشيري تقرأ عليهم ؛ وهم يتكلمون ، والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم ، فقالوا :

يا سيدي نريد أن نسمع منك ، فقال :

أنتم سادات الوقت وكبرائه ، وقد تكلمتم ، فقالوا : لا بد أن نسمع منك . قال : فسكت الشيخ ساعة ، ثم تكلم بالأسرار العجيبة ، والعلوم الجليلة ؛ فقام الشيخ عز الدين ، وخرج من صدر الخيمة ، وفارق موضعه ، وقال : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . اهـ :

إن كلام أبي الحسن قريب العهد من الله على حد تعبير العز بن عبد السلام ، أي أن كلامه إلهام من الله ، إنه ليس علماً مكتسباً من الكتب ، إنه ليس تقليداً ولا توليداً ، إنه ليس نتيجة دراسة وبحث - وإن كان الشيخ قد أطلال الدرس والبحث - وليس ثمرة كتب ومنطق - وإن كان الشيخ قد أطلال النظر في الكتب ، وأنعم الروية فيها ، وإنما هو إلهام وبصيرة ونور من الله سبحانه .

ومن بلوغه هذه المنزلة أو بسبب بلوغه هذه المنزلة كان يقول : من لم يزد بعلمه وعمله افتقاراً إلى ربه ، وتواضعاً لخلقه ، فهو هالك . ويقول : لا تركز إلى علم ولا مدد وكن بالله ، واحذر أن تنشر علمك ليصدقك الناس ، وانشر علمك ليصدقك الله تعالى .

* * *

ولعلنا بعد هذا نريد أن نعرف شيئاً عن هذا الذي يقول عنه العز بن عبد السلام : إن كلامه قريب العهد من الله .

إنه على عبد الله بن عبد الجبار . . وينتهى نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب .

ولد ببلاد المغرب سنة ٣٩٥ هـ ، بقرية تسمى « غمارة »^(٣) .
وأخذ يدرس بها العلوم الدينية : وسائل وغايات ، وبرع فيها براعة كبيرة .
يقول ابن عطاء الله السكندري عنه :

إنه لم يدخل طريق القوم حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة .
بيد أن هذه العلوم الظاهرة مها بلغت بها الدقة ، ومها بلغ بها العمق ،
لا تفضى بالنفوس الطموحة إلى الكف عن التطلع نحو عالم الغيب ، واستشراق
آلائه وأنواره .

كيف يصل الإنسان إلى عالم الغيب ؟ كيف ينغمس الإنسان في أضوائه ؟
كيف ينعم بجماله ، ويشعر بالروعة في محيط جلاله ؟
إن النفوس الطموحة كلما ازدادت علماً ، ازدادت شعوراً بالنقص ، والكمال
لله وحده ، ولقد أمر رسول الله ﷺ أن يقول : (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) .
وشعر أبو الحسن بالرغبة الملحة في القرب من الله ، وفي أن يستضيء قلبه بنور
المعرفة ، وفي أن يكشف الله له الحجب .

كيف يروى هذه الرغبة ؟ كيف يسير في الطريق ؟ من أين يبدأ ؟
من أين يبدأ ؟

لقد رسم الأول الطريق . إن البدء ، البدء الميسر السهل ، البدء الذي يأمن
الإنسان عواقبه ، إنما يكون طريقه خبير سبر الطرق ، ومحض السبل ، وكشف عن
المزلق والأخطار ، واستنار قلبه بالطريق القاصد إلى الله .

(٣) بلدة مغربية : قرية من مدينة سبتة .

أين يجد هذا الشيخ ؟ ما السبيل إليه ؟
 إن بغداد ، منذ عهد العباسيين ، كانت دائماً محط أنظار طلاب الدنيا ،
 وطلاب الدين .

لقد كانت تضم كبار الفقهاء وأعلام المحدثين ، والقمم العوالى من الصوفية ،
 كما تضم كبار الساسة والقادة . كان ذلك فى عهدى الزاهر ، فهل يا ترى هى كذلك
 فى القرن السابع الهجرى ؟

وإذا لم يكن لها كل البريق المادى الأول فهل بها على الأقل من الصوفية من
 يرسم الطريق عن خبرة ؟ ومن يسلك بالمريد السبل دون أخطاء ؟
 وتحمل الرغبة الملحة أبا الحسن على السفر ، إنها هجرة إلى الله ، إنها هجرة
 النفس الطلعة الشفافة .

وهى هجرة يسير بها الأمل . ويتخللها الإشفاق ، وتصاحبها فى كل الأوقات
 أسئلة لا جواب لها :

هل سيجد الشيخ ؟ وكيف يكون ؟ وهل سيتقبله الشيخ بقبول حسن ؟ وبم
 سينصحه ؟ وإذا لم يجده فى بغداد فأين يجده ؟
 وانتهى به المطاف إلى بغداد ، والتقى بالأولياء ، وكان قمتهم فى نظره هو
 أبو الفتح الواسطى ، يقول أبو الحسن :

لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبى الفتح الواسطى ، فما رأيت
 بالعراق مثله .

ولكن همة أبى الحسن كانت تسمو إلى البحث عن القطب ذاته ، إنه كان يريد
 أن يكون قائده هو القطب نفسه ، أين يجد القطب ؟

ها هو ذا بالعراق ، وها هم أولاء الصالحون ؛ وأولياء الله يتردد عليهم كل يوم .
 وها هو ذا يرى النور على وجوههم . والصالح يرتسم على سيماهم . ولكنه لم

يجد القطب وهو مطلوبه . وذات يوم ..

وذات يوم قال له أحد الأولياء :

إنك تبحث عن القطب بالعراق مع أن القطب ببلاذك ، ارجع إلى بلادك
تجده (٤) .

وعاد أبو الحسن من حيث أتى ، عاد يحدوه الأمل ، ويغمره الرجاء . لقد
صدق الولي الذي أنبأه بأن القطب في بلاده ، وبأنه سيجده عند عودته
وعاد يسرع الخطا ويستحث الوصول .

ها هو ذا بغماره من جديد يسأل عن القطب المقبل والمدبر ، والراجل والمقيم :

أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدى	فيعد عني ما أقول أكاد
أسألكم عنها فهل من مخبر	فقال بنعم مذ نأت دارها علم
فلو كنت أدرى أين خيم أهلها	وأى بلاد الله - إذ ظعنوا - أموا
أذن لسلكتنا مسلك الريح خلفها	ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم

وذات يوم .. يقول أبو الحسن :

لما قدمت عليه وهو ساكن بمغارة في رأس جبل ، اغتسلت في عين بأسفل
ذلك الجبل ، وخرجت عن علمي وعلمي ، وطلعت إليه فقيراً ، وإذا به هابط
إلى ، وعليه مرقعة ، وعلى رأسه قلنسوة من خوص ، فقال لي :
مرحباً بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار ، وذكر نسبي إلى رسول الله ﷺ . ثم
قال لي :

يا علي طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك ، فأخذت منا غني الدنيا والآخرة .

فأخذني منه الدهش ، فأقمت عنده أياماً إلى أن فتح الله على بصيرتي .
 من هو ذلك العارف بالله ؟
 من هو هذا القطب ؟ .
 لا بد من قبسات خاطفة من أنواره ، وغمسة خفيفة في لآلئه :
 إنه الولي الكبير سيدنا عبد السلام بن مشيش : يقول عنه صاحب الدرر
 البهية : « هو القطب الأكبر ، والعلم الأشهر ، والطود الأظهر العالى السنام :
 وهو البدر الطالع الواضح البرهان ، الغنى عن التعريف والبيان ، المشتهر في
 الدنيا قدره ، والذي لا يختلف في غوثيته اثنان .
 وطريقه ترياق شاف لأدواء العباد ، وذكره رحمة نازلة في كل ناد .
 سرى سره في الآفاق ، وسارت بمناقبه الركبان والرفاق .
 قضى عمره في العبادة ، وقصده للانتفاع به أهل السعادة .
 وكان رضى الله عنه في العلم في الغاية ، وفي الزهد في النهاية ، جمع الله له
 الشرفين : الطينى والدينى ، وأحرز الفضل المحقق اليقينى » اهـ .
 ولقد كان مقام ابن مشيش في المغرب كمقام الشافعى بمصر ، على حد تعبير
 ابن عياد في المفآخر العلية .
 كان ابن مشيش متمسكاً بالكتاب والسنة ، عاملاً بهما ، ملتزماً لهما وهو
 القائل : أفضل الأعمال : أربعة بعد أربعة ، المحبة لله ، والرضا بقضاء الله ،
 والزهد في الدنيا ، والتوكل على الله ، هذه أربعة .
 وأما الأربعة الأخرى : فالقيام بفرائض الله ، والاجتناب لمحارم الله ، والصبر
 عما لا يعنى ، والورع من كل شئ يلهى ^(٥) .

(٥) عن كتاب : أبو الحسن الشاذلى للأستاذ على سالم عمار .

وليتأمل القارئ في مدى انغماس سيدنا ابن مشيش في النور ، وما وصل إليه من الفضل الإلهي ، وذلك فيما يأتي من مرويات الإمام الشعراني :

يقول أبو الحسن الشاذلي : أوصاني أستاذي ، رحمه الله تعالى ، فقال :

« حدد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وفوق كل شيء ، وقريباً من كل شيء ، ومحيطاً بكل شيء .

بقرب هو وصفه ، وبإحاطة هي نعته ، وعد عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب بالمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات .

وامحق الكل بوصفه : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن . كان الله ولا شيء معه » اهـ .

أما صاحب لطائف المنن ، فإنه يروى عنه حديثاً جميلاً عن المحبة ، حديثاً يشعرك بأن المتحدث قد جال في ميدان المحبة جولة صادقة ، وسار في طرقاتها سيراً موفقاً ، ورنع في رياضها وشرب من حياضها فأطال الشرب ، يقول صاحب اللطائف :

وقال الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن ، رضي الله عنهما : « الزم الطهارة من الشرك ، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا ، وكلما ملت إلى الشهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت .

وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو ، كلما أفقت أو تيقظت شربت ، حتى يكون سكرك وصحوك به ، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشرب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله » .

ولعلی أحدث من لا يعرف المحبة ، ولا الشراب ، ولا الشرب ، ولا الكأس

ولا السكر . ولا الصحو . قال له القائل :

أجل . وكم من غريق في شيء لا يعرف بغرقه . فعرفني ونبيني عما أجهل .
أولما منَّ به عليَّ وأنا عنه غافل ؟

قلت لك : نعم . المحبة آخذة من الله تعالى . قلب من أحب بما يكشف من
نور جماله . وقدس كمال جلاله .

وشراب المحبة : مزج الأوصاف بالأوصاف . والأخلاق بالأخلاق . والأنوار
بالأنوار . والأسماء بالأسماء . والنعوت بالنعوت . والأفعال بالأفعال . ويتسع فيه
النظر لمن شاء الله عز وجل .

والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب . حتى يسكر
ويكون الشرب بالتدريب بعد التدويب والتهديب . فيسقى كل على قدره .

فمنهم : من يسقى بغير واسطة . والله سبحانه ، يتولى ذلك منه له .

ومنهم : من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين .

فمنهم : من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً ، فما ظنك بعد بالذوق .

وبعد بالشرب ، وبعد بالرى ، وبعد بالسكر بالمشروب ثم الصحو بعد ذلك على
مقادير شتى . كما أن السكر أيضاً كذلك .

والكأس مغرفة الحق . يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن
شاء من عباده المخصوصين من خلقه .

فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة . وتارة يشهدها معنوية . وتارة
يشهدها علمية .

فالصورة : حظ الأبدان والأنفس .

والمعنوية : حظ القلوب والعقول .

والعلمية : حظ الأرواح والأسرار .

فياله من شراب ! ما أعذبه ! فطوبى لمن شرب منه وداوم عليه ولم يقطع عنه .
نسأل الله من فضله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .
وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة .
وقد يسقون من كئوس كثيرة . وقد يسقى الواحد بكأس وكئوس .
وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الكئوس ، وقد يختلف الشرب من كأس
واحدة وإن شرب منه الجمل الغفير من الأحبة^(٦) .

ويروى الشيخ أبو الحسن مايلي : « دخل رجل على أستاذه فقال له :
وظف لي وظائف وأوراداً ، فغضب الشيخ منه . وقال له :
أرسول أنا ، أوجب الواجبات ؟

الفرائض معلومة ، والمعاصي مشهورة ، فكن للفرائض حافظاً ، وللمعاصي
رافضاً ، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا . وحب النساء ، وحب الجاه ، وإيثار
الشهوات ، واقنع من ذلك كله بما قسم الله لك ، إذا خرج لك مخرج الرضا فكن
لله فيه شاكراً ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عنه صابراً .
وحب الله قطب تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع لأنوار الكرامات .
ومصدر ذلك كله أربعة :

صدق الورع ، وحسن النية ، وإخلاص العمل ، ومحبة العلم .
ولا تتم لك هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح . « اهـ .
ولقد بهر ابن مشيش أبا الحسن الشاذلي . بهره بعلمه المشيد على الكتاب
والسنة ، وبهره بولايته وكراماته ، يقول أبو الحسن ، كما يروى صاحب كتاب درة
الأسرار :

(٦) لطائف المنن ص ٣٤ ، ٣٥ .

« ورأيت له خرق عادات كثيرة ، فمنها أنني كنت يوماً جالساً بين يديه ، وفي حجره ابن له صغير يلعبه ، فخطر ببالي أن أسأله عن اسم الله الأعظم ، قال : فقام إلى الولد ، ورمى بيده في طوقي ، وهزني ، وقال :

يا أبا الحسن ، أنت أردت أن تسأل الشيخ عن اسم الله الأعظم ، ليس الشأن أن تسأل عن اسم الله الأعظم ، إنما الشأن أن تكون أنت هو اسم الله الأعظم ، يعني أن سر الله مودع في قلبك .

قال فتبسم الشيخ وقال لي : « جاوبك فلان عني » اهـ .

ورسم ابن مشيش حياة أبي الحسن فيما يستقبله من أيام ، وذلك أنه حينما انتهت مدة إقامة أبي الحسن قال له :

يا على ، ارتحل إلى إفريقية ، واسكن بها بلدة تسمى شاذلة ، فإن الله عز وجل يسميك ، الشاذلى . وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس ، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة .

وبعد ذلك تنتقل إلى أرض المشرق ، وبها ترث القطابة .
إن هذا المنهج الذى رسمه ابن مشيش وهو يتنظر إلى الغيب بنور الله قد تحقق حرفياً ، وسنسير معه الآن خطوة خطوة .

ولا ننسى ، قبل أن نصاحب أبا الحسن إلى شاذلة أن نذكر أنه لما حان موعد الفراق خاطب أبو الحسن شيخه قائلاً : ياسيدى : أوصنى : فقال له : « يا على ، الله الله ، والناس الناس ، نزه لسانك عن ذكرهم وقلبك عن التمايل من قبلهم . وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض ، وقد تمت ولاية الله عندك . ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك ، وقد تم ورعك .

وقل : اللهم أرحنى من ذكرهم ، ومن العوارض من قبلهم ، ونجنى من

شرهم ، واغتنى بنخرك عن خيرهم ، وتولنى بالخصوصية من بينهم ، إنك على كل شىء قدير» .

وودع الشيخ شيخه ، وسار وقد وضع أمامه الطريق .
إن سيره الآن ليس كسيره إلى العراق ، إنه الآن يسير على هدى من أمره ، وإذا كان شيخه قد أئذره بابتلاء له في تونس فإنه بشره بالعاقبة الحميدة في أرض المشرق . أما الفترة التي يقضيها شاذلة ، فإنها ، فيما يبدو ، فترة صقل لابد منه ، إنها فترة عبادة ونسك على الخصوص ، وذلك أساس ضرورى لكل من أراد البناء الخالد .

وما من شك في أن أبا الحسن ، وقد هيا الله له سبل الهداية عابداً أو مهاجراً وسائحاً في سبيل الله ، كان منار هداية ومبعث نور أينما حل ، خصوصاً بعد أن هداه الله إلى ابن مشيش ..

ولكنه لم يكن بعد قطباً .. فالقطابة سيرتها في أرض المشرق .
ولقد كان الشيخ نفسه يشعر بحاجة إلى المجاهدة . وذلك شيمة كل مخلص ، إن المخلصين وإمامهم رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، يشعرون ، مهما بلغوا ، أنهم في حاجة إلى مزيد من فضل الله :
(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) .

وطريق زيادة العلم بالنسبة لأولياء الله ، إنما هو الجهاد في الله .
(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) .
ولله مع ذلك منح ومواهب لا تتعلق بسبب ولا تترتب على علل .
ومن أجل ذلك فإنه بمجرد أن وصل شيخنا إل شاذلة ، ورأى التفاف الناس به - ولقد كان بعضهم يترقب حضوره قبل مجيئه دون أن تكون هناك أخبار عن حضوره - وطن العزم على أن يكون في محيط شاذلة لا في المدينة نفسها .

فسافر إلى جبل زغوان وصحبه في رحلته هذه ، أبو محمد عبد الله بن سلامة الحبيبي من أهل شاذلة ، وكان رجلاً تقياً صالحاً مكاشفاً .
أما رحلة أبي الحسن إلى جبل زغوان فإن لها فائدتين :

الأولى : هي تفرغه للعبادة ، ولابد من هذا التفرغ مادام الإنسان لم يأتيه الإذن بعد بالدعوة ، لابد من التفرغ لاستكمال نقص ، أو للبعد عن الفتنة ، أو للتغلب على آثار هوى .

ولابد من هذا التفرغ استجماً روحياً ، وعلاجاً نفسياً ، وبعثاً لكوامن من الفضائل .

ولابد من هذا التفرغ ، ليرقى في مدارج السالكين ، وليحقق العروج في معارج القدس ، وليسرع الخطا متدرجاً في منازل الأرواح .
ولابد من هذا التفرغ فراراً إلى الله : (فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ) ، (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) .

أما الفائدة الثانية من الذهاب إلى جبل زغوان فإنها منع اللاهين المتطفلين من الجلوس على مائدة الشيخ الروحية ، ذلك أنه لن يذهب إلى جبل زغوان لرؤية الشيخ إلا محب للمعرفة ، جاد في طلبها .

وما كان الشيخ على الجبل محجوباً عمّن يريد لقاءه ، كلا ، ولكنه بذلك أتاح لنفسه الفرصة للتعبد وللمجاهدة .

وأخذ الشيخ يتعبد على هذا الجبل دهرأ طويلاً يصحبه طيلة هذه المدة « الشيخ الصالح أبو محمد الحبيبي ، الولي المكاشف »^(٧) وهو أول من صحب الشيخ بشاذلة ، وهو الذي روى من كرامات الشيخ في هذه الفترة الشيء الكثير .

ويقول صاحب كتاب درة الأسرار :

فما حكى عنه قال : قرأ الشيخ يوماً على جبل زغوان سورة الأنعام إلى أن بلغ إلى قوله تعالى : (وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا) .

أصابه حال عظيم . وجعل يكررها ويتحرك . فكلما مال إلى جهة مال الجبل نحوها حتى سكن الجبل .

ولقد كان أبو محمد الحبيبي يتحدث عن كرامات الشيخ في هذه الفترة : فإذا ماسكت سأله الناس واستزادوه .

وما كانت حياتهما على الجبل إلا على نباتات الأرض وأعشابها . حتى أنه لقد كانت أشداق أبي محمد الحبيبي تتفرح أحياناً فيشفق عليه أبو الحسن وينزل معه إلى شاذلة ليجد الغذاء الذي لا يضر به .

وإن حياة جهاد في الله كهذه . لا بد لها من ثمارها من الكرامات . ومن شفافية النفس . ومن القرب من الله . ومن رضوانه سبحانه .

وليس بغريب إذن أن نعرف أن الله سبحانه أنبع لها عيناً تجري بماء عذب . وإن كانت الملائكة - يراها الحبيبي - تحف بأبي الحسن بعضها يسأله فيجيبه ، وبعضها يسير معه .

وليس بغريب أن تأتي أرواح الأولياء زرافات ووحداً - يراها الحبيبي أيضاً - تحف بأبي الحسن وتترك به .

وما كان الحبيبي واهماً في ذلك . وما كان ما يراه سراباً لا حقيقة له . ولا هماً تجسد . أو خيالا تبلور . كلا . فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) .

إن الملائكة تنزل على كل إنسان في هذه الحياة الدنيا بشرطين :

١ - الإيمان . ٢ - الاستقامة ^(٨) .

ويقول الإمام الغزالي عن خبرة وتجربة عما يشاهده المريد الصادق في أول طريقه إلى الله :

« ومن أول الطريق تبدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائده » .

ثم يترقى الحال إلى ^(٩) .

وانتهت المدة التي قدر الله أن يقضيها الشيخ بشاذلة ، وما كانت هذه المدة إلا فترة استعداد وتدريب وصقل روحي ، فلما تم ذلك كان لا مناص من الانتقال من الاستعداد إلى العمل .

وأمر الشيخ بأن ينبسط في الأفق بعد أن ارتفع إلى السماء ..

وإن حياة الأولياء الكمل لتسير على هذا النسق : ارتفاع إلى الله أولاً ، ثم

هجرة إلى الله : « وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي » ، ذهاب إليه سبحانه :

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي) ، فرار إليه تعالى : (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ) .

إنها فرار إلى الله بالتعبد والنسك ، بالصلاة والصيام ، بالقراءة والتسبيح حتى

يخلو القلب عما سوى الله ، ويمتلئ بالله .

إنها فترة الغار والتحنث ، حتى إذا امتلأ القلب بالله ، وتطهرت النفس من

الرجس أجمع ، ورمت الشيطان بالجمرات ، فأصبحت خيراً بحتاً ، ونوراً يستضاء

به ، كانت المرحلة الثانية : مرحلة الرجوع إلى عبادة الله للهداية والإرشاد ، فيؤمر

(٨) درة الاسرار ص ٢٨ .

(٩) المنقلد من الضلال ص ١٢٩ الطبعة الخامسة : دار الكتب الحديثة .

الولى أن يترك الخلوة والعزلة ، وينزل إلى الميدان مؤيداً من الله ، يدعو إليه على بصيرة ، ويرشد مأذوناً مأموراً .

ويحكى أبو الحسن كيفية نزوله من جبل زغوان ومغادرة العزلة فيقول :

قيل لى : يا على : اهبط إلى الناس ينتفعوا بك .

فقلت : يارب أقلنى من الناس فلا طاقة لى بمخالطتهم .

فقيل لى : انزل فقد أصبحناك السلامة ، ودفعنا عنك الملامة .

فقلت : تكلنى إلى الناس آكل من درهماتهم .

فقيل لى : أنفق يا على ، وأنا الملى ، إن شئت من الجيب وإن شئت من

الغيب .

ونزل الشاذلى رضى الله عنه من على الجبل ليغادر شاذلة ، ويستقبل مرحلة

جديدة ، فقد انتهت المرحلة الأولى التى رسمها له شيخه .

وقبل أن يغادر معه شاذلة إلى رحلته الجديدة نذكر ما حكاه رضى الله عنه فيما

يتعلق بنسبته إلى شاذلة ، قال :

قلت : يارب لم سميتنى بالشاذلى ، ولست بشاذلى .

فقيل لى : يا على ، ما سميتك بالشاذلى وإنما أنت الشاذلى ، بتشديد الدال

المعجمة . يعنى : المفرد لخدمتى ومحبتى .

* * *

سافر الشيخ من شاذلة إلى تونس موطناً النفس على تحمل الابتلاء الذى

سيصادفه فى تونس ، والذى أخبره به شيخه بقوله :

« ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة » .

وما كان الشيخ يجهل مدينة تونس ، فقد ذهب إليها من قبل ، ومكث فيها ،

وهاله ما كان بها من فقر ومسغبة ، وحاول ما استطاع أن يخفف من لوعات الجوع

لدى الجياح . وتقول الروايات : إنه قابل بها الخضر عليه السلام . وأن الخضر أنقذه فيها من مأزق كان فيه بسبب أريحيته وكرمه .

لقد ذهب إلى تونس من قبل غير موجه . ذهب كما يذهب الناس ، ولكنه الآن ذاهب بالأمر ، ثم هو ذاهب الآن للدعوة ، وقد أذن بها ، فقد سمع النداء : « يا على اهبط إلى الناس ينتفعوا بك » .

ومن المعلوم - في الأعراف الدينية - أن الدعاة على قسمين :

١ - دعاة إلى الله قد أذن الله لهم في نطاق الإذن العام ، أو الواجب العام ، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهؤلاء يتفاوت تأثيرهم بتفاوتهم في صفاء النفس ، وفي طلاقة اللسان ، وفي العلم بالكتاب الكريم والسنة الشريفة ، وبعضهم لا تأثير له قط ، لأنه لم تصف نفسه ، أو لأن به لكنة ، أو لجهله الكتاب والسنة ، أو لغير ذلك من الأسباب .

٢ - والقسم الثاني : من الدعاة هم الذين يدعون على بصيرة ، وهم الذين قد أذنوا بإذن خاص ، وأمروا بأمر خاص : إنهم هؤلاء الذين سمعوا النداء ، وهم لم يسمعوا النداء مصادفة واتفاقاً ، كلا ، إنهم جاهدوا أنفسهم حتى أطاعت ، وغذوا قلوبهم بالطاعات حتى استنارت ، وأصبح سرهم مع الله فأضحوا من أوليائه . وهم ينتظرون الإذن في كل شيء من الأمور ، حتى المباح منها فضلاً عن الإذن الخاص بالدعوة .

يقول أبو الحسن مفسراً معنى الإذن في المباح ومعنى الإذن في حق الولي : نور ينبسط على القلب يخلقه الله فيه وعليه ، فيمتد ذلك النور على الشيء الذي يريد فيدركه نور مع نور ، أو ظلمة تحت نور .

فذلك النور ينبئك أن تأخذ إن شئت ، أو تترك أو تقبل أو تدبر ، أو تعطى أو تمنع ، أو تقوم أو تجلس ، أو تسافر أو تقيم .

هذا باب المباح المأذون فيه بالتخير .

فإذا قارنه القول تأكد الفعل المباح بمراد الله تعالى .

فإن قارنته نية صحيحة لفعل ، برز عن حكم المباح وعاد مندوباً .

وإن ظهرت الظلمة تحت النور الممتد من القلب ، فلا يخلو أن يلوح عليها لائح

القبض بانقباض القلب فاحذر ذلك وتجنبه ، فإنه المحذور أو يكاد .

ولا تقطع ذلك إلا بينة من كتاب الله عز وجل أو سنة أو إجماع ..

فإن تلك الظلمة شبه غيم لا ينصدع معه القلب ، ولا يتفرغ به الذهن فتباعد

عنه فإنه يكاد يكون مكروهاً .

ولا تحكم بعقلك ورأيك فقد ضل من هنا خلق كثير . اهـ .

وأصحاب هذا النور ، يدعون إلى الله بكيانهم كله .

إن صمتهم دعوة إلى الله ، وإن سيرهم دعوة إلى الله ، وإن جلوسهم دعوة إلى

الله ، وإن عملهم دعوة إلى الله ، وإن حديثهم دعوة إلى الله .

ويستجيب لهم الناس سراعاً بمقدار ما في قلوبهم من خير ، وما في أفئدتهم من

إيمان ، وينأى عنهم من ليس له في الخير نصيب ، ويحاربهم من حقت عليه كلمة

العذاب .

لقد أمر أبو الحسن بالدعوة ، وبمجرد أن دخل تونس التف حوله مباشرة

جماعة من الفضلاء ، منهم الشيخ أبو الحسن علي بن مخلوف الصقلي ، وأبو عبد الله

الصابوني ، وأبو محمد عبد العزيز الزيتوني ، وأبو عبد الله البجالي الخياط ،

وأبو عبد الله الجارحي .

كلهم أصحاب كرامات ، على حد تعبير صاحب درة الأسرار . وكان من بينهم

الشيخ الصالح أبو العزائم ماضي تلميذ الشيخ وخادمه .

ثم كثر المريدون ، وأخذوا يزددون يوماً عن يوم « إلى أن اجتمع عليه خلق كثير » ثم ...

ثم بدأت الغيرة تدب في قلب ابن البراء ، قاضى القضاة . وكلما ازداد إقبال الناس على أبي الحسن اشتدت الغيرة في قلب هذا الرجل إلى أن أصبحت تنهشه نهشاً ، فضعف أمامها ، وأعلن الحرب على أبي الحسن .

كان ابن البراء فقيهاً وكان إذ ذاك « قاضى الجماعة » كان يعد نفسه الزعيم غير منازع . وكان منصبه الرسمى يعلن أنه الزعيم الدينى الأكبر ، وكان ينعم بهذه الزعامة التى أتته عن طريق الدين ، والتى كانت فى حقيقة الأمر زعامة أشبه بالدنيوية منها بالدينية . وكان ابن البراء يتخيل أو يتوهم أن له شعبية مع ماله من منصب رسمى ، فلما رأى التفاف الناس بأبي الحسن صوّر له خياله أن الشاذلى انتزع منه الزعامة الشعبية . ولما كان الشاذلى من العلماء فى الفقه والتفسير والحديث ، ولما كان يفتى ويشرح ويفسر فقد خيل إلى ابن البراء أن ليس هناك ما يمنع من ناحية الشخصية أو من ناحية العلم من أن يتولى أبو الحسن منصب « قاضى الجماعة » وما المانع ؟ وما الذى يحول دون ذلك ؟

وأخذ الوسواس مأخذه ، وسولت النفس الأمانة بالسوء ماسولت ، فأعلن ابن البراء الحرب على أبي الحسن .

ولم تتخذ الحرب سبيلاً شريفاً ، فإن ابن البراء حينما رأى أنه لا يمكنه القضاء على أبي الحسن علمياً أخذ يدس له عند السلطان ، لقد صوّر للسلطان أنه فى طريقه إلى أن يصبح زعيماً شعبياً خطيراً ، والأمر ليس إلا أمر زمن فكلما مر الزمن ازداد تمكناً وشعبية !

« إنه يدعى الشرف ، وقد اجتمع عليه خلق كثير ، ويدعى أنه الفاطمى ، ويشوش عليك بلادك » . ومعنى هذا أن الملك فى خطر .

وهذه الفكرة : « الملك في خطر » تفعل فعل السحر في نفوس الملوك . إنها تقيمهم وتقعدهم وتجعلهم لا يتورعون عن أى عمل .
بيد أن أبا زكرياء ، وهو السلطان إذ ذاك ، لم يرد أن يتعجل ، وأراد أن يرى قبل أن يحكم وينفذ .

يقول صاحب درة الأسرار : وكان إذ ذاك السلطان أبو زكرياء رحمه الله . فجمع ابن البراء جماعة من الفقهاء في القصبة ، وجلس السلطان خلف حجاب ، وحضر الشيخ رضى الله عنه .

وسألوه عن نسبه مراراً ، والشيخ يجيبهم عنه ، والسلطان يسمع ، وتحدثوا معه في كل العلوم ، فأفاض عليهم بعلوم أسكتهم بها من العلوم الموهوبة ، وما استطاعوا أن يجابوه عليها ، والشيخ يتكلم معهم في العلوم المكتسبة ، ويشاركهم فيها .

لقد سمع السلطان الشيخ يتكلم ، لقد سمع هذا النوع من الحديث الذى يقول فيه - فيما بعد - إمام المسلمين في مصر العز بن عبد السلام ناصحاً المستمعين والمريدين : « اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله » .

لقد سمع السلطان هذا الكلام القريب العهد من الله : فأعجبه وراعه ، ورأى السلطان شيخاً مهيباً ، وإن كان مازال في سن الفتوة ، ورأى السلطان نضجاً في العلم ، ونضجاً في التفكير ، وروحانية في الحديث ، وشفافية في البصيرة .. فقال لابن البراء : هذا الرجل من أكابر الأولياء ، ومالك به طاقة .

ولوح ابن البراء مرة أخرى بالملك ، وأنه في خطر ، وأنه يعاديه لحبه للملك وإخلاصه له ولحرصه على بقاء العرش ، وقال للسلطان :

والله لئن خرج الشيخ في هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ، ويخرجونك من بين أظهرهم ، فإنهم مجتمعون على بابك .

وأثر تلويح ابن البراء ، أو تصريحه ، تأثيره في نفس السلطان ، فأذن للفقهاء بالخروج ، وأمر الشيخ بالجلوس والبقاء .
 وجلس الشيخ هادئاً ، ساكن النفس ، مطمئن القلب ، وطلب ماء وسجادة فتوضأ وأخذ في الصلاة . وهم أن يدعو على السلطان فنودي في سره :
 إن الله لا يرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق .
 وبذل الدعاء ألهمه الله أن يقول :

« يا من وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يثوده حفظها وهو العلي العظيم ، أسألك الإيمان بحفظك إيماناً يسكن به قلبي من هم الرزق ، وخوف الخلق ، واقرب مني بقدرتك قرباً تحقق به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك فلم يحتاج لجبريل رسولك . ولا لسؤاله منك وحجبه بذلك من نار عدوك ، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحياء . كلا ، إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحس بقرب شيء ولا يبعده عني ، إنك على كل شيء قدير... » اهـ .

هذه الكلمات الإلهامية دخلت ، فيما بعد ، في بعض أحزابه .
 ها هو ذا الشيخ يصلي ويدعو ، ويلجأ إلى مولاه طالباً الرضا والقرب وأن يغيبه بالقرب في القرب .. وبينما هو مستغرق في دعائه وتبتله إذا بالمقادير ترتب الأمر على وضع غير متوقع .

هل في العالم مصادفات ؟ أيحدث في الكون أمر من الأمور اتفاقاً واعتباطاً ؟
 لقد كان عند السلطان في ذاك الحين جارية عزيزة عليه ، أحبها فلكت عليه جميع أقطاره ، وفي لحظات مرت سراعاً أصابها وجع ، فتألمت ، واستغاثت ولم تمهلها الأقدار ، فماتت من حينها . وما من شك في أن أجلها كان قد انتهى ، وأن هذه اللحظة كانت مقدرة في علم الله من الأزل ؛ نعم لا ريب في ذلك ، ولكنه

لا ريب أيضاً في أن المقادير رتبت هذا ساعة أن منع الشيخ من الخروج ، فجاء موتها وكأنه عقاب للسلطان على منعه الشيخ من الخروج .
أهي كرامة ؟ وماذا تكون الكرامة غير ترتيب مقادير ، أو تصرف مقادير ، أو تدبير مقادير ؟

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) . أترى للمصادفة دخل مع هذه الآية العامة ؟
لقد جاء أجل الجارية ، فماتت من حينها ، فأصيب من أجلها ، ففسلت في بيت سكناه ، واشتغلوا بغسلها وتكفينها ، وأخرجوها للصلاة ..
وأغفلوا مجمرأ في البيت (١٠) .

لقد كان تدبيراً منذ الأزل أيضاً ، حدث في اللحظة التي قدرتها العناية الإلهية .
وكانت هذه اللحظة هي التي يجلس فيها الشيخ مصلياً متبتلاً وكأنه - بحسب الظاهر - في سجن وإن كان في قصر الملك .

يقول صاحب درة الأسرار : « وأغفلوا مجمرأ في البيت : فالتهمت النار ، فلم يشعروا حتى احترق كل ما في البيت من الفرش والثياب وغير ذلك من الذخائر .
فعلم السلطان أنه أصيب من قبل هذا الولي » (١١) ا هـ .

وكان للسلطان أخ عاقل صالح متدين يحب أولياء الله ويسعى إليهم ، وكان يحب الشيخ ، ويتبرك به ، ويزوره مسترشداً ، ومستنصحاً ، وكان في هذا اليوم في خارج المدينة ، يتفقد بساتينه ، ويتنزه فيها ، فبلغه خبر ما جرى في قصر السلطان من مناقشات ومن حوادث فحضر مسرعاً والتقى بأخيه وقال له :

« ما هذا الأمر الذي أوقعك فيه ابن البراء ، أوقعك والله في الهلاك أنت وكل

من معك » .

(١٠) درة الأسرار ص ٣٠ .

(١١) درة الأسرار ص ٣٠ .

ثم دخل على الشيخ وأخذ يعتذر إليه ويترضاه ، فأعلن الشيخ موقفه من مثل هذه الأمور ، وبين لأخى السلطان أن الكون وما فيه ومن فيه في قبضة الله الكبير المتعال وقال له : « والله ما يملك أخوك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فكيف يملكها للغير ، كان ذلك في الكتاب مسطورا » .

وخرج الشيخ إلى داره في اليوم نفسه ، واستمر كعادته في الإرشاد والنصح والتدريس . ولكن ابن البراء لم يكف عن الإيذاء فكان الشيخ يقابله دائما بما جبهه الله عليه من التسامح ، وكان يلقي عليه السلام إذا صادفه في مكان ما ، فلا يرد ابن البراء عليه السلام .

وعزم الشيخ على الحج فأمر أصحابه بالنقلة إلى المشرق قبل موعد الحج بزمن طويل وذلك ليملك بمصر فترة من الزمن قبل الذهاب إلى الديار المقدسة . وبدأ الركب يتحرك . ونهضت تونس مودعة ، وكانت حركة ، وكان ضجيج . وعلمت تونس كلها أن أبا الحسن راحل . وعلم السلطان فيمن علم . وظن أن أبا الحسن يريد الخروج نهائيا من تونس فوقع الرعب في قلبه وأسرع بتوجيه وفد يرجوه في العودة ، فقال الشيخ : « ماخرجت إلا بنية الحج إن شاء الله تعالى ، ولكن إذا قضى الله حاجتي أعود إن شاء الله » .

يقول صاحب درة الأسرار :

« فلما توجهنا إلى المشرق . ودخلنا الإسكندرية ، عمل ابن البراء عقداً بالشهادة أن هذا الواصل إليكم شوش علينا بلادنا وكذلك يفعل في بلادكم » . فأمر السلطان أن يعتقل بالإسكندرية . فأقمنا بها أياماً .

وكان السلطان رمى رمية على أشياخ في البلاد يقال لهم : القبائل ، فلما سمعوا بالشيخ أتوا إليه يطلبونه في الدعاء فقال لهم :

غداً إن شاء الله نسافر إلى القاهرة ونتحدث مع السلطان فيكم .

قال : فسافرنا ، وخرجنا من باب السدرة والجنادة فيه والوالى . ولا يدخل أحد ولا يخرج حتى يُفتش . فما كَلَّمْنَا أحد ولا علم بنا .
فلما وصلنا إلى القاهرة أتينا القلعة فاستأذن على السلطان . قال كيف وقد أمرنا أن يعتقل بالإسكندرية .

فأدخل على السلطان والقضاة والأمراء . فجلس معهم ونحن ننظر إليه قال له الملك : ما تقول أيها الشيخ :

فقال له : جئت أشفع إليك فى القبائل .

فقال له : اشفع فى نفسك . هذا عقد بالشهادة فيك . وجهه ابن البراء من تونس بعلامته فيه . ثم ناوله إياه .

فقال له الشيخ : أنا وأنت والقبائل فى قبضة الله .

وقام الشيخ !

فلما مشى قدر العشرين خطوة حركوا السلطان فلم يتحرك ولم ينطق . فبادروا إلى الشيخ وجعلوا يقبلون يديه ويرغبونه فى الرجوع إليه . قال : فرجع إليه . وحركه بيده . فتحرك . ونزل عن سريره . وجعل يستحله ويرغب منه فى الدعاء . ثم كتب إلى الوالى بالإسكندرية أن يرفع الطلب عن القبائل ويرد جميع ما أخذه منهم . وأقمنا عنده فى القلعة أياماً .

واهتزت بنا الديار المصرية . إلى أن طلعتنا إلى الحج .

ورجعنا إلى مدينة تونس « (١٢) » .

رجع الشيخ إلى مدينة تونس واستمر بها هادياً . مرشداً . داعياً إلى الله ورسوله . ولكن ثورة ابن البراء لم تهدأ بل على العكس . زادت بنسبة زيادة أنوار

الشيخ وزيادة أتباعه . وفي هذه الأثناء قدم إلى تونس الشيخ الولي أبو العباس المرسى فلما اجتمع الشيخ به ورآه . قال :

« ما ردني لتونس إلا هذا الشاب » هذا الشاب الذي لازمه فلم يفارقه منذ لقائه به إلى أن انتهت بالشيخ الحياة فكان الخليفة بعده ، واستمر الشيخ بتونس لا يبالي بمكائد ابن البراء ، وكان يعلم أن مقامه بتونس مؤقت بناء على ما ذكره له شيخه كما سبق . ولكنه كان مقيماً ينتظر الإذن بالسفر ، وما كان له ، وقد حضر إلى تونس من الحج ، واستقر به المقام بها ، أن يسافر إلا بإذن .

وأقى له الإذن ، يقول رضى الله عنه : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لى :

« يا على انتقل إلى الديار المصرية ترى فيها أربعين صديقاً » .

وبرغم أنه كان فى زمن الصيف وشدة الحر فإنه أمر أصحابه بالاستعداد للسفر ، فلما تم ذلك فى سرعة سريعة ، سافر الشيخ إلى الديار المصرية .

* * *

وصل الشيخ إلى الإسكندرية ، يقول صاحب درة الأسرار :

« وكان مسكنه رضى الله عنه بالإسكندرية ببرج من أبراج السور ، حبسه السلطان عليه وعلى ذريته ، دخلته عام خمسة عشر وسبعمائة ، فى أسفله ماجل كبير ومرابط للبهائم ، وفى الوسط منه مساكن للفقراء وجامع كبير وفى أعلاه أعلية لسكناء ولعياله ، وتزوج هنالك وولد له أولاد .

منهم الشيخ شهاب الدين أحمد ، وأبو الحسن على ، وأبو عبد الله محمد شرف الدين أدركته بدمهور قاطناً بها . ومن البنات زينب ولها أولاد رأيت بعضهم ، وعريفة الخير أدركتها بالإسكندرية وما عرفت غير هؤلاء » اهـ .

أما نوع معيشتة فى الديار المصرية فإنه يصفها فى إحدى رسائله إلى بعض أصدقائه بتونس ، وهى رسالة طويلة يقول فيها رضوان الله عليه :

« الكتاب إليكم من الثغر^(١٣) ، حرسه الله ، ونحن في سوابغ نعم الله نتقلب ، وهو بفضله وبوده إلينا يتحجب ، قد ألقى علينا وعلى أحبائنا كنفه ، وجعلنا عنده . فما أطفه ! ندعوه فليينا ، وبالعطاء قبل السؤال ينادينا ، فله الحمد كثيراً كما ينبغي لوجهه الكريم ، وجلاله العظيم .

وأما الأهل والأولاد والأصهار والأحباب ففي سوابغ نعم الله يتقلبون . وبإحسانه ظاهراً وباطناً مغمورون ، نسأل الله المزيد التام العام لكم ولهم أجمعين ، وأن ينوب عنا في شكره ، إنه أكرم الأكرمين^(١٤) اهـ .

ولقد كانت إقامته بمصر مصداقاً لما نودي به حينما دخلها ، يقول رضى الله عنه : « لما قدمت الديار المصرية قيل لى :

يا على ، ذهبت أيام الحن ، وأقبلت أيام المن ، عشر بعشر ، اقتداء بجدك ﷺ » اهـ .

ولقد كانت مصر حينئذ تعتر بمجموعة من أكرم العلماء وأفضلهم علماً وخلقاً وصلاحاً ، مجموعة وهبت نفسها لله وأسلمت قيادها له ، فأحاطها الله بعنايته ، وتكفلها برعايته ، ووضع حبها في قلوب الناس ، ووضع مهابتها في أفئدتهم ، فكانت محبوبة مهيبة .

ولقد استقبلت هذه المجموعة أبا الحسن أجمل استقبال وأحسنه ، ورأفته متلمذة ومتأخية : يقول صاحب المفاخر العلية نقلاً عن ابن مغيزل :

« إن الشيخ رضى الله عنه ، لما قدم من المغرب الأقصى إلى مصر صار يدعو الخلق إلى الله تعالى ، فتصاغر وخضع لدعوته أهل المشرق والمغرب قاطبة ، وكان يحضر مجلسه أكابر العلماء من أهل عصره مثل سيدى الشيخ عز الدين

(١٣) يعنى : الإسكندرية .

(١٤) درة الأسرار .

ابن عبد السلام ، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، والشيخ عبد العظيم المنذرى ، وابن الصلاح ، وابن الحاجب ، والشيخ جمال الدين عصفور ، والشيخ نبيه الدين بن عوف ، وهؤلاء سلاطين علماء الدين شرقاً وغرباً في عصرهم ، وأيضاً الشيخ محيي الدين بن سراقه ، والعلم ياسين تلميذ ابن العربي رضى الله عنهم ، فكانوا يحضرون ميعاده بالمدرسة الكاملية بالقاهرة ، لازمين الأدب ، مصيخين له ، متلمذين بين يديه ، وأن الشيخ الإمام قاضى القضاء بدر الدين بن جماعة الولى ابن الولى رحمهم الله كان يرى أنه فى بركة الشيخ أبى الحسن فى مصر وكان يفتخر بصحبته ، وبحضور جنازته والصلاة عليه بحميدة» (١٥)

ويأتى الشيخ من الحج فيقابلهُ أمير العلماء العز بن عبد السلام فى موضع يقال له : البركة يبعد عن القاهرة بستة أميال .
لقد كانت إقامته بمصر فترة استقرار ماضى ومعنوى ، وكانت فترة خصبة من حيث الدعوة ، ومن حيث تربية الرجال .

* * *

استمر الشيخ يدعو إلى الله بمصر إلى أن كان شهر شوال سنة ٦٥٦ هـ . وفى هذا الشهر أخذ الشيخ فى السفر إلى الأراضى المقدسة للحج فلما كان فى حميدة بصحراء عيذاب ، وهى بين قنا والقصر ، جمع الشيخ أصحابه فى إحدى الأمسيات ، وأوصاهم بأشياء ، وأوصاهم بحزب البحر ، وقال لهم :
« حفظوه لأولادكم فإن فيه اسم الله الأعظم » .
ثم خلا بأبى العباس المرسى ، رضى الله عنهما ، وحده ، وأوصاه بأشياء .
« واختصه بما خصه الله به من البركات » .

ثم وجه الحديث لأصحابه قائلاً :

« إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسى ، فإنه الخليفة من بعدى ، وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من أبواب الله سبحانه وتعالى » .
وبات تلك الليلة متوجهاً إلى الله تعالى ذاكراً يسمعه أصحابه وهو يقول :
« إلهى ، إلهى » .

فلما كان السحر سكن ، فظننا أنه نام ، فحركناه فوجدناه ميتاً^(١٦) .
وجاء الشيخ أبو العباس فغسله ، وصلى الجميع عليه ، ودفن حيث توفاه الله .
وقد كان للشيخ أولاد ذكور فلم يفكر في أن يستخلف أحدهم وإنما استخلف من رآه أحق بالخلافة ، ونرجو أن يعتبر به رجال الطرق في العصر الراهن فلا يجعلوا الطريقة مورد رزق تورث كما يورث العقار ، ورحم الله أبا الحسن وطيب الله ثراه ونفعنا ببركاته إنه نعم المجيب .

٢ - شخصيته

هو أبو الحسن على الشاذلى الحسنى بن عبد الله ، بن عبد الجبار ، بن تميم ، ابن هرمز ، بن حاتم بن قصي ، بن يوسف ، بن يوشع ، بن ورد ، بن بطلال على ، بن أحمد ، بن محمد ، بن عيسى بن محمد بن سيد شباب أهل الجنة وسبط خير البرية أبي محمد الحسن ، بن أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن فاطمة الزهراء ، بنت رسول الله ﷺ^(١٧) .

(١٦) درة الأسرار .

(١٧) عن لطائف المنن : لابن عطاء الله السكندرى .

يقول أبو العزائم ماضى يصف الشيخ ، رضى الله عنه :
 « كانت صفته رضى الله عنه ، آدم اللون ، نحيف الجسم ، طويل القامة ،
 خفيف العارضين ، طويل أصابع اليدين كأنه حجازى . وكان فصيح اللسان ،
 عذب الكلام » .

وكان رضى الله عنه ، يأخذ زيتته عند كل مسجد . وإذا كان رسول الله ﷺ
 يقول : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .
 أى أن الأرض - أينما كان الإنسان عليها - كلها مسجد ، فإن أبا الحسن كان
 يتحلى دائماً بالثياب الحسنة !

دخل عليه مرة فقير وعليه لباس من شعر ، فلما فرغ الشيخ من كلامه ، دنا من
 الشيخ ، وأمسك بملبسه وقال :

يا سيدى : ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك .
 فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال :
 ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك ، لباسى يقول : أنا غنى عنكم
 فلا تعطونى ، ولباسك يقول : أنا فقير إليكم فأعطونى^(١٨) .

ويعقب ابن عطاء الله السكندرى على هذه القصة فيقول :
 وهكذا طريق الشيخ أبى العباس ، وشيخه أبى الحسن ، رضى الله عنهما .
 وطريقه أصحابهما : الإعراض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالإفشاء
 ويفصح عن طريقه بالإبداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

ثم يبين ابن عطاء الله : أنه لا ينتقد زى الفقراء . وأنه لا حرج على اللابس
 هذا الزى ، ولا على غير اللابس ، ما دام من المحسنين : (مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ
 سَبِيلٍ » .

وفي يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسى على الشيخ أبي الحسن ، وفي نفسه أن يأكل الخشن . وأن يلبس الخشن . فقال له الشيخ :
يا أبا العباس : اعرف الله وكن كيف شئت .

ومن عرف الله ، فلا عليه أيضاً إن أكل هنيئاً وشرب مريئاً .
وما كان أبو الحسن يتعمد قط أن يأكل الغليظ من الطعام ، أو يقتصر على غير الزلال البارد من الشراب ، إنه يقول : « يابني برّد الماء ، فإنك إذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله ، تقولها بكرازة : وإذا شربت الماء البارد ، فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله » .

والأصل في هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام :
(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرِ فَقِيرٍ) (١٩) .

ألا ترى كيف تولى إلى الظل قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة ؟
وعن ذلك ، وبياناً لنهج الطريقة الشاذلية ، الذي رسمه أبو الحسن ، يقول ابن عطاء الله :

« وأما لبس اللباس اللين ، وأكل الطعام الشهى ، وشرب الماء البارد : فليس القصد إليه بالذى يوجب العتب من الله ، إذا كان معه الشكر لله » اهـ .
وهذا كله طبعاً يتمشى مع قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

ويقول الأستاذ علي سالم عمار : « كان الشاذلي يلبس الفاخر من الثياب ،

ويركب الفاره من الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد « اهـ .
ومهما يكن من شيء ، فإن أبا الحسن كان ينصح دائماً بالاعتدال ، ويعلم
للمريدين قائلاً : « لا تسرف بترك الدنيا ، فتغشاك ظلمتها . أو تنحل أعضاؤك لها ،
فترجع لمعانقتها ، بعد الخروج منها ، بالهمة أو بالفكرة أو بالإرادة أو بالحركة » اهـ .
والقاعدة العامة على كل حال : « اعرف الله وكن كيف شئت » ، وذلك لأن
من عرف الله تعلق قلبه به وامتلأ بحبه فلا يتأذى منه إلا الفضيلة .
أما في أيام المواسم الروحية الكبرى ، وفي أيام الحفلات الدينية العظيمة ، فقد
كان يحاول ما أمكن أن يلفت أنظار الناس إليها حتى تستمر هذه المواسم حية في
نفوسهم يحيونها بالذكر والعبادة ، ويحتفلون بها متصدقين بجميع أنواع الصدقات .
فكان إذا ركب في هذه المواسم تمشي أكابر الفقراء ، وأكابر الدنيا حوله ،
وتنشر الأعلام على رأسه وتضرب الكاسات بين يديه (٢٠) .
وما كان الشاذلي من الذين يسعون وراء الشهرة الزائفة أو غير الزائفة ، ولكن
الناس لا بد لهم دائماً من هزة قوية تلفت أنظارهم وأرواحهم إلى المواسم الدينية
وتذكركم بها . من كل ذلك نرى أبا الحسن في الجانب المادى البشرى غير متمزمت
وهو الذى يقول : « ليس هذا الطريق بالرهبانية ، ولا بأكل الشعر والنخالة ،
ولا ببيعة الصناعة وإنما هو بالصبر على الأوامر ، واليقين فى الهداية كما قال تعالى :
(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .
لقد كان أبو الحسن الشاذلي جميل المظهر ، عذب الحديث ، فصيح اللسان ،
غير متمزمت فى المأكل والمشرب ، يحب الخيل ، ويقتنيها ، ويركبها فارساً ، ويركبها
فى المواسم الدينية .

هذا هو أبو الحسن في صورته البشرية الشكلية . ولو كان أبو الحسن هو هذا
فحسب لما ذكرته الدنيا . ولما خلد على التاريخ .
ونتحدث الآن عن أبي الحسن العالم وعن أبي الحسن الصوفي :
يقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى :

« بلغنا أن الشيخ الكامل أبا الحسن الشاذلى لما فنى اختياره مع الله مكث ستة
أشهر لا يتحرى أن يسأل الله شيئاً فى حصول شىء .
ثم نودى فى سره : اسألنا عبودية لاترجيح فيها للعطاء عن المنع .
قال : فسألت الله ورجوته امثالاً لا تحجيراً عليه . فإنه يخلق ما يشاء ويختار .
وليس معه اختيار » اهـ .

لقد فنى اختيار أبى الحسن مع الله . وهذه المرتبة لا يتأتى للإنسان أن يناها فى
ابتداء حياته السائرة إلى الله . لابد أن يسبقها جهاد شاق . كيف وصل أبو الحسن
إلى أن يسترسل مع الله على ما يريد فتفى إرادته فى إرادته واختياره . وأن يكون
بالله إيراداً وإصداراً ؟

لقد كان الجانب العلمى من العناصر الأولى التى حددت شخصية الشاذلى ،
لقد بدأ الدراسة والتحصيل صغيراً ، فتثقف كأحسن ما يكون المثقف ، لقد تثقف
عن الطريق العادى فحفظ القرآن ، ودرس السنة ، ودرس العلوم الدينية . وسائل
وغايات « ولم يدخل فى علوم القوم حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة » .
وكان « ذا علوم جمّة » وهو صاحب « العلوم الغزيرة »^(٢١) .

ولقد تدرج فى هذه العلوم سلماً فسلماً ، ثم أخذ يختار الكتب التى يدرسها
ويشرحها وينصح بقراءتها ، ويحبب فى أصحابها ، وكان منها :

(٢١) لطائف المنن ص ٤٤ .

١ - كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى ، وهو كتاب أقام الجو الثقافى وأقعه حين صدوره ، وكان سبباً فى صعوبات كثيرة اعترضت المؤلف بسبب الآراء التى احتوى عليها . وهو كتاب أثار اهتمام الإمام الأكبر محيى الدين بن عربى إثارة كبيرة ، فأفرد له كتاباً خاصاً ، ثم أفرد له صفحات وصفحات من كتاب الفتوحات ، وحاول أن يجيب عما ورد فيه من أسئلة ، ووضع نفسه بهذا موضع الاختبار وهو من هو فلسفة وحكمة وعلماً وتصوفاً .

ووضع نفسه أيضاً بهذا موضع التحدى وكأنه يقول : هأنذا أجيب عن الأسئلة متحدياً فيما يتعلق بصحة الإجابة .

لقد كان الشاذلى يلقى دروساً فى شرح هذا الكتاب ، ولقد بلغ من روعة هذه الدروس أن كان أبو العباس المرسى يحرص كل الحرص على حضورها لما كان لها فى نظره من الأهمية ، وحينما يكون على سفر فى شأن من شئون الدعوة فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها .

ولقد كان كتاب ختم الأولياء مفقوداً على عهد قريب ، ثم عثر الأستاذ عثمان يحيى عليه فطبعه فى بيروت طبعة محققة مع دراسة عن الترمذى .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه عن أبي العباس المرسى : « وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الربانى محمد بن على الترمذى ، وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة . وكان يقولان إنه أحد الأوتاد الأربعة » اهـ .

وقبل أن نتحدث عن كتاب آخر نذكر هنا ما رواه ابن عطاء الله السكندرى قال : « أخبرنى بعض أصحابنا قال : قال الشيخ ، قيل لى :

ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام . ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ

زكى الدين عبد العظيم . ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك » .

٢ - وكتاب "المواقف والمحاطبات" من تأليف الشيخ محمد بن عبد الجبار النفري وهو كتاب ليس بالسهل ، لأنه يعبر عن حالات روحية عالية لا يتأتى لغير أصحاب الأذواق العالية فهم الكثير منها ، وهو كتاب للخاصة . وأراد أبو الحسن أن ييسره لكل من عنده استعداد . وأن يفتح مغاليقه لكل من يستشرف عالم الحكمة .

يقول ابن عطاء الله عن الشيخ أبى الحسن :
« كان يوماً فى القاهرة فى دار الزكى السراج . وكتاب المواقف للنفرى يقرأ عليه . فقال : أين أبو العباس ؟ .. فلما حضر ، قال الشيخ : تكلم يا بنى . تكلم بارك الله فىك ، تكلم ولن تسكت بعدها أبداً » .
قال أبو العباس : فأعطيت لسان الشيخ من ذلك الوقت » اهـ .

ولقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة .

٣ - كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى .

٤ - كتاب الإحياء للإمام الغزالى .

وهذان الكتابان من واد واحد ، ولقد تأثر الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء بأبى طالب المكى . وذكر أنه قرأ كتاب قوت القلوب كوسيلة من الوسائل التى تعرفه بالتصوف ، وذلك قبل أن يأخذ فى الجانب العملى والرياضة الصوفية .

لقد نصح الإمام الشاذلى بقراءتهما : فقال عن قوت القلوب : عليكم بالقوت فإنه قوت . وقال عن الكتابين : كتاب الإحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور .

ولقد كان الشيخ أبو الحسن يقول : إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد .

٥ - ومن قبيل الكتابين السابقين كان الإمام الشاذلي يقرأ أيضاً الرسالة القشيرية ويشرحها ، وقد سبق شيء من الحديث في ذلك وسيأتى أيضاً حديث عنه .

٦ - وكتاب الشفاء للقاضي عياض من الكتب المباركة التي نالت تقديراً كبيراً في أوساط كثيرة ، وكان يقرؤه أبو الحسن وينصح بقراءته .

٧ - وكتاب أبي الحسن المفضل في التفسير هو كتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية وهو كتاب يشرحه عنوانه ، فهو محرر ، كلماته متقاة متخيرة ، محررة وعباراته دقيقة . وهو وجيز وإن لم يكن في إيجاز تفسير الجلالين أو البضاوي ، وقد بدأ طبعه الآن في المغرب ، فطبع منه الجزءان : الأول والثاني .

هذه هي الكتب التي ورد ذكرها فيما كتب عن أبي الحسن في المصادر القديمة ، وهي كتب مختارة في غاية النفاسة . تدل على مشرب عال في التفسير والسيرة النبوية والتصوف . وليس بغريب بعد ذلك أن ينقل الإمام الشعراني رضي الله عنه في الطبقات عن شيخه على الخواص أنه قال :

« كانت القاعدة عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، والشيخ أبي العباس ، تاج الدين بن عطاء الله ، والشيخ ياقوت العرش ، في قبول الطلاب : ألا يدخل أحد الطريق إلا بعد تبحره في علوم الشريعة وآلاتها ، بحيث يقطع العلماء في مجالس المناظرة بالحجج الواضحة . فإذا لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد » اهـ .

إن العلم عنصر من عناصر شخصية الإمام الشاذلي وهو عنصر من عناصر طريقته أيضاً وصلى الله وسلم على من أمر أن يقول : (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) .
وسبحان القائل : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

وتقدس الذى يقول : (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

ويصل أبو الحسن إلى الذروة حينما يعتبر الجهل والرضا به من الكبائر ، بل حينما يعتبره من أكبر الكبائر ويقول : « لا كبيرة عندنا أكبر من اثنين : حب الدنيا بالايثار ، والمقام على الجهل بالرضا » .

لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة .

والمقام على الجهل أصل كل معصية .

ولا يتأتى أن نجاوز الجانب العلمى دون أن نذكر مثالا نبين به مدى ما وصل إليه أبو الحسن من عمق عميق ، ومن فهم دقيق فى المسائل العلمية .

ونحن كلما رأينا إشارات من علم أبي الحسن الذى ألبس فيه العلم الرسمى نسيم الأرواح ، وألبست فيه معارج الأرواح صورة العلم الرسمى .. أقول كلما رأينا ذلك : أسفنا كل الأسف على ما حصل من إهمال فى تقييد دروس أبي الحسن . ومع ذلك فإن أبا الحسن قد ربي رجالا بدلا من أن يخرج كتباً ، ولقد سئل رضى الله عنه :

لِمَ لَا تَضَعُ الْكُتُبَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِ الْقَوْمِ ؟

فقال رضى الله عنه : كَتَبْتُ أَصْحَابِي (٢٢) .

ومع إيماننا بأنه ربي رجالا نشروا علمه ، وأذاعوا طريقته ، فقد كنا نتمنى أن لو اهتم أحد مريديه بتقييد نقائسه ودرره .

والمثال الذى نذكره الآن مأخوذ من رسالة طويلة كتبها لأحد أصدقائه بتونس هو سيدى على بن مخلوف . وهذا المثال عن الروح وقد ورد فى القرآن الكريم قوله

(٢٢) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى .

تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) .

هذه الآية الكريمة كانت مثار خلاف شديد بين المفسرين من مختلف النزعات ، وذلك أن كثيراً من المفسرين رأوا أن الآية إنما هي نهى عن البحث في الروح ، بمعنى النفس الإنسانية ، لأنها من أمر الله ، فالله سبحانه ، وهى من أمره ، هو وحده العالم بها .

وعارض هؤلاء كثيرون يرون أن الروح في الآية الكريمة ، إنما هو القرآن الكريم ، بدليل سياق الآيات السابقة واللاحقة ، فإنها كلها في القرآن الكريم والقرآن يسمى روحاً ، كما أن جبريل عليه السلام يسمى روحاً .

هل الآية نهى عن البحث في الروح ، أم أن الروح في الآية شيء آخر غير النفس الإنسانية ؟

ولم يأخذ أبو الحسن بهذا الرأي أو بذاك ، وإنما أدلى برأى نشهد بأصالته وعمقه ودقته ، يقول رضى الله عنه :

« ومن ظن أن هذا العلم : أعنى علم الروح وغيره ، مما ذكر وما لم يذكر لم يحط به الخاصة العليا أهل البدء الأعلى فقد وقع في عظيمين : جهل أولياء الله إذ وصفهم بالقصور عن ذلك ، وظن بربه أنه منعهم ، وكيف يجوز أن يظن على مخصوص ؟

وسرى به التكذيب إلى القدرة والشرع بقوله عن اليهود أو عن العرب كما تضمن الخلاف . (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) .

فما الدليل لك منها على جهل الصديقين وأهل خاصة الله العليا ؟ والكشف عن هذا السؤال يقع بأربعة أحرف : بهل ، وكيف ، ولم ، ومن . فهل ، يقع بها السؤال عن الشيء أموجود هو أم معدوم ؟ وكيف يقع بها السؤال عن حال الشيء ؟

ولم ، يقع السؤال بها عن العلة ؟

وليس في الآية شيء من هذا . فإنك إن قلت فيها معنى هل ، ومعنى هل يقتضي هل الروح موجود أم معدوم ؟ وقد عرفوا وجوده من قبل ، ولولا ذلك لما قال ويسألونك عن الروح ، فثبت أنهم عرفوا وجوده فبطل هذا .

وليس فيها سؤال عن الحال كيف هو ؟ ولا سؤال عن العلة لم كذا وكذا ولو كان سؤالهم عن هذين لما قنعوا بقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربي) ، ولشغلوا وتَرَدَّدُوا إذ ذاك شغلهم وعادتهم وإرادتهم . فثبت أن السؤال إنما كان عن الشيء ، من أين هو ؟ بدليل الجواب والبيان الظاهر الشافي بقوله تعالى : (قل الروح من أمر ربي) إذ الرسول عالم بما سألوا عنه فأجاب عن الله بذلك . كما تقول آدم نسألك عنه . وفهم المستول السؤال فقال : آدم من تراب ، فإذا رضى الجواب قنع ، وليس يرجع العدو إلا بفهم عظيم من الحق العظيم الذي لامرد له ، فكيف يزعم الزاعم أنه لا يعرف ولا يجوز أن يعرف .

فقد أوجب الله علينا معرفته ولا مثل له ، ولو ضيعناها لكنا كفاراً أو عصاة ، فكيف بوجود مخلوق أمثاله كثيرة ، هذا عين الجهل أن يقال : لا يجوز أن يعرف من له المثل والنظير وهو الروح ، ويوجب معرفة من لا شبيه له ولا نظير . فنعوذ بالله من جهل الجاهلين وظلم الظالمين .

والذى أقول به إن لله أسراراً لا يسع فيها الرسم ، ولا يليق بها الکتْم . ألا ترسم في الدواوين لعمى البصائر وضعفاء النجائر . ولا يليق بها الکتْم لوضوحها وشدة ظهورها . فلا تعبان بهم مع كثرة حججهم وذلك للحق ، وانخضع له فيما هم فيه وأعرض عنهم فيما لا علم لهم به . وقد أمر الله سبحانه نبينا محمداً ﷺ بالاعتداء بإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام ، وهو الفاضل الذى لا يصل إليه أحد . ويقول قد شاركهم في النبوة والرسالة والهداية والأمور الطارئة على النفوس

والأبدان والقلوب والأرواح ، واقتد بهم فيما فيه الشركة وما خصصنا به ، فقينا وإلينا ، وكذلك أيضاً من فهم هذا السر دان الله مع عامة المؤمنين ومع أوساطهم ومع الأعلين وفارقهم فيما هو خاص للمخصوصين .

فإن تكن منهم فازدد بعلمك وعملك فقراً إلى الله وتواضعاً لعباده . واعطف بالرحمة على عامة المؤمنين وإن كانوا ظالمين إلا حيث أمرك الله بالغلظة عليهم مع الدعاء الصالح والدفع عنهم « اهـ » .

وأظن أنه لا غرابة بعد هذا في أن يروى ابن كثير - كما يذكر صاحب المفاخر - أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يحضر مجلس الأستاذ أبي الحسن ، فيسمع تقريره للحقائق ، ويشاهد حسن إفصاحه عن العلم اللدني ، فعند ذلك يحصل له وارد من جانب الحق ، ويركض على قدميه طرباً مع المريدين ، ويقول : « تأملوا هذا التقرير فإنه قريب من ربه » اهـ .

ولقد لمس المؤرخون لأبي الحسن والشعراء المادحون له هذا الجانب العلمي عنده ، ورأوا ما فيه من أصالة وعمق ، فأشادوا به . ومن هؤلاء الإمام البوصيري صاحب البردة الذي يصفه في قصيدة يمدحه بها بأنه : « بحر العلم » .

أما ابن الملق فيقول عن أبي الحسن :

لقد كان بحرًا في الشرائع راسخًا ولاسيما علم الفرائض والسنن
ومن منهل التوحيد عب وارتوى فله كم روى قلوبًا بها محن
وحاز علومًا ليس تحصى لكاتب وهل تحصر الكتاب ما حاز من فن

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله ابن عطاء الله السكندري في وصف هذا الجانب العلمي .

ومامن شك في أن أبا الحسن : كان بعالمًا عارفًا بالعلوم الظاهرة ، جامعًا

لدقائق فنونها ، ومفتضاً لأبكار المعاني وعيونها من : حديث ، وتفسير ، وفقه ،
وأصول ، ونحو ، وتصريف ، ولغة ، ومعقول ، وحكمة ، وآداب .
وأما علوم المعارف الإلهية : فقطب رحاها ، وشمس ضحاها « (٢٣) .
ونختم هذا الجانب العلمى عند أبي الحسن بقول صاحب المفاخر عنه :
« وهو صاحب الإشارات العلية والعبارات السنية ، جاء فى طريق القوم
بالأسلوب العجيب ، والمنهج الغريب الذى جمع بين العلم والحال ، أو الهمة
والمقال ، وتخرج بصحته جماعة من الأكابر مثل أبي العباس المرسى ، وأبي العزائم
ماضى ، وغيرهم ، وتلمذ له أعيان كثيرة من أعيان أهل الله تعالى » .

ويقول شارح القاموس المحيط ، السيد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس :
« ومن كان يحضر مجلسه ، العزيز عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، وناهيك
بهما ، والحافظ المنذرى ، وابن الحاجب ، وابن الصلاح ، وابن عصفور ،
وغيرهم بالكاملية من القاهرة » (٢٤) ١ هـ .

العنصر الثانى فى هذه الشخصية هو عنصر الكفاح ، ونبدأ مباشرة فى هذا المجال
بما سبق أن كتبناه تحت عنوان : « أبو الحسن الشاذلى فى معركة المنصورة » .
ونبدأ بهذا الموضوع حينما نتحدث عن كفاح أبي الحسن ، وذلك لما يظنه بعض
الناس من أن الصوفية قوم كسالى ، وأن التصوف مظهر من مظاهر الضعف ،
والواقع أن حياة أبي الحسن حين يرسمها الإنسان تظهر وكأنها معول يهدم ما بينه
أعداء التصوف من شبهات حوله ، ولنبدأ بالجهاد بعد أن صورنا الجانب العلمى ،
وإذا كان التصوف لا يألف الجهل كما رأينا ، فإنه حليف للكفاح كما سنرى :

(٢٣) المفاخر العلية لابن عباد .

(٢٤) شرح الزبيدى على حزب البر ص ٤ .

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) .

إذا عدنا إلى أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري ، وذهبنا بخيالنا نرتاد أرجاء مدينة المنصورة ، رأينا ظاهرة لا عهد لمن مارسوا الحروب الحديثة برؤيتها إلا نادراً ! تلك هي ظاهرة الإيمان والثقة المطلقة بالله . إنه من الطبيعي أن تكون مدينة المنصورة ، حين ذاك ، في حركة لا تهدأ : إنها الحرب ، والمصريون يستعدون لملاقاة العدو المغير الذي احتل دمياط ، ويحاول التغلغل في البلاد بالاستيلاء عليها .

الاستحكامات تقام ، والمؤن ترد ، والجيش تتوالى وترتب ، والأوامر تصدر في حزم وثبات . والظاهر يبهرس لا يكاد يغمض له طرف ، ولا يذوق النوم إلا غراراً .

وفي جانب آخر لويس التاسع ، ملك فرنسا ، يقود الجيوش الجرارة من الصليبيين يريد أن ينازل الإسلام والعروبة في معركة فاصلة حاسمة هي معركة المنصورة .

لقد وقف الغرب كله مستعداً للهجوم على مصر ، يريد أن يدمر الإسلام والعروبة بالقضاء على المصريين ، كما وقف الشرك كله من قبل في غزوة الخندق ، يريد أن يدمر الإسلام بالقضاء على المدينة المنورة ومن فيها من رجال الإسلام الأول ، وعلى رأسهم رسول الله صلوات الله عليه وسلامه !

وبين موقعة المنصورة وغزوة الخندق تشابه في بعض النواحي : ففي كل منهما أتى الشرك بكل ما يملك ، وبكل ما يستطيع من عتاد ومن عدد ليقضي على التوحيد في عقر داره .

فقد اقتحم الشرك الأول حرم مدينة الرسول ﷺ وحاصرها ، أما الشرك الثاني

فقد اخترق الحدود وتغلغل في البلاد ، واحتل بعضها ، حتى وصل إلى أطراف المنصورة !

وفي كل منهما كان المسلمون - برغم رؤيتهم للخطر المحدق بهم - ثابتي الجنان ، مؤمنين كل الإيمان بنصر الله ، مطمئنين إلى قضائه .
 وإذا أردنا تعليل هذه الثقة في الله عند المسلمين في غزوة الخندق . فتعليلها سهل واضح : لقد كان على رأسهم رسول الله ﷺ ، وفيهم أبوبكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وكبار الصحابة ! ! رضوان الله عليهم أجمعين .
 وهؤلاء - لثقتهم المطلقة في الله - يبعثون - بطريق التآسي - الثقة في نفوس الآخرين !

أما في واقعة المنصورة ، فإن تعليل الثقة والإيمان والاطمئنان الذي كان يسود إذ ذاك ، ويسيطر على قلوب المجاهدين الأبطال ، ويبعث فيهم الجِد والنشاط ، وتحمل التعب والسهر ليلاً والعمل نهاراً . . أقول : إن تعليل ذلك ليس بالأمر الهين على من يقرأ التاريخ على أنه ساسة مدنيون . وقواد حربيون وجنود تزيد أو تقل في العدد .

إذا نظرنا إلى التاريخ بهذا المنظار . فإن تعليل هذه الظاهرة في موقعة المنصورة لا يتيسر ولا يستقيم .

وحقيقة الأمر أن مصر إذ ذاك كانت تضم بين أرجائها نخبة ممتازة من العلماء الدينيين الذين أخلصوا جهادهم لله وحده . فلم تغرهم الدنيا بزخرفها وزينتها .
 كان في مصر إذ ذاك : العزيز عبد السلام ، ومجد الدين القشيري ، ومحيي الدين بن سراقه ، ومجد الدين الأحميمي ، وأبو الحسن الشاذلي ، وغيرهم من خيرة العلماء .

لم يستقر هؤلاء العلماء في دورهم البعيدة عن الخطر ، وإنما هبوا جميعاً للجهاد

فى سبيل الله ، لقد هاجروا إلى المنصورة ليكونوا بين المجاهدين ، وبرغم أن العارف بالله أبا الحسن الشاذلى كان فى آخر حياته ، وكان قد كُفَّ بصره ، فإنه كان فى مقدمة الذاهبين إلى المنصورة !

هاهم أولئك العلماء الصوفية ، أو الصوفية العلماء ، بسمتهم الملائكى ، وبإيمانهم الذى لا يتزعزع ، يسيرون وسط الجند ، يحثون ويشجعون ، ويرشدون ويذكرون بالله ، ويبيشرون - كما وعد الله - بإحدى الحسينين : النصر أو الجنة . وإذا لزم الأمر عملوا بأيديهم مع العاملين .

لقد كان مجرد سيرهم فى الحواري والشوارع ، تذكيرًا بالنصر أو الجنة ، وكان حفزًا للهمم ، وتثبيتًا للإيمان ، وتأكيّدًا لصورة الجهاد الإسلامية التى قادها فى عصور الإسلام الأولى رسول الله صلوات الله عليه ، وخلفاؤه الراشدون ، رضوان الله عليهم . حتى إذا اطمأنوا إلى الأسباب والوسائل المادية الظاهرة ، والمعنوية الباطنة ؛ وحتى إذا ماجنهم الليل ، اجتمع هؤلاء الأعلام فى خيمة من خيام المعسكر - نعم فى خيمة من خيام المعسكر - يتجهون إلى الله بصلاتهم ودعائهم ، يلتمسون منه النصر ، فإذا ما فرغوا من ذلك أخذوا يتدارسون كتابًا من الكتب ! لقد كانوا يتدارسون ، فى إحدى الليالى ، الرسالة القشيرية ، تقرأ عليهم وهم يسمعون ويشرحون !

ماذا كانوا يقرءون ، من أبواب الرسالة ؟

أكانوا يقرءون باب الفتوة ؟

أم كانوا يقرءون باب الحرية ؟

أم كانوا يقرءونها فى تتابع مبتدئين من أولها ؟

كانت تقرأ عليهم ويشرحون ، وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى صامتًا يستمع ،

فلما فرغوا طلبوا إليه - وهو من أعلام هذا الميدان - أن يتحدث . وألحوا فى

الطلب ، فسكت الشيخ فترة ، ثم تكلم ، فى انطلاق وثى قوة ، وفى روحانية لا يمكن التعبير عن وصفها بأسمى من كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذى قال لأصدقائه وزملائه ، حينما سمع أبا الحسن يتحدث :

« اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله » .

ولا يقدر هذه الكلمة حق قدرها إلا من يعرف من هو العز بن عبد السلام ؟ !
« الكلام الغريب » ، لأنه ليس مأخوذاً من الكتب ، ولا محبباً فى الأسفار ! .

« القريب العهد من الله » لأنه إلهام الساعة ، ووحى الزمن الراهن !
وشغل أبو الحسن بأمر المسلمين ، فكان ليله ونهاره مشغولاً بالله فى أمرهم حتى إذا ما أخذته سنة من النوم فى ليلة من الليالى ، رأى فيما يراه النائم ، رؤيا تتعلق بحالة المسلمين فى المنصورة ، ومن ذلك : الرؤيا التى حكاها صاحب كتاب « درة الأسرار » قال :

« قال الشيخ أبو الحسن : كنت بالمنصورة ، فلما كانت ليلة الثامن من ذى الحجة ، بت مشغولاً بأمر المسلمين وبأمر الثغر ، وقد كنت أدعو الله وأضرع إليه فى أمر السلطان والمسلمين .

فلما كان آخر الليل ، رأيت فسطاطاً واسع الأرجاء ، عاليًا فى السماء ، يعلوه نور ويزدحم عليه خلق من أهل السماء ، وأهل الأرض عنه مشغولون ، فقلت : لمن هذا الفسطاط ؟

فقالوا : لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبادرت إليه بالفرح ، ولقيت على بابه عصابة من العلماء والصالحين نحوًا من السبعين ، أعرف منهم الفقيه عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه مجد الدين مدرس قوص ، والفقيه الكمال بن القاضى صدر الدين ، والفقيه المحدث محيى الدين ابن سراقه ، والفقيه عبد الحكيم بن أبي الخوافر ، ومعهم رجالان لم أعرف أجمل

منهما ، غير أنى وقع لى ظن فى حالة الرؤيا : أنهما الفقيه زكى الدين عبد العظيم المنذرى المحدث ، والشيخ مجد الدين الأحميمى !! !

وأردت أن أتقدم لرسول الله ﷺ ، فألزمت نفسى التواضع والأدب مع الفقيه ابن عبد السلام ، وقلت : لا يصلح لك التقدم قبل عالم الأمة فى هذا الزمان ، فلما تقدم وتقدم الجميع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إليهم يميناً وشمالاً : أن اجلسوا وتقدمت ، وأنا أبكى بالهم وبالفرح . أما الفرح : فمن أجل قربى لرسول الله ، ﷺ بالنسب ؛ وأما الهم فمن أجل المسلمين والثغر ، وهم طلبى إليه ﷺ ، فمد يده حتى قبض على يدى ، وقال :

لا تهتم كل هذا الهم من أجل الثغر ، وعليك بالنصيحة لرأس الأمر - يعنى السلطان - فإن ولى عليهم ظالم فما عسى ؟ وجمع أصابع يده الخمسة فى يده اليسرى كأنه يقلل المدة .

وإن ولى عليهم تقى فـ « الله ولى المتقين » وبسط يده اليمنى واليسرى .
وأما المسلمون فحسبك الله ورسوله وهؤلاء المؤمنون - أى العلماء والفقهاء والصالحون الذين بالمجلس - وقال :

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ حِزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ) .
وأما السلطان فيد الله مبسوطة عليه برحمته ما والى أهل ولايته ونصح المؤمنين من عباده ، فانصحه واكتب له وقل فى الظالم عدو الله قولاً بليغاً :
(وَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) .

فقلت : نصرنا ورب الكعبة . وانتبهت . ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً ، وأسر الملك لويس ، وأسر الكثيرون من قواده ، وأشاد الشعراء بهذا النصر .
ومن قصيدة مشهورة لابن مطروح : نقتطف منها مايلى : قال يخاطب لويس :

وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح

سبعون ألفاً لا يرى منهمو إلا قتيلاً أو أسيراً أو جريحاً
وقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح
ولسنا هنا بصدد تاريخ هذه الموقعة الحربية ، وما أردنا مما سبق ، إلا أن نلقى
ضوءاً واضحاً على اشتراك أبي الحسن الشاذلي في الجهاد ، برغم أنه كان يعتذر له
عن التخلف لكبر سنه ، ولأنه قد كُف بصره .

ولكن أبا الحسن لا يتخلف عن فرض ، وما كان يتأق له أن يتخلف عن
مؤازرة المسلمين . هذه الصورة نضعها أمام أنظار علماء المسلمين في العصر
الحاضر ، وأمام رجال التصوف الإسلامي ، لعل فيها لهؤلاء وأولئك ذكرى كريمة
ومثلاً يحتذى !

ولا يتأق أن نختم الحديث عن مبدأ أبي الحسن في الجهاد دون أن نذكر قوله :
من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت ، ويعلم ذلك من قوله تعالى :
(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ
إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

فإذن ، الولي على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه .

وصورة أخرى من الكفاح هي صورة : العمل .

يقول ابن عطاء الله : « وكان الشيخ أبو الحسن يكره المريد المتعطل ، ويكره
أن يسأل تابعه الناس . وقد كان جواداً بما يملك ، وكريماً يكره البخل . ويحث على
طرق باب الأسباب والعمل » اهـ .

ويقول أبو الحسن : لكل ولي حجاب ، « أي ستر يحجبه عن اعتقاد الناس
فيه ، وأنا حجابي الأسباب » اهـ .

ولقد كان أبو الحسن يعمل في الزراعة على نطاق واسع .

فهو يتحدث في خطاب له لأحد أصدقائه يحدثه فيه عن سبب تأخيره في السفر فيقول : « وسبب الإمساك - عن السفر في العادة - (٢٥) زرع لنا يدرس قد حرث لنا في ثلاثة مواضع » ا. هـ .

وإن الذى يؤخر أبا الحسن عن السفر ليس هو زرع فدان أو فدانين ، ولا حصد فدان أو فدانين ، فالأرض قد حرثت في ثلاثة مواضع .

وكان الشاذلى يتخذ للزراعة الوسائل التى تتيج نوعاً من الاكتفاء الذاتى فيرى الثيران مثلاً للحرث والدرس ، ويتحدث ، للعظة والاعتبار ، عن ثور من هذه الثيران وقع في بئر . ولنذكر القصة كما رواها صاحب درة الأسرار : يقول أبو الحسن : جعل لى في ليلة دعاء فقلت :

« اللهم اجعل قضاءك ، ومحابك ، ولقاءك ، وذاتك ، وذات رسولك ، وسر ذات رسولك - أحب إليّ من نفسى ، وأهلى وولدى ، ومالى ، والناس أجمعين » . فكنت أقولها بوجد ، فأجد لها حلاوة ، فكثرت ذلك على فقلت : « شىء ينزل ، وقضاء يحدث . فبينما أنا قاعد قيل لى : إن ثوراً كان لك فوق في البئر . فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون . فقيل لى : لهذا كانت المقدمة » .

ولا تنتهى القصة عند هذا الحد ولكن هذا هو ما أردناه منها . على أن أبا الحسن لا يقتصر على الحث على العمل متخذاً من نفسه قدوة ولا يقتصر على النفور من المريد المتعطل ، وإنما يذهب مع أتباعه إلى أبعد من هذا وله في ذلك - مع أبي العباس - قصة طريفة .

(٢٥) أى في الأسباب الظاهرة إذ السبب الحقيقى إنما هو إرادة الله سبحانه وحدها : وهذه الكلمة تبين المدى البعيد في تأدب أبي الحسن مع الله .

يقول أبو العباس فيما رواه ابن عطاء الله :
 « دخلت يوماً على الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه . فقال لى :
 إن أردت أن تكون من أصحابى ، فلا تسأل أحداً شيئاً ، وإن أتاك شىء من
 غير مسألة فلا تقبله .

فقلت فى نفسى : كان النبى ، صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية وقال :
 « ما أتاك من غير مسألة فخذ » .
 فقال الشيخ : كأنك تقول كان النبى ، ﷺ يقبل الهدية : وقال : ما أتاك من
 غير مسألة فخذ ؟

النبى ﷺ ، قال الله فى حقه : (قُلْ إِنَّمَا أَنذِرُكُمْ بِالْوَحَى)
 متى أوحى الله إليك ؟

إن كنت مقتدياً به فى الأخذ ، فكن مقتدياً به كيف يأخذ ؟ كان ﷺ لا يأخذ
 شيئاً إلا ليشب من يعطيه ويعوضه عليه .
 (فإن نظرت نفسك وتقدست هكذا فاقبل وإلا فلا) .
 وهذه القصة غاية فى العمق ونحن نقدمها على ما هى عليه إلى كل موظف وكل
 صاحب جاه ، وكل هؤلاء الذين يقبلون الرشوة فى صورة هدية ، وكل من يلبس
 عليهم الشيطان فى أكل أموال الناس بالباطل .
 والنظرية الشاذلية فى الغنى والفقر تفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر ،
 وتعلل ذلك بأن الصبر فضيلة فى الدنيا فقط ، أما الشكر : فإنه فضيلة فى الدنيا
 والآخرة .

ونختم هذا الحديث عن العمل والكفاح والثراء بالقصة التالية :
 قال أبو الحسن : هممت مرة أن أختار القلة من الدنيا على الكثرة ، ثم

أمسكت ، ونخشيت سوء الأدب ، فلبجأت إلى ربي ، ورأيت في النوم : كأن سليمان عليه السلام جالس وحوله العسكر ورفع لي عن قدوره وجفانه فرأيت أمراً كما وصفه الله تعالى بقوله :

(وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) .

فنوديت : لا تخترم مع الله شيئاً ، وإن اخترت ، فاختر العبودية لله اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال : عبداً رسولاً ، وإن كان ولا بد فاختر ألا تختار ، وفر من ذلك المختار إلى اختيار الله . فانتبهت من نومي ، فرأيت بعدها قائلاً يقول لي : إن الله اختار لك أن تقول :

« اللهم وسع على رزقي من دنياي ، ولا تحجبني بها عن أخراي ، واجعل مقامي عندك دائماً بين يديك ، وناظراً منك إليك ، وأرني وجهك ، ووارني عن الرؤية وعن كل شيء دونك ، وارفع البين فيما بيني وبينك ، يامن هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » .

ثم صورة ثالثة من صور الكفاح اشتهر بها أبو الحسن وعُرف بها بين الناس ، وهي صورة تميزه عن تلميذه أبي العباس ، تلك هي صورة السعي في مصالح الناس . ولقد رأينا أنه حينما نزل مصر في مروره العابر إلى الحج ذهب إلى السلطان لرفع الرمية التي رمى بها واليه على الأعراب ، وتعرض بسبب ذلك إلى ما سبق أن ذكرناه آنفاً . ومما يروى ابن عطاء في لطائف المنن قال :

استشفع طالب بالشيخ أبي الحسن إلى القاضي تاج الدين أن يزداد على مرتبه فذهب الشيخ إليه ، فأكبر القاضي تاج الدين بجيئه وقال له :

يا سيدي ، فيم جئت ؟

فقال : من أجل فلان الطالب تزيده في مرتبة عشرة دراهم .

فقال القاضي : ياسيدي ، هذا له في المكان الفلاني كذا ، وفي المكان الفلاني

كذا ، وفي الموضع الفلاني كذا ، وكذا .

فقال له الشيخ : يا تاج الدين لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تريده إيّاها فإن الله تعالى لم يقنع للمؤمن بالجنة جزاء حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم . وكثرت شفاعات أبي الحسن بكثرة المظلومين والمساكين والذين لا جاه لهم ، والضعفاء وذوى الحاجات على مختلف ألوانهم ، وأخذ يتردد على ولاية الأمور شافعاً ومدافعاً ومحامياً حتى لقد قال ابن دقيق العيد في ذلك :

جهل ولاية الأمور بقدر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه لكثرة تردده في الشفاعات .

أما ابن عطاء الله فقد قال في ذلك معلقاً على كلمة ابن دقيق العيد : إن هذا الأمر لا يقوى عليه إلا عبد متخلق بأخلاق الله ، بذل نفسه وأذله في مرضاة الله ، وعلم وسيع رحمة الله ، فعامل عباد الله ممثلاً لقول رسول الله ﷺ : « الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » . على أننا لا نترك هذا الموضوع دون أن نشير إلى أن أبا الحسن كان دائماً يدعو الله قبل أن يسير إلى وساطة في الخير وأدعيته في ذلك عليها طابع العبودية وفيها عبر الخشوع ، وذلك ليشعر هو ويشعر الناس أن الأمور كلها بيد الله ، وأنه ليس إلا منفذاً لمشيئة الله سبحانه ، وقد تفضل الله عليه فجعله سبباً في الصالحات . ومن أمثلة ذلك : ما روى صاحب درة الأسرار قال : وقال رضى الله عنه ، وقد أراد أن يمشي للبعض في الدفع عن رجل من الصالحين :

« اللهم اجعل مشيى إليه تواضعاً لوجهك ، وابتغاء لفضلك ، ونصرة لك ولرسولك ، وزينى بزينة الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتغنون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . وخصنى بالمحبة والإيثار ، ورفع الحجاب من الصدور في الليل والنهار . وقنى شح

نفسى واجعلنى من المفلحين . واغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل
فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم .

ها نحن أولاء نرى أبا الحسن عالماً مستنيراً كأحسن ما يكون العالم المستنير .
ومجاهداً صادقاً كأفضل ما يكون المجاهد الصادق .

وعاملاً مكافحاً فى الحرث والغرس ، تتعدد مزارعه ، وتتعدد مواضع الحصاد
لديه ، ونراه رائحاً وغادياً مستشفعاً وقاضياً للناس حاجاتهم .

وإذا كان ذلك يمثل جوانب أصيلة فى شخصيته ، فإن الأصل فى شخصيته لم
نتحدث عنه بعد : يقول صاحب لطائف المنن عن أبى الحسن :
« له السياحات الكثيرة ، والمنازلات الجليلة » .

وهذه الكلمة الصادقة هى التى تصور لنا الجانب الأصل فى شخصية الشاذلى :
لقد كان أبو الحسن عابداً متبتلاً ، ومن أجل عبادته ساح سياحات كثيرة :
لقد ساح ليخلو إلى الله ، وساح لتصفو نفسه ، وساح ليتمكن من التركيز
والتجمع فيلقى بنفسه كلية وبكيانه كله ، فى الرحاب الإلهى مستسلماً ، مسلماً ،
عبداً أسلم القيادات كلها : جسماً ونفساً ، وعقلاً ، وروحاً ، وقلباً إلى من بيده
الأمر ، أسلمها اختياراً راضياً ، أسلمها إسلام المحب المغتبط الذى يتفانى دائماً فى
إسلام الكيان كله ، حتى لا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يشم أو يذوق إلا من أسلم
إليه كيانه . ولقد كان يسبح ليصل إلى ما يطلبه فى حزه الكبير قائلاً :
« إني أسألك أن تغينى بقربك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شىء
ولا يبعده عنى إنك على كل شىء قدير » .

وإن أبا الحسن هو الذى يقول فى تأكيد يؤيده التاريخ كله :
« اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد
حتى وجدوا ، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك ،

وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدأ تصحبه أنوار محبتك .
 لم تكن سياحات أبي الحسن تنعماً بالجو ، ولا استمتاعاً بالحدائق والمنتزهات ،
 ولا حباً في استجلاء المجهول من عوالم المادة . وإنما كانت بحثاً عن الحق
 فلما وجد الحق كانت سياحاته من أجل التمكن في مجالات الحق .
 فلما تمكن في مجالات الحق استقر به المقام مبشراً وهادياً .
 والشيخ يتحدث عن هذه السياحات ، ولا بد من ذكر أمثلة منها :
 يقول صاحب المقاهر العلية عن الشيخ : انتقل إلى مدينة تونس وهو صبي
 صغير ، وتوجه إلى بلاد المشرق ، وحج حجج كثيرة ، ودخل العراق .
 وما رواه أبو الحسن ، وكان ذلك في أوائل سلوكه : « كنت أنا وصاحب لي قد
 آوينا إلى مغارة ، نطلب الوصول إلى الله ، فكنا نقول : غداً يفتح لنا ، بعد غد
 يفتح لنا . فدخل علينا رجل له هبة ، فقلنا له : من أنت ؟
 فقال : أنا عبد الملك .

فعلمنا أنه من أولياء الله ، فقلنا له : كيف حالك ؟
 فقال : كيف حال من يقول : غداً يفتح لي ، بعد غد يفتح لي . فلا ولاية
 ولا فلاح ؛ يانفس لم لا تعبدن الله الله .
 قال : فتفطنا من أين دخل علينا . فتبنا إلى الله ، واستغفرنا ، ففتح لنا .
 ويقول أبو الحسن أيضاً عن سياحاته في مبدأ أمره :
 كنت في سياحتي في مبدأ أمرى ، حصل لي تردد ، هل ألزم البرارى والقفار ،
 للتفرغ للطاعة والأذكار ؟ أم أرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار ؟
 فوصف لي وليُّ هنالك ، وكان برأس جبل ، فصعدت إليه ، فما وصلت إليه
 إلا ليلاً ، فقلت في نفسي ، لا أدخل عليه في هذا الوقت ، فسمعتة يقول : من
 داخل المغارة ؟ « اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم مخلقك . فسخرت لهم

خلقت ، فرضوا منك بذلك . اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق على ، حتى لا يكون ملجئى إلا إليك » .

قال : فالتفت إلى نفسى وقلت : يا نفسى انظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ ؟ فلما أصبحت دخلت إليه فأرعبت من هيئته .

فقلت له : ياسيدى كيف حالك ؟

فقال : أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم ، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار .

فقلت ياسيدى أما شكواى من حر التدبير والاختيار ، فقد ذقته وأنا الآن فيه ، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا ؟

فقال : أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله .

قلت : ياسيدى سمعتك البارحة تقول : اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقت فسخرت لهم خلقت فرضوا منك بذلك ، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئى إلا إليك ، فتبسم ثم قال :

يابنى عوض ما تقول سخر لى خلقت قل : يارب كن لى ، أترى إذا كان لك أيفوتك شيء ، فما هذه الجبانة » .

وقال رضى الله عنه : اجتمعت برجل فى سياحتى فقال : ليس شيء فى الأقوال أعون على الأفعال من : لا حول ولا قوة إلا بالله ، والاعتصام بالله . ففروا إلى الله ، واعتصموا بالله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . ثم قال : باسم الله ، فررت إلى الله ، واعتصمت بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ومن يغفر الذنوب إلا الله ، رب إني أعوذ بك من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ، باسم الله قول باللسان صدر عن القلب ، ففروا إلى الله وصف للملك والأمر ، ثم تقول للشيطان : هذا علم الله فيك ، وبالله آمنت ، وعليه توكلت .

وأعوذ بالله منك ، ولولا ما أمرني ما استعدت منك ، ومن أنت حتى أعتصم بالله منك .

وروى الشيخ أيضاً : قلت يوماً وأنا في مغارة في سياحتي :
إلهي متى أكون لك عبداً شكوراً ، فإذا قاتل يقول لي :
إذا لم تر منعماً عليه غيرك .

فقلت : إلهي كيف لا أرى منعماً عليه غيري وقد أنعمت على الأنبياء ، وقد
أنعمت على العلماء ، وقد أنعمت على الملوك . فإذا قاتل يقول لي :
لولا الأنبياء لما اهتديت .
ولولا العلماء لما اقتديت .
ولولا الملوك لما آمنت ، فالكل نعمة مني عليك .

* * *

هذه السياحات المتعددة المتكررة إنما كانت هجرة إلى الله ، وذهاباً إليه ،
وفراراً نحوه ، وما كان لها من هدف إلا أن يخلو وربه ، وأن ينسى كل شيء ليملاً
قلبه بالله ، لقد كانت سياحات للعبادة ، وما كانت العبادة العادية ، هي التي
يقصد أبو الحسن بهذه السياحات . إن الفروض ، وإن سننها الراتبة ، من السهل
على أبي الحسن أن يؤديها في الحضر ، كما يؤديها الآخرون ، وما كان في حاجة إلى
هجرة من أجلها ، لقد كان قصد أبي الحسن أن يفرغ قلبه ليملاًه بالله ، ولا بد لهذا
من هجرة .

ومن الناس من يهاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر
إليه . أما من كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله .
لقد كانت هجرة أبي الحسن تحثاً ، وبحثاً عن الصفاء ، ومراناً على الاسترسال
مع الله على ما يريد .

لقد كان يريد أن يرتبط بالحق فكان يروض نفسه على ذلك .
 كان يروض نفسه على أن يسيطر على نفسه ، على شهواته ، على إرادته ، على مشيئته ، إنه يقول : لن يصل العبد إلى الله وبقي معه شهوة من شهواته ، ولا مشيئة من مشيئاته^(٢٦) ، وكان يقول : إن أردت أن تكون مرتبطاً بالحق فتبرأ من نفسك واخلج من حولك وقوتك .

لقد كان يريد أن يشهد الله ، أن يشهده متجلياً على أنحاء شتى ، والله سبحانه يتجلى للإنسان على قدر صفاته ، وأراد أبو الحسن أن يصل في الصفاء إلى أقصى ما يصل إليه السالكون .

لقد اعتكف في جبل زغوان .. وسافر من قبل ذلك بحثاً عن القطب ، وسهر الليالي قائماً متبتلاً في البوادي والوهاد والأودية .

وكم شهدته المغارات والكهوف قائماً في جنح من الليل متضرعاً إلى الله داعياً مستغيثاً محاولاً أن يفنى في الله بحيث يصبح صورة تامة بقدر الإمكان مما يحب الله وبحيث يصبح ربانياً .

يقول أبو الحسن : أبي المحققون أن يشهدوا غير الله تعالى ، لما حققهم به من شهود القيومية وإحاطة الديمومية .

هذه الكلمة الحق التي هي تفسير لما يقوله الصوفية في وحدة الوجود كانت الهدف الذي أراد أن يصل إليه أبو الحسن ، أراد أن يصل إليه معرفة ، وأن يشعر به ذوقاً ، وأن يتحقق به حالاً .

فلما تم له ذلك من سياحاته ، وخلواته ، وتحننه عاد إلى الناس مستقراً هادياً مبشراً بالنور والرحمة والمعرفة .

(٢٦) الطبقات الكبرى : للشعراني .

ولا نريد أن نترك هذا المقام دون أن نضرب مثلاً لأثر عبادة أبي الحسن عليه من إخبارات ، وخشوع وتعظيم لله ولرسوله ، ومن نسبته كل نقص وتقصير لنفسه ومن وصوله إلى درجة سامية من إسلام الوجه لله .

يقول صاحب درة الأسرار عن أبي الحسن :

لما قدم المدينة ، زادها الله تشريفاً وتعظيماً ، وقف على باب الحرم من أول النهار إلى نصفه عريان الرأس حافي القدمين ، يستأذن على رسول الله ﷺ تسليماً .

فسئل عن ذلك فقال : حتى يؤذن لي ، فإن الله عز وجل يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) .

فسمع النداء من داخل الروضة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :

يا علي ، ادخل . فوقف تجاه الروضة الشريفة فقال :

« السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، صلى الله عليك يا رسول الله أفضل وأزكى وأسنى وأعلى صلاة صلاها على أحد من أنبيائه وأصفياه ، أشهد يا رسول الله أنك بلغت ما أرسلت به ، ونصحت أمتك ، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين ، كنت كما نعتك الله في كتابه :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

فصلوات الله وملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه من أهل سمواته وأرضه عليك يا رسول الله .

السلام عليكما يا صاحبي رسول الله ﷺ ، يا أبا بكر ويا عمر ، ورحمة الله وبركاته ، فجزاكم الله عن الإسلام وأهله أفضل ما جازى به وزيرى نبي في حياته ، وعلى حسن خلافته في أمته بعد وفاته ، فقد كنتمنا لمحمد ﷺ وزيرى صدق ، وخلفتماه بالعدل والإحسان في أمته بعد وفاته ، فجزاكم الله عن ذلك

مرافقته في الجنة ، وإيانا معكما برحمته إنه أرحم الراحمين .
 اللهم إني أشهدك وأشهد رسلك ، وأشهد أبا بكر وعمر ، وأشهد الملائكة
 النازلين بهذه الروضة الكريمة والعاكفين عليها ، أني أشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ، وإمام المرسلين وأشهد
 أن كل ما جاء به من أمر ونهي عما كان أو ما هو كائن فهو صدق لا شك فيه
 ولا امتراء ، وأنى مقرر لك بجنائتي ومعصيتي في الخطرة والفكرة والإرادة والفعله ،
 وما استأثرت به على إذا شئت أخذت وإذا شئت عفوت عنه ، مما هو متضمن
 للكفران والنفاق أو البدعة أو الضلالة أو المعصية أو سوء الأدب معك ومع رسولك
 وأنبيائك وأوليائك من الملائكة والإنس والجن ، وما خصصت به من شيء في
 ملكك فقد ظلمت نفسي بجميع ذلك فامنن علي بالذي مننت به علي أوليائك ،
 فإنك أنت الله الملك المنان الكريم الغفور الرحيم

* * *

لقد كان أبو الحسن جميل المظهر جسماً وملبساً ، وكان فارساً يركب الخيل
 ويقتنيها ، وكان غير متحرج فيما يتعلق بالمأكل والمشرب من حيث النوع وإن كان
 يتحرج كل التحرج فيهما من حيث الحل والحرمه .
 وكان عالماً أجمل ما يكون العلم وأعمقه .
 وكان مجاهداً يقف مع الجيوش في الميدان يعمل على إحراز النصر .
 وكان مكافحاً يعمل في الحرث والغرس والحصاد .
 وكان عابداً أدت به عبادته إلى قرب ، قال هو عن حقيقته : إنه الغيبة بالقرب
 عن القرب لعظم القرب . هذا هو أبو الحسن .
 إنه يمثل شخصية المسلم التي أحب الله لكل فرد من خير أمة أخرجت للناس .
 ومن أجل ذلك كتب عنه عليه القوم مادحين معترفين بفضله ، يقول صاحب

المفاخر العلية :

ومن ذكره من الأولياء والعلماء في زمنه ومن بعده :

« الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور الشاذلي في رسالته ، وأثنى عليه الثناء العظيم على حسب معرفته .

والشيخ عبد الله بن النعمان ، وشهد له بالقطبانية .

والشيخ قطب الدين القسطلاني في جملة من لقيه من المشايخ .

والشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن .

والشيخ سراج الدين الملقن في طبقات الأولياء .

والشيخ جلال الدين السيوطي في حسن المحاضرة .

وسيدى عبد الوهاب الشعراني في طبقاته .

والمنأوى في الكواكب الدرية . وذكره غير هؤلاء من المشايخ ، كل واحد منهم يثنى عليه ويصفه بما عرف من قدره » اهـ . وللشعراء فيه الكثير من الشعر نكتفي من ذلك ببعض ما يقوله الإمام البوصيري صاحب البردة المباركة رضى الله عنه وأرضاه :

أما الإمام الشاذلي طريقه	في الفضل واضحة لعين المهتدي
فانقل ولو قدماً على آثاره	فإذا فعلت فذاك أخذ باليد
قطب الزمان وغوثة وإمامه	عين الوجود لسان سر الموجد
ساد الرجال . فقصرت عن شأوه	همم المآرب للعلا والسؤدد
أو ما مررت على مكان ضريحه	وشممت ريح الند من ترب ندى
ووجدت تعظيماً بقلبك لو سرى	في جلمد سجد الورى للجلمد
فقل السلام عليك يا بحر الندى	الطامى وبحر العلم بل والمرشد

هذا ولعل خير ما نختتم به حديثنا عن شخصية أبي الحسن هو ما كان لهذه الشخصية من أثر روحى على طائفة من أكابر القوم الذين التقوا به وسمعوا منه : يقول ابن عطاء الله : « ونشأ على يد الشيخ رضى الله عنه ، جماعة كثيرة ، منهم من أقام بالمغرب كأبي الحسن الصقلى ، وكان من أكابر الصديقين ، وعبد الله الحبيبي وكان من أكابر الأولياء ..

ومنهم من تبعه وهاجر معه إلى مصر ، منهم شيخنا وقدوتنا إلى الله أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى المرسى ، رضى الله عنه ، ومنهم الحاج محمد القرطبي ، وأبو الحسن البجائى المدفون بظاهر أشمون الرمان وأبو عبد الله البجائى والوجهانى والجزار .

ومنهم من صحبه بديار مصر ، منهم الشيخ عبد الله بن منصور المعروف بمكين الدين الأسمر ، والشيخ عبد الحكيم ، والشرف البونى ، والشيخ عبد الله اللقانى ، والشيخ عثمان البوريجى ، والشيخ أمين الدين جبريل . ولكل هؤلاء علوم وأسرار وأصحاب أخذوا عنهم » اهـ .

٣ - العمل بالكتاب والسنة

جاء الدين الإسلامى بتكاليف عديدة لصلاح المجتمع ولصلاح الفرد ، وهذه التكاليف يتبين من اسمها أن فيها شيئاً من المشقة على هؤلاء الذين لم يتذوقوا الصلة بالله . ولما فى التكاليف من مشقة حاول كثيرون التخلص منها بشتى الوسائل أو التأويلات المنحرفة .

ومن أضل هذه الوسائل ما يزعمه البعض من أنه وصل من الصلة بالله ، إلى

رفع التكاليف عنه ، وتلك خدعة شيطانية ، وقد حاربها أئمة التصوف في مختلف العصور حرباً لا هوادة فيها .

ومن هؤلاء الذين حاربوها بشدة : أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه .
كان باستمرار يأمر ويحث على اتباع الكتاب والسنة ، ويبين : أن الانحراف عنهما اتباع للشيطان ، يقول رضي الله عنه .
ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة .

فن أعطيتهما وجعل يشاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفتر كذاب ، أو ذو خطإ في العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا .

ويقول : إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة ، فلا تعباً به ، هذا في شأن السالك .

أما من يتصدى للدعوة فإن : « من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ ، فهو بدعي » على حد تعبير أبي الحسن .

ولكل وقت عمله المحدد ، ولكل عمل زمنه المعين ، والمتابعة الحقة تقتضي ، ألا تؤخر عن أزمانيها ، يقول أبو الحسن : لا تؤخر طاعات وقت لوقت آخر ، فتعاقب بفواتها ، أو فوات غيرها ، أو مثلها ، جزاء لما ضيع من ذلك الوقت . فإن لكل وقت سهماً ، فحق العبودية ، يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية .

وأما تأخير عمر رضي الله عنه الوتر آخر الليل فتلك ، عادة جارية ، وسنة ثابتة ألزمه الله تعالى إياها مع المحافظة عليها . وأنى لك بها مع الميل إلى الراحة ، والركون إلى الشهوات ، والغفلة عن المشاهدات ! ؟

فهيات هيات هيات !

وكثير من الناس يجد شهوة فاسدة في أنماط من العلم منحرفة يعكف عليها

فتصرفه بالكلية عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتصبح حجاباً بينه وبين الله ،
وإلى هؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجة ينصح الشاذلي :

« كل علم تسبق إليه الخواطر ، وتميل إليه النفس ، وتلتذ به الطبيعة ، فارم به
وإن كان حقاً . وخذ بعلم الله الذي أنزله على رسوله ، واقتد به وبالحلفاء والصحابة
والتابعين من بعده وبالأئمة الهداة المبرثين عن الهوى ومتابعته . تسلم من الشكوك ،
والظنون ، والأوهام ، والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه . »

وفي الناس من يزعم : أنه وصل في المحبة إلى درجة تغنيه عن اتباع التكاليف ،
وإلى هؤلاء يقول : سمعت هاتفاً يقول : إن أردت كرامتي فعليك بطاعتي
وبالاعراض عن معصيتي . والطريقة المثلى هي أنه :

« إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف
وقل لنفسك : إن الله تعالى قد ضمن العصمة في الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لي
في جانب الكشف ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي
العمل بالكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة .
والنتيجة التي يريد أن يصل إليها تتمثل فيما يلي :

« ارجع عن منازعة ربك تكن موحداً ، واعمل بأركان الشرع تكن سنياً ،
 واجمع بينهما تكن محققاً . »

٤ - الاستدلال على وجود الله

يقول ابن عطاء الله السكندري معبراً عن رأى المدرسة الشاذلية :
« وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن إقامة دليل ، فالمكون أولى
بغناه عن الدليل منها » (٢٧) اهـ .

وهذه الفكرة إنما هي عودة إلى الطريق الصواب فيما يتعلق بما سماه المتكلمون :
« إثبات وجود الله » . وهي فكرة وجه إليها الشيخ أبو الحسن مريديه أكثر من مرة ،
فهو يقول : « كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف ، أم كيف يعرف بشيء
من سبق وجوده وجود كل شيء » (٢٨) .

ويقول أيضاً : « إنا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان فأغنانا ذلك عن الدليل
والبرهان ، وإنا لا نرى أحداً من الخلق ، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق ؟
وإن كان ولا بد فكالمهباء في الهواء ، إن فتشته لم تجده شيئاً » اهـ .

ويتابع أبو الحسن الحديث فيقول : ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات
موصلة إليه ، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه ، أو هل لها من
الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له ؟

ويقول : وكيف تكون الكائنات مظهرة له ، وهو الذي أظهرها ، أو معرفة له
وهو الذي عرفها .

هذا الاتجاه الذي علمه أبو الحسن لتلاميذه ونشره بينهم ، أخذ ابن عطاء الله
السكندري في إذاعته وكتابته على أنحاء شتى ، فمن ذلك قوله :

(٢٧) لطائف المنن ص ٢٧ الطبعة التونسية .

(٢٨) لطائف المنن ص ٢٦ الطبعة التونسية .

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان : لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه . وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل ؟ وكيف يكون معروفاً به وهو المعروف له ؟ اهـ .
 إن أبا الحسن عاد باتباعه إلى النهج الإسلامى الصادق فيما يتعلق بوجود الله .
 إن وجوده سبحانه أوضح وأظهر من أن يحتاج إلى دليل ، وإن تقديس الله سبحانه ينأى بالمؤمن عن أن يتخيل - مجرد تخيل - أن الله يحتاج إلى إثبات وجوده .
 وإن جلال الله - وهو جزء من عقيدة المؤمن - يسمو بالمؤمن عن أن ينزل إلى هذا المستوى من الانحراف .

والواقع أن كل محاولة لإثبات وجود الله إنما هى انحراف عن النهج الإسلامى السليم . وإذا كان أبو الحسن قد وجه أتباعه إلى هذا النهج ، فإنما يتبع فى ذلك المنهج القرآنى : وذلك أن القرآن الكريم ، وجميع الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، قد نزهوا الله عن أن يحاولوا الاستدلال على وجوده ، وقدسوه عن أن يكون وجوده فى حاجة إلى حجة وبرهان .

ولقد سار الإمام الشاذلى على هذا النسق متبعاً ومقتدياً .
 بيد أن فكرته أصبحت الآن غامضة كل الغموض ، ذلك أن بدعة إثبات وجود الله شائعة حتى فى الأوساط المستغرقة فى التدين ، ومن أجل ذلك يتساءل الكثيرون : أكان أبو الحسن محققاً فى رأيه هذا ؟

ومن أجل إيضاح فكرة أبي الحسن ، ولأن الموضوع فى نفسه جدير إلى حد بعيد بالاهتمام ، فإننا نستفيض هنا فى شرح هذا الموضوع عسى أن يسود توجيه أبي الحسن فيرجع الناس عن البدعة إلى التوجيه السليم ، على أن من حق أبي الحسن علينا - ونحن نكتب عنه - أن نستفيض فى شرح فكرة من أفكاره ، كان للعادة والالف ، وكان للزمن والظروف دخل فى أن أصبحت غير مفهومة فهماً

واضحاً ، أو غير مقدره تقديراً صحيحاً .

حين بدأ الرسول ﷺ الجهر بدعوته ، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يبدأ بإثبات وجود الله ، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو ، وتحدى العرب بصدقه ، ومن قبل ذلك ، حين فاجأه الملك في الغار ونزل الوحي ، ولم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحي ، بإثبات وجود الله ، وإنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، باسم ربه :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) .

ومضى القرن الأول كله ولم يحاول إنسان قط ، أن يتحدث حديثاً عابراً أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله ، تعالى ، ومضى أكثر القرن الثاني والمسألة - فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث ، ذلك أن وجود الله ، إنما هو أمر بدهى لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون نفيّاً أو إثباتاً ، ولا سلباً أو إيجاباً . إن وجود الله من القضايا المسلمة التي لا توضع ، في الأوساط الدينية ، موضع البحث : لأنها فطرية ، وأن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص في إيمانه دخل ، وفي دينه انحراف ، فما خفي الله قط حتى يحتاج إلى أن يشبهه البشر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم يجئ لإثبات وجود الله ، وإنما جاء لتوحيد الله . وإذا تصفحت القرآن ، أو التوراة حتى على وضعها الحالي ، أو الإنجيل حتى في وضعه الراهن ، فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت في سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية ، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية .

والقرآن الكريم يتحدث عن بدهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة ؛ يقول سبحانه : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : الله) .

إنهم يقولون : إن الخالق هو الله ، مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجود ، في إيمانهم بالله تعالى ، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله ، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله أو لتصحيح طريق التوحيد .

أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود ، فليست من ذلك في قليل ولا في كثير ، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبريائه وهيمنته الكاملة على العالم ، ما عظم من أمره وما دق منه ، لا تفوت هيمنته صغيرة ولا كبيرة ولا يخرج عن سلطانه ما دق وما جل .

وقد أتت على هذا الوضع ، لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله . إسلاماً كاملاً ، بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه . ولا يأتي ما يأتي أو يدع ما يدع إلا في سبيله ، تعالى .

ومضى القرن الأول على ذلك ، ومضى القرن الثاني أو أكثره على الفطرة . ثم .. ثم كانت الفلسفة اليونانية .

والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية ، لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي . وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة ، أي في عالم العقيدة ، إنما هي فكرة وثنية . أي أنها فكرة لا حق لها في الوجود . لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله ، بينه على لسان رسله ، وكل تدخل من الإنسان في هذا العالم . إنما هو تدخل فيما ليس للإنسان التدخل فيه ، لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة . لا ينبغي أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلهي .

إن الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة فلسفة وثنية ، إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله ، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية ، إنها وثنية بالمبدأ الذي

قامت عليه ، وهو مبدأ تأليه العقل البشرى ، ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته .

وهى حينما تثبت وجود الله عقلياً ، ليس فى ذلك كبير فائدة ، ولا يبرر ذلك وجودها ، ولا قيمة لما تثبته ، وإثباتها والعدم سواء ، ذلك أن العقل الذى أثبت هو العقل الذى يمكنه أن ينكر ، وهو العقل الذى ينكر بالفعل .
ولا لزوم إذن للطنطنة والتصفيق الذى نحى به كل عبقرية فكرية فى الشرق أو فى الغرب تحاول فكرياً أن تثبت وجود الله .

إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشرى مهما كان هذا الفكر عبقرىً ، ويجب على المؤمن ألا يقيم وزناً - أى وزن - لأى نتاج فكرى فى علم ما وراء الطبيعة ، سواء أخالف معتقده أم وافقه ، إنه فى معتقده يدين الله وحده ، وكفى بالله مصدراً ، وكفى بالله هادياً ، وكفى بالله مرشداً ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن يعتصم بالله فهو حسبه .

إن كل ما عدا الهدى الإلهى فى عالم الدين ، إنما هو وثنية وضلال .
كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية ، وقد أرادت أن تجد لجاماً يعصمها من الخطأ فاخترت فناً وثنياً آخر ، هو فن المنطق ، فما أجدى ولا أغنى ، ولا تقدم بالفكر الوثنى فى عالم الصواب شروى نقير .

وبقيت هذه الفلسفة - عبر القرون - على ما هى عليه ، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وخرافات .

ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر ، فما كان فى ربوعها دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة ، وما كان مثلها فى ذلك إلا كمثلى العصر الجاهلى فى الجزيرة العربية ، فلجأت إلى العقل وألهته ، وأخذت تثبت به وتنكر ، فضلت وأضلت .

وجاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع ، فزهت فكرة الألوهية عن تدنيس الوثنية ، وسمت بالله جل جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ، ثم تسالت إليها - كميكروب خبيث - وثنية اليونان ، فجعلت من وجود الله - مجرد وجود الله - باباً ضخماً من أبواب البحث ، أو من أبواب اللاهوت الكنسى ، ونزلت بذلك الفكرة الدينية المقدسة عن الله ، إلى مستوى الجو الوثنى البشرى !

وجاء الإسلام تطهيراً كاملاً للعقيدة وتزكية تامة للإيمان ، وأعلن بمجرد التسمية « الإسلام » الحرب على التدخل البشرى فى دين الله ورسالته .

فما « الإسلام » إلا الاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى : إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه ، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة لله ، وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر يسمى مؤمناً؟

إن الاسترسال مع الله على ما يحب ، هو الإسلام ، وهو الدين ولا دين غيره ، يقول الله تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) .

ويقول سبحانه : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) . وإن كل من لا يستسلم لله فى وحيه استسلاماً مطلقاً ، فإنه يبتغى - فى قليل أو فى كثير حسب انحرافه - غير الإسلام ديناً .

ولقد كان الإسلام توجيهاً ، وكان مبادئ .

ومن توجيه الإسلام : أن وجود الله لا يبتغى أن يوضع موضع البحث . وكل من وضعه موضع البحث فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشرى ، إنه يبتغى غير الإسلام موجهها ؟

وابتغى المسلمون الأول الإسلام توجيهاً ، كما ابتغوه مبادئ ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسالت الفلسفة اليونانية - كميكروب خبيث - إلى الجو الإسلامى . تسالت فى عهد المأمون ، وتولى كبر هذا التسلل المأمون ، وشجعه على ذلك معتزلة .

عصره ، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النور ، وحق لهم ذلك ، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة ، أى راية الدين الإلهى مرفوعة ، ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية في محيط العقيدة ، فتميل بهذه الراية ، قليلا أو كثيراً ، لترفع بجوارها راية أرسطو ، أو راية أبيقور .

ورفع المأمون راية الانحراف والوثنية بجوار راية الهداية المعصومة . وعارض المؤمنون واحتجوا وبينوا أن الوثنية ، ولو وافقت الدين ، فهي وثنية . ولكن النهج الوثنى أخذ يقوى شيئاً فشيئاً ، ثم طلب التصريح بالإقامة واستوطن . ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى - الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث - قد تلوث بالوثنية ، كلا ، وإنما الذى تلوث بالوثنية - وإلى حد كبير - إنما هو النهج والترعة والاتجاه فى البحث ومنهج البحث . وليس ذلك بالأمر الهين ، أو الذى لا يؤبه له ، كلاً ، فذلك له خطورته فى جانب قوة الإيمان وضعفه . وفرق بين أن تأخذ قضايا الوحي مأخذ المستسلم المسترسل معها على ما تريد ، وأن تأخذها مُحكِّماً فيها عقلك مؤولاً لها ، أو عادلاً بها إلى اتجاه خاص ، أو شارحاً لها على نزعة معينة .

وبتعبير آخر : فرق بين أن تصدر عن الوحي متفهماً له بعقلك ، وبين أن تصدر عن عقلك متفهماً للوحي ، ولعل بعض الناس لا يرى فرقاً فى التعبيرين ، ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنسانى ، فهو إما أن ينطلق عن الوحي قائداً العقل إلى الخضوع له ، وإما أن ينطلق عن العقل محاولاً تأويل الوحي بما يوافق النتائج التى وصل إليها العقل .

والأول طريق المؤمنين المسلمين ، والثانى طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين . والنهج الوثنى - نهج إثبات وجود الله - هو الذى أتاح الانحراف الكامل ، أى إنكار وجود الله ، فما دام النهج الوثنى قد أعطى حق الوجود ، فإن الوثنية

- كمنهج - تأتى بالوثنية كنتائج .

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث هو الذى هياً لذوى الفطر المنحرفة أن يلحدوا فى دين الله ، وأن يكفروا به سبحانه . وهذه نتيجة أولى .

أما النتيجة الثانية : فإنها ضعف الإيمان ، وإذا كنت تضع الوجود الإلهى - مجرد الوجود - موضع بحث ، فمعنى ذلك أنك وضعت موضع شك وريبة ، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث .

وإذا كان الوجود الإلهى - مجرد الوجود - موضع شك وريبة فماذابقى من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة ؟ إن الإيمان فى هذه الأوضاع الوثنية لا يتأتى إلا أن ينجو شيئاً فشيئاً حتى يصبح كلا إيمان .

وهذا هو ما حدث فى الأمة الإسلامية ، لقد وصل إيمانها إلى درجة يكاد معها أن يكون معدوماً . وما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثنى فى بحث قضايا الدين ومبادئه ، لقد أصبحت قضايا الدين ، كل قضاياها ، موضع بحث ، وهل يتأتى أن تبقى قضية من قضايا الدين فى مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله - مجرد وجوده سبحانه - موضع البحث ؟ نستغفرك اللهم ونتوب إليك .

ونعود فنقول : إن الدين فى نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز :
(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

ولكن الذى نشكو منه إنما هو النهج ، أو المنهج ، أو التزعة ، أو الاتجاه فى البحث ، إن الذى نشكو منه إنما هو : منهج البحث الوثنى ، وإذا شئت قلت : إنما هو منهج البحث اليونانى .

سئل أحد العارفين عن الدليل على الله . فقال : الله .

فقيل له : فما العقل ؟ فقال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى الذى جمع بين رئاسة

الشريعة ، ورئاسة الحقيقة فإنه يقول :

« إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك . أياكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟ »

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي أظهر كل شيء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي ظهر بكل شيء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي ظهر في كل شيء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أظهر من كل شيء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الواحد الذي ليس معه شيء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو أقرب إليك من كل شيء » .

« كيف يتصور أن يحجبه شيء ، ولولا ما كان وجود شيء » .

« شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله ،

فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا فتي

غاب حتى يستدل عليه ، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه » .

رحم الله أبا الحسن وجزاه الله ومدرسته خير الجزاء على هذا التوجيه السليم .

٥ - أجواء في القرآن الكريم

يقول الله تعالى في سورة لقمان :

(وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ

مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

إن أسرار القرآن الكريم لا يحصرها حاصر ، ولا يحيط بها محيط . وكل إنسان يفهم من أسرار القرآن على قدر استعدادة . وما من شك في أن المعنى المطلوب وجوباً اتباعه ، أو المطلوب وجوباً تركه ، واضح كل الوضوح ، لا لبس فيه ولا تعقيد .

بيد أن الإشارات الروحية والتوجيهات الإلهية للقلوب والبصائر من خلال القرآن الكريم لا يحيط بها عدّ ولا يأتي عليها الزمن .. ومن هنا كان صادقاً مايقوله أحد المفكرين وقد سئل عن خير تفسير للقرآن فقال : الزمن .

هذه الإشارات للقلوب والبصائر تنبع وتفيض وتزداد بنسبة زيادة الإيمان في تحقيق معنى العبودية لله سبحانه وتعالى .

وهي إشارات لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً ، إنها ليست من نوع تأويلات الباطنية ، هذه التأويلات المنحرفة ، والتي يهدمها من أساسها في سهولة ويسر عمل رسول الله ﷺ ، فقد طبق صلوات الله وسلامه عليه دين الله تطبيقاً هو الأسوة التي تحتذى ، والتي إذا خرج الإنسان عن دائرتها ، في الدين ، فإنه يكون خاطئاً ضالاً ، لقد أخرج رسول الله ﷺ وصحابته البررة الأصفياء الأوامر الإلهية والنواهي الإلهية عن دائرة النظريات إلى دائرة العمل ، وتحدد بذلك المعنى المقصود من الأوامر والنواهي تحديداً لا لبس فيه ، وكل تأويل إذن للأوامر والنواهي يخرجها عن أن تكون مطابقة لعمل الرسول ﷺ ، وعمل الصحابة فإنما هو تأويل باطنى ضال .

أما الإشارات التي تثبتها هنا فإنها إشارات روحية ترشد إلى معارج للروح تتسامى بازدياد الإنسان في القرب من الله عن طريق الاستقامة .

ولقد سمينا هذه الإشارات « أجواء » فإن لكل وليّ جوه الذي لا يتعارض مع جو الأولياء الآخرين ، وإن كان عبيره الزكى قد يختلف عن العبير الزكى الذي يشع من زميله . وما من شك في أن أريج الزهور المختلفة ، ذوات الروائح الجميلة ،

محبب كله ، مرغوب فيه جميعه ، ولكن الإنسان قد يميل بطبعه إلى نوع منها ، أكثر من ميله إلى نوع آخر .

ولم يفسر أبو الحسن القرآن تفسيراً كاملاً ، ولم يشرح صحيح البخارى أو صحيح مسلم ، ولم يرو مؤرخوه فى تفسير القرآن وفى شرح الحديث أشياء كثيرة . وقد حاولنا ، بقدر الاستطاعة ، أن نجمع من هنا وهناك ما تناثر من الدرر التى تتعلق بالقرآن أو بالحديث .

ولم يتيسر لنا - لقلتها - أن ننسقها باقات ، أو أن « نذهبها » مذاهب ، أو أن نقسمها فصولاً ، أو أن نلتزم فيها التحديد الموضوعى المحدد ، وسنرسلها دون أن نلتزم فيها أى ترتيب ، اللهم إلا ترتيب الذوق .

وهى عل كل حال بوضعها الذى هى عليه ، تعطى فى وضوح صورة عن جو أبى الحسن الروحى ، وتبعث فى النفس أسفاً شديداً على ما تطرق إلى مثيلاتها من إهمال أو نسيان .

١ - سئل رضى الله عنه عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : النقض لما انبرم .

٢ - وقال : إن أردت الصدق فى القول فأكثر من قراءة :
(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) .

وإن أردت الإخلاص فى جميع أحوالك فأكثر من قراءة :
(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) .

وإن أردت تيسير الرزق فأكثر من قراءة :
(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) .

وإن أردت السلامة من الشر فأكثر من قراءة :
(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) .

٣ - إذا كثرت عليك الخواطر والوسواس فقل سبحان الملك الخلاق :

(إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) .

٤ - إذا ورد عليك مزيد من الدنيا أو الآخرة فقل : (حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) .

٥ - من أجل مواهب الله : الرضا بمواقع القضاء ، والصبر عند نزول البلاء ، والتوكل على الله عند الشدائد ، والرجوع إليه عند النوائب ، فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة ومتابعة السنة والاعتداء بالأئمة ، فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين :

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ حِزِبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ) .

ومن خرجت له من خزائن المن على بساط المحبة ، فقد تمت ولاية الله له بقوله . (وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ) .

ففرق بين الولايتين ، فعبد يتولى الله ، وعبد يتولاه الله ، فهما ولايتان : « صغرى وكبرى » فولایتك الله خرجت من المجاهدة ، وولایتك لرسوله خرجت من متابعتك لستته ، وولایتك للمؤمنين خرجت من الاعتداء بالأئمة ، فافهم ذلك من قوله : (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنْ حِزِبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ) (٢٩) .

٦ - خصلة واحدة تحبط الأعمال ، ولا يتنبه لها كثير من الناس ، وهي سخط العبد على قضاء الله تعالى . قال تعالى :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) .

٧ - إذا ثقل الذكر على لسانك ، وكثر اللغو من مقالك ، وانبسطت الجوارح في شهواتك ، وانسد باب الفكرة في مصالحك ، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك ، أو لكون إرادة النفاق في قلبك .

وليس لك طريق إلا التوبة والإصلاح والاعتصام بالله ، والإخلاص في دين الله تعالى ، ألم تسمع قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) .

ولم يقل من المؤمنين ، فتأمل هذا القول إن كنت فقيهاً والسلام (٣٠) .

وقال رضى الله عنه في قوله تعالى :

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) .

ذكر توبة من لا يذنب لثلا يستوحش من أذنب ، لأنه ذكر النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا ، ثم قال : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا) ، فذكر من لم يذنب ليونس من قد أذنب ، فلو قال أولاً لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا لتفطرت أكبادهم .

٨ - وقال الشيخ أبو العباس ، رضى الله عنه ، كنت مع الشيخ في سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب ، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حملي ، فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه ، فلما أحس بى . قال : أحمد . قلت : نعم ياسيدى .

قال : « آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم - خمسمائة عام - ثم نزل به إلى الأرض ، والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله تعالى : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً) .

وما قال فى الجنة ولا فى السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله إلى الأرض ليعبده

بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة ، وأنت أيضاً لك قسط من آدم ، كانت بدايتك في سماء الروح في جنة المعارف فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة » (٣١)

٩ - (تَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ) .

أتراهم منع جنوبهم عن مضاجع النوم ، وترك قلوبهم مضجعة وساكنة لغيره ؟ بل رفع قلوبهم ، ولا يضاجعون بأسرارهم شيئاً ! فافهم هذا المعنى :
(تَجَافَى جُنُوبَهُمْ) عن مضاجعة الأغيار ومنازعة الأقدار .
(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا) : فالخوف منه قطعهم عن غيره ، وبالشوق إليه أطمعهم فيه .

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) ولو وسعني بسط الكلام ههنا لكتبت لك سجلات . لكن الحق قهر القلوب بقدرته ، وأنعشها بحكمته ، وأغناها بمناجاته عن مخاطبة خلقه !

١٠ - من سوء الظن بالله أن يستنصر بغير الله من الخلق . قال تعالى :
(مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنَّ لَنَ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) .

١١ - إذا عرض لك عارض يصدك عن الله فاثبت ، قال الله تعالى :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

١٢ - من النفاق : التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك .
ومن الشرك بالله : اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله .

قال الله تعالى : (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)
 ١٣ - مراكز النفس أربعة : مركز للشهوة في المخالفات ، ومركز للشهوة في
 الطاعات ، ومركز في الميل إلى الراحة ، ومركز في العجز عن أداء المفروضات .
 (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ
 مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ) .

١٤ - من الشهوة الخفية للولي إرادته النصر على من ظلمه ، وقال تعالى
 للمعصوم الأكبر عليه السلام : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ) .
 أى فإن الله تعالى ، قد لا يشاء إهلاكهم .

١٥ - من أحصن الحصون من وقوع البلاء على المعاصي : الاستغفار ، قال الله
 تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
 يَسْتَغْفِرُونَ) .

١٦ - لو علم نوح عليه السلام أن في أصلاب قومه من يأتي يوحد الله ، عز
 وجل ، ما دعا عليهم ، ولكن قال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » كما
 قال رسول الله صلى الله عليه وآله فكل منهما على علم وبينه من الله تعالى .

١٧ - قرأت ليلة قوله تعالى :
 (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّهُمْ لَنْ يُعْثُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) .
 فتمت ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول :
 « أَنَا مِمَّنْ يَعْلَمُ ، وَلَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » .

١٨ - سمعت الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي
 فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » فأشكلى على معناه ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله
 وهو يقول لى : « يَا مَبَارَكَ ذَاكَ غَيْنُ الْأَنْوَارِ لَا غَيْنُ الْأَغْيَارِ » .

١٩ - سمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ :

« من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع له عمل » ، فكثت سنة أظن أنه لا يرفع لى عمل ، أقول : ومن يسلم من هذا ، فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول لى : « يا مبارك أهلك نفسك فرق بين خطر وسكن » .

٢٠ - « اعلم » أيدك الله بنور البصيرة ، وصفاء السريرة ، أن رسول الله ﷺ قيل له : من أولياء الله يا رسول الله ؟ قال الذين إذا رُئُوا ذُكِرَ الله . فافهم معنى قوله إذا رُئُوا . فاعدل عن رؤية الأجسام إلى رؤية المعانى والأفهام عدولا كاملا عن رؤية البصر العامة التى تقع الشراكة فيها مع الأنعام التى لا بصيرة لها . واهتد بنور الله المستودع فى القلوب الذى به نظروا واعتبروا ووقفوا وتحققوا ولا تكن مثل أولئك الذين قال الله تعالى فيهم : (وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) .

هذا صريح فى أطيب الخلق وأبصرهم ، وبه وبنوره وبطيبه طاب كل شىء . وإنه لأمر عجيب فى إثارة الطيب ، لاتفاق العلماء أن رائحته أطيب من كل طيب . فافهم وادخل فى ميدان معرفته ﷺ تسليماً .

ومالك لا تقول كما قال : « والله ما أكل إلا لنا ، ولا شرب إلا لنا ، ولا نكح إلا لنا ، كذلك لا يطيب إلا لنا . فهو إذن أصل كل طيب ، وبهاء كل معدن . وهو معدن المعادن ، فاقتبس من نوره ، واغترف من بحره ، واشرب من معرفته ، وتزين بطاعته تكن الأشياء طوع يدك » .

٢١ - العارف من عرف شدائد الزمان فى الألفاف الجارية من الله عليه ، وعرف إساءة نفسه فى إحسان الله إليه : (فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

٢٢ - (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) .

فسر سهل بن عبد الله هذه التقوى من الحول والقوة ، وعدل عما تزين به البطالون من ظاهر التقوى مع دنس باطنه وهذا صحيح فى عبد ظاهر المعاصى

والشهوات ومحمل نفسه على أنواع الطاعات ، وقد سد الأفق بالدعاوى ، وأضاف الحول والقوة إلى نفسه ، فهذا عبد قد جاوز الحدود وأعظم القرية والعجب ، فلا يقوم خيره بشره ، والمحققون ينسبون له (٣٢) الأشياء وينظرون إلى البواعث والخمار ، فإذا فقدت الخمار علموا أن علمه وعمله مدخولان . وإذا فقدت البواعث الصحيحة في الأصول فلا يعتبرون بأعمالهم ، قال الله عز وجل :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) .

فيا مدعى التقوى أين المخرج ؟ فإذا رأيت المخرج « ثمرة لتقواك وذلك » بوعد الله وضمانه « فأنت على الصواب والخير » وإذا لم تجد بتقواك إلا تحيراً فمن الصادق ومن الكاذب ؟

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) ، (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

ولا يصح التوكل إلا لمتق . ولا تتم التقوى إلا للمتوكل .
فدققوا النظر في البواعث والأصول والخمار ، والله يحب الصابرين .

٢٣ - جاء في الحديث :

« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .
فإذا كان الحق سبحانه قد رضى لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألته فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره والثناء عليه عن الانتصار لنفوسهم .

ومن عرف الله سد عليه باب الانتصار لنفسه ، إذ العارف قد اقتضت له معرفته ألا يشهد فعلاً لغير معروفه ، فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعلاً فيهم ، وكيف يدع أوليائه من نصرته وهم قد ألقوا نفوسهم بين يديه مسلمين

ومستسلمين لما يريد منهم حكماً ، فهم في معاقل عزه تحت سرادقات مجده يصونهم من كل شيء إلا من ذكره ، ويقطعهم عن كل شيء إلا عن حبه ، ويختارهم من كل شيء إلا من وجود قربه ، ألسنتهم بذكره لهجة ، وقلوبهم بأنواره بهجة ، وطناً لهم وطناً بين يديه ، فقلوبهم جاثمة في حضرته ، وأسرارهم محققة بشهود أحديته .
 ٢٤ - رأيت كائى في عليين مع الملائكة المقربين في نعيم لا أبغى عنه بدلا .
 فقالوا : سر إلى الزيادة . فسرت معهم ، فدخلت في موطن كريم لا أقدر على وصفه طامعاً في الشهود فإذا أنا بشهود لا أقدر على وصفه .

ف قيل : من كفت جوارحه عن معصيتي ، وزيتته بحفظ أمانتي ، وفتحت قلبه لمشاهدتي ، وأطلقت لسان سره لمناجاتي ، ورفعت الحجاب بينه وبين صفاتي ، وأشهدته معاني أرواح كلماتي ، فقد زحزحته عن النار وأدخلته جنتي ، وفاز بقربي وصحبته ملائكتي : (فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) .
 فهذه جنة معجلة لأهل الإيمان البالغ يقيناً ، وسيدخلونها يوم الجزاء بأبدانهم ذوقاً وحساً وعياناً ، ثم أناديهم بالعبرة والإشارة واللفظ والحقيقة :
 (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ) .
 ٢٥ - الكاملون : حاملون لأوصاف الحق ، وحاملون لأوصاف الخلق . فإن رأيتم من حيث الخلق رأيتم أوصاف البشر .

وإن رأيتم من حيث الحق رأيتم الأوصاف التي زينهم بها .
 فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، تخلقاً بأخلاق رسول الله ﷺ ، قال تعالى : (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) . أفتراه أغناه بالمال ؟

كلا ، وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وأطعم الجيش كله من صاع ، وخرج من مكة على قدميه ليس معه شيء ، يأكله ذوكبد إلا شيء يواريه إبط بلال .

٢٦ - من النفاق التظاهر بفعل السنة والله يعلم منه غير ذلك ، ومن الشرك بالله

اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله ، قال الله تعالى :

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) .

٢٧ - العلوم التي وقع الثناء على أهلها وإن جلت ، فهي ظلمة في علوم ذوى

التحقيق وهم الذين غرقوا في تيار بحر الذات ، وغموض الصفات ، فكانوا هناك

بلاهم ، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل ، عليهم الصلاة

والسلام في أحوالهم ، فلهم فيها نصيب على قدر إرثهم من مورثهم ، قال النبي

ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام .

أى يقومون مقامهم على سبيل العلم والحكمة لا على سبيل التحقيق بالمقام

والحال ، فإن مقامات الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، قد جلت أن يلمح

حقائقها غيرهم .

٢٨ - كل وارث في المنزلة الموروثة لا يكون إلا بقدر مورثه فقط ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) كما فضل بعضهم على بعض كذلك

فضل ورثتهم على بعض ، إذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعين للحق وكل عين

يشهد منها على قدرها ، وكل ولى له مادة مخصوصة .

٢٩ - لا تختار من الأمر شيئاً واختراً لا تختار ، وفر من ذلك المختار فرارك من كل

شئ إلى الله تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) .

وكل مختارات الشرع وترتيباته فهي مختار الله ، وليس لك منه شئ ، ولا بد

لك منه ، واسمع وأطع ، وهذا موضع الفقه الربانى والعلم الإلهى ، وهى أرض لعلم

الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى ، لمن استوى ، فافهم !

٣٠ - وقال رضى الله عنه : هممت أن أدعو على ظالم فنوزعت في ذلك .

فرايت أستاذى رضى الله عنه يقول لى : إن الله إن يشأ إهلك ظالم فلا تستعجل

له . فالاستعجال بالهلاك للأعداء وإرادة النصر للأولياء من الشهرة الخفية . ومن أظلم ممن ينازع إرادة مولاه ، وتبع شهوة نفسه وهواه ، وقد أمر المعصوم الأكبر صلوات الله عليه ، ونهى بقوله تعالى :

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) .

وبقوله تعالى : (فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) .

فالإيمان محو الصفات بالصفات ، والأسماء بالأسماء ، وتفريق الذوات بالذوات ؛ لتحقيق ما هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فأى شيء كان معه آخراً حتى يكون معه أولاً ، وأى شيء كان معه ظاهراً حتى يكون معه باطناً ، فما ثبت من المخلوق في إثباته ، وما مُحى فبمشيئته وإرادته ، وخذ ذلك من قوله تعالى : (يَمْنَحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) .

وهو العلم الأول وعنه صدر كل علم وكتاب .

٣١ - وقال رضى الله عنه : إن أردت أن تنظر ببصر الإيمان والإيقان دائماً فكن لنعم الله شاكراً وبقضائه راضياً .

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) .

٣٢ - قرأت سورة الإخلاص والمعوذتين ذات ليلة ، فلما انتهيت إلى قوله تعالى : (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) .

رأيت بعد ذلك يقال لى : شر الوسواس ، وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ، وينسبك أفعالك الحسنة ، ويكثر عندك ذات الشمال ، ويذكرك أفعالك السيئة ، ويقلل عندك ذات اليمين ، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله .

٣٣ - ألقى بنفسك على باب الرضا ، وانخلع عن عزائمك وإرادتك حتى عن

توبتك بتوبته ، قال الله تعالى : (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) .

٦ - الطريق الصوفي

إن كلمة الإسلام التي وضعت اسماً للدين عند الله ، الدين الذي لا يقيد زمن ، ولا يحده مكان ، تتضمن في مفهومها الكريم المعاني الأخلاقية السامية ، فإنها تعني إسلام الوجه لله ، وتتسع لأقصى ما يتطلبه الذهاب المجد في السير إلى الله ، لقد سئل رسول الله ﷺ - في حديث صحيح من مرويات الإمام مسلم - عن الإسلام فقال صلوات الله وسلامه عليه : « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويديك » .

وإسلام القلب لله إسلاماً كلياً على قدر الاستطاعة التي تناسب كل فرد ، والتي تختلف في الأفراد لاختلاف طبائعهم ، إنما هو هدف الصوفي .
ولقد كان إسلام القلب لله هدف أبي الحسن ، هدفه لنفسه ، وهدفه للآخرين ، وهو حينما وصل في مجاهداته إلى إسلام قلبه ، لمولاه حاول ما استطاع أن يصل باتباعه إلى ذلك ، فأخذ يشر بكل ما يؤدي إلى هذا المعنى .

والجو الذي يعيش فيه أبو الحسن إذن إنما هو جو :

عبودية : وهل العبودية إلا إسلام الوجه لله ؟

وتوكل : وهل التوكل إلا التعبير عن إسلام الوجه لله ؟

وإخلاص : وماذا يكون إسلام الوجه لله إن لم يكن على الإخلاص ، وإن لم

يشمر الإخلاص ؟

ومحبة : وهل يتأتى إسلام الوجه لله إلا عن المحبة له تعالى ؟ ..

وإسلام الوجه لله يسبقه ويرافقه الذكر والعبادة .

وأخذ أبو الحسن يقود الناس إلى إسلام الوجه لله بالمثال والقُدوة ، وبالحديث

والشرح . وبين لهم أنهم إذا أسلموا وجههم إليه كانوا في كفالته ورعايته . وكانوا بذلك في أمن وسلام . (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم) .

وأراد أبو الحسن أن يسير بحسب استعداده للعروج ، وهو يصف القمة وهم أهل الله وخاصته بهذه الكلمات الجميلة :

« أما أهل الله وخاصته ، فهم قوم جذبهم عن الشر وأصوله ، واستعملهم في الخير وفروعه وحبب إليهم الخلوات ، وفتح لهم سبيل المناجاة ، فتعرف إليهم فعرفوه ، وتحبب إليهم فأحبوه ، وهداهم السبيل إليه فسلكوه فهم به وله ، لا يدعهم لغيره ، ولا يحبون عنه ، بل هم محجوبون به عن غيره ، لا يعرفون سواه ، ولا يحبون إلا إياه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » اهـ .

وليس كل الناس يستطيع ذلك ، ولا يطمع أبو الحسن أن يصل بهم جميعاً إلى هذا ، ولكن إذا كانت طبيعة الأمور تأبى التسوية في الطبائع فإنها لا تأبى إشاعة جو من النور والعبودية والإخلاص يقبس منه كل بحسب استعداده .

ويحسن بنا قبل رسم الطريق الصوفي أن نتحدث عن التصوف في رأى أبي الحسن ، يقول رضى الله عنه :

التصوف تدريب النفس على العبودية ، وردها لأحكام الربوبية .

وهذا التعريف يشبه التعريف الذى ذكره الخلدی المتوفى سنة ٣٤٨ هـ للتصوف وهو : طرح النفس فى العبودية والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية . ويشبه التعريف الجميل للتصوف الذى ذكره روم « المتوفى سنة ٣٠٣ هـ » وهو : استرسال النفس مع الله تعالى على مايريد .

وهذه التعريفات للتصوف إنما هي تعريفات بالوسيلة ، أى أنها على الخصوص تعريف للطريق الذى يؤدى إلى الغاية ، وليست تعريفاً للغاية .

ومن أجل أنها تعريف للطريق أتى تعريف « الصوفى » فى رأى أبى الحسن متساوياً لتعريفه للتصوف فهو يقول عنه : الصوفى فيه أربعة أوصاف :

(أ) التخلق بأخلاق الله عز وجل .

(ب) المجاورة لأوامر الله .

(ج) ترك الانتصار للنفس حياءً من الله .

(د) ملازمة البساط بصدق البقاء مع الله .

وما من شك فى أن هذه الأحاديث عن التصوف ، وبعبارة أدق عن الطريق الصوفى ، تتساوى وتتكامل مع ما يتحدث به أبو الحسن عن الصديقين ، وعن قربهم من الحق سبحانه ومشاهداتهم فى الملا الأعلى ، وبذلك تكمل الصورة عن التصوف وهى :

١ - تصفية النفس كوسيلة .

٢ - وقرب ومشاهدة كغاية .

والتصوف يتضمن الوسيلة والغاية ، أو الطريقة والحقيقة .

لنأخذ الآن فى رسم الطريق ، ونحن فى رسمنا هذا إنما نرسم على الخصوص .

« جواً » روحياً ، إنما نحاول نشر عبير ، ونحاول نفث أريج نأمل أن يهبى الله لتنسمه الكثيرين من عباده وأن يهدى له ، ويهدى به .

وسنحاول - ما أمكن - رسمه بأسلوب أبى الحسن نفسه ونرجو من الله

التوفيق :

١ - الإخلاص :

يقول الله تعالى : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) ، وهو سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ومن أجل ذلك لا بد من الإخلاص ؛ وهو في ذروته .
 « نور من نور الله استودعه قلب عبده المؤمن فقطعه به عن غيره ، فذلك هو الإخلاص الذي لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله » . وإلى ذلك الإشارة بقوله ، عز وجل ، فيما يحكى عنه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ : « الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

والإخلاص على ضربين :

(أ) إخلاص الصادقين .

(ب) إخلاص الصديقين .

فإخلاص الصادقين : لطلب الأجر والثواب (٣٣) .

وإخلاص الصديقين : وجود الحق مقصوداً به ، لا شيء غيره ، ولا شيء من غيره .

ويتحدث أبو الحسن عن صفات المخلصين فيقول :

رجال جبلهم على حسن عبوديته ، وأخلصهم لإخلاص توحيد ربوبيته ،
 واتباع شريعته ، فيما منع أسرارهم بأنوار حضرته ، وأمد أرواحهم بمعاني المعارف ،
 وخصائص عنايته ، وأجال عقولهم في عظمتهم . وزكى نفوسهم فأحرزها وأخرجها
 من ظلمة الجهل ، وهداهم بنجوم العلم وشمس معرفته ، وأيد عقائدهم ببرهان

(٣٣) درة الأسرار ١١٢ : ١١٣ .

كتابه وسنته . ومحا عزائمهم بتحقيق غلبة مشيئته . وطوى إرادتهم بتيقن وقفها على إرادته وزينهم بزينة الزهد ، ومحلية التوكل ، وشرف الورع ، ونور العلم ، وضياء المعرفة ، وألهمهم لفضله وطوله . وتولاهم فأغناهم به عن غيره .

وجعل منهم مفاتيح لقلوب الورى ، وينابيع الحكمة الكبرى يتلقونها شرعاً ويلقونها لأهلها سرّاً وجهراً . ومنهم من سترته الأقدار ، وحجبته عن الأغيار ، لينفرد بالتمكن فى حقيقة الأسرار . تعرف كلاً بسياهم ، باطنهم مع الحق وظاهرهم مع الخلق ، فهم هم ، ولا هم هم فى الوجود ، بوصف الغناء ظاهرين . صفوا وافترقوا فى سيرهم . سنناً ، ظاهرهم الفقر وباطنهم الغنى ، يتخلقون بأخلاق نبيهم ﷺ كما قال العلى الأعلى : (وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

أفتراه أغناه بالمال ؟ كلا ، وقد شد الحجر على فؤاده ، وأطعم الجيش من صاع ، وخرج من مكة على قدميه ﷺ ، وركب فوق البراق وعرج به إلى السماء العلا إلى سدره المنتهى ، ورأى ما رأى ، ما كذب الفؤاد ما رأى .

فانظر إلى حال الغنى فى الوصفين . واشهد شرف أوصافه فى الحالين . فإن قلت بشر ؟ قلت نعم لا كالبشر ، كما تقول فى الياقوت حجر لا كالحجر .

وفى العباد نبى ورسول يدعو بالحق إلى الحق . فأعطى الأولياء منه ميراثاً من النبئين بين الخلق . إذ هم قوم أخذوا فى التأسى بجد وإتيان . واعتقدوا قول : كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما هو عليه كان ، وأقاموا فى مقام التوحيد ، على قدم التجريد من حظوظ النفس وملاحظة الحظوظ ، واقتداء بالسلف رضى الله عنهم . هذا قصد القوم ، وأصل فى الإخلاص والتخصيص فيما لو نظرت إلى حقيقة ذلهم وافتقارهم الذى هو عين العز والغنى بمولاهم ، اشتد تحقيق حالهم إلا على ولى فى نهايته ، أو صديق ولو فى بدايته ، لأن غايات الأولياء بداية الصديقين .

فخذ السر جهرًا إليك ، واحبس عليه بكلتا يديك . ولا تكثر بحسادك فقد قال لنبیه علیه السلام : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) . حتى قال له : (ومن شر حاسدٍ إذا حسدَ) . ولا تسألني أن أقطعه عليك ، فكأنه عز وجل يقول له : سلني أن أكفيك شر حسادك ولا تسألني أن أقطعهم عنك ، فإن الحساد مع النعم ، ولا بد من نعمة عليك فتأس يامسكين إن أردت الشفاء . فلعله أن يقع بكشف خطاب ولا تطمع أن يقع مع الحجاب .

٢ - التوبة :

وأول ما يبدأ به المرید السالك إلى الله الذي يريد إسلام وجهه إليه إنما هو التوبة ، وتبدأ التوبة بالاستغفار ، وحقيقة الاستغفار ألا يكون لك مع غير الله قرار ، وهو بهذا الوضع أمان للمستغفر من عذاب الله ، قال تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) .

٣ - النية :

ولا بد في كل عمل يأتيه الإنسان - بل كل أمر يتركه - من النية ، ومن الإخلاص في النية ، وذلك لكي يترتب الأجر والثواب من الله على العمل ، ويقول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والنية ، والقصد ، والعزم ، والإرادة ، والمشئة ، كل ذلك بمعنى واحد ، أو يجب أن يكون بمعنى واحد .

وحقيقة النية عدم غير النوى عند الدخول فيه ، وكما لها استصحاب ذلك على

الكمال ، ووقت النية عند افتتاح العمل ، وكيفيتها ارتباط القلب مع الجوارح .
يقول ﷺ : « من صلحت نيته صلح عمله » .

فحسن النية فيما بينك وبين الله بتوجيه القلب بالتعظيم لله ، والتعظيم لأمر الله
والتعظيم لما به أمر .

وفما بينك وبين العباد توجيه النفوس بالنصيحة لهم ، والقيام بالحقوق ، وترك
الحظوظ ونبذ العوارض مع الصبر لله والتوكل على الله (٣٤) .

ومهما يكن من شيء فإنه بمقدار الإخلاص في النية يكون الثواب ويكون
الترقى .

٤ - الطريق القصد إلى الله تعالى :

والطريق القصد إلى الله تعالى أربعة أشياء ، من حازها فهو من الصديقين
المحققين ، ومن حاز منها ثلاثاً فهو من الأولياء المقربين ، ومن حاز منها اثنتين فهو
من الشهداء الموقنين ، ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصالحين .

أولها : الذكر وبساطة العمل الصالح ، وثمرته النور .

وثانيها : التفكير ، وبساطة الصبر ، وثمرته العلم .

وثالثها : الفقر (٣٥) وبساطة الشكر وثمرته المزيد منه .

ورابعها : الحب ، وبساطة بغض الدنيا وأهلها (٣٦) ، وثمرته الوصل بالمحبوب .

(٣٤) درة الاسرار ص ١٥٤ .

(٣٥) الفقر مما سوى الله إلى الله .

(٣٦) بغض الدنيا على أنها شهوات ، وبغض أهل الدنيا اللاهين العابثين .

٥ - الخلوة :

وأخذاً في هذا الطريق القصد إلى الله ، وتدعيماً للتوبة ، وتثبيتاً للإخلاص ،
يحسن أن يخلو الإنسان وربّه فترة من الزمن ، هي فترة العزلة ، أو فترة الخلوة ،
أو فترة الكهف ، أو فترة الغار : يلزم فيها : « الذكر والمراقبة والتوبة
والاستغفار » .

ومهما خالط سره شيء من ذنب أو عيب ، أو نظر إلى عمل صالح أو حال
جميل ، فيجب عليه المبادرة إلى التوبة والاستغفار من الجميع ، أما من الذنب
فواجب شرعاً ، وأما من غيره فاعتباراً باستغفار النبي ﷺ تسليماً بعد البشارة
واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، هذا من معصوم لم يقترب ذنباً قط فما
ظنك بمن لا يخلو من ذنب أو عيب في وقت من الأوقات .

أما ثمرة العزلة فهي الظفر بمواهب المنّة وهي أربعة : كشف الغطاء ، وتنزل
الرحمة ، وتحقيق المحبة ، ولسان الصدق في الكلمة ، قال الله تعالى :
(فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ اسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا
نَبِيًّا ، وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) .

٦ - الجهاد :

ولابد للمريد من الجهاد .

لابد له من جهاد العدو ، ومن أراد ألا يكون للشيطان عليه سبيل فليصحح
الإيمان والتوكل ، والعبودية لله ، وليستعذ به سبحانه ، قال تعالى :
(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .
وقال تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) .

وقال تعالى : (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) . ولعلك تسأل عن كيفية تصحيح الإيمان فاعلم أنه :
 بالشكر على النعماء ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء .
 أما صحة التوكل فإنها : بهجران النفس ^(٣٧) ، ونسيان الخلق ^(٣٨) ، والتعلق بالملك الحق ، وملازمة الذكر ، وإذا عارضك عارض يصدك عن الله فاثبت ، قال الله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .
 أما تصحيح العبودية فإنه بوضوح الفكرة عن حقيقة الصفات الإنسانية ، وحقيقتها أنها فقر بالنسبة إلى الله تعالى ، وعجز بالنسبة إلى قوته ، وذل في مقابلة عزه سبحانه . ومهما يكن من شيء فإن مخازي الشيطان أربعة :

- ١ - إما أن تجلس متفكراً فيما يقربك إلى الله فتأتيه .
- ٢ - أو مفكراً فيما يبعدك عنه فتجتنبه .
- ٣ - وإما أن تجلس متفكراً فيما سبق من حسن عملك فتشكر وتستغفر .
- ٤ - وإما أن تجلس متفكراً فيما سبق من ذنوبك فتستغفر وتشكر .

٧ - النفس :

والحديث عن الشيطان يستتبع الحديث عن « النفس » ومراكز النفس أربعة :

- ١ - مركز للشهوة في المخالفات .
- ٢ - ومركز للشهوة في الطاعات .
- ٣ - ومركز في الميل إلى الراحة .

(٣٧) أى التزغات السيئة .

(٣٨) ونسيان الخلق باعتبارهم ، فإن المؤثر الوحيد هو الله .

٤ - ومركز في العجز عن أداء المفروضات .

(فَاَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ) .

وإذا أردت جهاد النفس فاحكم عليها بالعلم في كل حركة^(٣٩) واضربها بالخوف عند كل خطرة واسجنها في قبضة الله أينما كنت ، واشك عجزك إلى الله كلما غفلت ، فهي التي لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، فإن سخرت لكم في قضية فجددوا أن تذكروا نعمة الله عليكم وتقولوا :

(سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) .

ومهما يكن من شيء فإن موت النفس يكون بالعلم والمعرفة والاقتداء بالكتاب والسنة ، وعلاج من انقطع عن المعاملات ولم يتحقق بحقائق المشاهدات أربعة : طرح النفس على الله طرْحاً لا يصحبه الحول والقوة ، والتسليم لأمر الله تسليماً لا يصحبه الاختيار مع الله . هذان علاجان باطنان .

وذم الجوارح عن المخالفات ، والقيام بحقوق الواجبات . وهذان علاجان ظاهران .

ثم يقعد على بساط الذكر بالانقطاع إلى الله عن كل شيء سواه لقوله تعالى : (وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِلاً) .

٨ - الدنيا :

وحينما يذكر الشيطان ، وتذكر النفس ، فإنه تذكر الدنيا . والدنيا التي لا حساب عليها في الآجل ، ولا حجاب معها في العاجل هي التي

(٣٩) أي جعل حركاتها تابعة للعلم بما يجب عمله أو يجب تركه .

لا إرادة لصاحبها فيها قبل وجودها ، ولا معها لها مع وجودها . ولا أسف عليها عند فقدها .

والحر الكريم من يأخذها منه على المواجهة ويدعها به على المواجهة ، لا أثر للأغيار على قلبه ، هذا مايقوله الشاذلى عن الدنيا ، وكل ما تريده الصوفية إنما هو الابتعاد عن أن يكون الإنسان عبداً للدنيا ، ولا مانع عندهم أن يكون الإنسان من أصحاب الملايين إذا لم يكن قلبه متعلقاً بالدنيا فى إقبال أو إدبار ، ووجهتهم تحقق الآية القرآنية الكريمة : (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) . ومع أننا تحدثنا عن « الدنيا » فى نظر الصوفية فإننا نريد أن نزيد الأمر وضوحاً ، وذلك لأنه يلتبس دائماً الأمر فى موضوعها عند الصوفية على كثيرين . إن الدنيا المقبوتة عند الصوفية إنما هى الدنيا التى تشغل وتلهى وتستعبد ، إنها الشهوات والترعات والأهواء ، إنها اللعب واللهو والغفلة عن الله .

أما امتلاك المال ، واقتناء العقار ، والثراء عريضاً أو غير عريض ، فلا مانع منه عند الصوفية إذا خلا من المضار ، يقول أبو الحسن ضارعا إلى الله داعياً : اللهم وسع أرزاقنا ، وكثر أضيافنا ، واجعلنا من المتقين فى سبيل مرضاتك قصداً بلا إسراف ولا تقير ، ووفقنا لذلك ، واهدنا بهدايتك ، وأخلصنا بإخلاصك عن إخلاصنا وقنا من الشح والبخل والمن ، ومن التهمة فى الرزق (٤٠) . وقال رضى الله عنه : اعرف الله ثم استرزقه من حيث شئت غير مكب على حرام ، ولا راغب فى حلال .

ومن الدعاء الجميل لأبى الحسن ، الدعاء الذى يستتج منه الإنسان الرأى الحقيقى للصوفية فيما يتعلق بالدنيا ، قوله :

يا الله ، يا ولى ، يا نصير ، يا غنى يا حميد ، أعوذ بك من دنيا لا يكون فيها نصيب لوجهك ، ومن عمل آخرة يكون فيها حظ لغيرك .
وأعوذ بك من كل حركة تعرى من الاقتداء بسنة رسولك ، ومن كل ضرورة لا تؤدى إلى حقيقة معرفتك .
واعكف قلبى فى حضرتك ، واغنى عن رعايتى برعايتك ، إنك على كل شىء قدير^(٤١) .

٩ - العبودية :

وإذا أكرم الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب فى عبوديته ، والحظوظ عنه مستورة مع جريان ما قدر له منها ، ولا يلتفت إليها كأنه فى معزل مشغول عنها .
وإذا أهان الله عبداً فى حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته ، فهو يتقلب فى شهواته ، وعبوديته لله عنه بمعزل ، وإن كان يجرى منها شىء فى الظاهر .
والعبودية هى امتثال الأمر واجتناب النهى ، ورفض الشهوات والمشيتات ، فمن وصل بتطهير قلبه عن الشيطان والنفس والدنيا وبكثرة الذكر إلى العبودية فقد ظفر بخير عميم .

١٠ - الطاعات :

والعبد الذى أكرمه الله بالعبودية يؤدى كل طاعة فى وقتها ذلك أن لكل وقت

(٤١) درة الأسرار ص ١١١ .

سهماً في العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية ، فلا تؤخر طاعة وقت لوقت فتعاقب بفوتها أو بفوت غيرها .

وفائدة الطاعات والمحافظة عليها لا تنكر ولقد قيل لأبي الحسن مرة :
 ما الذي استفدت من طاعتي ، وما الذي استفدت من معصيتي . فقال :
 استفدت من الطاعة العلم الزائد والنور النافذ والمحبة .
 واستفدت من المعصية : الغم والحزن والخوف والرجاء .
 وعليك أيها الأخ بالمطهرات الخمس في الأقوال ، والمطهرات الخمس في الأفعال ، والتبري من الحول والقوة في جميع الأحوال ، وغص بعقلك إلى المعاني القائمة بالقلب ، وانخرج عنها وعنه إلى الرب ، واحفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، واعبد الله بها وكن من الشاكرين .
 والمطهرات الخمس في الأقوال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
 والمطهرات الخمس في الأفعال هي : الصلوات الخمس ، والتبري من الحول والقوة هو قولك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإيمانك بها .

١١ - درجات ودرجات :

ومن علم اليقين بالله ، وبمالك عند الله أن تتعاطى بين الخلق مالا تصغره عند الحق وإن صغرت به في أعين الخلق بلا اعتراض من الشرع ولا منازعة من الطبع ، بل من عين اليقين نسيان الخلق عند هجوم الشدايد وتتابع الفوائد بسواطع الشواهد .

بل من حق اليقين الغرق في الشيء كأنك نفس الشيء ، كمن اضطر إلى رؤية البحر فركبه . وانكسرت سفيته فتلاطمت عليه أمواجه ، فمنهم بعد من يفنى

ويذهب مع الذاهبين وينقل إلى درجات عليين .
 ومنهم من يحيا ويبقى مع الباقيين ، لاحظ للمقتدى فيه بل هو مستور عن الخلق
 أجمعين . ومنهم من يحيا ويبقى مع الباقيين ، لاحظ للمقتدى فيه بل هو في
 الوصفين ، قدوة للثقلين . ومنهم الإمام الأكبر الفرد القطب الغوث الجامع المختص
 بالأسماء والصفات والأنوار والأخلاق ، وما لا يسع أن يسمعه سامع .
 ومن دونهم ممن لا درجة له مع الأولياء والأتقياء والعباد والزهاد ومن أهل
 النظر بالدليل والبرهان ، ولم يطلع بعد على الكشف والعيان .
 ومن دونهم أهل الوسائل بالأعمال والأحوال ، وأهل التخليط في الأقوال
 والأفعال . (وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) .

١٢ - الذكر :

وعلى المريد السالك الأخذ في الذكر :
 « وعليك أيها الأخ بالذكر الموجب للأمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة
 وتمسك به وداوم عليه » وينصح أبو الحسن بالإكثار من صيغة من الذكر وهي :
 الحمد لله ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .
 ويقول رضى الله عنه : اجمع بين هذه الأذكار الثلاثة في عموم الأوقات
 وداوم عليها تجد بركتها إن شاء الله . فإذا ما فرغ الإنسان لسانه للذكر ، وقلبه
 للشكر ، وبدنه لمتابعة الأمر فهو من الصالحين .
 ويرى الصوفية أنهم مهما أشادوا بالذكر ، وتحدثوا عن فوائده ومزاياه فإنهم
 لا يوفونه حقه . إنهم يرون أنه - بعد التوبة والإخلاص - الباب إلى الترقى في
 الدرجات وقطع المنازل وطى المسافات إلى المعارج والقربات وإلى الفتح
 والإلهامات .

يقول الإمام القشيري :

الذكر ركن قوى فى طريق الوصول إلى الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة فى طريق القوم ، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر .
ومن أجل ذلك كان اهتمام أبى الحسن بالذكر كبيراً ، وكان ماروى عنه فى ذلك كثيراً .

ولقد حاولنا - فى الحدود المحدودة بالنسبة لحجم هذا الكتاب - أن نذكر ، فى الفصل الذى عقدناه عن الذكر ، إشراقات مختارة من ذلك لعل الله ينفع بها .

١٣ - الورع :

فإذا ما كان الذكر كانت الأحوال وكانت المقامات ، فمن ذلك الورع .
والورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه .
فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله ، والقول بالله ، والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة .

فهم فى عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ، ولا ينطقون ، ولا يبسطون ، ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله والله من حيث يعلمون ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى حين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ، ولا فيما هو أدنى ، وأما أدنى الأدنى فالله يورّعهم عنه ثواباً لورعهم مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم ، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنياً أو مصروف بدعوى ، وميراثه التعزى لخلقه والاستكبار على مثله ، والدلالة على الله بعلمه ، فهذا هو الخسران المبين والعياذ بالله العظيم من ذلك .

والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه ، ومن لم يزدد بعلمه

وعمله افتقاراً لربه وتواضعاً لخلقه فهو هالك ، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحتهم كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدتهم ، فاستعد بالله إنه هو السميع العليم (٤٢) .

١٤ - الزهد :

وحقيقة الزهد فراغ القلب مما سوى الرب تبارك وتعالى .

١٥ - التوكل :

والتوكل صرف القلب عن كل شيء سوى الله ، وحقيقته : نسيان كل شيء سواه ، وسره وجود الحق دون كل شيء تلقاه ، وسر سره ، ملك وتعليك لما يحبه ويرضاه (٤٣) .

ولا يصح التوكل إلا لمتق . ولا تتم التقوى إلا لمتوكل (٤٤) .

١٦ - الرضا :

ومن ذلك الرضا : الرضا عن الله ، وعن قضاء الله ، لا عن النفس ، يقول أبو الحسن : الق بنفسك على باب الرضا ، وانخلع عن عزائمك وإرادتك .

(٤٢) يعلق ابن عطاء الله على ذلك فيقول : فانظر فهمك الله سبيل أوليائه ، ومن عليك بمتابعة أحبائه . هذا الورع الذي ذكر الشيخ رضى الله عنه ، هل كان فهمك يصل إلى مثل هذا النوع من الورع ألا ترى قوله . فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البيئة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ، فهذا هو ورع الإبدال والصديقين لا ورع المتنطعين الذي ينشأ عنه سوء الظن وغلبة الوهم .

(٤٣) درة الأسرار ص ٤٨ .

(٤٤) درة الأسرار ص ٥٨ .

١٧ - المحبة :

والذى نختم به الطريق إنما هو المحبة ، والمحبة والرضا والزهد والتوكل هى بساط الكرامة عند أبى الحسن يقول رضى الله عنه : بساط الكرامة أربع :

- ١ - حب يشغلك عن حب غيره .
 - ٢ - ورضا يتصل به حبك بحبه .
 - ٣ - وزهد يحققك بزهد فى بريته .
 - ٤ - وتوكل عليه يكشف لك عن حقيقة قدرته .
- ولأبى الحسن كلام جميل عن المحبة ولا يتأتى أن يخلو كتاب عنه من ذكرها . قال الشيخ أبو الحسن رضى عنه : من أحب الله ، وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب .

والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشيئة له غير مشيئته فإن من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت ويعلم ذلك من قوله تعالى : (قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ) إن كنتم صادقين .

فإذن الولى على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه . وقد أحب الله من لا محبوب له سواه ، وأحب له من لا يحب شيئاً لهواه ، وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه .

ويتمحض لك الحب له فى عشرة فاعتبرها فيما وراءها : فى الرسول ﷺ ، والصديق ، والفاروق ، والصحابه ، والتابعين ، والأولياء ، والعلماء ، الهداة إلى الله تعالى ، والشهداء والصالحين ، والمؤمنين .

فإذن افترق الأمر بعد الإيمان إلى عشرة أشياء ، إلى السنة ، والبدعة ،

والهداية ، والضلالة ، والطاعة ، والمعصية ، والعدل ، والجور ، والحق ،
والباطل ، فإذا ميزت وأحييت ، وأبغضت فأحب له ، وأبغض له ، ولست تبالي
بأيهما كنت ، وقد يجتمع لك الوصفان في شخص واحد ويجب عليك القيام بحققها
جميعاً ، فإذا قد بان لك الحب في العشرة الأولى فانظر هل ترى للهوى هناك
أثراً ، فكذلك فاعتبر حب من حضر من إخوانك الصادقين ، والمشايخ الصالحين ،
والعلماء المهتدين وسائر من حضر ، ومن لم يحضر ممن غاب عنك أو مات فإن
وجدت قلبك لا متعلق له بمن حضر كما لا متعلق له بمن غاب عنك أو مات فقد
خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله ، وإن وجدت شيئاً يتعلق به فيمن تحب ،
أو فيما تحب فارجع إلى العلم واتقن النظر في الأقسام الخمسة من الواجب والمندوب
إليه ، والمكروه ، والمحذور ، والمباح^(٤٥) .

وقال الشيخ رضي الله عنه : المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شيء

(٤٥) ويقول ابن عطاء الله معلّقاً على ذلك :

واعلم أن قول الشيخ من ثبتت ولايته لا يكره الموت ، هذا ميزان أعطاه للمريدين ليزنوا به على نفوسهم إذا
ادعى فيهم أو ادعوا ولاية الله : فإن من شأن النفوس وجود الدعوى والتوئب إلى المراتب العالية من غير أن
يسلك السبيل الموصلة إليها ، ولهذا قال الله سبحانه : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ، وقال هنا :
(فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) . وقال الرسول ﷺ ، لحارثة : (لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك) ، لما
قال لحارثة « كيف أصبحت » فقال أصبحت مؤمناً حقاً ، ولا يحب الموت من فيه البقايا ، ولا من هو مصر على
شيء من الخطايا ، وجعل الله تمنى الموت شاهداً للولى بولايته ، وعدم تمنيه شاهداً للغوى بغوايته ، وقال
سبحانه : (وأقيموا الوزن بالقسط) ، والموت ميزان على الأفعال والأحوال كما هو ميزان في دائرة الرتب ،
أما الرتب فكما تقدم ، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر أنت فيه لاتدرى هل رضا الله في تركه
أو فعله ، أو حالة أنت بها لاتدرى هل قت فيها بحق أو قمت فيها بهوى ، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال
وأحوال ، فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهي حق ، وكل حالة وعمل هزمها
الموت فهي باطل : إذ الموت حق ، والحق يهزم الباطل ويدمغه لقول الله عز وجل : (بل نقذف بالحق على
الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) ، (قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) ، (وقل جاء الحق وزهق الباطل
إن الباطل كان زهوقاً) ، وما كنت فيه قائماً بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق والموت حق والحق لا يهزم الحق .

سواه ، فترى النفس مائلة لطاعته والعقل متحصناً بمعرفته ، والروح مأخوذة في حضرته ، والسر مغموراً في مشاهدته ، والعبد يستزيد فيزاد ، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة ، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم ، فمن أجل ذلك قالوا : أولياء الله عرائس ، ولا يرى العرائس المجرمون .

قال له القائل : قد علمت الحب !

فما شراب الحب ؟ وما كأس الحب ؟ ومن الساقى ؟ وما الذبوق ؟ وما الشراب ؟ وما الرى ؟ وما السكر ؟ وما الصحو ؟

قال : الشراب : هو النور الساطع عن جمال المحبوب .

والكأس : هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب .

والساقى : هو المتولى الأكبر المخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده ، وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبائه .

فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بشيء نفساً أو نفسين ، ثم أرخى عليه الحجاب ، فهو الذائق المشتاق .

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقاً .

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الرى .

وربما غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدري ما يقال ولا ما يقول فذلك هو السكر . وقد تدور عليهم الكئوس وتختلف لديهم الحالات فيردون إلى الذكر والطاعات ، ولا يحبون عن الصفات مع تراحم المقدورات ، فذلك وقت صحوهم واتساع نظرهم ومزيد علمهم .

فهم بنجوم العلم وقر التوحيد يهتدون في ليلهم . وبشموس المعارف يستضيئون

في نهارهم : (أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .
 هذه المقامات من : ورع ، وزهد ، وتوكل ، ورضا ، ومحبة ، وغيرها ، إنما
 هي ثمرة « الذكر » المؤسس على الإخلاص والتوبة والعبودية والاستقامة ، ولن
 يترقى المرید إلا بالركن الأساسي في طريق القوم وهو الذكر .

٧ - معارج ومراء

وينتج الذكر المعارج والمراءى ، وهي نتائج الطريق الصوفي والسلوك إلى الله ،
 من أمثلتها عند أبي الحسن :

١ - رأيت كأنني مع النبيين والصديقين فأردت الكون معهم ثم قلت :
 اللهم اسلك بي سبيلهم مع العافية مما ابتليتهم فإنهم أقوى ونحن أضعف منهم ،
 فقيل لي : وما قدرت من شيء فأيدنا كما أيدتهم .

٢ - رأيت كأنني في المحل الأعلى فقلت :
 إلهي أي الأحوال أحب إليك ؟ وأي الأقوال أصدق لديك ؟ وأي الأعمال
 أدل على محبتك ؟ فوفقني واهدني .

فقيل لي : أحب الأحوال إليه الرضا بالمشاهدة ، وأصدق الأقوال لديه قول :
 لا إله إلا الله على النظافة ، وأدل الأعمال على محبته بغض الدنيا واليأس من
 أهلها^(٤٦) مع الموافقة .

٣ - رأيت كأنني واقف بين يدي ربي فقال :
 لا تأمن مكري في شيء وأن أمتك ، فإن علمي لا يحيط به محيط .

(٤٦) بغض الشهوات والأهواء والترغبات فذلك هو الدنيا وبغض أهل الشهوات والأهواء والترغبات .

٤ - رأيت كأني أطوف بالكعبة طالباً من نفسي الإخلاص وأنا أفتش عليه في سرى فإذا النداء على :

كم تدندن مع من يدندن وأنا السميع القريب العليم الخبير ، وتعريفى يغنيك عن علم الأولين والآخرين ، ما خلا علم الرسول وعلم النبيين .

٥ - قلت على مصيبة نزلت : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) . اللهم أجرني في مصيبتى واعقبني خيراً منها ، فألقى في سرى أن أقول :

فاغفر لي بسببها . وما كان من توابعها ، وما اتصل بها ، وما هو محشوبها . وكل شيء كان قبلها ، وما يكون بعدها .

فقلت ، فهانت على ، فلو أن الدنيا كلها كانت لي في ذلك وأصبت فيها لهانت على ، ولكان ما وجدت من برد الرضا والتسليم أحب إلي من ذلك كله .

٦ - وكتب رضى الله عنه إلى الشيخ أبي يحيى :

أما بعد - فأني منذ اثنتي عشرة سنة أغدو وأروح فيما هيا لي من سفر الروح على عساكر أولياء الله فما مررت بك إلا وجدتك روحاً طيبة تعقلها العقول وتألفها النفوس ويستريح بها السر ويدعن لها الأمر ويجتمع إليها كل مفترق ...

٧ - قرأت ليلة في وردى قوله تعالى :

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا قَان ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) .

فرأيت أبا بكر الصديق رضى الله عنه في المنام ، فقال لي : صل من يبقى واهجر من يفنى . تجل وتكرم ، تجل عن الفناء وتكرم بالبقاء .

٨ - كان لي صاحب وكان كثيراً ما يأتيني بالتوحيد ، فرأيت في النوم كأني أقول

له : يا عبد الله ، إن أردت التي لا لوم فيها ، فليكن الفرق على لسانك موجوداً ، والجمع في شرك مشهوداً .

٩ - رأيت رسول الله ﷺ ، فقال لي :

قل لفلان ابن فلان يقرأ هذه الكلمات ، فمن قالهن تنصب عليه الرحمة
كالمطر : الحمد لله الذى بُدئ منه الحمد وإليه يعود كل شيء كذلك ، لا إله إلا
الله ، اللهم اغفر لى شركى^(٤٧) وكفرى^(٤٨) وتقصيرى ، واغفر للمؤمنين
والمؤمنات .

١٠ - استأذنى بعض الفقراء فى الحضور والسماع ، فهممت بذلك ، فرأيت
أستاذى رضى الله عنه ، وفى يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم ، وحديث رسول
الله ﷺ ، وفى يده اليسرى أوراق فيها مرجز وهو يقول لى كالمنتهر :
تعدلون عن العلوم الزكية إلى علوم ذوى الأهواء الرديّة ، فمن أكثر من هذا فهو
عبد مرقوق هواه ، وأسير لشهواته ومناه ، يستفزون بها قلوب ذوى الغفلة
والنسيان ، وأهل الضلالة والعميان ، ولا إرادة لهم فى عمل الخير واكتساب
الغفران ، يتأيلون عند سماعها تمايل الصبيان .

لئن لم ينته الظالم ليقبلن الله أرضه سماء وسماءه أرضاً .

قال : فأخذنى منه حال بوجد وأنا أقول له :

نعم يا أستاذى ، إلا أن النفس أرضية والروح سماوية .

فقال لى : نعم يا على ، إذا كانت الروح بأمطار العلوم دارة ، والنفس بالأعمال
الصالحة ثابتة فقد حصل الخير كله ، وإذا كانت النفس غالبة والروح مغلوبة . فقد
حصل القحط والجذب ، وانقلب الأمر وجاء الشر كله .

فعليك بكتاب الله الهادى : وبكلام رسوله الشافى ، فلن تزال بخير ما آثرتهما ،

(٤٧) يطلق الشرك على الإشتراك بالله الذى يخرج الشخص عن دائرة الإسلام ويطلق على الظلم بألوانه :

الكبير منها والصغير .

(٤٨) يطلق الكفر على نكران الجميل وعلى ألوان من المعاصى لاتصل إلى درجة إخراج الإنسان عن

الإسلام .

وقد أصاب الشر من عدل عنهما ، وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وإذا سمعوا الحق أقبلوا عليه : (وَمَنْ يَكْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) .

١١ - وقال رضى الله عنه : خطر ببالى يوماً أنى لست بشيء ، ولا عندى من المقامات والأحوال شيء . فغمست فى بيت مسك . فكنت فيه غريقاً ، فلدوام غرقى فيه لم أجد له تلك الرائحة فقبل لى : علامة المزيد فقدان المزيد لعظيم المزيد .
١٢ - وقال رضى الله عنه : قيل لى إن أردت رضائى فمن اسمى ومنى لا من اسمك ومنك .

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : سبقت أسمائى عطائى ، وأسمائى من صفائى ، وصفائى قائمة بذاتى ، ولا تمحق ذاتى .

وللعبد أسماء دنية ، وأسماء عليّة ، فأسماءه العليّة قد وصفه الله تعالى بها بقوله : (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ) (٤٩) إلى آخرها .

وبقوله : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) إلى آخرها (٥٠) .

وأسماءه الدنية معروفة كالعاصى والمذنب والفاسق والظالم وغير ذلك ، فكما تمحق أسماءك الدنية بأسمائك العليّة كذلك تمحق أسماءك بأسمائه وصفاتك بصفاته ، لأن الحادث إذا اقترن بالقديم فلا بقاء له ، إذا ناديته باسمه كقولك : ياغفور ياتواب يا قريب يا وهاب ، فاستدعيت بها العطاء لنفسك وقد تنزلت لنفسك من أسمائه ، وكذلك إذا لاحظت أسماءك الدنية من المعاصى والظلم والفسق فاشتعلت بسترها ومغفرتها فأنت باقى مع نفسك .

وإذا ناديته باسمه العلى ولا حظت صفته العليّة قائمة بذاته محقت أسماءك كلها

(٤٩) سورة التوبة . الآية : ١١٢

(٥٠) سورة الأحزاب . الآية : ٣٥

وانعدم وجودك فصرت محوًّا لا وجود لك البتة ، فذاك محل الفناء والبقاء بعد الفناء .

(ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

١٣ - وقال رضى الله عنه : كنت ذات ليلة متفكراً بالفكرة الغيبية ... فأفادنى

الله علماً جليلاً ، وسعيت فى الغيوب سعياً جميلاً ، فقلت فى نفسى :

أليس هذا خيراً من الدخول فى الحوائج للمخلوق مع الخالق ، والكون مع الله أتم من الكون فى الحاجات للناس وإن كان مأذوناً فيها شرعاً ؟

فبينما أنا كذلك إذ نمت ، فرأيت كأن السيل قد أحاط بى من كل جهة يحمل الغشاء عن يمينى وعن شمالى ، فجعلت أخوض لأخرج منه فلم أربأ أنفذ إليه من الجهات الأربع ، فاستسلمت نفسى ووقفت فى السيل كالسارية أو النخلة الثابتة ، فقلت فى نفسى :

هذا من فضل الله أن ثبت لهذا السيل ولا يصيبنى شيء من الغشاء ، وإذا بشخص جميل الصورة يقول لى :

إن من أحل التصوف التعرض فى الحوائج للمخلوق واستقضاؤها من الملك الحق ، فما قضاها الله شكرت ، وما لم يقضه رضيت ، وليس قضاؤها الموجب للشكر بآتم من عدم قضاائها الموجب للرضا .

وقد علمنى الله علماً قائماً بذات نفسى لا يفارقها ، بل هو لازم لها كالبياض فى الأبيض والسواد فى الأسود ، وهو : الله لا إله إلا هو الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، فانظر الألوهية الفردانية والوحدانية والقاهرية والربوبية والعز والمغفرة ، وكيف لف هذا كله فى كلمة واحدة ، إن المغفرة لتنزل على العارف بالله كالسيل الحامل من الغشاء ، ويثبت الله فيها وبها من يشاء ولا يصيبه شيء من الغشاء .

فانتبهت من نومى وقد وعيت السر العظيم والحمد لله .

١٤ - فتح الله بشيء من الدنيا فقرحت لأستعين أو أعين بها ، فجعلت أحمد الله وأشكره : والشكر معرفة قائمة بالقلب ، وكلمة قائمة باللسان ، فكنت أجمع بينهما . فواظبت على ذلك وقتاً من الليل ونمت ، فرأيت استاذي رحمه الله تعالى يقول :

استعد بالله من شر الدنيا إذا أقبلت ، ومن شرها إذا أدبرت ، ومن شرها إذا أنفقت ، ومن شرها إذا أمسكت .

فجعلت أقول كذلك ، فوصل الشيخ كلامي فقال :
ومن المصائب والرزايا والأمراض البدنية والقلبية والنفسية جملة وتفصيلاً بالكلية وإن قدرت شيئاً فاكسني جلال الرضا والمحبة والتسليم ، وثواب المغفرة والتوبة والإنابة المرضية .

١٥ - رأيت رسول الله ﷺ ، فقلت له :

ياسيدي يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني رحمة للعالمين .

فقال لي : أنا هو ذاك يا علي ، والولي رحمة في العالمين .

١٦ - رأيت كأن رجلاً جاء إلى فقال لي : إن السلطان يأتي إليك فقل :

اللهم التق على من زينتك ومحبتك وكرامتك ومن نعوت ربوبيتك ما يبهز القلوب ، وتذل له النفوس ، وتخضع له الرقاب ، وتبرق له الأبصار ، وتتبدد له الأفكار ، ويصغر له كل متكبر جبار ، ويسجد له كل ظلوم كفار ، يا الله ، يا مالك ، يا عزيز ، يا جبار ، يا الله ، يا أحد ، يا واحد يا قهار .

٨ - الذكر والدعاء والأحزاب والأوراد

يقول الله تعالى محبباً في الذكر وداعياً إليه بطريقة من أسمى الطرق وأجملها :
(فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) .

ولقد دعا الله سبحانه إلى الذكر بشتى الطرق ، لقد دعا إليه بصيغة الأمر ،
ودعا إليه طالباً الإكثار منه ، فقال سبحانه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) .

ودعا إليه سبحانه في جميع الحالات التى يكون الإنسان عليها من قيام .
أو جلوس ، أو على جنبه : (فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ) .

وجعل سبحانه الذكر إحدى الصفات التى يتحلى بها أولو الألباب :
(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) .

وأخبر الله سبحانه أن الذكر علاج للقلق والضيق والهم فقال سبحانه :
(الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) .
على أن الرضا ، وهدوء النفس ، وطمأنينة القلب ، والسكينة ... إن كل
ذلك يكون نتيجة للذكر ، يقول تعالى :

(فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
غُرُوبِهَا ، وَمِنَ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) .

أما فى الآخرة فإنه سبحانه يقول :

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) .

ولقد حُب رسول الله ﷺ فى الذكر بمختلف الأساليب ، وبشتى الأنحاء ،

وكان هو نفسه قدوة في ذلك ، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : كان ﷺ يذكر الله على كل أحيانه .

وكلمة « على كل أحيانه » كلمة شاملة ، إنها تعني الأوقات ، وتعني بالتبع لذلك ، الأحوال ، فهو ﷺ كان يذكر الله صباحاً ومساءً ، وكان يذكره فيما بين ذلك ، وكان يذكره قائماً وقاعداً وعلى جنبه .

ويقول ﷺ عن الله عز وجل في حديث قدسي رواه الشيخان :
 « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

ويرشد ﷺ فيما رواه الإمام أحمد ، إلى أنه :
 « ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله ، من ذكر الله » .
 وبين ﷺ أن : مثل الذي يذكر ربه ، والذي لا يذكره ، مثل الحي والميت . وكما ينال الذاكر رضاء الله وثوابه ، وكما ينفع الذكر في الدار الآخرة ، فإنه ينفع في هذه الحياة الدنيا يقول ﷺ فيما رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما :
 « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجاً ، ومن كل ضيقٍ مخرجاً ، وورقه من حيث لا يحتسب » .

والدعاء :

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) .
 وقد أمر الله سبحانه الإنسان أن يدعو ، وهدد الذين يستكبرون عن دعائه ،

وفي حديث رواه الإمام أحمد ، أن رسول الله ﷺ قال :
 « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ
 يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .
 وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الدعاء مخ العبادة » .
 وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس شيء أكرم على الله من
 الدعاء » .

الدعاء يرد القضاء :

وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال :
 « من فتح له باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله تعالى شيئاً
 أحب إليه من أن يُسأل العافية ، وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، ولا يرد
 القضاء إلا الدعاء ، فعليكم بالدعاء » .
 وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها - فيما رواه البزار والحاكم وصححه - قال
 رسول الله ﷺ : « لا يغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ،
 وإن البلاء لينزل ، فيتلقيه الدعاء ، فيعتلجان إلى يوم القيامة » .
 وروى الترمذي عن سيدنا سلمان الفارسي : أن رسول الله ﷺ قال :
 « لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » .

ولقبول الدعاء شروط منها :

١ - التوبة الخالصة النصوح .

٢ - وتحريم الحلال .

فعن ابن عباس ، فيما أخرجه الحافظ ابن مردويه ، تليت هذه الآية عند
 النبي ﷺ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا) فقام سعد بن

أبي وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال :
« يا سعد ، أطيب مطعمك تكن مُستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن
الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأما عبد نبت
لحمه من السّحت والربا فالنار أولى به » .

أوقات الدعاء :

والدعاء يصح في كل وقت ، بيد أن هناك أوقاتاً وأماكن أرجى في الدعاء من
غيرها ، وقد ذكر رسول الله ﷺ أوقاتاً للدعاء منها ثلث الليل الأخير ، يقول
صلوات الله وسلامه عليه :

« ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول :
من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ »
ولقد سئل رسول الله ﷺ عن أى الدعاء أسمع ؟ فقال :
« جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » .

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ، ﷺ قال :
« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء » .
أما الأماكن الأرجى في استجابة الدعاء ، فإنها الأماكن الطاهرة المباركة ؟
وأشرفها الحرم المكي والحرم المدني .
ومن أجل هذه الأهمية الكبرى للذكر وللدعاء في الإسلام استفاض أبو الحسن
في الذكر وفي الدعاء .

وكانت طريقته في أكثر الأحيان أن يمزج الذكر بالدعاء ، وما روى عنه في هذا
الباب كثير مستفيض سواء منها ما يتعلق بالأحزاب أو غيرها من أبواب الذكر
والدعاء . ولا يتسع المجال لذكرها كلها هنا وسنكتفي ببعض ما ذكره ابن عطاء الله

السكندري في لطائف المنن ، وابن الصباغ في درة الأسرار ، وابن عياد في المفاخر العلية .

وعن أحزاب أبي الحسن يقول ابن عياد :
وأحزاب أهل الكمال ممزوجة بأحوالهم ، مؤيدة بعلومهم ، مسددة بإلهامهم ،
مصحوبة بكراماتهم ، حتى قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه في شأن حزبه
الكبير : « من قرأه كان له مالنا وعليه ما علينا » .

وقد تقدم بيان ذلك ، واعلم أن أحزاب الشيخ رضي الله عنه جامعة بين إفادة
العلم وآداب التوحيد ، وتعريف الطريقة ، وتلويح الحقيقة ، وذكر جلال الله تعالى
وعظمته وكبريائه ، وذكر حقارة النفس وخستها ، والتنبيه على خدعها وغوايتها ،
والإشارة لوصف الدنيا والخلق وطريق الفرار من ذلك ، ووجه حصوله ، والتذكير
بالذنوب والعيوب والتنصل منها ، مع الدلالة على خصائص التوحيد وخالصه ،
واتباع الشرع ومطالبه ، فهي تعليم في قالب التوجه ، وتوجه في قالب التعليم ، من
نظرها من حيث العلم وجده كامناً فيها ، ومن نظرها من حيث العمل فهي عينة ،
ومن نظرها من حيث الحال وجده كامناً فيها ، وقد شهد شاهدنا بذلك عند
الخاص والعام ، فلا يسمع أحد من كلامها شيئاً إلا وجد في نفسه ،
ولا يقرؤها إلا كان مثل ذلك ما لم يكن مشغولاً ببلوى ، أو مشغولاً بدنياً ، أو
مصرفاً بدعوى ، أعاذنا الله تعالى من البلاء .

ويقول أبو الحسن ناصحاً الذاكرين والداعين الذين يرحون قبول الله
لدعائهم : إذا أردت أن يستجاب لك أسرع من لمح البصر فعليك بخمسة أشياء :

١ - الامتثال للأمر .

٢ - الاجتناب للنهي .

٣ - تطهير السر .

٤ - وجمع الهمة .

٥ - والاضطرار .

ونخذ ذلك من قوله تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَلِلَهُ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) .

فالمحروم من يدعوه وقلبه مشغول بغيره .

فاحذر هذا الباب جدًّا ، فإن لم تستطع أن تتصف بالخمسة أشياء ، فعليك بالخلوة عن الناس ، واذكر ما شاء من قبائحك وأفعالك ، واحتقر جميع أعمالك ، وقدم إليه ما علمته من جميل ستره عليه وقل :

« يا الله يا منان يا كريم يا ذا الفضل ، من لهذا العبد العاصي غيرك وقد عجز عن النهوض إلى مرضاتك ، وقطعته الشهوة عن الدخول في طاعتك ، لم يبق له حبل يتمسك به سوى توحيدك ، وكيف يجترئ على السؤال من هو معرض عنك ، أم كيف لا يسأل من هو محتاج إليك ، وقد مننت على الآن بالسؤال منك ، وجعلت حسبي الرجاء فيك ، فلا تردني خائباً من رحمتك يا كريم ، وقد جعلت لأسمائك حرمة فمن دعاك بها لا يشرك بك شيئاً أجبتة ، فبحرمة أسمائك يا الله يا ملك يا قدوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا خالق يا باري يا مصور قني من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل والشك وسوء الظن وضلع الدين ، وغلبته وقهر الرجال ، فإن لك الأسماء الحسنى ، وقد سبح لك ما في السموات والارض ، وأنت العزيز الحكيم .

اللهم إني أسألك خيرات الدنيا وخيرات الدين ، خيرات الدنيا بالأمن والرفق والصحة والعافية ، وخيرات الدين بالطاعة لك ، والتوكل عليك ، والرضا بقضائك ، والشكر على آلائك ونعمك إنك على كل شيء قدير » اهـ .

ونبدأ الآن بذكر بعض أذكار أبي الحسن وبعض أحزابه ، ونبدأ بالأذكار التي

رويت متناثرة هنا وهناك والتي لم تأخذ وضع الأحزاب في الأناقة اللفظية وفي الإبداع الفني وإن كانت فيما يتعلق باللفظ على مقدار عظيم من السمو :

ولقد كان لأبي الحسن عادات في أذكار معينة يتحدث عنها فيقول : كنت كثيراً ما أداوم على قراءة آية الكرسي ، وخواتيم سورة البقرة من قوله تعالى :

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

ثم : (أَلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، مع الآيتين (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

اللهم إني أسألك صحة الخوف ، وغلبة الشوق وثبات العلم ، ودوام التفكير ، ونسألك سر الأسرار المانع من الإصرار ، حتى لا يكون لنا مع الذنب أو العيب قرار ، واجتنبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التي بسطتها لنا على لسان رسولك ، وابتليت بها إبراهيم خليلك فآتمهن (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ

وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) فاجعلنا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم ونوح ، واسلك بنا سبيل أئمة المتقين والله بصير بالعباد . رب إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت : فاغفر لي وارحمني وتب علي لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . « وهذا الاستغفار له شأن عظيم وضياء كريم فتناوله تر عجباً » ثم أقول : يا الله يا عليّ يا عظيم ، يا حلیم يا عليم ، يا سمیع يا بصير ، يا مرید يا قدير ، يا حيّ يا قيوم ، يا رحمن يا رحيم ، يا من هو هو يا هو يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام . اللهم صلني باسمك العظيم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهب لي منه سرّاً لا تضر معه الذنوب شيئاً ، واجعل لي منه وجهاً تقضى به الحوائج من القلب والعقل والروح والسر والنفس والبدن ، ووجهاً تدفع به الحوائج من القلب والعقل والنفس والبدن ، وادرج أسمائي تحت أسمائك ، وصفاتي تحت صفاتك ، وأفعالي تحت أفعالك ، درج السلامة وإسقاط الملامة ، وتنزل الكرامة ، وظهور الأمانة ، وكن لي فيما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك ، واغني حتى تغني بي ، وأحيني حتى تحيي بي ما شئت ومن شئت من عبادك ، واجعلني خزانة الأربعين ، ومن خالصة المتقين واغفر لي فإنه لا ينال عهدك الظالمون ، طس ، حم . عسق ، مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان . والحمد لله رب العالمين .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) اهـ .

ومن دعائه :

اللهم إني أسألك بجاه محمد المصطفى ، وإبراهيم الذي وفي ، وبجرمة كل رسول ونبي ، وصديق وولي وشهيد وصالح وتقي ، وبجرمة الأسماء ، وبالأسماء كلها أسألك

اللهم أن تمحق هذا الخلق من قلوبنا ، وأن تجعلهم في أسرارنا كالهباء في الهواء ،
واسلك بنا سبيل أنبيائك وأصفياك ، وأتقيائك في السر والعلانية ، إنك على كل
شيء قدير .

ومن ذكره ودعائه :

يا الله ، يا نور ، يا حق ، يا مبین ، افتح قلبي بنورك وعلمني من علمك ،
واحفظني بحفظك ، وأسمعني منك ، وفهمني عنك ، وبصرني بك ، وسبب لي
سبباً من فضلك ، تغني به من الفقر ، وتعزني به من الذل ، وتصلح لي به الدنيا
والآخرة ، وتوصلني به إلى النظر إلى وجهك في جنة الفردوس ، إنك على كل شيء
قدير ، يا نعم المولى ويا نعم النصير .

ومن دعواته :

وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه ، وخار لنا وإياكم فيما قدره وقضاه ، وجعلنا
وإياكم من الفائزين يوم لقاءه . اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بمحمد وحزبه على
الرضا منك ومنهم مع السلامة من الحياء والخجل والذي بما سلف منا من أعمال
المخلطين . اللهم اعذرنا في جهلنا ، ولا تؤاخذنا بغفلتنا عنك ، ولا بسوء أدبنا
معك ومع الملائكة الكرام الكاتبين ، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وغفلتنا وجهلنا بنعمك ،
واغفر لنا قلة حياتنا واقل بوجهك . ولا تفتنا بشيء من خلقك : إنك على
كل شيء قدير ، اللهم اغفر لنا ما علمه البشر من خلقك ، واغفر لنا ما علمته وكتبته
ملائكتك ، واغفر لنا ما علمناه من أنفسنا ولم يعلمه أحد من خلقك ، واغفر لنا
ما استأثرت به عنا في جميع أحكامك وتفضل علينا بالغنى عن جميع خلقك ،
وبرفع الحجاب فيما بيننا وبينك إنك على كل شيء قدير . اللهم اغفر لنا مغفرة

الأحباب ، التي لا تدع شيئاً من الارتباب ، ولا يبقى معها شيء من اللوم والعتاب ، واجعل ما علمته فينا ومنا خير معلوم بعد المحو والتبويت ، فإنك عندك أم الكتاب . اللهم اغفر لنا ذنوبنا كلها ، دقيقها وجليلها ، سرها وعلانيتها ، أولها وآخرها ، واغفر لمن سافر عنا من أحبائنا ، سفر الدنيا أو سفر الآخرة ، واجعل قلوبهم تعلق المتقين ، وإياهم إياب الفائزين ، واجعلنا برحمتك جميعاً من المقبولين . وإن كنا زائفين فإن النقاد يسمحون وإن كانوا عارفين ، فأنت أولى بذلك فإنك أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين . والحمد لله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . اللهم لا تخيبنا ونحن نرجوك ، ولا تحرمنا ونحن ندعوك ، وقد دعوناك كما أمرتنا ، فاستجب لنا كما وعدتنا ، ولا تجعل تضرعنا هيناً عليك وغير مقبول . وكما يسرت لنا الدعاء فيسر لنا الإجابة ، إنك على كل شيء قدير .

ومن ذكره ودعائه :

يا حي يا قيوم ، لا إله إلا أنت كن لي بحياتك كما كنت لأحبابك ، وأمتني عنى بصفاتك كما فعلت بأصفائك واجعلني قيوماً بذلك بالعصمة من غيرك كما فعلت بمحمد رسولك إنك على كل شيء قدير .
إلهي إذا طلبت منك القوت فقد طلبت غيرك ، وإن سألتك ما ضمنت لي فقد اتهمتك . وإن سكن قلبي إلى غيرك فقد أشركت بك . جلت أوصافك عن الحدوث ، فكيف أكون معك . وتزهت عن العلل فكيف أكون قريباً منك ، وتعاليت عن الأغيار فكيف يكون قوامي بغيرك . اللهم إني أسألك توحيداً لا ننفي به ضدّاً ، وبقيناً لا ندفع به شكّاً .

ومن دعائه لضيق الحال :

وكان يعلم أصحابه لضيق الحال فيجدون الفرج والسعة : يا واسع يا عليم
يا ذا الفضل العظيم ، أنت ربى وعلمك حسبي ، إن تمسسن بضر فلا كاشف له إلا
أنت ، وإن تردن بخير فلا راد لفضلك ، تصيب به من تشاء من عبادك وأنت
الغفور الرحيم .

ومن دعائه :

اللهم هب لى من النور الذى رأى به رسولك ﷺ ما كان ويكون ، ليكون
العبد بوصف سيده لا بوصف نفسه ، غنياً بك عن تجديدات النظر لشيء من
المعلومات ، ولا يلحقه عجز عما أراد من المقدورات ، ومحيطاً بذات السر بجميع
أنواع الذوات ، ومرتباً للبدن مع النفس وللقلب مع العقل ، وللروح مع السر
وللأمر مع البصيرة ، والعقل الأول الممد من الروح الأكبر المنفصل عن السر
الأعلى .

ومنه :

اللهم إنا نتوسل بك إليك ، اللهم إني أقسم بك عليك ، اللهم كما كنت دليلى
عليك فكن شفيعى إليك ، اللهم إن حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك
فجد اللهم بما أعطيت على ما به قضيت حتى تمحو ذلك بذلك ، لا لمن أطاعك فيما
أطاعك فيه له الشكر ، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه له العذر ، لأنك قلت
وقولك الحق : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين ، ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين .

وأنت أجل وأعظم ، وأعز وأكرم من أن تطاع إلا بإذنك ورضاك ، أو تعصى إلا بحكمك وقضائك ، إلهي ما أطعتك حتى رضيت ، ولا عصيتك حتى قضيت ، أطعتك بإرادتك والمنة لك عليّ ، وعصيتك بتقديرك والحجة لك عليّ ، فبوجوب حجتك وانقطاع حجتي إلّا ما رحمتني ، وبفقرى إليك وغناك عني إلّا ما كفيتني ، يا أرحم الراحمين .

اللهم إني لم آت الذنوب جرأة مني عليك ولا استخفافاً بحقك ، ولكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، وأحاط به علمك ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، والعذر إليك وأنت أرحم الراحمين .

اللهم ، إن سمعي وبصري ولساني وقلبي وعقلي ، بيدك ، لم تملكني من ذلك شيئاً ، فإذا قضيت بشيء فكن أنت وليّ ، واهدني إلى أقوم السبل يا خير من سُئل ، ويا أكرم من أعطى ، يا رحمن الدنيا والآخرة ، ارحم عبداً لا يملك الدنيا ولا الآخرة ، إنك على كل شيء قدير .

وقال رضى الله عنه :

بت ذات ليلة في غم عظيم فألهمت أن أقول : إلهي مننت عليّ بالإيمان والمحبة والطاعة والتوحيد ، فأحاطت بي الغفلة والشهوة والمعصية ، وطرحتنى النفس في بحر الظلم ، فهي مظلمة ، وعبدك محزون مهموم مغموم ، وقد التقمه نون الهوى ، وهو يناديك نداء المحبوب المعصوم نبيك وعبدك يونس بن متى ، ويقول : لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إني كنت من الظالمين .

فاستجبت لي كما استجبت له ، وانبذني بعراء المحبة في محل التفريد والوحدة ، وأنبت عليّ أشجار اللطف والحنان ، إنك أنت الله الملك المنان ، وليس لي إلا أنت وحدك لا شريك لك ، ولست بمخلف وعدك لمن آمن بك ، إذ قلت وقولك

الحق : (فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ) .

يا الله ، يا جميل ، يا جليل اللطف ، الطف بي في لطفك الذى لطفت به لأوليائك ، وانصرني بالرعب الشديد على أعدائك ، إنك على كل شيء قدير .

ومن دعائه رضى الله عنه :

يا الله يا فتاح يا عليم ، يا غنى يا كريم ، افتح قلبي بنورك ، وارحمني بطاعتك ، واحجبني عن معصيتك ، وامن علي بمعرفتك ، واغني بقدرتك عن قدرتي ، وبعلمك عن علمي ، وبإرادتك عن إرادتي ، وبحياتك عن حياتي ، وبصفاتك عن صفاتي ، وبوجودك عن وجودي ، وبدنوك عن دنوي ، وبقربك عن قربى ، وبحبك عن حبي ، وبصدقك عن صدقي ، وبحفظك عن حفظي ، وبنظرك عن نظري ، وبتدبيرك عن تدبيري ، وباختيارك عن اختياري ، وبحولك وقوتك عن حولي وقوتي ، وبجودك وكرمك وفضلك ورحمتك عن علمي وعلمي ، إنك على كل شيء قدير .

وقال :

اللهم إن الدنيا حقيرة ، حقير ما فيها ، وإن الآخرة كريمة ، كريم ما فيها . وأنت الذى حقرت الحقير وكرمت الكريم ، فأنى يكون كريماً من طلب غيرك أم كيف يكون زاهداً من اختار لدنياه غيرك . فحققنى بحقائق الزهد حتى استغنى بك عن طلب غيرك ، وبمعرفتك حتى لا أحتاج إلى طلبك ، إلهى كيف يصل إليك من طلبك ، أم كيف يفوتك من هرب منك ، فاطلبنى برحمتك ، ولا تعطلبنى بنقمتك ، يا عزيز يا منتقم ، إنك على كل شيء قدير .

وقال :

اللهم اسلبنى عقلا يحجبني عنك وعن فهم آياتك وعن فهم كلام رسولك .

وهب لي من العقل الذي خصصت به أنبياءك . ورسلك والصدّيقين من عبادك ،
واهدني بنورك هداية المخلصين بمشيئتك ، ووسع لي في النور توسعة كاملة تخصني
بها برحمتك ، فإن الهدى هداك ، وإن الفضل بيدك تؤتيه من تشاء وأنت
ذو الفضل العظيم .

وقال :

يا عزيز يا رحيم يا حكيم يا غني يا كريم يا واسع يا عليم يا ذا الفضل العظيم ،
اجعلني عندك دائماً ، وبك قائماً ، ومن غيرك سالماً ، وفي حبك هائماً ، ويعظمتك
عالماً ، واسقط البين بيني وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إلي منك ، ولا تحجيني
بك عنك إنك على كل شيء قدير .

وقال :

يا الله يا حميد يا مجيد ، يا الله يا كريم يا بر يا رحيم ، يا الله يا قوى يا متين :
هب لي من رحمتك ما أحمذك به ، فأكون من المؤمنين ، وارزقني من لطائف العز
ما أكون به قوياً متيناً حاملاً محمولا في العالمين ، وهب لي من كرمك ما أكون به برّاً
نقيّاً من الصالحين ، يا رحيم يا لطيف ، الطف بي لطفاً لا يدركه وهم الواهين .
إلهي وجدتك رحيماً حيث لا أرجوك ، فكيف لا أجذك ناصراً وأنا أرجوك ،
على كل شيء قدير . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً .

حزب الفتوح :

وهو الحزب الذي فتح الله به على أبي الحسن ، ويسمى أيضاً حزب
« الأنوار » ، نبدأ به الأحزاب للتيمن والبركة .

بسم الله الرحمن الرحيم .

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم إنا نسألك إيماناً
لا ضدّ له ، ونسألك توحيداً لا يقابله شرك ، وطاعة لا تقابلها معصية ، ونسألك
محبة لا لشيء ولا على شيء ، وخوفاً لا من شيء ولا على شيء .

ونسألك تنزيهاً لا من نقص ولا من دنس ، بعد التنزيه من النقائص
والأدناس ، ونسألك يقيناً لا يقابله شك ، ونسألك تقديساً ليس وراءه تقديس ،
وكمالاً ليس وراءه كمال ، وعلماً ليس فوقه علم ، ونسألك الإحاطة بالأسرار
وكتمانها عن الأغيار .

ربّ إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ذنبي وهب لي تقواك ، واجعلني ممن يحبك
وينخشاك ، واجعل لي من كل ذنب وهمّ وغمّ وضيق وسهوّ وشهوة ورغبة ورهبة
وخطرة وفكرة وإرادة وفعلية وغفلة ومن كل قضاء وأمر مخرجاً . أحاط علمك
بجميع المعلومات ، وعلمت قدرتك على جميع المقدورات ، وجلّت إرادتك أن
يوافقها أو يخالفها شيء من الكائنات . حسبي الله . حسبي الله . حسبي الله . وأنا
بريء مما سوى الله .

الله لا إله إلا هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم .

لا إله إلا الله نور عرش الله .

لا إله إلا الله نور لوح الله .

لا إله إلا الله نور قلم الله .

لا إله إلا الله نور رسول الله .

لا إله إلا الله نور سير رسول الله .

لا إله إلا الله نور ذات رسول الله .

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ آدَمُ خَلِيفَةُ اللَّهِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نُوحٌ نَجِيُّ اللَّهِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نُورُ لَوْحِ اللَّهِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عِيسَى رُوحُ اللَّهِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْأَنْبِيَاءُ خَاصَّةُ اللَّهِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْأَوْلِيَاءُ أَنْصَارُ اللَّهِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الرَّبُّ الْإِلَهُ الْمَلِكُ الثَّوَرُ الْحَقُّ الْمُبِينُ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمَلِكُ اللَّطِيفُ الرَّزَاقُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
 بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ .

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَكِيمُ الْكَرِيمُ .
 لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ . سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ
 الْعَظِيمِ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . بِاسْمِ اللَّهِ ، وَبِاللَّهِ ، وَمِنْ اللَّهِ ، وَإِلَى اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

حَسْبِيَ اللَّهُ . آمَنْتُ بِاللَّهِ ، رَضِيتُ بِاللَّهِ ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .
 أَتُوبُ إِلَيْكَ بِكَ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَلَوْلَا أَنْتَ لَمَّا تُبْتُ إِلَيْكَ . فَاغْنُ مِنْ قَلْبِي مَحَبَّةَ
 غَيْرِكَ ، وَاحْفَظْ جَوَارِحِي عَنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِكَ ، وَاللَّهُ لَشَنُ لِمَ تَرَعْنِي بِعَيْنِكَ ، وَتَحْفَظْنِي
 بِقُدْرَتِكَ ، لِأَهْلِكَ نَفْسِي ، وَلَأَهْلِكَ أُمَّةٌ مِنْ خَلْقِكَ ، ثُمَّ لَا يَعُودُ ضَرَرُ ذَلِكَ إِلَّا

على عبدك ، أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ ، بَلْ أَنْتَ أَجَلُ مَنْ أَنْتَ عَلَيْكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ أَعْرَاضُ تَذُلُّ عَلَى كَرَمِكَ ، قَدْ مَنَحْتَهَا لَنَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِكَ لِنَعْبُدَكَ بِهَا عَلَى أَقْدَارِنَا لَا عَلَى قَدْرِكَ ، فَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْكَامِلُ إِلَّا الْإِحْسَانُ مِنْكَ .

يَا مَنْ بِهِ وَمِنْهُ وَإِلَيْهِ يَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ . أَسْأَلُكَ بِجُرْمَةِ الْأُسْتَاذِ بِلِ بَحْرَمَتِي النَّبِيِّ الْهَادِي ﷺ وَبِحُرْمَةِ الْاِثْنَيْنِ وَالْأَرْبَعَةِ ، وَبِحُرْمَةِ السَّبْعِينَ وَالْثَمَانِيَةِ وَبِحُرْمَةِ أَسْرَارِهَا مِنْكَ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِكَ ﷺ ، وَبِحُرْمَةِ سَيِّدَةِ آيِ الْقُرْآنِ مِنْ كَلَامِكَ ، وَبِحُرْمَةِ السَّبْعِ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بَيْنَ كُتُبِكَ ، وَبِحُرْمَةِ الْأَسْمِ الْأَعْظَمِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَبِحُرْمَةِ قُلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ :

أَكْفِنِي كُلَّ غَفْلَةٍ وَشَهْوَةٍ وَمَعْصِيَةٍ مِمَّا تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ ، وَكَفِنِي كُلَّ طَالِبٍ يَطْلُبُنِي مِنْ خَلْقِكَ بِالْحَقِّ وَبِغَيْرِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ لَكَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَكَفِنِي هَمَّ الرِّزْقِ وَخَوْفَ الْخَلْقِ ، وَاسْأَلُكَ بِسَبِيلِ الصَّدَقِ ، وَانْصُرْنِي بِالْحَقِّ ، وَكَفِنَا كُلَّ عَذَابٍ مِنْ فَوْقِنَا أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِنَا أَوْ يَلْبِسَنَا شَيْعًا أَوْ يَذِيقَ بَعْضُنَا بَأْسَ بَعْضٍ ، وَكَفِنَا كُلَّ هَمٍّ وَغَمٍّ وَكُلَّ هَوْلٍ دُونَ الْجَنَّةِ ، وَكَفِنَا شَرَّ مَا تَعَلَّقَ بِهِ عِلْمُكَ مِمَّا كَانَ وَيَكُونُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ ، سُبْحَانَ الْخَلَّاقِ الرَّزَّاقِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، سُبْحَانَ ذِي الْعِزَّةِ وَالْجَبَرُوتِ ، سُبْحَانَ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ ، سُبْحَانَ مَنْ يَحْيِي وَيُمِيتُ ، سُبْحَانَ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقَادِرِ ، سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الْقَاهِرِ ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .
أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ ، وَمِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ ، وَمِنْ دَرَكِ الشَّقَاءِ ، وَمِنْ
شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ
بِیَوْمِ الْحِسَابِ .

يَا مَنْ يَدُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ : أَنْصُرْنِي بِالْخَوْفِ مِنْكَ
وَالْتَوَكَّلْ عَلَيْكَ ، حَتَّى لَا أَخَافَ غَيْرَكَ ، وَلَا أَعْبُدُ شَيْئًا سِوَاكَ .

يَا خَالِقَ السَّبْعِ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ، أَشْهَدُ أَنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّكَ قَدْ أَحْطْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَسْأَلُكَ بِهَذَا الْأَمْرِ الَّذِي
هُوَ أَصْلُ الْمَوْجُودَاتِ ، وَإِلَيْهِ الْمَبْدَأُ وَالْمُنْتَهَى ، وَإِلَيْهِ غَايَةُ الْغَايَاتِ ، أَنْ تَسَحَّرَ لَنَا
هَذَا الْبَحْرَ ، بَحْرَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهِ وَمَنْ فِيهِ ، كَمَا سَحَّرْتَ الْبَحْرَ لِمُوسَى ، وَسَخَّرْتَ النَّارَ
لِإِبْرَاهِيمَ ، وَسَخَّرْتَ الْجِبَالَ وَالْحَدِيدَ لِلدَّوَادِ ، وَسَخَّرْتَ الرِّيَّاحَ وَالشَّيَاطِينَ وَالْجِنَّ
لِسُلَيْمَانَ ، وَسَخَّرَ لِي كُلَّ بَحْرٍ هُوَ لَكَ ، وَسَخَّرَ لِي كُلَّ جَبَلٍ ، وَسَخَّرَ لِي كُلَّ
حَدِيدٍ ، وَسَخَّرَ لِي كُلَّ رِيحٍ ، وَسَخَّرَ لِي كُلَّ شَيْطَانٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وَسَخَّرَ لِي
نَفْسِي ، وَسَخَّرَ لِي كُلَّ شَيْءٍ ، يَا مَنْ يَدُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَاحْمِلْ أَمْرِي
بِالْيَقِينِ ، وَأَيِّدْنِي بِالنَّصْرِ الْمُبِينِ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا ، وَلَا حَوْلَ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

حزب البحر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

اللَّهُمَّ يَا عَلِيُّ ، يَا عَظِيمُ ، يَا حَلِيمُ ، يَا عَلِيمُ ، أَنْتَ رَبِّي ، وَعَلِمَكَ حَسْبِي ،

فَنِعْمَ الرَّبُّ رَبِّي ، وَنِعْمَ الْحَسْبُ حَسْبِي تَنْصُرُ مِنْ تَشَاءُ وَأَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(٥١)
 نَسْأَلُكَ الْعِصْمَةَ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ وَالْكَلِمَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْخَطَرَاتِ مِنْ
 الظُّنُونِ وَالشُّكُوكِ وَالْأَوْهَامِ السَّاتِرَةِ لِلْقُلُوبِ عَنْ مَطَالَعَةِ الْغُيُوبِ ، فَقَدْ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ
 وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا .

فَكُنَّبْنَا وَانصَرْنَا وَسَحَّرْنَا هَذَا الْبَحْرَ كَمَا سَحَّرْتَ الْبَحْرَ لِمُوسَى ، وَسَحَّرْتَ النَّارَ
 لِإِبْرَاهِيمَ ، وَسَحَّرْتَ الْجِبَالَ وَالْحَدِيدَ لِدَاوُدَ ، وَسَحَّرْتَ الرِّيحَ وَالشَّيَاطِينَ وَالْجِنَّ
 لِسُلَيْمَانَ ، وَسَخَّرْنَا كُلَّ بَحْرٍ هُوَ لَكَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ ، وَبَحْرِ
 الدُّنْيَا وَبَحْرِ الْآخِرَةِ وَسَحَّرْنَا كُلَّ شَيْءٍ يَا مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ .

كَهَيْعَصَ ، كَهَيْعَصَ ، كَهَيْعَصَ ، أَنْصُرْنَا فَإِنَّكَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، وَافْتَحْ لَنَا
 فَإِنَّكَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ، وَاغْفِرْ لَنَا فَإِنَّكَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ، وَارْحَمْنَا فَإِنَّكَ خَيْرُ
 الرَّاحِمِينَ ، وَارْزُقْنَا فَإِنَّكَ خَيْرُ الرَّاغِبِينَ ، وَاهْدِنَا وَنَجِّنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَهَبْ
 لَنَا رِيحًا طَيِّبَةً كَمَا هِيَ فِي عِلْمِكَ ، وَانْشُرْهَا عَلَيْنَا مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِكَ ، وَاجْعَلْنَا بِهَا
 حَمْلَ الْكِرَامَةِ مَعَ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ .

اللَّهُمَّ يَسِّرْ لَنَا أُمُورَنَا مَعَ الرَّاحَةِ لِقُلُوبِنَا وَأَبْدَانِنَا ، وَالسَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ فِي دُنْيَانَا
 وَدِينِنَا ، وَكُنْ لَنَا صَاحِبًا فِي سَفَرِنَا وَخَلِيفَةً فِي أَهْلِنَا ، وَاطْمَسْ عَلَى وَجْهِهِ أَعْدَائِنَا
 وَامْسَحْهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْمَضِيَّ وَلَا الْجَيَّءَ إِلَيْنَا .
 وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصُّرَاطَ فَإِنِّي يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ

(٥١) يقول ابن عطاء الله السكندري عن حزب البحر والحزب الكبير الذي يسميه حزب « وإذا جاءك » :
 إنهما سارا مسير الشمس والقمر ، وأشيد ذكرهما في البدو والحضر . وحزب البحر يقرأ بعد العصر في التقاليد
 الشاذلية .

لَمَسَحْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ .

يس ، وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ، لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ .

شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، شَاهَتِ الْوُجُوهُ .

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مِنْ حَمَلِ ظُلْمًا .

طس . حم ، عسق . مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ .

حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم .

حمَّ الْأَمْرُ وَجَاءَ النَّصْرُ فَعَلَيْنَا لَا يُنْصَرُونَ .

(حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ

الْعِقَابِ ، ذِي الطَّلُولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ) .

بِسْمِ اللَّهِ بَابُنَا تَبَارَكَ حَيْطَانُنَا . يس سَقُّنَا . كَهَيْعِصِ كِفَايَتِنَا .

حم ، عسق حِمَايَتُنَا ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

سِترُ الْعَرْشِ مَسْبُورٌ عَلَيْنَا ، وَعَيْنُ اللَّهِ نَاطِرَةٌ إِلَيْنَا بِحَوْلِ اللَّهِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْنَا .

وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ، بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ،

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ، إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ

الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ، إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى

الصَّالِحِينَ .

حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .
 حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .
 حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .
 بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .
 بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .
 بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ ، فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .
 وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

حزب الآيات :

أعوذ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وصلى الله على سيدنا محمد (٥٢) .

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ . يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ . وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .
 الثَّابِتُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

(٥٢) هذا الحزب ذكره ابن الصباغ كقسم من الحزب الكبير وكمقدمة له : بيد أن الحزب الكبير يبدوه الناس عادة بالآية الكريمة (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . .) ولذلك سماه ابن عطاء الله حزب « وإذا جاءك » وتوفيقاً للآراء في ذلك رأى بعض المؤرخين مستندين إلى نصوص ، أن أبا الحسن كان يقرأ هذا الحزب مقدمة للحزب الكبير إذا اتسع له الوقت وإلا قرأ « وإذا جاءك » .

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ
 مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى
 أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
 هُمُ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .
 (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ،
 وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ،
 وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
 وَالْحَافِظَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .
 إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا
 الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ
 وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّتَ اللَّهِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ .
 إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ،
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ،
 وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ .
 اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ صُحْبَةَ الْخَوْفِ ، وَغَلَبَةَ الشُّوقِ ، وَثَبَاتَ الْعِلْمِ ، وَدَوَامَ
 الْفِكْرِ . وَنَسْأَلُكَ سِرَّ الْأَسْرَارِ الْمَانِعِ مِنَ الْإِضْرَارِ حَتَّى لَا يَكُونَ لَنَا مَعَ الذَّنْبِ
 وَالْعَيْبِ قَرَارٌ . وَاجْتِنِبْنَا وَاهْدِنَا إِلَى الْعَمَلِ بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي بَسَطْتَهَا لَنَا عَلَى لِسَانِ
 رَسُولِكَ ، وَابْتَلَيْتَ بِهِنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَكَ فَاتَّمَهْنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ
 وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ، فَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ
 وَنُوحَ . وَاسْلُكْ بِنَا سَبِيلَ أُمَّةِ الْمُهْتَدِينَ .

والله بصيرٌ بالعباد . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .
الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ
النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا
وَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ . وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) .
رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .
(رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَاسْرَفَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامِنَا ، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الكَافِرِينَ) .

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا
أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .
رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .
رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنْ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .
رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ .
(وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ
الصَّالِحِينَ . فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ
جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . فَقَالُوا
عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ
الكَافِرِينَ .

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .
 رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .
 رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا
 وَمَقَامًا .

رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .
 رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ
 وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ
 يَوْمَئِذٍ ، فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .
 رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ .

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ
 آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
 وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
 رَبَّنَا أُنِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ،
 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ
 غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ
 شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ .
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ

يَوْمَ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُوتُونَ . وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ، مَا كَثُرِينَ فِيهِ أَبَدًا .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَكِيمُ ، يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ . وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْنَا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ . الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ، الْحَمْدُ لِلَّهِ . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُكَ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

فَسُبِّحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ . يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ .

سُبِّحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

حزب البر (المعروف بالحزب الكبير) (٥٣) .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .
وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

(٥٣) الوقت المختار لهذا الحزب - في العرف الشاذل - بعد صلاة الصبح . ولا يتكلم حال تلاوته ، وقد

روى عن أبي الحسن أنه قال عنه : من قرأ حزبا فله مالنا وعليه ماعلينا .

الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .
 بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
 وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تَذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .
 الر . كهيعص . حم . عسق .

رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ .
 طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذَكُّرَ لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ
 الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى ،
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

اللهم إنك تعلم أنني بالجهالة معروف وأنت بالعلم موصوف وقد وسعت كل
 شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفر لي إنك على
 كل شيء قدير . يا الله يا مالك يا وهاب هب لنا من نعمائك ما علمت لنا فيه رضاك
 واكسنا كسوة تقنا بها من الفتن في جميع عطايك وقدسنا عن كل وصف يوجب
 نقصا مما استأثرت به في علمك عم سواك .

يا الله يا عظيم يا على يا كبير . نسألك الفقر مما سواك . والغنى بك حتى
 لا نشهد إلا إياك . والطف بنا فيهما لطفا علمته يصلح لمن والاك . واكسنا
 جلابيب العظمة في الأنفاس واللحظات ، واجعلنا عبيدا لك في جميع
 الحالات . وعلمنا من لدنك علما نصير به كاملين في المحيا والممات .

اللهم أنت الحميد الرب المجيد الفعال لما تريد ، تعلم فرحنا بماذا ولماذا وعلى
 ماذا وتعلم جزنا كذلك ، وقد أوجبت كون ما أردته فينا ومنا ، ولا نسألك دفع
 ما تريد ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد كما أيدت أنبياءك ورسلك

وخاصة الصديقين من خلقك إنك على كل شيء قدير .
 اللَّهُمَّ فاطر السموات والأرضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ .
 فَهَيِّئْ لِمَنْ عَرَفَكَ فَرَضِي بِقَضَائِكَ ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفَكَ ، بَلِ الْوَيْلُ ثُمَّ الْوَيْلُ
 لِمَنْ أَقْرَبُ بَوْحَدَانِيَّتِكَ وَلَمْ يَرْضَ بِأَحْكَامِكَ .

اللهم إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ حَكَمْتَ عَلَيْهِمُ بِالذُّلِّ حَتَّى عَزُّوا ، وَحَكَمْتَ عَلَيْهِمُ بِالْفَقْدِ
 حَتَّى وَجَدُوا ، فَكُلَّ عَزِيمَتِكَ دُونَكَ ، فَسَأَلْتُكَ بِدَلِّهِ دُلًّا تَصْحَبُهُ لَطَائِفُ رَحْمَتِكَ ،
 وَكُلَّ وَجْدٍ يَحْجُبُ عَنْكَ ، فَسَأَلْتُكَ عِوَضَهُ فَقَدْ أَتَصَحَّبُهُ أَنْوَارُ مَحَبَّتِكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ
 ظَهَرَتِ السَّعَادَةُ عَلَى مَنْ أَحَبَّبْتَهُ ، وَظَهَرَتِ الشَّقَاوَةُ عَلَى مَنْ غَيَّرَكَ مَلَكُهُ ، فَهَبْ لَنَا
 مِنْ مَوَاهِبِ السُّعْدَاءِ ، وَاعْصِمْنَا مِنْ مَوَارِدِ الْأَشْقِيَاءِ .

اللهم إنا قد عَجَزْنَا عَنْ دَفْعِ الضَّرِّ عَنْ أَنْفُسِنَا مِنْ حَيْثُ نَعْلَمُ بِمَا نَعْلَمُ ، فَكَيْفَ
 لَا نَعْجُزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ لَا نَعْلَمُ بِمَا لَا نَعْلَمُ ، وَقَدْ أَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا ، وَالْمَدْحَ وَالذَّمَّ
 أَلْزَمْتَنَا ، فَأَخُو الصَّلَاحِ مَنْ أَصْلَحْتَهُ ، وَأَخُو الْفَسَادِ مَنْ أَضَلَّاهُ ، وَالسَّعِيدُ حَقًّا مَنْ
 أَغْنَيْتَهُ عَنِ السُّؤَالِ مِنْكَ ، وَالشَّقِيُّ حَقًّا مَنْ حَرَمْتَهُ مَعَ كَثْرَةِ السُّؤَالِ لَكَ ، فَاعْنِنَا
 بِفَضْلِكَ عَنْ سُؤَالِنَا مِنْكَ ، وَلَا تَحْرِمْنا مِنْ رَحْمَتِكَ ، مَعَ كَثْرَةِ سُؤَالِنَا لَكَ ، إِنَّكَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

يا شديد البطش ، يا جباراً يا قهاراً يا حكيماً ، نعوذُ بك من شرِّ ما خَلَقْتَ ،
 ونعوذُ بك من ظُلْمَةٍ ما أَبْدَعْتَ ونعوذُ بك من كَيْدِ الثُّفُوسِ فيما قَدَرْتَ وَأَرَدْتَ ،
 ونعوذُ بك من شرِّ الحُسَّادِ على ما أَنْعَمْتَ ، ونسألك عِزَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كما سَأَلَكَ
 نَبِيُّكَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ ، عِزَّ الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَعِزَّ الْآخِرَةِ بِاللِّقَاءِ
 وَالْمُشَاهَدَةِ إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ .

اللهم إني أَقْدَمُ إِلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ كُلِّ نَفْسٍ وَلَمْحَةٍ وَطَرْفَةٍ يَطْرُقُ بِهَا أَهْلُ
 السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ وَكُلِّ شَيْءٍ هُوَ فِي عِلْمِكَ كَائِنٌ أَوْ قَدْ كَانَ ، أَقْدَمُ إِلَيْكَ بَيْنَ

يدى ذلك كله (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

أقسمت عليك ببسط يديك وكرم وجهك ، ونور عينيك ، وكمال أعينك أن تعطينا خير ما نفذت به مشيئتك ، وتعلقت به قدرتك ، وأحاط به علمك ، واكفينا شر ما هو ضدك لذلك ، وأكمل ديننا ، وأتمم علينا نعمتك ، وهب لنا حكمة الحكمة البالغة ، مع الحياة الطيبة ، والموتة الحسنة ، وتول قبض أرواحنا بيدك ، وحل بيننا وبين غيرك فى البرزخ وما قبله وما بعده بنور ذاتك وعظيم قدرتك وجميل فضلك إنك على كل شيء قدير .

يا الله يا على يا عظيم يا حلیم يا حكيم يا كريم يا سمیع يا قريب يا مجيب يا ودود حل بيننا وبين فتنة الدنيا والنساء والعقلة والشهوة وظلم العباد وسوء الخلق ، واغفر لنا ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا ، واكشف عنا سوء ، ونجنا من الغم واجعل لنا منه مخرجاً إنك على كل شيء قدير .

يا الله يا الله يا الله يا لطيف يا رزاق يا قوى يا عزيز لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدير ، فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به إلى رحمته ، ومن رحمته ما تحول به بيننا وبين نعمته ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوكم ، واختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأوليائكم ، واجعل خيراً أيامنا وأسعدنا يوم لقاءك ، وزحزحنا فى الدنيا عن نار الشهوة ، وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ومهيماً من أرواحنا ومسحراً من أنفسنا كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً . وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة ، وافتح أسماعنا وأبصارنا واذكرنا

إِذَا غَفَلْنَا عَنْكَ بِأَحْسَنِ مَا تَذَكَّرْنَا بِهِ إِذَا ذَكَّرْنَاكَ ، وَارْحَمْنَا إِذَا عَصَيْنَاكَ بِأَتْمِّ مِمَّا تَرْحَمُنَا بِهِ إِذَا أَطَعْنَاكَ ، وَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ وَالطُّفُّ بِنَا لُطْفًا يَخْجُبُنَا عَنْ غَيْرِكَ وَلَا يَخْجُبُنَا عَنْكَ ، فَإِنَّكَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

اللهم إنا نسألك لِسَانًا رَطْبًا بِذِكْرِكَ ، وَقَلْبًا مُتَّعَمًا بِشُكْرِكَ ، وَبَدَنًا هَيْنًا لِنَا بِطَاعَتِكَ ، وَاعْظِنَا مَعَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُكَ ﷺ حَسَبَ مَا عَلِمْتَهُ بِعِلْمِكَ وَاعْظِنَا بِمَا سَبَبِ وَاجْعَلْنَا سَبَبَ الْغِنَى لِأَوْلِيَائِكَ وَبَرَزَخًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .
اللهم إنا نسألك إِيْمَانًا دَائِمًا ، وَنَسْأَلُكَ قَلْبًا خَاشِعًا ، وَنَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا ، وَنَسْأَلُكَ يَقِينًا صَادِقًا ، وَنَسْأَلُكَ دِينًا قِيمًا ، وَنَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ مِنْ كُلِّ بَلِيَّةٍ ، وَنَسْأَلُكَ تَمَامَ الْعَافِيَةِ ، وَنَسْأَلُكَ دَوَامَ الْعَافِيَةِ ، وَنَسْأَلُكَ الشُّكْرَ عَلَى الْعَافِيَةِ ، وَنَسْأَلُكَ الْغِنَى عَنِ النَّاسِ .

اللهم إنا نسألك التَّوْبَةَ الْكَامِلَةَ ، وَالْمَغْفِرَةَ الشَّامِلَةَ ، وَالْحُبَّةَ الْكَامِلَةَ الْجَامِعَةَ ، وَالْخُلَّةَ الصَّافِيَةَ ، وَالْمَعْرِفَةَ الْوَاسِعَةَ ، وَالْأَنْوَارَ السَّاطِعَةَ ، وَالشَّفَاعَةَ الْقَائِمَةَ وَالْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ وَالذَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ ، وَفُكَّ وَثَاقِنَا مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَرِهَانِنَا مِنَ النِّعْمَةِ بِمَوَاهِبِ الْمِنَّةِ . اللهم إنا نسألك التَّوْبَةَ وَدَوَامَهَا ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَأَسْبَابِهَا ، وَذَكَّرْنَا بِالْخَوْفِ مِنْكَ قَبْلَ هُجُومِ خَطَرَاتِهَا ، وَاحْمِلْنَا عَلَى النِّجَاةِ مِنْهَا وَمِنَ التَّفَكُّرِ فِي طَرَائِقِهَا وَامْنَحْ مِنْ قُلُوبِنَا حِلَاوَةَ مَا اجْتَنَيْنَاهَا مِنْهَا ، وَاسْتَبْدِلْهَا بِالْكَرَاهَةِ لَهَا ، وَالطَّعْمِ لِمَا هُوَ بِضِدِّهَا . وَأَفْضِ عَلَيْنَا مِنْ بَحْرِ كَرَمِكَ وَعَفْوِكَ حَتَّى نَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى السَّلَامَةِ مِنْ وَبَالِهَا وَاجْعَلْنَا عِنْدَ الْمَوْتِ نَاطِقِينَ بِالشَّهَادَةِ عَالَمِينَ بِهَا ، وَارْأَفْ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَنُزُولِهَا ، وَأَرْحَمَنَا مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا وَغُمُومِهَا بِالرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ إِلَى الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا .

اللهم إنا نسألك تَوْبَةً سَابِقَةً مِنْكَ إِلَيْنَا لَتَكُونَ تَوْبَتُنَا تَابِعَةً إِلَيْكَ مِنَّا وَهَبْ لَنَا

الْمَلَقَى مِنْكَ ، كَتَلَقَى آدَمَ مِنْكَ الْكَلِمَاتَ لِيَكُونَ قَدْوَةً لَوْلَدِهِ فِي التَّوْبَةِ وَالْأَعْمَالِ
الصَّالِحَاتِ ، وَبَاعِدْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعِنَادِ وَالْإِصْرَارِ وَالشَّبَهِ بِإِبْلِيسَ رَأْسِ الْغَوَاةِ وَاجْعَلْ
سَيِّئَاتِنَا سَيِّئَاتٍ مَنْ أَحَبَّيْتَ ، وَلَا تَجْعَلْ حَسَنَاتِنَا حَسَنَاتٍ مِنْ أَبْغَضْتَ ، فَالْإِحْسَانُ
لَا يَنْفَعُ مَعَ الْبُغْضِ مِنْكَ ، وَالْإِسَاءَةُ لَا تَضُرُّ مَعَ الْحُبِّ مِنْكَ ، وَقَدْ أَهْمَمْتَ الْأَمْرَ
عَلَيْنَا لَنَرْجُو وَنَخَافُ ، فَآمِنْ خَوْفَنَا وَلَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا وَاعْطِنَا سُؤْلَنَا فَقَدْ أَعْطَيْتَنَا
الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَسْأَلَكَ وَكُتِبْتَ وَحَبِّبْتَ وَزَيَّنْتَ وَكَرَّهْتَ وَأَطَلَقْتَ الْأَلْسُنَ بِمَا بِهِ
تَرْجَمْتَ ، فَنِعْمَ الرَّبُّ أَنْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَنْعَمْتَ ، فَاعْفِرْ لَنَا وَلَا تُعَاقِبْنَا
بِالسُّلْبِ بَعْدَ الْعَطَاءِ ، وَلَا بِكُفْرَانِ النِّعَمِ وَجِرْمَانِ الرِّضَا .

اللَّهُمَّ رَضُّنَا بِقَضَائِكَ ، وَصَبْرُنَا عَلَى طَاعَتِكَ ، وَعَنْ مَعْصِيَتِكَ وَعَنْ الشَّهَوَاتِ
الْمُوجِبَاتِ لِلنَّقْصِ أَوْ الْبُعْدِ عَنْكَ وَهَبْ لَنَا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ بِكَ حَتَّى لَا نَخَافَ غَيْرَكَ
وَلَا نَرْجُو غَيْرَكَ ، وَلَا نَحِبَّ غَيْرَكَ وَلَا نَعْبُدَ شَيْئًا سِوَاكَ ، وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ نِعَمَائِكَ
وَعَطْنًا بِرَدَائِ عَافِيَتِكَ ، وَانصُرْنَا بِالْيَقِينِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْكَ وَاسْفِرْ وُجُوهَنَا بِنُورِ
صِفَاتِكَ ، وَأَضْحِكُنَا وَبَشِّرْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَوْلِيَائِكَ وَاجْعَلْ يَدَكَ مَبْسُوطَةً عَلَيْنَا
وَعَلَى أَهْلِينَا وَأَوْلَادِنَا وَمَنْ مَعَنَا بِرَحْمَتِكَ ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرَفَةَ عَيْنٍ وَلَا أَقْلٍ
مِنْ ذَلِكَ يَا نَعَمَ الْمُجِيبُ ، يَا نَعَمَ الْمُجِيبُ ، يَا نَعَمَ الْمُجِيبُ .

يَا مَنْ هُوَ هُوَ هُوَ فِي عُلُوِّهِ قَرِيبٌ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، يَا مُحِيطًا بِاللَّيَالِي
وَالْأَيَّامِ ، أَشْكُو إِلَيْكَ مِنْ غَمِّ الْحَجَابِ وَسُوءِ الْحِسَابِ وَشِدَّةِ الْعَذَابِ ، وَإِنْ ذَلِكَ
لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ إِنْ لَمْ تَرْحَمْنِي .

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

وَلَقَدْ شَكََا إِلَيْكَ يَعْقُوبُ فَخَلَصْتَهُ مِنْ حُزْنِهِ وَرَدَدْتَهُ عَلَيْهِ مَا ذَهَبَ مِنْ بَصَرِهِ

وَجَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلَدِهِ ، وَلَقَدْ نَادَاكَ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ فَنَجَّيْتَهُ مِنْ كَرْبِهِ ، وَلَقَدْ نَادَاكَ
 أَيُّوبُ مِنْ بَعْدُ فَكَشَفْتَ مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ ، وَلَقَدْ نَادَاكَ يُونُسُ فَنَجَّيْتَهُ مِنْ غَمِّهِ ، وَلَقَدْ
 نَادَاكَ زَكَرِيَّا فَوَهَّبْتَ لَهُ وَلَدًا مِنْ صُلْبِهِ بَعْدَ يَأْسِ أَهْلِهِ وَكَبَّرَ سَنَّهُ ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ
 مَا نَزَلَ بِإِبْرَاهِيمَ فَأَنْقَذْتَهُ مِنْ نَارِ عَدُوهِ ، وَأَنْجَيْتَ لُوطًا وَأَهْلَهُ مِنَ الْعَذَابِ النَّازِلِ
 بِقَوْمِهِ ، فَهَآنَذَا عَبْدُكَ إِنْ تُعَذِّبْنِي يَجْمَعُ مَا عَلِمْتَ مِنْ عَذَابِكَ فَأَنَا حَقِيقٌ بِهِ ، وَإِنْ
 تَرْحَمْنِي كَمَا رَحِمْتَهُمْ مَعَ عَظِيمِ إِجْرَامِي فَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ وَأَحَقُّ مِنْ أَكْرَمَ بِهِ ،
 فَلَيْسَ كَرَمُكَ مَخْصُوصًا بِي أَطَاعَكَ وَأَقْبَلَ عَلَيْكَ ، بَلْ هُوَ مَبْذُولٌ بِالسَّبْقِ لِمَنْ شِئْتَ
 مِنْ خَلْقِكَ وَإِنْ عَصَاكَ وَأَعْرَضَ عَنْكَ ، وَلَيْسَ مِنَ الْكَرَمِ إِلَّا تُحْسِنَ إِلَّا لِمَنْ أَحْسَنَ
 إِلَيْكَ ، أَنْتَ الْمِفْضَالُ الْغَنِيُّ ، بَلْ مِنَ الْكَرَمِ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ
 الرَّحِيمُ الْعَلِيُّ ، كَيْفَ وَقَدْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنَّا .
 (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .
 (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)
 (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .
 يَا اللَّهُ يَا اللَّهُ يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا يَا رَبَّنَا .

يَا قَيُّومُ يَا قَيُّومُ يَا قَيُّومُ .

يَا مَنْ هُوَ هُوَ يَا هُوَ إِنْ لَمْ نَكُنْ لِرَحْمَتِكَ أَهْلًا أَنْ نَنَالَهَا ، فَرَحِمْتَكَ أَهْلٌ أَنْ
 تَنَالَنَا يَا رَبَّنَا ، يَا رَبَّنَا ، يَا رَبَّنَا . يَا مَوْلَاهُ ، يَا مَوْلَاهُ ، يَا مَوْلَاهُ .
 يَا مُغِيثَ مَنْ عَصَاهُ ، يَا مُغِيثَ مَنْ عَصَاهُ ، يَا مُغِيثَ مَنْ عَصَاهُ ، أَغْنِنَا أَغْنِنَا
 أَغْنِنَا يَا رَبُّ يَا كَرِيمُ ، وَارْحَمْنَا يَا بَرُّ يَا رَحِيمُ ، يَا مَنْ وَسَّعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

أَسْأَلُكَ الْإِيمَانَ بِحِفْظِكَ إِيْمَانًا يَسْكُنُ بِهِ قَلْبِي مِنْ هَمِّ الرِّزْقِ وَخَوْفِ الْخَلْقِ
 وَاقْرَبُ مِنِّي بِقُدْرَتِكَ قُرْبًا تَمَحَقُ بِهِ عَنِّي كُلَّ حِجَابٍ مَحَقَّتَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ فَلَمْ

يَحْتَجُّ لِجَبْرِيلَ رَسُولِكَ وَلَا لِسُؤَالِهِ مِنْكَ ، وَحُجَّتُهُ بِذَلِكَ عَنْ نَارِ عَذُّوهِ ، وَكَيْفَ لَا يُحْجَبُ عَنْ مَضَرَّةِ الْأَعْدَاءِ مَنْ غَيَّبَتْهُ عَنْ مَنْفَعَةِ الْأَحْبَاءِ ، كَلَّا إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُغَيِّبَنِي بِقُرْبِكَ مِنِّي حَتَّى لَا أَرَى وَلَا أُحِسَّ بِقُرْبِ شَيْءٍ وَلَا بِبُعْدِهِ عَنِّي إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا . اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللَّهُمَّ وَارِضَ عَنْ سَادَاتِنَا الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَعُمَرَ ، وَعُثْمَانَ ، وَعَلِيٍّ ، وَارِضَ اللَّهُمَّ عَنْ سَيِّدِنَا الْحَسَنِ ، وَعَنْ سَيِّدِنَا الْحُسَيْنِ ، وَعَنْ أُمَّهَا فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ، وَعَنْ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ ، وَعَنْ أَزْوَاجِ نَبِيِّكَ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَنْ التَّابِعِينَ ، وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . وَصَلَّى اللَّهُ تَعَالَى وَسَلَّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ . سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

حزب الشيخ أبي الحسن (٥٤) :

أعوذُ بالله من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
العَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .
آمِينَ .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ
حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ وَكْتَبَهُ
وَرُسُلِهِ ، لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ . لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا
لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ
مَوْلَانَا فَانصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

أَلَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وإذا مَرِضْتُ فهو يشفين . والذى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، والذى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ . ربِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنَ بِالصَّالِحِينَ . واجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . واجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ، واغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ، ولا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يومَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، وأزَلَقْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ، وبرزت الْجحيمَ لِلْغَاوِينَ .

سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، له ملكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، هو الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، هو الذى خلق السموات والأرض في ستة أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، له مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . هو الله الذى لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هو الله الذى لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، هو الله الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ له الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخِرَةِ خَيْرُكَ مِنَ الْأُولَى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى .

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

ألم نشرحْ لكْ صدركَ . ووضعنا عنك وزركَ . الذى أنقصرَ ظهركَ . ورفعنا لكْ ذِكْرَكَ ، فإن مع العُسْرِ يسْرًا . إن مع العُسْرِ يسْرًا . فإذا فرغت فانصبْ . وإلى ربك فارغب .

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم .
التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين .

قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .

إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً .

إن الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مُشْفِقُونَ . إن

عذاب ربّهم غير مأْمُون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك في جنات مكرّمون .

اللهم إنا نسألك صُحبة الخوف وغلبة الشوق وثبات العلم ودوام الفكر . ونسألك سرّ الأسرار المانع من الإضرار حتى لا يكون لنا من الذنب أو العيب قرار ، واجتنبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التي بسطتها لنا على لسان رسولك ، وابتليت بهن إبراهيم خليلك فآتمهن . قال إني جاعلك للناس إماماً . قال ومن ذريتي . قال لا ينال عهدى الظالمين . فاجعلنا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم ونوح واسلك بنا سبيل أئمة المتقين .

باسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وعلى الله فليتوكل المتوكلون .
حسبي الله آمنت بالله ، رضيت بالله ، توكلت على الله ، ولا قوة إلا بالله ،
أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، رب اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات .

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . مالك يوم الدين . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .
رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا فَاغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

يا الله يا على يا عظيم يا حلیم يا علیم يا سمیع يا بصیر يا مرید يا قدیر يا حی
يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا من هو هو يا هو يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن تبارك اسم

ربك ذي الجلال والإكرام .

اللهم صلني باسمك العظيم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء وهب لي منه سرّاً لا تضر معه الذنوب شيئاً ، واجعل لي منه وجهاً تقضى به الحوائج للقلب والعقل والروح والسر والنفس والبدن ووجهاً ترفع به الحوائج من القلب والعقل والسر والروح والبدن والنفس ، وادرج أسمائي تحت أسمائك ، وصفاتي تحت صفاتك ، وأفعالي تحت أفعالك درج السلامة وإسقاط الملامة وتنزل الكرامة وظهور الإمامة وكمل لي ما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك ، واغني حتى تغني بي وأحيني حتى تحيي بي ما شئت ومن شئت من عبادك واجعلني خزانة الأربعين ومن خلاصة المتقين واغفر لي فإنه لا ينال عهدك الظالمين .

طس . حم عسق . مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ . إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد .
 قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد .
 قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد .

نصائح :

كن متمسكاً بهذه الصفات الحميدة تفز بسعادة الدارين :
 لا تتخذ من الكافرين ولياً ، ولا من المؤمنين عدواً ، وارتحل بزادك من التقوى في الدنيا وعد نفسك من الموتى ، واشهد لله بالوحدانية ولسوله بالرسالة ، وحسبك عمل صالح وإن قل ، وقل : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ،

وقل : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

فمن كان متمسكاً بهذه الصفات الحميدة ضمن الله عز وجل له أربعة أمور في الدنيا : الصدق في القول ، والإخلاص في العمل ، والرزق كالمنطر ، والوقاية من الشر .

وأربعة أمور في الآخرة : المغفرة العظيمة ، والقربة الزلفى ، ودخول جنة المأوى ، واللحاق بالدرجة العليا .

فإن أردت الصدق في القول فداوم على قراءة : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) .
وإن أردت الرزق كالمنطر فداوم على قراءة : (قل أعوذ برب الفلق) .
وإن أردت السلامة من شر الناس فداوم على قراءة : (قل أعوذ برب الناس) .

وإن أردت جلب الخير والرزق والبركة فداوم على قراءة : بسم الله الرحمن الرحيم . الملك الحق المبين هو نعم المولى ونعم النصير ، وقراءة سورة : (الواقعة) وسورة (يس) .

وإن أردت أن يجعل الله لك من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقك من حيث لا تحسب ، فالزم : الاستغفار .

وإن أردت أن تأمن مما يروعك ويفزعك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون .
وإن أردت أن تعرف أى وقت تفتح فيه أبواب السماء ويستجاب الدعاء فاشهد وقت نداء المنادى فأجبه ففى الحديث : « من نزل به كرب أو شدة فليجب المنادى » وهو المؤذن .

وإن أردت أن تسلم من أمريكريك ، فقل : توكلت على الحى الذى لا يموت أبداً ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له

ولى من الذل وكبره تكبيراً .

وإن أردت أن تنجو من هم أو غم أو خوف يصيبك ، فقل : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي .

وإن أردت أن يداويك الله من تسعة وتسعين داء أيسرها اللهم فقل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وإن أردت أن تؤجر بما يصيبك من مصيبة فقل : (إنا لله وإنا إليه راجعون) .
وإن أردت أن يذهب همك ويقضى دينك فقل إذا أصبحت وإذا أمست :
« اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة وقهر الرجال » .

وإن أردت أن توفق للخشوع والخشوع : فاترك فضول النظر .

وإن أردت أن توفق للحكمة : فاترك فضول الكلام .

وإن أردت أن توفق لحلاوة العبادة : فاترك فضول الطعام ، وعليك بالصوم وقيام الليل والتهجد فيه .

وإن أردت أن توفق للهيبة : فاترك المزح والضحك فإنهما يسقطان الهيبة .

وإن أردت أن توفق للجنة : فاترك فضول الرغبة في الدنيا .

وإن أردت أن توفق لإصلاح عيب نفسك : فاترك التجسس على عيوب

الناس ، فإن التجسس من شعب النفاق كما أن حسن الظن من شعب الإيمان .

وإن أردت أن توفق للخشية : فاترك التوهم في كفيات ذات الله تعالى تسلم

من الشك والنفاق .

وإن أردت أن توفق للسلامة من كل سوء : فاترك الظن السيئ بكل الناس .
 وإن أردت المنزلة : فاترك الاعتماد على الناس وتوكل على الله .
 وإن أردت ألا يموت قلبك فقل كل يوم أربعين مرة : يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت .
 وإن أردت أن ترى النبي ﷺ ، يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة فأكثر
 من قراءة (إذا الشمس كورت) و (إذا السماء انفطرت) و (إذا السماء

انشقت) .
 وإن أردت أن ينور الله وجهك فداوم على قيام الليل .
 وإن أردت السلامة من عطش يوم القيامة فلازم الصوم .
 وإن أردت أن تسلم من عذاب القبر فاحترز من النجاسات واترك أكل
 المحرمات وارضض الشهوات .

وإن أردت أن تكون غنياً فلازم القناعة .
 وإن أردت أن تكون خير الناس فكن نافعا للناس .
 وإن أردت أن تكون أعبد الناس فكن متمسكاً بقوله ﷺ : « من يأخذ عني
 هذه الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن » . قال أبو هريرة أنا يا رسول الله ،
 فأخذ بيدي وعد خمسا قال : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله
 لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ما تحب
 لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .
 وإن أردت أن تكون من المحسنين الخالصين فاعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن
 تراه فإنه يراك .

وإن أردت أن يكمل إيمانك فحسن خلقك .
 وإن أردت أن يحبك الله فاقض حوائج إخوانك المسلمين .
 وإن أردت أن تكون من المطيعين فأد ما فرض الله عليك .

وإن أردت أن تلقى الله تعالى يوم القيامة نقيًا من الذنوب فاغتسل من الجنابة ولازم غسل الجمعة .

وإن أردت أن تحشر يوم القيامة في النور الهادي وتسلم من الظلمات فلا تظلم أحداً من خلق الله تعالى .

وإن أردت أن تقلّ ذنوبك فالزم الاستغفار .

وإن أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله .

وإن أردت أن يستر الله عليك فاستر عيوب الناس .

وإن أردت أن تمحى خطاياك فأكثر من الاستغفار والخشوع والخضوع والحسنات في الخلوات .

وإن أردت الحسنات العظام فعليك بحسن الخلق والتواضع والصبر على البلية .

وإن أردت السلامة من السيئات العظام فاجتنب سوء الخلق والشح المطاع .

وإن أردت أن يسكن عنك غضب الجبار فعليك بإخفاء الصدقة وصلة

الرحم .

وإن أردت أن يقضى الله عنك الدين فقل ما قاله النبي ﷺ : « قل اللهم

اكفني بجلالك عن حرامك ، واغنني بفضلك عمّن سواك » .

وإن أردت أن تأمن من قوم خفت شرهم فقل : « اللهم إنا نجعلك في نحورهم

ونعوذ بك من شرورهم » .

وإن أردت كثرة الخير والرزق فداوم على قراءة : (ألم نشرح)

و (الكافرون) .

وإن أردت الستر من الناس فداوم على قول : اللهم استرني بسترِكَ الجميل

الذي سترت به نفسك فلا عين تراك .

وإن أردت عدم الجوع والعطش فداوم على قراءة (لا يلف قريش) .

٩ - خاتمة واعترافات

حينما بدأت فى تأليف هذا الكتاب فوجئت مباشرة بمشكلة ، هى مشكلة الكرامات المنتهزة فى كل الكتب القديمة التى أرّخت لأبى الحسن ، وهى من الكثرة بحيث لا يمكن إغفال الحديث عنها .

هل أنقلها جميعاً وأدع مسئولية روايتها على الذين ذكروها ؟
وإذا مانقلتها جميعاً فهل أكون بذلك قد أحسنت بالنسبة لأبى الحسن ،
أم أكون قد أسأت بالنسبة إليه ؟

إن الكثير من المثقفين فى العصر الحاضر يمجون ذكر الكرامات هكذا بدون حساب ، وفى إسراف مسرف ، ومما لاشك فيه أن أتباع الولي أينما كان وأينما كانوا ، يحاولون الإشادة بذكره فيروون عنه الكرامات الكثيرة ، فيصادف ذلك قبولا وارتياحاً عند البعض ، ونفوراً وإعراضاً عند الآخرين .

ولقد وصل الأمر ببعض المنكرين للكرامات أن أنكروا كل المعجزات الحسية التى ذكرت للرسول ﷺ فى السنة الصحيحة وفى الأخبار التى محصها رجال الحديث ، واكتفوا - فى المعجزات - بالقرآن الكريم نافين كل شئ غيره مما ذكرته كتب الصحاح على اختلاف ألوانها .

إن روح الكثيرين فى العصر الحاضر تنادى بإنكار الكرامات ، وتسخر فى وضوح أو فى إشارات بكل من يروى كرامة لولى .

هل أجارى هؤلاء أو أولئك ؟

ومع قيام هذه المشكلة أمامى فى وضوح فإننى لم أتردد قط فى أن أبدأ كتابى هذا ، بعد المقدمة ، بكرامة لأبى الحسن - تلك التى رواها أبو العباس رضى الله

عنه - وماشككت قبط في ثوبتها ، وماشككت قبط في صحة النقل ، ثم وجدتنى أنقل هذه الكرامة في مناسبة . وتلك في أخرى . ولم أجد في ضميرى عتاباً ، ولا فى شعورى تراجعاً ، ولا فى ذوقى نفوراً . حقيقة أنى لم أنقل كل الكرامات ، ولا أغلبها . ولكنى نقلت منها ما رأيت له مناسبة فى كتابى .

لماذا لم أجد حرجاً فى نقل بعض الكرامات فى كتابى هذا ؟

لماذا ؟

للأسباب الآتية :

١ - إن القرآن الكريم يحدثنا فى أسلوب لا لبس فيه عن المعجزات التى تفضل الله بها على رسله وأنبيائه . ويحدثنا عن الكرامات التى منحها سبحانه لأوليائه وأصفياه .

ألم يحدثنا القرآن بصورة لا تحتمل التأويل بأن عيسى عليه السلام كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ؟

ألم يحدثنا عن سيدنا موسى بأنه ألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يافكون ، وبأنه أخرج يده فإذا هى بيضاء للناظرين ؟

وسيدتنا مريم ألم تحمل بسيدنا عيسى من غير أب خارقة بذلك قوانين الطبيعة ، وكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله .

٢ - ثم إن مانسميه قوانين الطبيعة إنما هو فى الواقع « عادات » الطبيعة . وخرقها ليس بمستحيل عقلاً . وخرقها لا يترتب عليه مستحيل . وعادات الطبيعة لا تسيطر على رب الطبيعة .

٣ - ثم إن هؤلاء الذين تجرى على أيديهم المعجزات أو الكرامات لا ينسبون لها

لأنفسهم ، وإنما ينسبونها إلى المتفضل الوهاب ، صاحب القدرة والقهر ، إنهم ينسبونها إلى من هو على كل شيء قدير .

٤ - والملاحظ في منكرى الكرامات على مر العصور أنهم يتميزون بألوان من الغلظة وقساوة القلب ، فلا تجد فيهم رقة الشعور . ولا صفاء البصيرة . ولا ملائكية الروح ، وهم - إن لم يكونوا من الملاحدة - من الصنف الذى لم يخالط الإيمان شغاف قلبه وإنما بقى صورة عائمة على السطح .

٥ - وجمهرة المسلمين على مر العصور ، عامتهم وخاصتهم . وقمهم الشوامخ في العلم والدين من الذين يثبتون الكرامات ويؤمنون بها .

تلك هى الأسباب العامة التى لم تجعلى أخرج من نقل بعض كرامات أبى الحسن . وأضيف إليها بعض الأسباب الأخرى الخاصة . وأضيفها لأواجه المشكلة فى صراحة ، أضيفها معلناً فى غير كبرياء ولا فخر بأننى من الأشخاص الذين لا تلعب بهم الأوهام ولا التخيلات . ولم أكن فى يوم من الأيام فريسة أباطيل أو خرافات ، ولقد باعد الله سبحانه - وله الفضل والمنة - بينى وبين التأثير بالإيجاء الموهم . فإذا أضفت أسباباً خاصة فإنما أضيفها عن يقين وثقة ولعل الله يهدى بها بعض من لا يزال فى قلوبهم الاستعداد للخير ، وفى أرواحهم أسس الاهتداء إلى الحق .

فى فترة من الفترات ابتلانى الله بموضوع شق على نفسى وعلى نفس المحيطين بى ، واستمر الابتلاء مدة كنا نلجأ فيها إلى الله طالبين الفرج .

وذاة يوم أتى عندى بعض الصالحين - وكان على علم بهذا الابتلاء - وأعطانى ورقة كتب فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله ﷺ وسلم ، وقال : اقرأها ، واستغرق فيها ، وكررها منفرداً فى الليل لعل الله يجعلها سبباً فى تفريج هذا البلاء . والصيغة هى : اللهم صل صلاة جلال وسلم سلام جمال على

حضرة حبيبك سيدنا محمد . واغثه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات فنظر إلى وجهك الكريم . وبحقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم . الذى أعاده من كل سوء .

اللهم فرج كربى كما وعدت : أَمَّنْ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . وعلى آله وصحبه آمين .

واعتكفت فى غرفة بعد صلاة العشاء . وأضأت نور الغرفة . وأمسكت الورقة بيدى وأخذت فى تكرار الصيغة واستغرقت فيها وإذا بى أرى فجأة أن الحروف التى كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ نوراً . ومع أن الغرفة كانت مضيئة فإن الحروف كانت تتلألأ نوراً فى وسط هذا النور .

ولم أصدق عيني فغمضتها وفتحتها عدة مرات فكان النور على ما هو . فوضعت الورقة أمامى ووضعت يدي على عيني أدلكها وأدعكها . ثم فتحت عيني فإذا بالحروف على ما هي عليه تتلألأ نوراً . وتشع سناء .

فحمدت الله وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت . وأن هذا النور رمز ذلك . وفعلأ أزال الله الكرب وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة . وأمر آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسى :

فى ذات صباح كنت جالساً . فى المنزل . فى غرفة المكتب . كعادتى . وكنت فى تلك اللحظة مطأطئ الرأس . ثم رفعت رأسى ناظراً أمامى وإذا بى أجد أمامى إنساناً فأخذت فى تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فزع .

كان طويلاً . أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة يميل لونه إلى السمرة . وعلى رأسه شال أبيض أو ما يسميه الحجازيون « الغطرة » . وكان فى وقفته منحنيًا قليلاً . وقد تأملت ملابسه أيضاً فى تفاصيلها وشكلها .

لم يتحدث معى . ولم أتحدث إليه .

وبعد فترة ونحن على هذا الوضع ، أنظر إليه في تحديق ، ويمد عينيه إليّ في نظرات ثابتة أخذ يشف شيئاً فشيئاً ، وألاحظ أنا في وضوح التدرج في هذه الشفافية وانتهت الشفافية بزواله تماماً دون أن يتحرك من موضعه . ذلك ماشاهدته بنفسى . وماذا يكون خرق العادات غير هذا ؟

إن الذين ينكرون خرق العادات ، وينكرون الكرامات لأولياء الله ، إنما ينكرون شيئاً أثبتته تجارب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية ، وأثبتته القرآن الكريم ، وأثبتته جمهور الأمة ، وقد رأيت أنا خرق العادات بنفسى وبعينى كما رويت سابقاً ...

ومن أجل كل ذلك أثبت ما أثبت في الكتاب من كرامات أبي الحسن وبدأته بعد المقدمة مباشرة ، بكرامة من كراماته ، رواها أقرب تلاميذه ومريديه إليه وهو القطب الكبير أبو العباس المرسى الذى كان شاهد عيان فيها .

وأمر آخر أريد أن أعترف به وأن أشرح وجهة نظرى فيه :
ذلك أنى لم أتحدث عن وسط أبى الحسن وبيئته الاجتماعية ، ولم أتحدث عن شيوخه الذين يكثر بعض المؤرخين من ذكرهم ، اللهم إلا عن الولى الكبير سيدى عبد السلام بن مشيش .

وإذا كنت لم أتحدث عن الوسط ولا عن الشيوخ ، فإنما فعلت ذلك متعمداً
إننى فعلته عن مبدأ وعن رأى قد ترويت فيه وتأملته .

إننى أرى فى صراحة أن هؤلاء الذين يكتبون عن الصوفية فيتحدثون عن الوسط والبيئة ، وعن الأساتذة والشيوخ ليقولوا بعد ذلك أن الصوفى تأثر وقلد وأخذ ، وأن فكرته هذه يدين فيها لفلان ، وفكرته تلك يدين فيها للوسط الفلانى .. إن هؤلاء الذين يدينون بالآلية فى الفكر الصوفى ، أو بأن الصوفى مرآة تعكس صور المجتمع والمربين ، وتنعكس فيها أفكار المجتمع والشيوخ ، ويأخذون فى

تحليل آراء الصوفى وتفصيلها وتشريحها من أجل أن يعزوا كل فكرة إلى مصدر يختلف عن مصدر الفكرة الأخرى للصوفى نفسه . إن هؤلاء الذين يصنعون ذلك مخطئون .

فالصوفى لا يكون صوفيًا بالقراءة . أو الدراسة والبحث . حتى ولو كانت هذه القراءة والدراسة فى الكتب الصوفية نفسها وفى المجال الصوفى خاصة . وقد يكون شخص من أعلم الناس بهذه الكتب . درسنا دراسة باحث متأمل . وعرف قديمها وحديثها . وميز بين الزائف منها والصحيح وصنفها زمنًا وميزها أمكنة . . وهو مع ذلك لا سهم له . فى قليل ولا فى كثير . فى المجالات الصوفية .

ولقد درس الإمام الغزالى كتب الصوفية المحققين . درسها دراسة تعمق وتأمل . لقد درس كتب الحارث المحاسبى . وكتب أبى طالب المكى . وماروى عن الجنيد . وعن الشبلبى . وغيرهم . ثم اعترف بأن ذلك لم يجعله صوفيًا . ولو اقتصر على القراءة . مهما كانت عميقة . لما كان له فى التصوف نصيب . ليس قراءة كتب الصوفية سلمًا يرقى به الإنسان فى معارج القدس .

وابن سينا درس التصوف فى كتبه الأصلية . وخالط الصوفية وتحدث إليهم وكتب فى التصوف فصولا توج بها كتابه الذى كان يعتر به وهو كتاب الإشارات والتنبيهات . . . ومع ذلك فإن ابن سينا لم يصبر بذلك صوفيًا ولم يجعله دراسته للتصوف وكتابته عنه فى عداد الصوفية .

ثم إنه قد يكون الصوفى أميًا لم يقرأ فلسفة ولم يجهد نفسه فى بحث . والحديث إذن عن المصادر والبيئة والأساتذة والتقليد والتأثر . . . فى مجال التصوف إنما يقوم على أساس فاسد ، وكل من ينهج هذا المنهج من الكتاب عن التصوف إنما يسير فى طريق زائف ، ويقف فوق جدار منقضى ، ويعتمد على أسس

تنقضها حياة الغزالي ، وحياة ابن سينا ، وحياة الخواص ، وحياة العشرات غير هؤلاء

هذا الطريق الزائف سار فيه المستشرقون . وحاولوا ما استطاعوا أن يقفوا بكل فكرة في الجو الصوفي عند مصدر أجنبي ، وأن يجدوا في تراث كل صوفي مسلم ألواناً من أفكار سابقة من الزمن مختلفة أو متحدة في البيئة سار المستشرقون في هذا الطريق الضال فضلوا وأضلوا .

لقد ضلوا ولم يتأت لهم - بعد أكثر من قرن ونصف - أن يصلوا إلى نتائج موحدة ، أو يقينية ، أو شبه يقينية ، بل لقد ظهروا بمظهر لا يغبطون عليه ، وذلك أن الكثير منهم كان يرى الرأي اليوم ، يؤيده بما شاء من كل شاردة وواردة . ويتلقف من أجله كل خبر ورواية ، ويخرجه للناس على أنه الحق الذي لامراء فيه ، ثم ينقضه هو نفسه من الغد ، فيخرج برأى آخر مغاير ، يؤيده بما شاء من كل شاردة وواردة ، ويتلقف من أجله كل خبر ورواية .

لقد فعل ذلك المستشرق « ثولك » فأعلن مجوسية التصوف الإسلامي . ثم عدل عن ذلك وأعلن إسلاميته .

وفعل ذلك « نيكولسن » فأعلن أفلاطونية التصوف الإسلامي ثم أعلن إسلاميته في جوهره ...

وأخذ المستشرقون يتحدثون عن مشكلة وهمية هي مشكلة مصادر التصوف ولا يزالون مختلفين .

وجارى الشرقيون المستشرقين في الحديث عن مصادر التصوف . وكما اختلف المستشرقون فقد اختلف الشرقيون . ولا يزالون مختلفين .

وسيستمر الخلاف ؛ لأن النقاش إنما هو عن مشكلة وهمية . وسيستمر الخلاف ؛ لأن وضع المشكلة خطأ .

إنهم يتحدثون عن مصادر ثقافية على اعتبار أن التصوف ثمرة ثقافة كسبية .
ومادام ثمرة ثقافة كسبية فإنه إذن يتأثر بالوسيلة التي أدت إليه . أى بالثقافة الكسبية
التي كان ثمرة لها .

ولكن التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية . إن الوسيلة إليه ليست هي الثقافة .
ولكن الوسيلة إليه إنما هي العمل . إن الطريق إليه إنما هو السلوك .
والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هي إلهام . وهي كشف . وهي ملأ أعلى
انعكس على البصيرة المجلوة فتذوقه الشخص حالا . وأحس به ذوقاً . وأدركه
إلهاماً وكشفاً .

فهل يتأتى والحالة هذه أن نتحدث عن مجوسية التصوف الإسلامى . أو عن
أفلاطونية . أو فارسية . أو هندية ؟

سار المستشرقون فى طريق خطأ . وجاراهم الشرقيون فضلوا بضلالهم . بيد أن
المؤسف هو أن الناس ألفوا الحديث عما سماه المستشرقون مصادر التصوف
الإسلامى . وشارك فى الحديث عنها القارئون والسامعون . وهكذا لبس الوهم
صورة الجد . واتخذ الزائف مظهر الصحيح . وكان نقاش . وكان جدل . ومازال
النقاش ومازال الجدل وسيستمر ذلك إلى أن يصحح الوضع .

وتصحح الوضع إنما هو بحذف الوهم الذى اتخذ صورة الجد . وبحذف
الزائف الذى لبس مظهر الصحيح ؛ أى بحذف مايعبرون عنه بمشكلة « مصادر
التصوف » .

ومن أجل ما تقدم لم أكتب عن « مصادر » أبى الحسن . وإذا كنت قد كتبت
عن سيدى عبد السلام بن مشيش فإنما كتبت عنه كموجه . موجه فقط . والموجه
ليس هو الموحى وليس هو الملهم . ليس الموجه بصيرة ترق وتشف . ولا سراً يصير
مرآة مجلوة يحاذى بها الصوفى شطر الحق . ولا ملأ أعلى ينعكس على بصيرة الصوفى

فيتذوقه ويحسه ويشهد ، ولا مبادئ تلقى في الروح فيدركها الصوفي سارية في كيانه كله .

لقد تحدثت عن سيدى عبد السلام بن مشيش كموجه ، ولا بد للسالك من موجه ، لا بد له من شيخ يقوده ، لا بد له من خبير يرشده .

يقول الأستاذ رينيه جينو الفيلسوف الفرنسى المعروف :

« ولا بد في التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى » . أو بتعبير أدق « البركة » وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ » ومن هنا كانت « الطرق » ومن هنا كانت « السلسلة » . وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مرید يوشك أن يصبح شيخًا فيؤثر بدوره في مرید أو مریدين ؟ » اهـ .

ويعنى الأستاذ رينيه جينو بالبركة « السر » الذى ينتقل من الشيخ إلى المرید حينما تلتقى يد المرید بيد شيخه معاهدًا إياه على الاستقامة .

وإذا كان الأستاذ رينيه جينو يرى ضرورة الشيخ من أجل « السر » فإن الإمام الرازى يرى ضرورة الشيخ لأن : « من سلك الطريق ، وعرف مراحلها ومنازلها ، واطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل . والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل » اهـ .

إلام تستمر مهمة الشيخ ؟

إنها تستمر إلى أن يرتبط السالك بالسماء إلى أن يشرق عليه الملائ الأعلى ، إلى أن يتمكن في المجال الروحى ، ومن هنا كان طبعيًا أن يقول أبو الحسن ، وقد سئل عن شيخه : « أما فيما مضى فكان سيدى عبد السلام بن مشيش ، وأما الآن فأستقى من عشرة أبحر : خمسة سماوية ، وخمسة أرضية ، أما السماوية فجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح ، وأما الأرضية فأبوبكر وعمر وعثمان وعلى والنبي ﷺ » اهـ . وليس معنى ذلك انفصال المرید عن شيخه انفصالًا تامًا ، وإنما معنى

ذلك أن الشيخ رأى بنور الله أن تلميذه قد قطع الطريق ، وأنه أصبح جديرًا بأن يرشد السالكين إلى الله ، فيأذن له بالإرشاد ، ويبارك خطواته وتوجيهاته في الدعوة إلى الله .. ويشرق بذلك في العالم نور جديد ، ويتألق في سماء الروح كوكب مشرق ، وتسعد الإنسانية بها إلى الله ، ويغنى التراث الروحي للإنسانية بإشراقات جديدة قريبة العهد من الله .

أما الأمر أو الأمور التي أريد أن أختم بها فهي أن حياة أبي الحسن الشاذلي حينما يتأملها أى إنسان فإنه سيجد فيها ما يصحح الأفهام الخاطئة الشائعة عن التصوف ، لقد أشاع الماديون على اختلاف ألوانهم كثيرًا من الأباطيل ضد التصوف ، وأخذوا يروجون لها في كل مكان ، وبكل وسيلة فتعلقت بأذهان كثير ممن لم يصادفهم التوفيق في الوصول إلى صورة صحيحة عن التصوف .

١ - من ذلك مثلاً ما أذاعه ويذيعه الماديون من أن التصوف والكفاح ، أو التصوف والعمل ضدان لا يجتمعان ، أو من أن التصوف والتواكل صنوان مؤتلفان ، وحياة أبي الحسن - وهي تمثل التصوف الصحيح - تهدم ذلك : لقد كان عاملاً في الزراعة ، صاحب حقول ، وزرع وحصيد ، ودرس ، معنيًا بتربية ما تحتاج إليه الزراعة من ثيران وماشية .

وعنى عناية شديدة بأمر المسلمين في حروبهم ، حتى لقد كان دائماً في قلب المعركة ، وفي ميدان الحرب مع الجيش والجنود عاملاً ومشجعاً .

وعنى عناية شديدة بقضاء مصالح المسلمين الضعفاء والمساكين ، وسعى جاهداً في أن ييسر لهم - بتوفيق الله - ماتعسر ، ويحل لهم ماتعقد ، ويفرج من كرباتهم مهما لاقى في سبيل ذلك من عنت حاكم أو عدم مبالاة صاحب جاه .

٢ - وأشاع الماديون أن التصوف والعلم لا يجتمعان ، أو أن التصوف والجهل صديقان . وتلك فرية أيضاً تهدمها حياة أبي الحسن وحياة الغزالي ، وحياة هؤلاء

الصوفية الذين بلغوا في العلم الذروة والسنام ، وكانوا من الكثرة بحيث لا يكاد يحصيهم المؤرخون مهما بالغوا في الاستقصاء والبحث .

٣ - وأشاع أصحاب الطوائع الكثيفة ، هؤلاء الحسيون المغرقون في التصور الحسى أن الصوفية لا يتابعون الكتاب والسنة ، ومن أجل الرد على هؤلاء عقدنا فصلاً خاصاً عن ذلك يهدم زيفهم وأباطيلهم .

٤ - ثم لقد كان أبو الحسن أنيقاً في ملبسه ، والله جميل يحب الجمال ، وكان لا يتزمت في مأكله ومشربه مادام حلالاً طيباً ، والله سبحانه وتعالى يقول عن الملبس والمطعم : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

والتصوف في النهاية هو الاسترسال مع الله على ما يريد ، وهو متابعة الرسول ﷺ على ما يحب ، هذا باعتباره وسيلة وطريقاً .

وهو قرب من الله ومشاهدة التوحيد باعتباره الغاية .

ويلخص هذا وذاك شارحاً الطريق والغاية ، ورأسماً حياة كل صوفى ، الحديث القدسى الذى نختتم به هذا الكتاب ، وقد رواه إمام المحدثين أبو عبد الله البخارى فى أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى ، وهو : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل :

« من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ولن استعاذ بى لأعيننه » .

الفصل الثاني

العارف بالله أبو العباس المرسى

١ - حياته

إنها رؤية رمزية لطيفة ، تعبر في عمق عميق ، وفي دقة دقيقة عن مكانة العارف بالله أبي العباس المرسى من شيخه أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنهما . يروى ابن عطاء الله السكندرى في كتابه اللطيف : « لطائف المنن » مايلي : وأخبرني بعض أصحابنا قال : « رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء ، وقائل يقول : الشيخ أبو الحسن الشاذلى يتزل من السماء ، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله متأهب له . فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء ، وعليه ثياب بيض فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجله في الأرض وتهايا لنزوله عليه ، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ، ودخل من رأسه حتى غاب فيه .. واستيقظت » اهـ .

هذا الرمز الجميل لصلة أبي العباس بالشاذلى : هذا الرمز الذى يشير إلى الاتحاد بينهما في المنهج والفكر والسلوك ، يجاريه ويسير معه في نسق واحد مارواه ابن عطاء الله أيضاً . قال : من المشهور بين أصحاب الشيخ أبي الحسن وغيرهم ، أن الشيخ كان يوماً بالقاهرة في دار الزكى السراج ، وكتاب المواقف للنفرى يقرأ عليه . فقال : أين أبو العباس ؟ فلما جاء قال : يابنى تكلم ، يابنى تكلم بارك الله فيك ،

تكلم ولن تسكت بعدها أبداً . فقال الشيخ أبو العباس : فأعطيت في ذلك الوقت لسان الشيخ . وبجاريه أو يتطابق معه في صورة جميلة أيضاً ما قاله الشاذلي رضي الله عنه له : « يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا ، وأنا أنت » .
 لم يمض الشاذلي رضي الله عنه حين مات ، وإنما غاب في أبي العباس أوبقى في أبي العباس . لقد كان أبو العباس امتداداً للشاذلي ، فقد غاب فيه . وكان لسانه ، وكان هو هو . وكان الشاذلي هو الحلقات الأولى في الطريق ، وأخذت هذه الحلقات تتسلسل متحدة لألاءة على مر الزمن ، فكانت مدرسة بدأها في قوة قوية أبو الحسن ، وتابعه وترسم خطاه على هدى وعلى بصيرة من تبعه ، وكان على رأس التابعين أبو العباس .

ولقد كان الشاذلي يحب أبا العباس كما يحب الإنسان صورة لنفسه ، أو كما يحب أثراً من آثاره ، أو كما يحب ابناً نجيباً من أبنائه .
 وتقدير الشاذلي لأبي العباس تقدير جميل ، إنه يذكره غير مرة مبصراً الناس بشأنه فيقول عنه مرة : هذا أبو العباس منذ نفذ إلى الله لم يحجب عنه ، ولو طلب الحجاب لم يجده . ويقول مرة أخرى للشيخ الصالح زكي الدين الأسواني : يا زكي ، عليك بأبي العباس ، فوالله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه . فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله . يا زكي عليك بأبي العباس . فوالله ما من ولي لله كان أو هو كائن إلا وقد أطلعه الله عليه . يا زكي أبو العباس هو الرجل الكامل .
 ومرة ثالثة يقول عنه : أبو العباس بطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض . وكان يشيد به ، ويعرف الناس بمكانته الروحية العالية . يقول الشيخ ماضي بن سلطان : وقع بيني وبين أبي العباس كلام فسمعني الشيخ فقال لي : يا ماضي : الزم الأدب مع أبي العباس ، فوالله إنه لأعرف بأزقة السماء أكثر مما تعرف أنت أزقة الإسكندرية . ولقد كان أبو العباس من جانبه وفيّاً كل الوفاء لتربية شيخه وتعاليمه .

وقد كان يذيعها معترفاً بفضله وفضلها ، فمن ذلك مثلاً أنه كان يفسر قوله تعالى :
 (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ
 بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَعَلَى
 الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ
 أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ . ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا . إِنَّ اللَّهَ هُوَ
 التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

فأخذ يقول عن شيخه أبي الحسن رضى الله عنهما : ذكر توبة ما لا يذنب ،
 لئلا يستوحش من أذنب ، لأنه ذكر النبي ﷺ ، والمهاجرين ، والأنصار ، ولم
 يذنبوا . ثم قال : (عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا) . فذكر من لم يذنب ليونس من
 أذنب ، فلو قال أولاً : لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا لتفطرت أكبادهم .
 ولقد كثر حديثه عن شيخه فكان يقول كثيراً : قال الشيخ .. قال الشيخ ..
 فقال له إنسان : لا نراك أبداً تسند لنفسك كلاماً ؟ فقال رضى الله عنه :
 لو أردت عدد الأنفاس أن أقول : قال الله عز وجل .. لقلت .
 لو أردت عدد الأنفاس أن أقول : قال رسول الله ﷺ لقلت .
 ولو شئت أن أقول عدد الأنفاس : قلت أنا . لقلت .
 ولكن أقول : قال الشيخ ، وأترك نفسى أدباً .

وروى صاحب درة الأسرار قال : ومن مكاتباته من الإسكندرية يجاوب
 بعض أصحابه بتونس . ووقفت على هذا الكتاب بخطه رضى الله عنه . كتاب
 طويل يسأله عن الحال . ويقول فى آخره :

« والأحوال ماهى إلا كما تعهد . وأنى صحبت رأساً من رءوس الصديقين
 وأخذت منه سرّاً . لا يكون إلا لواحد بعد واحد . والشرح يطول . وبه أفتخر ،
 وإليه أنسب ، رضى الله عنه وهو أبو الحسن الشاذلى . وكان لا يصحبه أحد إلا فتح

الله له في يومين أو ثلاثة فإن لم يجد شيئاً بعد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقاً ولكنه أخطأ الطريق ، ودليله من كتاب الله عز وجل :

(قال رب اجعل لي آية . قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) .
 وكان يقول : إذا عرضت لك إلى الله حاجة فأقسم عليه بي . فكنت والله لا أذكره في شدة إلا انفرجت ، ولا على أمر صعب إلا هان . وأنت يا أخى إذا كنت في شدة فأقسم على الله به ، وقد نصحتك والله يعلم ذلك ، والسلام .
 وهذا كله توضيح للرؤيا التي صدرنا بها هذا الفصل ، وهى مع ذلك في دقتها الدقيقة غير محتاجة إلى توضيح . والواقع أن أبا الحسن رضى الله عنه كان امتداداً لأبي العباس في الماضي ، وكان أبو العباس امتداداً له بعد انتقاله .

ومن الطريف في الرؤيا أنها تذكر أن أبا العباس عندما رأى الشيخ نازلاً من السماء ثبت رجله في الأرض ، وتنبأ لنزوله عليه . وهذا يشير إلى أن محاولة أبي العباس أن يكون في وحدة واحدة مع الشاذلى رضى الله عنهما لم تكن سهلة ، وإنما احتاجت إلى جهد عر عنه بتثبيت الرجلين في الأرض ، والتهيؤ للنزول ، ويرشد من جانب آخر إلى أن مقام أبي الحسن مقام كبير يحتاج تمثله إلى جهد غير هين .

من هو أبو العباس ؟ وكيف اتصل بأبي الحسن ؟

إننا حينما نريد الحديث عن حياة أبي العباس الشخصية ، فإننا لا نكاد نجد شيئاً يذكر . لم يكن أبو العباس معنياً بالحديث عن نفسه ولم يكن مهتماً بالتأريخ لحياته . إنه لم يتحدث عن أسرته ، ولم يتحدث عن نفسه ، ولم يشد بأفعاله . لقد فنى في أبي الحسن ، فلم يكن في آفاقه فراغ للحديث عن نفسه ، ثم فنى في الدعوة إلى الله بعد أبي الحسن ، فلم يكن في آفاقه فراغ للحديث عن نفسه .

وما كان فناؤه في أبي الحسن ، ولا فناؤه في الدعوة إلا فناء في الله ورسوله ، في حبيهما ، وفي العمل جاهداً على مرضاتهما . ومن كان كذلك لايهم بالحديث عن نفسه . على أن التزعة العامة عند الصالحين في اتجاههم الحثيث الصادق إلى الله ، إنما هي إلغاء الآنية . إنها الذوبان في الرسالة الذوبان في تحقيق الرسالة أولاً : في النفس ، بالتزامها التزاماً تاماً . وثانياً : في المجتمع ، بالعمل الجاهد على نشرها ، وتحقيقها واقعياً . ومثلهم في ذلك هو رسول الله ﷺ .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يلقي الأضواء كلها على الرسالة وما كان يهتم بنشر الأخبار عن حياته الشخصية . اللهم إلا إذا كان لابد من ذلك من أجل الدعوة نفسها .

على أن الصوفية ينفرون عادة من الحديث عن أنفسهم . اللهم إلا إذا كان ذلك بيان وإيضاح لدعوتهم ، وفي هذه الحالة لا يكون الحديث حديثاً عن النفس ، وإنما يكون حديثاً عن الدعوة . « وقد سئل الشبلي رضى الله عنه يوماً فقيل له : لم سميت الصوفية بهذه التسمية ؟ فقال : لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما تعلق بهم التسمية » .

فالصوفية يحاولون إلغاء الآنية ، إنهم يهدفون حتى إلى إلغاء أسمائهم لو استطاعوا فيعيشون فناء كاملاً في الله سبحانه وتعالى ولله عز وجل ، أى في سبيل الله تبارك وتعالى .

وإذا ماجئنا الآن لأبي العباس المرسى ، فإن التاريخ يحدثنا أنه ولد في الأندلس في بلدة « مرسية » التي ينسب إليها . ولد سنة ٦١٦ هـ ١٢١٩ م . ويتصل نسبه بالأنصار الذين أخبر رسول الله ﷺ أن حبيهم من علامات الإيمان . إن نسبه يتصل بسعد بن عباد ، سيد الخرج .

ولد في « مرسية » ونشأ بها ، حيث كان والده يعمل في التجارة ويبدو أن حالة

الوالد كانت من اليسر بحيث مكنته من إرسال ابنه إلى مؤدب لتعلم القرآن والتفقه في أمور الدين . يقول أبو العباس « كنت وأنا صبي عند المؤدب ، جاء رجل فوجدني أكتب في لوح ، فقال : الصوفي لا يسود بياضاً فقلت : ليس الأمر كما زعمت ، ولكن لا يسود الصحائف بسواد الذنوب » .

هذه القصة تدل دلالة واضحة على ذكاء غير عادي وعلى مهارة وفهم لا يوجدان في المستوى العام في أطفال المكاتب ، وترسم أيضاً اتجاهًا إلى الصلاح والتقوى منذ هذه السن المبكرة .

أما نشأة أبي العباس على الصلاح والتقوى في هذه السن المبكرة ، أو بتعبير أدق ، صقل فطرته الصافية ، وتثبيتها على الصلاح والتقوى ، فقد تكفل بها المؤدب الذي كان يفقهه ويربيه . ويقول أبو العباس : عمل إلى جانب دارنا خيال الستار ، وأنا إذ ذاك صبي ، فحضرت ، فلما أصبحت أتيت إلى المؤدب وكان من أولياء الله تعالى فأنشد حين رآني .

ياناظراً صور الخيال تعجباً وهو الخيال بعينه لو أبصرا

وخجل أبو العباس ، وعزم في نفسه أن يأخذ في حياته مسلك الجد . ولما بلغ مرحلة الشباب وبلغ درجة الاستقلال بنفسه في التفقه والدراسة ، أخذ في معاونة والده في الأعمال التجارية . فكان التاجر الصدوق . ذلك كل ما نعلم عن أبي العباس قبل سنة ٦٤٠ هـ أربعين وستمائة هجرية . وفي سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م حزم والده أمره ، ورتب شئونه على أن يقوم بالحج إلى بيت الله الحرام ، وأخذ الأسرة معه ، وركبوا البحر ، وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تهب عليهم عاصفة بالقرب من شاطئ بونة ، فاستشهد والده ووالدته غرقاً ، ونجا هو وأخوه محمد فيما شطر تونس ، واتجه محمد نحو الأعمال التجارية ، على غرار والده ، أما

أحمد فلم يكن حنينه إلى التجارة ، وإنما حنينه إلى مهنة المؤدب الذي كان من أولياء الله ، وكان هواه هو تعليم القرآن وفي الانغماس في أنوار القرآن ، فاتخذ من زاوية الفقيه « محرز بن خلف » مكاناً يعلم فيه القراءة والكتابة ومبادئ الدين والقرآن الكريم .

وكان المقادير أتت به من « مرسية » إلى « تونس » لأجل أن يكون ثاني خلفاء الطريقة الشاذلية ، وليكون داعية إلى الله ، ليكون امتداداً للشاذلي ، وليكون قطباً من كبار الأقطاب ، وعلماً من أشهر الأعلام ؛ وإنه ليقص كيفية اتصاله بالشاذلي فيقول : لما نزلت بتونس وكنت أتيت من « مرسية » - وأنا إذ ذاك شاب - سمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي ، فقال لي رجل : تمضي بنا إليه فقلت : حتى أستخير الله . فنمت تلك الليلة ، فرأيت كأنني أصعد إلى رأس جبل ، فلما علوت فوقه ، رأيت هناك رجلاً ، عليه برنس أخضر ، وهو جالس وعن يمينه رجل ، وعن يساره رجل ؛ فنظرت إليه فقال : عثرت على خليفة الزمان قال : فانتبهت . فلما كان بعد صلاة الصبح ، جاءني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ فسرت معه ، فلما دخلنا عليه رأيته بالصفة التي رأيته بها فوق الجبل فدهشت ! فقال لي : عثرت على خليفة الزمان . ما اسمك ؟ فذكرت له اسمي ونسبي ، فقال لي : رفعت لي منذ عشر سنين . وبهره أبو الحسن بهره بحديثه المنطلق ، وإلهاماته المتدفقة ، وسلوكه الرباني فلازمه أبو العباس ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف . ورأى الشاذلي فيه فطرة طاهرة ، ونفساً خيرة ، واستعداداً طيباً للإقبال على الله . فمنحه وده ، وغمره بعنايته ، وأخذ في تربيته تربية تؤهله ليكون خليفته من بعده .

وحدث في « تونس » سوء تفاهم بين الشاذلي وقاضي القضاة ابن البراء - هذا الخلاف الذي سبق أن فصلناه في كتابنا عن « المدرسة الشاذلية » - وكانت نتيجته

أن غادر الشاذلي تونس ، ميمماً شطر الديار المصرية ورافقه في هذا السفر جماعة كان على رأسهم أبو العباس . وعن هذا السفر يقص أبو العباس القصتين التاليتين ، نرويها لما فيها من بيان لبعض مناحي أبي الحسن في التوجيه والتربية اللذين أثمر ثمرًا ناضجًا هو أبو العباس وزملاؤه .

١ - قال الشيخ أبو العباس : كنت مع الشيخ في السفر ، ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب ، فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله . فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن ، فلما أحس بي قال : أحمد . قلت : نعم يا سيدي قال : آدم خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته ، ثم نزل به إلى الأرض ؛ والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه ، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله . ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله تعالى :
(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

ماقال في السماء ، ولا في الجنة ؛ فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة ، لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف ، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته . وأنت أيضًا لك قسط من آدم كانت بدايتك في سماء الروح في جنة التعريف ، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف . فإذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة وزال ضيق أبي العباس وانشرح صدره .

٢ - ويقول أبو العباس أيضًا : لما قدمنا من الغرب إلى الاسكندرية ، نزلنا عند عمود السوارى من ظاهرها ، وكان دخولنا عند اصفرار الشمس ، وكانت بنا فاقة وجوع شديد فبعث إلينا رجل من عدول الاسكندرية بطعام ، فلما قيل للشيخ عنه قال : لا يأكل أحد منه شيئًا . فبتنا على ما نحن عليه من الجوع . فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ وقال : مدوا السماط وأحضروا ذلك الطعام ففعلوا وتقدمنا

فأكلنا . فقال الشيخ : رأيت في المنام قاتلاً يقول : أحل الحلال ما لم يخطر لك ببال . ولا سألت فيه أحداً من النساء أو الرجال .

واستمر أبو العباس مع الشاذلى يسير في ضوء تربيته ؛ وينهج طريقه لا يحيد عنه قيد شعرة إلى أن كانت وفاة الشاذلى .

لقد بشر الشاذلى بأنه سيموت ويدفن في أرض لم يعص الله عليها قط . فلما كان في طريقه إلى الحج ووصل إلى حميثة^(١) ، وقد خيم الركب للمبيت جمع أصحابه وأوصاهم بأشياء وأوصاهم بحزب البحر . وقال لهم : حفظوه لأولادكم ، فإن فيه اسم الله الأعظم .

وخلا بأبي العباس المرسى وحده رضى الله عنهما . وأوصاه بأشياء واختصه بما اختصه الله به من البركات . وقال لأصحابه : إذا أنا مت فعليكم بأبي العباس المرسى : فإنه الخليفة من بعدى . وسيكون له بينكم مقام عظيم . وهو باب من أبواب الله سبحانه . يقول صاحب كتاب « درة الأسرار » نقلاً عن نجل الشيخ أبي الحسن : وبات تلك الليلة متوجهاً إلى الله سبحانه ذاكراً أسمعه يقول : إلهى . . إلهى .

فلما كان السحر سكن . فظننا أنه نام . فحركناه فوجدناه ميتاً رحمه الله . واستدعينا سيدى أبا العباس المرسى فغسله وصلينا عليه . ودفناه بحميثة . وهذا الموضع ببرية عيذاب ، في واد على طريق الصعيد .

(١) يقول صاحب تاج العروس : حميثة . بضم ففتح . أهمله الجماعة . وهو (ع بصحراء عيذاب) بالصعيد الأعلى . بينه وبين الأقصرين يومان للمجد . به قبر إمام الطائفة سيدنا القطب أبي الحسن على بن عمر الشاذلى . قدس الله سره . ونفعنا بركاته . وهو محل منقطع على غير طريق ، ويقال فيه أيضاً : حميثة بالألف ومن أقوال دفنته المذكور لتلميذه أبي العباس المرسى حين سأله عن حكمة أخذ الفأس والخنوط والكفن : في حميثة سوف ترى .

يقول صاحب « درة الأسرار » : وقد شربت من مائها ، وزرت ضريحه ، ورأيت له البركات . نفع الله به في الدنيا والآخرة .
 قال : ولما دفناه اختلف أصحابه في الرجوع أو التوجه فقال لهم سيدي أبو العباس : الشيخ أمرني بالحج ووعدني بكرامات . وتوجهنا ورأينا تهويئاً وبركات ، ورجعنا صحبته .

ومما حدث لهم في أثناء سفرهم إلى الحج ما حدث به أبو العباس قال : سافرنا مع الشيخ رضى الله عنه في السنة التي توفي فيها ، فلما كنا عند أخميم . قال لى الشيخ : رأيت البارحة كأنى في جلبة وأنا في البحر . والرياح قد اختلفت ، والأمواج قد تلاطمت ، والمركب قد انفتح ، وأشرفنا على الغرق ، فأتيت إلى جانب المركب وقلت : أيها البحر ، إن كنت قد أمرت بالسمع والطاعة لى فالمنة لله السميع العليم . وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم ، فسمعت البحر يقول : الطاعة .. الطاعة .

فلما سافرنا ، وتوفي الشيخ رضى الله عنه ودفناه بجميثة من صحراء عيذاب ، وكنا في جلبة ، فلما صرنا في وسط البحر ، اختلفت الأمواج وتلاطمت الرياح ، وانفتح المركب ، وأشرفنا على الغرق . ونسيت كلام الشيخ ، فلما اشتد الأمر ذكرت ذلك ، فأتيت إلى جانب المركب وقلت : أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لأولياء الله فالمنة لله السميع العليم . ماقلت كما قال الشيخ بالسمع والطاعة لى ؛ وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم . فسمعت البحر يقول : « الطاعة الطاعة . وسكن البحر وطاب السفر » ١ هـ . وظهر أبو العباس من بعد الشاذلى ظهوراً عظيماً ، وظهرت له كرامات كثيرة (٢) ١ هـ . على أنه كان يبدو

واضحًا من مواقف أبي الحسن مع أبي العباس ؛ ومن حديثه عنه أنه كان يعدّه للخلافة . بل لقد أقامه فيها بصورة تشبه أن تكون صريحة حينما استدعاه وقال له : يا أبا العباس ، تكلم بين الناس فجلس في جامع العطارين بالإسكندرية ، فعاصره بالكلام والتدريس والدعوة إلى الله عن إذنه وبأمر منه . وحمل أبو العباس لواء الدعوة إلى الله طيلة حياته ، متفانيًا فيها ، باذلاً كل ما يستطيع في سبيلها حتى انتهت به الحياة ، راضيًا عن الله ، مرضيًا عنه من الله ، وكان ذلك في الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ - ١٢٨٧ م . وكان يبلغ تقريبًا سبعين عامًا ، رحمه الله رحمة واسعة .

من كراماته :

وقد ذكر له صاحب كتاب جامع كرامات الأولياء العارف بالله الشيخ يوسف النبهاني عدة كرامات ، نقتصر منها على مايلي :

يقول : من كراماته رضى الله عنه أنه كان يقول :

لى أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله ﷺ ، ولو حجبت عنه طرفة عين ما عدت نفسى من جملة المسلمين .

ومن كراماته أنه قال : وأما الخضر عليه السلام فهو حى ، وقد صافحته بكفى هذه ، وأخبرنى أن كل من قال كل صباح : « اللهم اغفر لأمة محمد ﷺ ، اللهم أصلح أمة محمد ﷺ ، اللهم تجاوز عن أمة محمد ﷺ ، اللهم اجعلنا من أمة محمد ﷺ » صار من الأبدال . فعرض بعض الفقراء ذلك على الشيخ أبي الحسن الشاذلى فقال : صدق أبو العباس (٣) .

(٣) المرجع : كتاب جامع كرامات الأولياء . تأليف يوسف بن إسماعيل النبهاني الجزء الأول ص ٥٢٠ وما بعدها .

وقال المرسى أيضًا : وقد دخل على الخضر عليه السلام مرة وعرفني بنفسه ،
واكتسبت منه معرفة أرواح المؤمنين بالغيب هل هي معذبة أو منعمة ، فلو جاءني
الآن ألف فقيه يجادلونني في ذلك ويقولون بموت الخضر مارجعت إليهم .
ومنها : أن السلطان يعقوب أمر بذبج دجاجة ونحتق أخرى وطبخها وقدمها
إليه وجلس معه ليأكل . فلما نظر الشيخ أبو العباس إليهما أمر الخدم برفع المخبوقة
وقال : هذه جيفة . وقال : لولا تنجس الأخرى بالمرق النجس لأكلت منها . قال
الشعراني قال المناوي : وقدم إليه رجل طعامًا فيه شبهة يمتحنه فردده وقال : كان
المحاسبي إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عرق بأصبعه فأنا في يدي ستون عرقًا
تضرب .

ومن كراماته التي انفرد بها عن غالب الأولياء تسليكه لنحو ثلاثين قاضيًا . وكان
يقول للعرشي : ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفًا من العوام ، بل أن تسلك فقيهاً
واحدًا في مائة عام .

وقال شيخنا الشيخ حسن العدوي على شرح البردة البوصيرية : قال بعضهم :
صليت خلف الشيخ أبي العباس فشهدت الأنوار ملأت بدنه وانبتقت من وجوده ،
حتى أني لم أستطع النظر إليه .

مات سنة ٦٨٦ هـ بالإسكندرية رحمه الله . اهـ .

ومع ذلك فقبل أن تنتهي من الكرامات نقول : إنه رضى الله عنه كان يقول
هذه الكلمة المخلصة : « والله ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت
سجادتي » .

٢ - المربي

والسمة التي نتحدث عنها أولاً باعتبارها عنصراً من أهم عناصر شخصية أبي العباس . إنما هي سمة المربي .

إن كبار المشايخ من كبار المربين ، ولولا هذا لما كانت لهم مدارس ولما تأتى أن يصلوا بالمريد إلى الله . ولقد قال أبو الحسن رضى الله عنه لزكى الدين الأسوانى : يازكى ، عليك بأبي العباس ، فوالله ليأتيه البدوى يبول على ساقيه ، فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله بالله .

ولقد كان رضى الله عنه يتفقد المريدين ، ويتتبع أحوالهم بإلهام من الله ، وبفراصة المؤمن ، وبسؤالهم عن أحوالهم ، وكان يقول : « ينبغي للمشايخ تفقد حال المريدين » . لقد كان يتفقد أحوالهم ويسأل عنهم إذا غابوا . وفى مرة قال لبعض أصحابه : لِمَ تنقطع عني ؟ فقال : ياسيدى استغنيت بك . فقال الشيخ : ما استغنى أحد بأحد ، ما استغنى أبو بكر برسول الله ﷺ ، ولم ينقطع عنه يوماً واحداً .

ويقول للمريدين : يجوز للمريدين إخبار الأستاذ بما فى بواطنهم ، ويعمل ذلك بما معناه : إن الأستاذ كالطبيب ، وحال المريد كحال المريض والمريض يكشف كل شيء للطبيب ، ولا يخفى عنه شيئاً . وفى الحقيقة كل مريد رأى له سرّاً يخفيه عن شيخه ، فإنه أجنبي عنه ، لم يتحد به .

ويروى ابن عطاء الله السكندرى مايلى : « كنت قلت لبعض أصحاب الشيخ أريد لو نظر إلى الشيخ بعنايته ، وجعلنى فى خاطره فقال ذلك للشيخ : فلما دخلت

على الشيخ رضى الله عنه قال : لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره ، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطرکم ، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم ، تكونون عنده . ثم قال : أى شىء تريد أن تكون ؟ والله ليكونن لك شأن . ومن دقته فى مراعاة الكرامة الإنسانية للمريدين ، أنه كان يكره للأشياخ إذا جاءهم مرید أن يقولوا له : قف ساعة . ويقول : إن المرید يأتى إلى الشيخ بهمة المتوقدة ، فإذا قيل له : قف ساعة ، طغى ما جاء به .

ومع ذلك فإن للشيخ حسبا يرى أستاذنا ، أن يطالب المرید مادام قاصرا عن حقيقة دعواه ، ولا يستمر فى ذلك إلى الأبد ، ولكن إذا بلغ المرید مبلغ الرجال ، لم يطالبه شيخه ببرهان على دعواه وذلك لخروجه عن مقام التلبیس . وكان رضى الله عنه إذا رأى مریدا دخل فى أوراد بنفسه وهواه ، أخرجه منها ، وكان يحب دائما إخراج المريدين عن هواهم ، ويقول لهم مثلا : من أحب الظهور ، فهو عبد الظهور ؛ ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ؛ ومن كان عبدا لله ، فسواء عليه أظهره أو أخفاه .

ولأجل إخراج المريدين دائما عن هواهم يقص عليهم أن رسول الله ﷺ ، سمع أبا بكر يقرأ ، ويخفى صوته ، وسمع عمر يقرأ ، ويرفع صوته فقال لأبي بكر : لم خفضت صوتك ؟ فقال قد أسمعت من ناجيت . وقال لعمر : لم رفعت صوتك ؟ فقال : لأوقظ الوسنان وأطرد الشيطان . فقال لأبي بكر : ارفع قليلا . وقال لعمر : اخفض قليلا .

قال الشيخ رضى الله عنه : أراد أن يخرج كلا منهما عن إرادته لنفسه ، المراد رسول الله ﷺ له .

ويتأسى الشيخ رضى الله عنه برسول الله ﷺ فيخرج المريدين دائما عن هواهم ، وإذا رأى مریدا يفتخر بزهده فى الدنيا يقول له : يا أخى لقد عظمت

الدنيا حين رأيت لها وجودًا ، حتى زهدت فيها فقدرها أصغر من ذلك .

ومما يتصل عادة بالظهور والفخر أمران :

الأمر الأول : وهو السلوك في الزى ، وفي المأكل والمشرب ، أن بعض المتتمين إلى التصوف يحبون المرقعات ، وغليظ الطعام والشراب وقد كان الشيخ أبو العباس يصادف رغبة من بعض المريدين في ذلك ، فماذا كانت سياسته في هذا ؟ وما هو رأى المدرسة الشاذلية على وجه العموم في ذلك ؟

يقول ابن عطاء الله : طريقة الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضى الله عنهما ، وطريقة أصحابهما ، الإعراض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالإفشاء ، ويفصح عن طريقه بالإيداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

ويقول أبو العباس معبرًا عن رأى شيخه ، وعن اتباعه له : دخلت على الشيخ أبي الحسن وفي نفسه أن آكل الخشن وألبس الخشن ، فقال لى الشيخ : يا أبا العباس ، اعرف الله وكن كيف شئت .

ويروى أبو العباس أيضًا في ذلك أنه دخل على الشيخ أبي الحسن فقير وعليه لباس من شعر ، فلما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه وقال : ياسيدى ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك . فأمسك الشيخ بملبسه فوجد فيه خشونة فقال : ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك . لباسى يقول : أنا أغنى منكم ، فلا تعطونى ، ولباسك يقول : أنا فقير إليكم فأعطونى .

ويعقب على ذلك ابن عطاء الله فيقول : ولا تفهم رحمك الله أنا نعيم بهذا القول على من لبس زى الفقراء ، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء . فلا حرج على اللابس ولا على غير اللابس ، إذا كان من المحسنين : (ماعلى المحسنين من سبيل) .

وأما لبس اللباس اللين ، وأكل الطعام الشهى ، وشرب الماء البارد فليس

القصد إليه بالذى يوجب العتب من الله ، إذا كان معه الشكر لله .
وقد قال الشيخ أبو الحسن : يابنى برد الماء ، فإنك إذا شربت الماء السخن
فقلت الحمد لله تقولها بكزارة ، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله ، استجاب
كل عضو منك بالحمد لله .

والأصل فى هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام :
(فسقى لها ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير) .
ألا ترى كيف تولى إلى الظل قصداً لشكر الله تعالى ، على ما ناله من النعمة .
أما الأمر الثانى : مما يتصل عادة بحب الظهور ، فهو إظهار الوجد فى أثناء
السمع ، وهو ظاهرة توجد عادة فى المبتدئين ، وعلى الخصوص فى أرباب
الأحوال . وكان أبو العباس يقول فى ذلك : الكامل من يملك حاله ، ويتحدث
أبو العباس عن اختلاف المتصوفة بالنسبة للحال ويقسمهم إلى نوعين فيقول :
عبد هو فى الحال بالحال . وعبد هو فى الحال بالمحول .

فالذى هو فى الحال بالحال ، هو عبد الحال .
والذى هو فى الحال بالمحول ، هو عبد المحول .
وأما من هو فى الحال بالحال ، أن يتأسف عليها إذا فقدها ، ويفرح بها إذا
وجدتها ، والذى هو فى الحال بالمحول ، لا يفرح بها إذا وجدها ولا يحزن عليها إذا
فقدتها . ويشرح ذلك المعنى ابن عطاء الله فيقول :

ومعنى كلام الشيخ هذا ، أن من تحقق بالله ملك الأشياء ، ولم تملكه فيصير الحال
تحت قهر تصرّفه ، وإنما يكون ذلك للرجل ، لرسوخه فى العلم بالله ، والعلم
حاكم على الحال ، وبه يوزن ، والحال إنما هو فرع من فروع العلم ، والعلم قار
ثابت ، والحال لا بقاء لها ، لذلك قالوا :

لو لم تحل ماسميت حال وكل ما حال فقد زال

انظر إلى الظل إذا ما انتهى يأخذ في النقص إذا طال
والأكابر ملكهم الله أحوالهم ، وجعلهم حاكمين عليها ، ومن هنا لما قيل
للجنيد مالنا نرى المشايخ يتحركون في السماع ، وأنت لا تتحرك ؟ فقال رضى الله
عنه : (وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهى تمر مر السحاب) .

وقيل لبعضهم : مالك لا تتحرك في السماع . فقال : إنه إذا كان في الجمع كبير
احتشمت منه ، فأمسكت عن وجدى ، فإذا حلوت وحدى ، أرسلت على وجدى
فتواجهدت . فانظر كيف كان زمام حاله معه ، يمسكها إذا شاء ، ويطلقها إذا شاء
وإذا اتسع القلب بمعرفة الله قيد الواردات ، وإنما يبدو أثر الحال على من ضاق في
وسعها ، والعارف له وسع المعرفة .

فإذا ورد الوارد عليه غرق في وسع معرفته ، وهل رأيت بحراً فاض بمطر
سحاب ؟ ولهذا جهلت أمور الأكابر ، أرباب المقامات ، واشتهر أصل الأحوال
لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن كتمها ، ولضيقهم عن وسعها . فرما كان
صاحب الحال أحظى بإقبال الخلق من صاحب المقام ، وبينه وبينه مثل ما بين
السماء والأرض . وكلما تمكن الرجل في العلوم الإلهية ، والمعارف الربانية استغرب
في هذا العالم ، فيقل من يعرفه ، ويفقد من يحيط به ؛ ومن أجل ذلك يوجه أبو
العباس ملاحظة تلاميذه قائلاً : لن يصل الولي إلى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه
شهرة الوصول إلى الله تعالى .

ويفسر ذلك الإمام الشعراني فيقول : أى انقطاع أدب ، لانقطاع ملل ؛
لغلبة التفويض على قلبه وهو رضى الله عنه يتابع في ذلك شيخه أبا الحسن الذى
يقول : لن يصل الولي إلى الله تعالى حتى تنقطع عنه شهرة الوصول إلى الله .
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لن يصل الولي إلى الله ، ومعه شهوة من
شهواته ، أو تدبير من تدبيراته ، أو اختيار من اختياراته .

ويفسر ذلك الإمام ابن عطاء الله فيقول : ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه :
 لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله ؛ أى انقطاع أدب
 لا انقطاع ملل ، فإنه يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه ،
 فيلقى القيادة إليه ، ويترك نفسه مسلماً بين يديه ، فلا يختار مع مولاه شيئاً لعلمه بما
 في الاختيار مع الله من الآفات . ولنا في هذا المعنى من قصيدة ذكرناها في كتاب
 التنوير .

وكن عبده والى القيادة لحكمه	وإياك تدبيراً فما هو نافع
أتحكم تدبيراً وغيرك حاكم	أأنت لأحكام الإله تنازع
فحقو إرادات وكل مشيئة	هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع ؟
كذلك سار الأولون فأدركوا	على إثرهم فليمش من هو تابع

وما من شك في أن ابن عطاء الله يقصد أن يكون الجزم القلبي واليقين النفسى
 إنما هو التفويض لله سبحانه . فليس مع تدبير الله تدبير . ولا مع إرادته إرادة .
 ولا يتنافى هذا مع اتخاذ الأسباب فقد قال الله سبحانه وتعالى . (خُذُوا حِذْرَكُمْ) .
 وقال سبحانه : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحكم الأمر إحصاءً ، وكان من قبل إحصاء الأمر ،
 وفى أثناء إحصاءه . ومن بعد إحصاءه . مفوضاً كل أموره إلى الله . موقناً بأنه
 سبحانه فعال لما يريد .

لا بد إذن - مع اتخاذ الأسباب - من التبرى من الحول . ومن التفويض إلى
 الله . وكان أبو العباس يحاول تثبيت ذلك فى أذهان مريديه بكل الوسائل فيقص
 عليهم مثلاً قصة « سمنون المحب » لقد قال :

وليس لى سواك . حظ فكيفما شئت فاخترنى

فابتلى بحصر البول ، واشتد به الأمر ، فصبر . ثم لم يصبر على الصبر : فأظهر الألم ، وصار يمر على الصبيان والناس ؛ ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب .
يقص الشيخ قصته ثم يقول : لو كان سمنون عرض ما قال فكيفما شئت فاخترني ، قال : فاعف عني ، لكان أولى من طلب الاختبار .
وإنما وقع الامتحان لسمنون لغفلته عن التبرى من الدعوة ، فلو قال : مدني بالقوة ، ثم اخترني بما شئت ، لم يمتحنه .

وكان رضى الله عنه يقول للمريدين : إذا قيل لك أتخاف الله تعالى ؟ فقل نعم : لكن بقدر ما خلفه من الخوف ، وكذلك القول فى أحب الله تعالى ؟ فمن سلك ذلك لا يقع له امتحان لتعويله على الله ، لا على قوة نفسه هو وقد قالوا كل مدع ممتحن ؛ وهذا ميزانه . والله أعلم .

وكان يحدث المريدين بكثير من مناحى تربية أبى الحسن له فيقول لهم مثلاً : دخلت يوماً على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فقال لى : إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل أحداً شيئاً ، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله فقلت فى نفسى : كان النبى ﷺ يقبل الهدية ، وقال : ما أتاك من غير مسألة فخذ .

فقال الشيخ : كأنك تقول : كان النبى ﷺ يقبل الهدية . وقال ما أتاك من غير مسألة فخذ ؛ والنبى ﷺ قال الله فى حقه : (قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ) متى أوحى الله إليك ؟

إن كنت مقتدياً به فى الأخذ فكن مقتدياً به فى كيفية الأخذ . كان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ليشب من يعطيه ، ويعوضه عليه فإن تطهرت نفسك ، وتقدسست هكذا فأقبل . . وإلا فلا .

ومما يسع فى نسق القصة السابقة . ما أخبر به الشيخ الصالح ياقوت الحبشى

بمدينة الإسكندرية في عام خمسة عشر وسبعائة . وكان من أصحابه وخدامه . قال : كنت أتعبد في مسجد بخارج الإسكندرية ، فبقيت فيه مواصلاً أياماً . فأصابني الجوع ، فدخلت الإسكندرية قاصداً الشيخ ، فوجدت في طريق درهماً فأردت أن اشترى به خبزاً وإداماً فرأيت في السوق زيبياً طيباً . وكنت أعلم أنه يحبه لأنه من بلاد الأندلس وهو كثير بلاده ، قال : فاشتريت به زيبياً وآثرته على نفسي وقصدت إليه فوجدته جالساً في القلعة ، لأنه كان يسكنها بعد الشيخ ، قال : فوضعت الزبيب بين يديه ، وجلست ساعة ، وأردت أن أقوم فقال لي : اجلس ، قال : فجلست وإذا برجل وصل إليه بمائدة فيها كبش سمين مشوى ، ورقاق طيب ، فقال لي : هذا فتوحك ، لما آثرتني على نفسك وأنت جائع فكل ، فأكلت وحدي حتى تمليت^(٤) ، ثم أمر الفقراء بأكله . وقال لي : ارفع الزبيب ، وتصدق به . فإننا لا تباح لنا اللقطة .

ومما يتصل بذلك أنه كان يقول للمريدين : من اشترى زيتاً من بيع ، فلما فرغ قال له ، زدني فزاد خيطاً ، فدينه أرق من ذلك الخيط . ومن اشترى قمحاً فلما فرغ ، قال له : زدني ، فزاده فحمة ، فقلبه أسود من تلك الفحمة . وقد اتفق رضى الله عنه مع أستاذه أبي الحسن على ميزان الصدق للمريد ، يزن به نفسه . يقول رضى الله عنه : سمعت الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : من ثبتت ولايته من الله تعالى لا يكره الموت ، وهذا ميزان للمريدين ليزنوا به نفوسهم إذا ادعوا ولاية الله ، فإن من شأن النفوس وجود الدعوة للمراتب العالية من غير أن يسلك السبيل الموصل إليها . قال تعالى : (فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

(٤) أى شبع .

ولم ينس الشيخ رضى الله عنه أن ينبه المرشدين إلى فضائل معينة ليلتزموها في أنفسهم ، ولتكون أساساً يرشدهم إلى صداقة من يتحقق بها ؛ يقول رضى الله عنه : قال لى شيعى : لا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال :

الجود من القلة ، والصفح عن المظلمة ، والصبر على البلية ، والرضا بالقضية .
ونذكر في النهاية بعض أمثلة مما كان من توجيهات الشيخ لابن عطاء الله السكندرى . لقد ذكرنا فيما مضى بعضاً منها ؛ ونذكر الآن مايلي :

يقول ابن عطاء الله ، وسمعه يقول : أريد أن أستنسخ كتاب التهذيب ، لولدى جمال الدين ؛ فذهبت أنا فاستنسخته ، من غير أن أعلم الشيخ وأتيته بالجزء الأول فقال : ما هذا ؟ قلت : كتاب التهذيب استنسخته لكم ، فأخذه فلما نهض ليقوم قال : اجعل فى بالك أن الولى لا يتفضل عليه أحد ، تجد هذا إن شاء الله فى ميزانك . فلما أتيت بالجزء الثانى ، لقينى بعض أصحابه بعد نزولى من عنده ؛ وقال : قال الشيخ عنك : والله لأجعلنه عيناً من عيون الله ، يقتدى به فى العلم الظاهر والباطن ، فلما أتيت بالجزء الثالث ، ونزلت من عنده لقينى بعض أصحابه ، وقال : طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء . فقال : هذا استنسخه لى ابن عطاء الله فوالله ما أَرْضَى له بجلسة جده ، ولكن بزيادة التصوف .

وأخبرنى بعض أصحابه قال : قال الشيخ يوماً : إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية فأعلمونى به ، فلما أتيت . أعلمنا الشيخ بك فقال تقدم . فتقدمت بين يديه . ثم قال : جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك أمره الله أن يطيع أمرك فى قریش ، فسلم عليه ملك الجبال ، وقال : يا محمد ، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فعلت . فقال رسول الله ﷺ : لا ، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحى الله ، ولا يشرك به شيئاً فصبر عليهم رسول الله ﷺ رجاء أن يخرج من أصلابهم ، كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه ، لأجل هذا الفقيه .

وأخبرني سيدي جمال الدين ، ولد الشيخ قال : قلت للشيخ : هم يريدون يصدرون ابن عطاء الله في الفقه ، فقال الشيخ : هم يصدرونه في الفقه ، وأنا أصدره في التصوف ، ودخلت أنا عليه فقال لي : إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدك ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية . وتكلم إن شاء الله في العلمين فكان ما أخبر به رضي الله عنه . وخرجت يوماً من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضي الله عنه وخرج معي أبو الحسن الجزيري ، وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن فسلمت عليه . فسلم على بباشة وإقبال فقلت له : من أين تعرفني ؟ فقال : وكيف لا أعرفك ؟ كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس . وكنت أنت عنده فلما نزلت قلت له : ياسيدي إنه ليعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة ، وهذا الشاب ملازم . قال : فقال الشيخ أبو العباس : لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ . والله الحمد .

وكان رضي الله ، يلقي للوسواس : سبحان الملك الخلاق (إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) . وعملت قصيدة أمدحه بها سيأتي ذكرها إن شاء الله آخر الكتاب فقال حين أنشدت : أيدك الله بروح القدس . ثم عملت قصيدة بإشارته جواباً لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد أحميم ، وسيأتي ذكرها أيضاً آخر الكتاب إن شاء الله تعالى . فلما قرأت عليه قال : هذا الفقيه صبحني وبه مَرَضَانِ ، وقد عافاه الله منهما ، ولا بد أن يجلس ويتحدث في العلمين ، يشير الشيخ إلى مرض الوسوسة . فلقد انقطع عني ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التي أجدها قد تساهلت في بعض الأمور ، والمرض الآخر كان بي ألم برأسي فشكوت ذلك إليه ، فدعا لي ، فعافاني الله وشفاني .

وبت ليلة من الليالي مهمومًا ، فرأيت الشيخ في المنام . فشكوت إليه ما أنا فيه . فقال : اسكت ، والله لأعلمنك علمًا عظيمًا ، فلما استيقظت أتيت إلى الشيخ رضي الله عنه ، فقصصت عليه الرؤيا ، فقال هكذا تكون إن شاء الله . وقدم يومًا من السفر ، فخرجنا للقاءه ، فلما سلمت عليه . قال : يا أبا أحمد كان الله لك ، ولطف بك ، وسلك بك سبيل أوليائه ، وبهاك بين خلقه ، فلقد وجدت بركة هذا الدعاء وعلمت أنه لا يمكنني الانقطاع عن الخلق ، وأنى مراد بهم لقوله : « وبهاك بين خلقه » اهـ .

لقد ذكرنا كل ذلك في صلة الشيخ بابن عطاء الله لنذكر صورة قريبة من الواقع في الارتباط الوثيق بين الشيخ ومريديه ، وهذه الصورة هي التي نصفها مثالا وضاء لأئمة التصوف مع مريديهم . لقد كان رضي الله عنه :

- (أ) يتفقد حال المريدين ، ويسأل عما ظهر من أحوالهم وعما خفى .
- (ب) وكان يخرجهم عن هواهم ، ويتحرى أن يصرف عنهم حب الظهور سواء أكان ذلك عن طريق لبس المرقعات ، أم عن طريق غيرها .
- (ج) وكان رضي الله عنه يوجههم إلى أن يسموا بهمهم إلى معالي الأمور . متسامين عن صغارها .

(د) وكانت تربيته جماعية وفردية : أى أنه كان يتحدث عن أمراض عامة ، ولا يقتصر على ذلك ، بل يعالج كل فرد بما يتناسب مع مرضه الخاص . لقد كان مربيًا كاملاً .

٣ - العالم

كان أبو الحسن الشاذلي ، مدرسة علمية ، نهل منها كل من اتصل به على حسب استعداده ، ولقد كان مدرسة علمية متكاملة ، أى كان مدرسة للظاهر من العلوم وللباطن منها ، فقد كان يدرس ، ويفتي على الوضع الظاهر ، وكان يدرس ، ويفتي على الوضع الذوقي الصوفي ، وما كان فى ذلك متناقضاً ، لأنه لا تعارض بين الشريعة ، والحقيقة « وعلمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة » ، كما يقول الجنيد رضى الله عنه . وأخذ عنه أهل الظاهر ، كل بحسب استعداده ، وأخذ عنه الصوفية كل على حسب استعداده ، وورثه فى كلتا الناحيتين ، أبو العباس المرسى .

ورجال المدرسة الشاذلية يعرفون أنه رضى الله عنه هو الذى بث علوم الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه ونشر أنوارها ، وأبدى أسرارها .

ولقد كان رضى الله عنه لا تتحدث معه فى علم من العلوم - كما يقول ابن عطاء الله - إلا تحدث معك فيه . حتى يقول السامع : إنه لا يحسن غير هذا العلم ، لاسيما علم الحديث . والتفسير .

وكان يقول : شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه . وكان له من العلوم الظاهرة كتب معينة يؤثرها ويداوم مذاكرتها وتدريسها .

١ - فى أصول الدين . كان كتابه : الإرشاد ، وهو كتاب فى التوحيد ، والجدل ، والنقاش ، والانتصار لمذهب الأشاعرة ، وأهل السنة ، لا يسهل تناوله على العاديين من الناس ، بل لا يسهل على كثير من المثقفين ، لأنه يحتاج إلى ممارسة طويلة فى علم الكلام ، والجدل .

٢ - وكان كتابه في الحديث : المصابيح ، وهو كتاب على غرار كتاب « الترغيب والترهيب » وعلى غرار « رياض الصالحين » وإن كان أوسع منه . ألفه الإمام البغوى الذى كان من كبار الفقهاء فى المذهب الشافعى . وكانت وفاته بمرور سنة ٥١٦ هـ .

٣ - أما فى الفقه : فكان يعنى بكتاب التهذيب ، وكانت الرسالة وهما كتابان فى الفقه مشهوران . والفقيه فيما يرى الشيخ : هو من انفقاً الحجاب عن عينى قلبه وشاهد ملكوت ربه . ومع ذلك فإن علوم المعاملة هذه - على حد تعبير الصوفية - ما كان رضى الله عنه يتنزل إليها إلا فى الزمن اليسير وبحسب الضرورة فقط .

٤ - وكتابه فى التفسير هو الكتاب المفضل عند شيخه أبى الحسن وهو كتاب : المحرر الوجيز لابن عطية . ووصل به الأمر بعلوم الوسائل - أى النحو وأشباهه من العلوم التى ليست فى نفسها غايات - أن قد كان يقرأ عليه بعض المغرقيين فى العربية فيرد عليهم اللحن .

٥ - أما فى التصوف : فقد كانت كتبه المفضلة هى :

١ - الرسالة القشيرية . وما كانت الرسالة القشيرية إلا سلماً يصعد عليه لينتشر من إشراقاته هو . والقصة التالية توضح طريقته فى كيفية أخذه للرسالة القشيرية فى التدريس . يروى صاحب كتاب درة الأسرار حدثنى الشيخ الصالح العالم المفتى جمال الدين يوسف ابن الشيخ المقدس المرحوم أبى محمد عبد الكريم الواداش المالكى المعروف بالعرامى ، بمدينة القاهرة حماها الله تعالى ، فى أوائل جمادى الآخرة سنة عشر وسبع مائة قال : كان سيدى أبو العباس نفع الله به ، لما توفى سيدنا الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه يطلع للقاهرة زمن زيادة النيل ، يقيم بمسجد بموضع يقال له : المقص بالدكة . بخارج باب البحر من القاهرة .

وكان الشيخ سيدنا أبو الحسن يفعل هذا فى كل عام فتجتمع إليه مشايخ

القاهرة ، ومصر ، ومن كل الجهات ، يتبركون به ، ويأخذون عنه العلوم العظيمة ، والأحوال الكريمة ، فبقى سيدى أبو العباس يقفو أثره .
حدثنى هذه الحكاية بهذا المسجد المبارك . وفيه أعلى للسكن وهذا الفقيه ساكن بها . وهو قاضى الموضع ومفتيه وقاضيه قال :

فجاءه سيدى الشيخ أبو العباس على عادته فاجتمع إليه جماعة من كبار مصر وعلمائها ، وقالوا له : يا شيخ ، كان سيدى أبو الحسن رضى الله عنه إذا جاء لهذا الموضع يجىء إلينا بمصر ونسمع منه من مواهب الحق سبحانه ، وتبرك بقدومه علينا ، وأنت قد أقامك الله مقامه ، فنحب أن نتبرك بكلامك ، ونتذاكر كلام الشيخ رحمه الله ورضى عنه ، فقال لهم : إذا كان صبيحة غد إن شاء الله يجىء إليكم فلما كان فى صبيحة تلك الليلة ، أمر بالمسير إلى مصر وأمرنى أن نحمل رسال القشيري معنا ، فحملتها ووصلنا إلى جامع سيدنا عمرو بن العاص فوجدناه قد امتلا بكبار الديار المصرية وعلمائها . فقال لى : منتقد ومعتقد . قال فجلسنا فى شرق الجامع . ثم قال لى : أخرج رسالة القشيري . فأخرجتها ثم قال اقرأ . فقلت : وماذا أقرأ ؟ قال الذى يظهر لك . قال : ففتحت الكتاب فوجدت باب الفراسة . قال فقرأت أوائل الباب . فلما فرغت من حديث رسول الله ﷺ ، قال لى اغلق الكتاب . ثم قال : الفراسة تنقسم إلى أربعة أقسام :

١ - فراسة المؤمنين . ٢ - فراسة الموقنين .

٣ - فراسة الأولياء . ٤ - فراسة الصديقين .

فأما فراسة المؤمنين : فحالها من كذا ، ومددها من كذا . ثم تكلم بكلام عظيم . ثم انتقل إلى فراسة الموقنين فتكلم بطبقة أعلى . ثم قال : وأما فراسة الولي فددها من كذا ، وحالها من كذا وتكلم فى ذلك بكلام موهوب غير مكسوب . أدهش به قلوب الحاضرين واستغرق فى ذلك إلى أن أذن الظهر ، والناس يكون .

ورأيت العرق ينحدر من جبينه ، حتى سال على لحيته ، وكانت له لحية كبيرة ، فلما صحا من حاله قال : وأما فراسة الصديقين : إن الشيخ رضوان الله عليه ما كان يتخذ الرسالة القشيرية إلا أساساً ينطلق منه سابحاً في بحار المعرفة الإلهامية .

٢ - وكتاب إحياء علوم الدين ، من الكتب التي غنى بها الصوفية على وجه العموم . وقد كان رضى الله عنه يقول عن شيخه أبي الحسن : كتاب الإحياء يورثك العلم . وكان يقول في الإمام أبي حامد الغزالي رضى الله عنه . إنا لنشهد له بالصدقية العظمى .

٣ - كتاب قوت القلوب : وكان يقول عن شيخه أبي الحسن : كتاب القوت يورثك النور .

٤ - كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى ، وهو كتاب أثار اهتمام الصوفية ، وأثار اهتمام غيرهم ، وأحدث حيوية ، وحياة ، ونقاشاً في الجو الفكري ، والصوفي ، وحمل على المؤلف الحاملون ، ودافع عنه المدافعون ، وإن كتاباً يثير اهتمام الإمام الكبير ابن العربي إثارة بالغة فيكتب عنه غير مرة ، لهو كتاب فذ . لقد كان شيخنا معنياً به ، وكان شيخه معنياً به . يقول ابن عطاء الله عن أبي العباس وشيخه رضى الله عنهما : وكان هو والشيخ أبو الحسن ، كل منهما يعظم الإمام الرباني محمد بن علي الترمذى . وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة . وكان يقول عنه : إنه أحد الأربعة الأوتاد .

٥ - كتاب الحقائق للسلمى : وقد كان ابن عطاء الله يقرؤه عليه . فلما قال السلمى في الكتاب : انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة .

قال الشيخ رضى الله عنه ، عن شيخه أبي الحسن رضى الله عنه . لاحيرة عند المحققين فيما فيه الحيرة عند المؤمنين .

وإذا كان الشيخ رحمه الله درس هذه الكتب مراراً وتكراراً . فإنه بعد أن

أفاض الله عليه من أنواره وأشرقت عليه فيوضاته قال :
والله ما نطالع كلام أهل الطريق إلا لنرى فضل الله علينا .
لقد انتهى الأمر بأبي العباس ، أن كان يلتقى بالدرر من بحره هو أو من بحوره .
فقد كانت له بحور تتميز نفاسة وشرفاً ، ولابن عطاء الله السكندري في ذلك كلام
جميل . يقول رضى الله عنه عن شيخه أبي العباس :

أما علوم المعارف والأسرار ، فقطب رحاها ، وشمس ضحاها . تقول إذا
سمعت كلامه : هذا كلام من ليس وطنه إلا غيب الله ، هو بأخبار أهل السماء
أعلم منه بأخبار أهل الأرض . وسمعت أن الشيخ أبا الحسن قال عنه : أبو العباس
بطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض .

كنت لاتسمعه يتحدث إلا فى العقل الأكبر . والاسم الأعظم . وشعبه
الأربع ، والأسماء ، والحروف . ودوائر الأولياء ، ومقامات الموقنين . والأملاك
المقربين عند العرش . وعلوم الأسرار . وإمداد الأذكار . ويوم المقادير . وشأن
التدبير ، وعلم البدء ، وعلم المشيئة . وشأن القبضة . ورجال القبضة . وعلوم
الأفراد . وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع عباده : من حلمه ، وإنعامه .
ووجوه انتقامه . حتى لقد سمعته يقول :

والله لولا ضعف العقل لأخبرت بما يكون غداً من رحمة الله .
وهذا النمط من العلوم كان المفضل عند أبي العباس ، وكان لا يمل من
دراسته . والحديث فيه .

أما علم المعاملة ، فقد كان يرى أن أساتذته هم من الكثرة بحيث لا يحتاج إلى
كبير من اهتمامه قال ابن عطاء الله رضى الله عنه :

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لا يتنزل إلى علوم المعاملة إلا فى قليل من
الأيام لحاجة بعض الناس إلى ذلك . قال : ولذلك يقل اتباع من تكون علومه

العلوم السابقة ، فإن المشتريين للمرجان قد يكثر من وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان . ولم يزل اتباع أهل الحق قليلين .

كما قال الله تعالى في أهل الكهف : (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) .

وأهل الله ، كهف لأمر الناس ، ولكن قليل من يعرفهم ^(٥) ، ويقول ابن عطاء الله السكندري أيضاً عنه : « الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر . مشرق شمس المعارف بعد غروبها ، ومبدى أسرار اللطائف بعد غروبها » . ومع استغراقه في علوم التصوف فإنه من الأهمية بمكان أن نسجل هنا ما قاله الإمام ابن عطاء الله السكندري : « لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم » .

لقد كان أبو العباس من كبار العلماء في علوم الظاهر ، ومن كبار الملهمين في علوم الباطن ، ومع ذلك فإن إمامنا لم يؤلف كتباً .

والسبب في ذلك : « أن علوم هذه الطائفة ، علوم التحقيق ، وهي لا تحملها عقول عموم الخلق » ، بل لقد كان رضى الله عنه يقول : « جميع ما في كتب القوم عبرات دموع من سواحل بحر التحقيق » .

ولتم الصورة عن أبي العباس نذكر أن مما يتصل بعلمه وبشخصيته أنه كان شاعراً ، وشعره شعر معانى ، وشعر تخليق في سماء الروح ، ومن أمثلته ما يلي :
لقد كتب إلى بعض مريديه قائلاً : وسل الله أرواحكم ، وفسح في غيوبه
مراحكم فإنه سألنى سائل عن شعر منظوم ، يعبر عن النفس وتعلقها بالبدن ،
وتقيدها بالحظ ، وانبعاثها بالشهوة . وتحققها بالجمع فأجبت بهذه الأبيات :

(٥) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله عنه .

إن كنت سائلنا عن خالص المن
وعن تشبثها بالحظ مذ ألفت
وعن تنزلها في حكمها ولها
وعن بواعثها بالطبع مائلة
وعن حقيقتها في أصل معدنها
فاسمع هديت علومًا عز سالكها
قصداً إلى الحق لا تخفى شواهدا
ياسائل عن علوم ليس يدركها
لكن بنور على جامع خمدت
خذها إليك بحق لست جاهله
عن الحقيقة خذ علم الأمور ولا
فقطرة النفس سر لا يحيط به
لكنها برزت بالحكم قائمة
وكي يقال عبيد قائمون بما
والنفس بين نزول في عوالمها
والروح بين ترق في معارجها
من الحجاب دنت أنوارها فبدت
مثالها في العلا مرآة معدنها
زيتونة زيتها نور لصاحبها
ونار دعوتها ماء لشاربها
والكل أنت بمعنى لاخفاء به
والعبد محتجب في عز مالكة

وعن تعلق ذات النفس بالبدن
أدرانها فغدت تشكو من العطن
علم يفرقها بالقبح والحسن
تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
لا يثنى وصفها منها إلى وثن
عن العيان ولا يغرك ذو لسن
قامت حقائقها بالأصل والفن
ذو فكرة بفهوم لا ولا فطن
له العقول وكل الخلق في وسن
والأمر مطلع والحق قيدي
تحجبك صورتها في عالم الوطن
عقل تقيد بالأوهام والدرن
حتى تألفها السكان بالسكن
ألقى من الأمر قبل الخلق والحن
كآدم وله حواء في قرن
وهي المواقف للتعريف والمن
نور تنزل بين الماء والدمن
الطافها خفيت كالسر في العن
قامت حقائقها بالأصل والقن
مدت هدايتها في الكون والكين
والنور يحجبه كالماء في اللين
دقت معارفه في الدهر والرمز

وكتب إلى أبي عبد الله جمال الدين يحثه على التمسك بالفضائل :

وإذا أردت من السلوك أجله	فالزهد في الدنيا مع التسمت الحسن
واعبد إلهك حيث كتب على الرضا	تحظى بما قد ناله أهل المن
أهل الولاية والهداية والتقى	هم سادتي فبهم أصول على الزمن
أحمد لاتنس عيشك منهمو	أشده روحك إذ بها قام البدن
واجعله منك لذاته من وصفه	تجد التحقق في السريرة والعلن
الله يعلم أنني لك ناصح	لامدحة أبغى بذاك ولائمن
والله حسبي والمؤيد ربنا	وهو المعين عن الأمور كما ضمن

* * *

وقال ابن عطاء الله : وجدت بخط شيخنا أبي العباس هذه الأبيات :

أعندك من ليلي حديث محرر	بإيراده يحيا الرميم وينشر؟
فعهدى بها العهد القديم وإننى	على كل حال فى هواها مقصر
وقد كان عنها الطيف قدماً يزورنى	ولما يزر ماباله يتعذر
فهل بخلت حتى بطيف خيالها	أم اعتل حتى لايصح التصور؟
ومن وجه ليلي طلعة الشمس تستضى	وفى الشمس أبصار الورى تتحير
وما احتجبت إلا برفع حجابها	ومن عجب أن الظهور تستر

* * *

وقال رضى الله عنه : أطلعنى الله على الملائكة وهى ساجدة لآدم عليه السلام :

فأخذت بقسطى من ذلك ، فإذا أنا أقول :

ذاب رسمى وصح صدق فنائى وتجلت للسر شمس ضيائى

وتنزلت في العوالم أبدى ما انطوى في الصفات بعد صفائي
فصفاتي كالشمس تبدى سناها ووجودى كالليل يخفى سوائى
أنا معنى الوجود أصلا وفصلا من رآنى فساجد لبهاى
أنا نور لأهله مستبين اشهدونى فقد كشفت غطائى

* * *

لقد كان رضى الله عنه عالماً في اللغة : مادتها ، ونحوها ، وصرفها . وعالماً في التفسير ، وفي الحديث ، وفي الفقه ، وفي السير ، وفي التصوف . وهكذا ينبغي أن يكون الصوفى في كل العصور .
إن شعار الصوفى هو الشعار الإسلامى : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) .

٤ - المكافح

من أظهر السمات عند رسول الله ﷺ سمة الكفاح والعمل ، وما من شك في أنه ﷺ كان يتجه إلى الله بكل أعماله ، فكانت كلها - من أجل ذلك - عبادة . ولقد كافح رسول الله ﷺ طيلة حياته في جميع الميادين التي تقربه إلى الله تعالى ، والتي ترقى به كفرد ، وترقى بالمجتمع في دوائره التي تتسع متدرجة ، مبتدئة من الأسرة حتى تشمل الإنسانية كلها ، وما كان هذا الكفاح إلا من أجل الله ، وفي الله ، ورسول الله ﷺ هو القائل : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .
وهو الذى أخبر أن إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، وأن اللقمة التي تضعها في فم امرأتك تريد بذلك وجه الله ، صدقة ، وأن النطفة تضعها في

الحلال . لك عليها ثواب ؛ وحينما قال ذلك استغرب الأمر بعض الصحابة فقالوا : أيأتى أحدنا شهوته . ويؤجر عليها ؟ فقال ﷺ مامعناه : رأيتم لو وضعها في حرام ، أما كان عليه وزر ؟ فكذلك لو وضعها في حلال كان له أجر . إن العمل والكفاح ، وإرادة وجه الله بالعمل والكفاح ، من سمات الإسلام ، ومن سمات رسول الله ﷺ : ولقد ترسم كبار الصوفية هذه الخطوات المباركة فكانت حياتهم عملاً وكفاحاً يريدون به وجه الله تعالى . وسار أبو العباس المرسى على هذا النسق بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة لكل من يتبعه .

روى ابن عطاء الله ، بعد أن اتصل بالشيخ ، وانتظم في مجالسه أنه سمع الطلبة يقولون : من يصحب المشايخ « أى الصوفية » لا ينجىء منه في العلم الظاهر شىء . يريد ابن عطاء الله ، ويريد الطلبة بذلك ، أن المشايخ يوجهونه نحو العبادة . ويصرفونه عن العلم المكتسب . والدروس : نحواً وصرفاً كانت ، أوفقها وأصولاً ، أو غير ذلك ، ويقول ابن عطاء الله - وكان إذ ذاك طالباً - فشق على أن يفوتنى العلم ، وشق على أن تفوتنى صحبة الشيخ رضى الله عنه . فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحمًا بجمل . فقلت فى نفسى : ليت الشيخ يطعمنى لقمة من يده . فما استتممت الخاطر إلا وقد دفع فى فمى لقمة بيده ثم قال :

« نحن إذا صحبنا تاجرًا ، ما نقول له اترك تجارتك وتعال ؟ أو صاحب صنعة . ما نقول له اترك صنعتك وتعال ؟ أو طالب علم ، ما نقول له اترك طلبك وتعال ؟ ولكن نقر كل أحد فيما أقامه الله فيه ، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه . وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ . فما قال لتاجر : اترك تجارتك . ولا لذى صنعة : اترك صنعتك . بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها » اهـ . ويبدو أن ابن عطاء الله تطورت به الأحوال ، فأصبح ما كان يشق عليه ، مرغوبًا وما كان ينفر منه مطلوبًا . فقد ذهب إلى الشيخ يومًا ، ودخل عليه . وفى

نفسه ترك الأسباب ، والتجريد ، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر وحدثته نفسه بأن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة ، وعلى هذا الوضع . فقال الشيخ له - من غير أن يبدى له ابن عطاء الله شيئاً من الأمر - صحبني بقوص إنسان يقال له ابن ناشى ، وكان مدرساً بها ، ونائب الحكم ، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا فقال : « يا سيدى أترك ماأنا فيه ، وأتفرغ لصحبتك ؟ »

فقلت له : ليس الشأن ذا ، ولكن : امكث فيما أقامك الله فيه ، وما قسم لك على أيدينا فهو لك واصل . ثم قال : وهذا شأن الصديقين ، لا يخرجون من شيء ، حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم .

يقول ابن عطاء الله : فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، وكأنما كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه « اهـ . ومن المعروف عن أبى العباس ؛ أنه كان لا يحب المريد الذى لا سبب له ؛ وأنه كان يقتنى الخيل ، ويعنى بشأنها ؛ فيسأل عن طعامها وشرابها متفقداً أحوالها . وسيراً على قاعدته هذه ، فى العمل واتخاذ الأسباب ، كانت له توجيهات جميلة فى شرح القرآن ؛ من ذلك مثلاً : أنه تحدث عن بعض آيات تتعلق بمريم رضى الله عنها . هى قوله تعالى : (كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ، وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؛ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

ثم قال الله فيما بعد : (وَهَئِذَا إِلَيْكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا) . يقول الشيخ رضى الله عنه : فذكر بعض الناس فى هذا تأويلاً لا يرضى ؛ ولا ينبغى أن يلتفت إليه . وهو أنها كان حبها لله وحده ، فلما ولدت انقسم حبها ، وليس الأمر كما قال هذا القائل ؛ لأنها صديقة كما أخبر الله عنها بقوله : (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) .

والصديق ، والصديقة ، لا ينتقلان من حالة إلى أخرى أكمل منها .
ولكنها كانت في بدايتها متعرفاً إليها بنحوق العادات . وسقوط الأسباب فلما تكمل
يقينها أرجعت إلى الأسباب . فالحالة الثانية أتم من الحالة الأولى ومما يتصل
بالموضوع ، حديثه عن التاجر الصدوق . يقول رسول الله ﷺ : « التاجر الصدوق
يحشر مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء . والصالحين » . فقال رضى الله عنه :
« بأى طريق يحشر مع النبيين ؟ وبأى طريق يحشر مع الصديقين ؟ وبأى طريق يحشر
مع الشهداء ؟ وبأى طريق يحشر مع الصالحين ؟
يحشر مع النبيين . فإن الأنبياء شأنهم أداء الأمانة وبذل النصيحة فيحشر مع
الأنبياء بهذا الوصف ؛ وهذا التاجر أدى الأمانة . وبذل النصيحة .
ويحشر مع الصديقين ، لأن الصديق شأنه الصفاء في الظاهر والباطن قد استوى
ظاهره وباطنه ؛ والتاجر الصدوق كذلك ؛ فيحشر مع الصديقين بهذا الوصف .
ويحشر مع الشهداء ، فإن الشهيد شأنه الجهاد والتاجر الصدوق يجاهد نفسه
وشيطانه وهواه ، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف .
ويحشر مع الصالحين ، فإن الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحرام . فيحشر مع
الصالحين بهذا الوصف » . اهـ .

ولايتنافى التصوف مع الكفاح . والعمل . والغنى . والثراء ؛ فلقد كان
أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه من كبار المزارعين . وهو القائل : لكل ولى
حجاب ، وحجابى الأسباب . ونذكر القصة التالية : يروى ابن عطاء الله يصف
فيها عارفاً بالله من كبار الأثرياء . ولكن الدنيا كانت في يده لافى قلبه . يقول ابن
عطاء الله : « وقد يكون حجاب الولى كثرة الغنى وانبساط الدنيا عليه » . وقال
بعض المشايخ : كان رجل بالمغرب من الزاهدين فى الدنيا ، ومن أهل الجدة
والاجتهاد وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه

ويتعيش ببعضه . فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ : إذا دخلت إلى بلد كذا .. فاذهب إلى أخي فلان ، فأقرته مني السلام ، وتطلب الدعاء منه لي ، فإنه ولي من أولياء الله تعالى ، قال فسافرت حتى قدمت تلك البلدة وسألت عن ذلك الرجل . فدللت على دار لاتصلح إلا للملوك . فتعجبت من ذلك ، وطلبت . فقيل لي : هو عند السلطان ، فازداد تعجبي . فبعد ساعة ، وإذا هو آت في أفخر ملبس ، وموكب ، وكأنما هو ملك في موكب . قال فازداد تعجبي أكثر من الأول . قال فهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به . ثم قلت : لا يمكنني مخالفة الشيخ ، فاستأذنت فأذن لي ، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد . والخدم والشاربة الحسنة فقلت له : أخوك فلان .. يسلم عليك . قال جئت من عنده ؟ قلت نعم . قال : إذا رجعت إليه قل له إلى كم اشتغالك بالدنيا . وإلى كم إقبالك عليها . وإلى متى لاتنقطع رغبتك فيها . فقلت : هذا والله أعجب من الأول . فلما رجعت إلى الشيخ . قال اجتمعت بأخي فلان ؟ قلت : نعم . قال . فما الذي قال لك ؟ قلت لأشياء قال : لابد أن تقول لي فأعدت عليه ما قال فبكى طويلا . وقال : صدق أخي فلان .. هو غسل الله قلبه من الدنيا ، وجعلها في يده ، وعلى ظاهره ، وأنا آخذها من يدي وعندى إليها بقايا التطلع » اهـ .

ويظن بعض الناس أن الصوفية بعيدون عن جو العمل والكفاح . هذا يخالف ما عرف عن حياتهم من أنها كانت نضالا لا يفر . نضالا في سبيل الدعوة . وهم الذين نشروا الإسلام على نطاق واسع في ربوع أفريقيا . وفي آسيا . ونضالا في سبيل الإصلاح الأخلاقي في المجتمع ، وقد كانوا دائما مثالا للهداية بأقوالهم وسلوكهم . ومثلهم الأعلى في النضال والكفاح هو رسول الله ﷺ

٥ - الصوفي

إن أبا العباس صوفى . قبل أن يكون شيئاً آخر . إنه صوفى بطبعه وفكرته . وهو صوفى بأخلاقه وسلوكه . وهو صوفى بتربيته وثقافته . وهو كما يقول الشاذلى - رضى الله عنهما : « أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض .. » ولقد كان يأتيه أصحاب الحاجات . فيعلن إليهم في صراحة : أنه لن يحاول التحدث في حاجاتهم مع فلان أو فلان . . من ذوى النفوذ . وممن يتصل قضاء الحوائج بهم . ولكن سيلجأ في قضاء حاجاتهم إلى الله داعياً ، وسائلاً ، فإذا اطمأنت نفوسهم بذلك ، اتجه إلى الله بالتضرع والدعاء ، في قضاء حوائجهم وسنحاول بتوفيق الله . بيان التصوف عنده في ألوانه المختلفة . وزواياه المتعددة . وسنحاول - إن شاء الله - بيان رأيه في التصوف وفي معناه . وبيان ألوان من التفسير الصوفى للقرآن . وشرحه الصوفى لبعض الأحاديث . ورأيه في بعض الصوفية . وفهمه لبعض آرائهم ^(٦) .

التصوف لفظاً ومعنى أما عن اسم التصوف ومعناه . فإنه يقول : اختلف الناس في اشتقاق الصوفى . فمنهم من قال إنه منسوب إلى الصوف لأنه لباس الصالحين . وقيل : هو منسوب إلى الصفة ، يعنى صفة مسجد رسول الله ﷺ التى ينسب إليها أهل الصفة . وهو نسب على غير قياس . ثم قال : وأحسن ما قيل فيه إنه منسوب لفعل الله به ، أى صافاه الله فصوفى ، فسمى صوفياً . ثم أنشد رضى الله عنه :

(٦) إن مرجعنا في ذلك إنما هو كتاب : لطائف المنز - أولا وبالذات . ثم كتاب : طبقات الإمام الشعرانى . وكتاب : الكواكب الدرية . وكتاب درة الأسرار لابن الصباغ .

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا وكلهم قال قولا غير معروف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صافا فصوفي حتى سمي الصوفي
ويقول : الصوفي مركب من حروف أربعة :

الصاد . والواو . والفاء . والياء .

فالصاد : صبره ، وصدقه ، وصفاءه .

والواو : وجده ، ووده ، ووفاءه .

والفاء : فقده ، وفقره ، وفناؤه .

والياء : ياء النسبة ، إذا تكمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه .

التوبة :

وأول قدم في طريق الله إنما هو التوبة ، ورأى الشيخ في التوبة يتبين من القصة
التالية : فقد ذكر رضى الله عنه الحكاية المشهورة التي ذكرها أبو القاسم القشيري في
رسالته وهي كما يلي : قال الجنيد : دخلت على السرى فوجدته متغيراً . فقلت :
ما بالك يا أستاذ متغيراً ؟ فقال : دخل على شاب آنفاً فقال لى : ما التوبة ؟ فقلت
له ألا تنسى ذنبك . فقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك . فإذا تقول أنت يا أبا
القاسم ؟ قال فقلت : القول عندي ما قال الشاب . لأنى إذا كنت في حال الجفاء ،
ثم نقلنى إلى حال الصفاء ، فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاء .

ذكر أبو العباس ذلك ثم قال : كلام السرى أتم من كلامها ، لأن كلام السرى
يدل على مبادئ المقامات ، وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد .
بدايتها ونهايتها . وإنما تأتى النهايات من البدايات ، والجنيد لم يكن في ذلك الوقت
بمقام أن يكون قدوة وكذلك الشاب ، فتكلما على أحوال أهل الارتقاء في نهاياتهم
فكلاهما يخص حالهما وكلام السرى مهيع ، مورد للسالكين . وباب التوبة مفتوح .

لكل لاجئ إلى الله ، ويتكاتف الصوفية على ألا يقنطوا أحدًا من رحمة الله . ومن طريف ذلك أن الإمام القشيري بدأ رسالته الجليلة بالكتابة عن إبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض ، ويفسر شيخنا هذه اللمحة من القشيري بقوله :

إنما بدأ القشيري في رسالته بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم لأنها كانا قد تقدم لهما زمن قطيعة ثم أقبلًا فأقبل الله عليهما ، فبدأ بذكرهما بسطًا لرجاء المريدين الذين تقدمت منهم الزلات ، وسبقت منهم المخالفات ، ثم رجعوا إلى استقراع أبواب العناية ، إذ لو بدأ بالجنيد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وعتبة الغلام ، وأمثالهم ممن نشأ في طريق الله لقال القائل : ومن يدرك هؤلاء ؟ هؤلاء لم تسبق منهم زلات ، ولم تتقدم منهم مخالفات .

ويسير الشيخ في فتح باب الأمل في رحمة الله إلى النهاية حتى لقد قال رضى الله عنه في قول بعضهم : لا يكون الصوفي صوفيًا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئًا عشرين سنة ، ليس معنى ذلك ألا يقع منه ذنب عشرين سنة ، ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب استغفر الله منه ، والمملك الموكل يكتب السيئات لا يكتب السيئة حتى ينتظر العبد لعله أن يرجع أو يتوب ، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين : امكث فمسي أن يتوب إلى أن يبلغ عددًا : إما السبع ، وإما العشر « الشك مني » فحينئذ يكتبها سيئة فلذلك جاء صاحب اليمين أميرًا على صاحب الشمال .

الطاعة والمعصية :

ومهما يكن من شيء ، فإن الفرق واضح بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر ، وهو كما يذكر الشيخ من ثلاثة أوجه : المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها ، ولا يفرح بها وقت الفعل ، ولا يصبر عليها ؛ والفاجر ليس كذلك .

ويبين أبو العباس جوانب الإنسان التي تتصل بالطاعة والمعصية ويرسم لكل جانب كماله ونقصه ووفاءه وسقوطه فيقول :

اعلم أن الله خلق هذا آدمي وقسمه على ثلاثة أجزاء :
 لسانه جزء ، وجوارحه جزء ، وقلبه جزء ، وجعل على كل جزء حفيظاً ،
 فقال سبحانه وتعالى : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) .
 وقال سبحانه وتعالى :

(وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) .
 وتولى حفظ القلب بنفسه فقال عز وجل :
 (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) .

وسلط على الجوارح الشيطان ، واقتضى من كل جزء وفاء ما ألزم به ، فوفاء القلب ألا يشتغل بهم دنيا ، ولا بآخر ، ولا يحسد . ووفاء اللسان : ألا يغتاب ، ولا يكذب ، ولا يتحدث فيما لا يعنيه . ووفاء الجوارح : ألا يسارع بها إلى معصية ، ولا يؤذى أحداً من المسلمين .
 فمن وقع من قلبه فهو منافق ، ومن وقع من لسانه فهو كافر ، ومن وقع من جوارحه فهو عاص .

أوقات الإنسان والوقفه منها :

ويقسم شيخنا أوقات الإنسان إلى أربعة لا خامس لها ، هي : النعمة والبلية ، والطاعة ، والمعصية ، ثم يقول : والله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية ، يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية ، فمن وقته الطاعة . فسييله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه الله لها ، ودفعه للقيام بها .

ومن كان وقته المعصية عليه فسييله الاستغفار والتوبة . ومن كان وقته النعمة :

فسييله الشكر ، وهو مزج القلب بالله . ومن كان وقته البلية : فسييله الرضا بالقضاء ، والصبر . والرضا رضا النفس من الشهوات ، والصبر مشتق من الاصطبار . وهو الغرض للسهم ، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضاً لسهم القضاء ، فإن ثبت لها فهو صابر . والصبر ثبات القلب بين يدي الرب ؛ قال رسول الله ﷺ :

« من أُعطي فشكر ، وابتلى فصبر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر ثم سكت . فقالوا : ثم ماذا له يا رسول الله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

الخوف من الله :

وإذا سئلت عما يزعج الناس من الغفلة إلى عروج سبيل الله ، فإنه التنبه بسبب الخوف من الله .

والخوف فيما يرى إمامنا على قسمين : خوف العامة ، وخوف الخاصة ، فخوف العامة على أجسادهم من النار ^(٧) ، وخوف الخاصة على خلعتهم التي كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة ، فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملابس المن خشية أن تدنس بأوساخ المخالفة ، كي يقوموا عليه بخلعه التي أنعم بها عليهم ، ونهضوا له بالوفاء فيما

(٧) ومعنى كلام الشيخ هذا : أن العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلع الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة ، وعلموا أن الله تعالى قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع في المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم ، فكان خوفهم إشفاقاً على نفوسهم من عقوبة الله .

وأما أهم الخصوصية : فأعطاهم الحق من نوره ما أشدهم به ، ما كساهم من خلع منته ، فعملوا على صيانتها ، ليقدّموا عليه بها لم تدنس ، ولم تتغير ، طاهرة نقية ، مشرقة بهية ، وفهموا معنى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) . فطهروا ملابس إيمانهم ، وأيقانهم ، من دنس غفلتهم وعصيانهم ، وفهموا أيضاً قوله تعالى :

(يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير) من لطائف المنن .

اقتضى منهم ، وبالأمانة والصيانة فيما استأمنهم ، وقال رضى الله عنه : العامة إذا خوفوا خافوا وإذا رجوا رجوا ^(٨) . والخاصة متى خوفوا رجوا ومتى رجوا خافوا .

الذكر

وبعد التوبة الخالصة النصوح يكون الذكر ، ولأبي العباس أذكار وأوراد كثيرة ، وسند ذكر بعضها فيما بعد ، ولكننا الآن نقول : إنه ينصح بالذكر باسم « الله » قال رضى الله عنه لبعض أصحابه : ليكن ذكرك الله . فإن هذا الاسم سلطان الأسماء ، وله بساط وثمره ، فبساطه العلم ، وثمرته النور . ثم النور ليس مقصوداً لنفسه ، وإنما يقع به الكشف والعيان ، وجميع أسماء الله للتخلق إلا اسمه الله فإنه للتعلق . يقول ابن عطاء الله : ومعنى كلام الشيخ هذا : أنك إذا ناديته يا حلیم ، خاطبك من اسمه الحلیم ، أنا الحلیم ، فكن عبداً حلیمًا . وإذا ناديته باسمه الكريم ، خاطبك من اسمه الكريم ، أنا الكريم فكن عبداً كريماً . وكذلك سائر أسمائه ، إلا اسمه الله ، فإنه للتعلق فحسب ، إذ مضمونه الألوهية ، والألوهية لا يتخلق بها أصلاً .

وجميع أسماء الله إذا أسقطت منها حرفاً . ذهبت دلالاته على الله ، كالعلم

(٨) ومعنى كلام الشيخ : إن العامة واقفون مع ظواهر الأمر ، فإذا خوفوا خافوا . إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبادة بنور الفهم كما لأهل الله .

وأهل الله إذا خافوا رجوا . عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا ، أوصاف المرجو الذى لا ينبغي أن يقتط من رحمته ، ولا أن يئأس من منته ، فاحتالوا على أوصاف كرمه علماً منهم أنه ماخوفهم إلا ليجمعهم عليه . وليردهم بذلك إليه وإذا رجوا خافوا ، يخافون غيب مشيئته التى هى من وراء رجائهم ، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختباراً لعقولهم ، هل تقف مع ظاهر الرجاء ؟ أو تنفذ إلى خوف ما بطن فى مشيئته فلذلك استثار الرجاء خوفهم .

وحكمهم فى القبض والبسط كما قال الشيخ : فى الخوف والرجاء ، غير أن البسط مزلة أقدام الرجال ، فهو موجب لمزيد حلهم ، وكثرة التجائهم .

والقادر والرحيم ، وغير ذلك من أسمائه الحسنى ، إلا اسمه « الله » ، فإنك إذا أسقطت الألف بقى « لله » ، فإذا أسقطت اللام الأولى بقى « له » ، فإذا أسقطت اللام الثانية ، بقى « هو » ، وهو النهاية فى الإشارة ، وأنشد ابن منصور الحلّاج :
 أحرف أربع بها هام قلبى وتلاشت بها همومى وفكرى
 ألف ألف الخلائق بالصند مع ثم لام على الملامة تجرى
 ثم لام زيادة فى المعانى ثم هاء بها أهم أتدرى

الفرق بين الصوفى والزاهد :

كثيراً ما يخلط الناس بين الصوفى والزاهد ، ولكن الشيخ رضى الله عنه يوضح ذلك قائلاً : والزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ؛ والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا . وقال رضى الله عنه : الزاهد غريب فى الدنيا لأن فى الآخرة وطنه ، والعارف غريب فى الآخرة لأنه عند الله (٩) .

(٩) يقول ابن عطاء الله : فإن قلت مامعنى الغربة فى كلام الشيخ هنا ، وما معناها فى الحديث الوارد : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوى للغرباء » : فاعلم أن الغربة فى الحديث معناها قلة من يعين على القيام بالحق ، فيكون القائم به غريباً لفقدان المساعد ، وعدم المعاضد ، فلا ينهض القائم حيثئذ إلا قوة إيمانه . ووفور إيقانه ، فلذلك قال عليه السلام : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوى للغرباء » .

يريد عليه السلام أنهم قاموا بأمر الله ، فى بلاده وعباده حيث تقاعدت هم الناس عن القيام به . وأما الغربة فى كلام الشيخ رضى الله عنه فعناها : أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة ، فتبقى الآخرة موطن قلبه ، ومعشش روحه فيكون غريباً فى الدنيا ، إذ ليست وطناً لقلب عاين الدار الآخرة ، فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها ، وفيما شاهد من عقوبتها ونكالها ، فاستغرب فى هذه الدار . وأما العارف ، فإنه غريب فى الآخرة ، فإنه كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هنالك فصار غريباً فى الآخرة ، لأن سره مع الله بلا أين .

فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق . أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين ، فلم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة . ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة ، بل كانوا فى ذلك كله بآداب الله ، وآداب رسله وأنبيائه متأدبين وما اقتصر منهم مولاهم عاملين .

العروج إلى الله

والناس - من قبل ذلك ومن بعده - من حيث عروجهم إلى الله على قسمين :
 قوم وصلوا بكرامة الله الى طاعة الله ، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله . قال
 الله سبحانه وتعالى : (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) .
 ويلقى ابن عطاء الله السكندري على هذه الفكرة أضواء توضيحها فيقول : معنى
 كلام الشيخ هذا : أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه ، فصار
 يطوى مهامه نفسه ، ويبدأ طبعه ، إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا
 قوله سبحانه . (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) .
 ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد ، ويشهد لذلك
 قوله تعالى : (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) .

فالأول : حال السالكين .

والثاني : حال المجذوبين .

فن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصله .

ومن كان مبدؤه المواصله ، رد إلى وجود المعاملة . ولا تظن أن المجذوب
 لا طريق له ، بل له طرق طوتها عناية الله له ، فسلكها مسرعاً إلى الله عجلاً .
 وكثيراً ما نسمع عنه مراجعات المتسبين للطريق ، أن السالك أتم من
 المجذوب ، لأن السالك عرف الطريق ، وماتوصل إليه ، والمجذوب ليس كذلك ،
 وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له . وليس الأمر كما زعموا ، فإن
 المجذوب طويت الطريق له ، ولم تطوعه ، ومن طويت له الطريق لم تفته ، ولم
 تغب عنه ، وإنما فاته متاعها وطول أمدها ، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى
 مكة ، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا .

الشوق

قال رضى الله عنه الشوق على قسمين : شوق على الغيبة لا يسكن إلا بقاء الحبيب ، وهو شوق النفوس وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة . فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل فذلك مقام التعريف إيماناً حقيقياً . وذاك ميدان تنزل الأزل .

وإذا أنزلك إلى محل المثابرة والجهاد فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل ، وهو الإسلام الحقيقى . وذلك ميدان تجلى حقائق الأبدية ، والمحقق لا يبالى بأى صفة يكون لأن صفتك تميل لا أنت والصفة من العين للعين ، وهو ظهورك ، والاسم للسان . وهو نطقك . والاسم حقيقة الصفة .

والصفة حقيقة الوجود . والأسرار منتزلة عن الوجودية للصدقية والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لأبى جحيفة : يا أبا جحيفة « سائل العلماء ، وخالط الحكماء ، وجالس الكبراء » فالعالم يدلك بالعلم من الأسماء ، ونهايته الجنة ، والحكيم المقرب يملك باليقين وبالحقائق من الصفات ، ونهايته منازل القربى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) .

والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والتزاهة ، ونهايته إلى الله . وتجتمع المراتب الثلاثة فى الكبير . فجمّل قوماً بالعلم وقوماً بالحقائق وقوماً بالأسرار ، وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل وهم البصراء .

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي) ..

أى على معاينة يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها ، وهى النهاية ، وكان إمامنا رضى الله عنه كثيراً ما ينشد :

وغنى لى من قلبى فغنيت كما غنى
وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

٦ - المفسر

إن رسول الله ﷺ لم يُملِ تفسيراً للقرآن مطولا ، أو مختصراً وإنما أثر عنه ﷺ كلمات شريفة وجيزة عن هذه الآية أو تلك . ومن الحق أن سلوك رسول الله ﷺ كان تفسيراً للقرآن .

ولقد كان خلقه ، صلوات الله عليه وسلامه عليه القرآن كما قالت السيدة عائشة رضوان الله عليها .

ومن الحق أن نقول إن أحاديثه ﷺ ، كانت تفسيراً للقرآن من قريب أو من بعيد ، ولا ريب أن حياته كلها تترسم فى تفاصيلها ، وفى إجمالها النهج القرآنى ، وهى من هذه الوجهة تفسير للقرآن .

بيد أن التفسير النظرى المباشر ، وتتبع القرآن كلمة كلمة وآية آية وسورة سورة بالتفسير والشرح لم يحدث من رسول الله ﷺ ، ولم يقم بذلك ، فى تعمد وترتيب متتابع أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ، وكانت ثمرة ذلك فى عالم الحكمة ، أنبقى القرآن على نصرته الأولى غضاً يانعاً وبقي نبعاً فياضاً تتفجر معانيه من ينابيع القلوب المستبصرة وتنثال إشارات وتوجيهاته من أعماق الأرواح المشرقة . وبقي على مر الزمن وعلى تتابع الدهر المنارة المضيئة ، يستنير بها كل من قرب منها على قدر قربته . ولقد سئل أحد المفكرين عن خير تفسير للقرآن فقال : الزمن .

ولاشك أن كل يوم يمر يكشف لنا عن آفاق فى القرآن كنا نجهلها ، ولقد كان للصوفية فى هذا المجال إلهامات وإشراقات بتوفيق الله رائعة وهم فى هذا الميدان

يسمون إلهاماتهم : إشارات . يعنون بذلك أن الآيات القرآنية لها تفسير بحسب اللغة وأسباب النزول وحوادث التاريخ وهو تفسير يتفاوت دقة وجالا ، ولكنه مع ذلك تفسير لا يستنفد كل ماتعطيه الآيات القرآنية من إشارات ، ومايشع عنها من أنوار ومايتضوع منها من عبر طيب .

وإشارات الآيات وأنوارها وعبرها الزكى لاينفد ولا ينضب المعين الذى عنه يصدر : (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

ومن أجل ذلك فإن إلهامات الصوفية فى الآيات القرآنية فياضة دائما ، سيالة باستمرار . ومع هذا فينبغى أن نلاحظ أمرين :

الأول : أن هذه الإشارات لا تهدف فى قليل ولا فى كثير إلى أن تحل محل التفسير المألوف .

الثانى : أن هذه الإشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف . إنها إشارات وليست تفسيرا ، ومن أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين . وعن هذا التفسير الصوفى يقول الإمام ابن عطاء الله :

فائدة : اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله تعالى ولكلام رسوله ﷺ بالمعاني الغريبة كما مضى من فهم الشيخ رضى الله عنه ، يهب لمن يشاء إنائاً : الحسنات ، ويهب لمن يشاء الذكور : العلوم ، أو يزوجهم ذكراً وإنائاً : علوماً وحسنات ، ويجعل من يشاء عقيماً . لا علم ولا حسنة . كما مضى أيضاً من قوله عز وجل : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذُبُّوا بَقَرَةً) .

فقال الشيخ : بقرة كل إنسان نفسه ، والله أمرك بذبحها . وكما سيأتى إن شاء الله فى تفسير الأحاديث فذلك ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية ودلت عليه فى عرف اللسان . وثم أفهام باطنه تفهم

عند الآية والحديث لمن فتح الله على قلبه . وقد جاء أنه عليه السلام قال :
« لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع » .

فلا يصدنك عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل أو معارضة :
هذه إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ فليس ذلك بإحالة ، وإنما
يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرون
الظواهر على ظواهرها مرادًا بها موضوعاتها . ويفهمون عن الله ما أفهمهم ، وربما
فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي
الدين بن علي القشيري رحمه الله قال :

كان ببغداد فقيه يقال له الجوزي يقرأ اثني عشر عامًا . فخرج يومًا قاصدًا
المدرسة فسمع منشدًا ينشد :

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فقد ضاق الزمان على الصغار

فخرج هائمًا على وجهه حتى أتى مكة ولم يزل مجاورًا بها حتى مات .

وقرئ على الشيخ مكين الأسمر رضى الله عنه قول القائل :

لو كان لي مسعد بالراح يسعدني لما انتظرت لشرب الراح إفطارا
الراح شيء عجيب أنت شاربه فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يامن يلوم على صهباء صافية خذ الجنان ودعني أسكن النارا

فقال إنسان هناك لا تجوز قراءة هذه الأبيات . فقال الشيخ مكين الأسمر
للقارئ : اقرأ هذا رجل محبوب .

ويكفيك في هذا أن ثلاثة سمعوا مناديًا يقول : ياسعتر برى . ففهم كل منهم
عن الله مخاطبة خوطب بها في سره .

سمع الواحد اسع تر برى .

وسمع الآخر الساعة ترى برى .

وسمع الثالث ما أوسع برى ؟

فالمسموع واحد . واختلفت أفهام السامعين كما قال سبحانه :

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ) .

وقال سبحانه : (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ)

فأما الذى سمع : اسع تر برى ، فريد دل على النهوض إلى الله بالأعمال ليستقبل

الطريق بالجد . فقل له : اسع إلينا بصدق المعاملة ، تر برنا بوجود المواصله .

وأما الآخر . فكان سالكا إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة فقل

له . ترويحاً على قلبه لما أحرقت نار الشغف : الساعة ترى برى .

وأما الثالث : فعارف كشف له عن وسع الكلام فخطب من حيث أشهد .

فسمع : ما أوسع برى .

وقال الشيخ محي الدين رضى الله عنه :

دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر ، فاجتمع بها جماعة من

المشايخ ، فقدم الطعام ، وعجزت الأوعية ، وهناك وعاء زجاج جديد ، قد اتخذ

للبول ولم يستعمل بعد . فغرف فيه رب المنزل الطعام ، فالجماعة يأكلون ، وإذا

بالوعاء يقول : منذ أكرمنى الله بأكل هؤلاء السادة منى لأرضى لنفسى أن أكون

بعد ذلك محلا للأذى ، ثم انكسر نصفين .

قال الشيخ محي الدين : فقلت للجميع سمعتم ما قال الوعاء ؟ قالوا نعم .

قلت : ماسمعتم ؟ فأعادوا القول الذى تقدم .

قال فقلت : قال قولا غير ذلك . قالوا : وما هو ؟

قلت : قال كذلك قلوبكم ، قد أكرمها الله بالإيمان . فلا ترضوا بعد ذلك أن

تكون محلا لنجاسة المعصية وحب الدنيا جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه .
والتقى منه بمنه وكرمه .

وهذا الذى قاله الإمام ابن عطاء الله حق كله . والصورة المثالية فى التفسير
الصوفى ، وفى شرح الأحاديث إنما هى الصورة التى تحيط بالموضوع كلية . أى
تشرح أو تفسر على الطريقة المألوفة . وفى ثنايا الشرح أو التفسير تشير وتوجه على
النهج المتبع فى الآفاق الصوفية البحتة ونقول إن هذا هو الصورة المثالية ، لأن هذه
الصورة تحيط بالكثير من أقطار الموضوع ، وتلم بالعديد من زواياه . وتكون فائدتها
للمتعلمين أكثر .

وما من شك فى أن كثيراً من السادة الصوفية استعملوا هذه الطريقة ونذكر
الآن لها مثالين كريمين يصوران جو أئمة المدرسة الشاذلية فى عهدها الأول ، تمتاز
بها آراء أبى الحسن وأبى العباس وابن عطاء الله فتكون وحدة واحدة وطريقاً سوياً
يوضح ما ينبغى أن يكون حينما يقف الصوفى بين جمهور الناس مدرساً ومريئاً . أما
إذا كان الشيخ بين تلاميذه ومريديه فله أن ينثر الأنوار نثراً ويذيعها لألاءة بالسنا
والسناء .

والمثل الأول الذى نذكره أتى بمناسبة ما قال رسول الله ﷺ لحارثة سائلاً له :
كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . فقال ﷺ : لكل حق
حقيقة . فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها
ومدرها ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون ، وكأنى إلى أهل النار فى النار
يعذبون ، وكأنى أرى عرش ربى بارزاً . من أجل ذلك أسهرت ليلى ، وأظلمات نهارى .

يقول ابن عطاء الله : وفى حديث حارثة فوائد عشرة :

الأولى : أنه لما سأل النبى ﷺ حارثة فقال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ لم
يقل حارثة غنياً ولا صحيحاً ، ولا شيئاً من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية .

لأن حارثة علم أن رسول الله ﷺ أجل من أن يسأل عن دنيا . بل فهم عنه أنه إنما سأله كيف حاله مع الله . فلذلك قال الصحابي : أصبحت مؤمناً حقاً . أما أبناء الدنيا إذا سئلوا فلا يخبرونك إلا عن دنياهم . وربما : . ولك إذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاهم . فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له في استشاره بسؤاله لجريان سببه منه .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لرجل أتى من الحج : كيف كان حجكم ؟ فقال ذلك الرجل : كثير الرخاء . كثير الماء بسعر كذا وكذا وسعر كذا وكذا . فأعرض الشيخ عنه وقال : تسألهم عن حجهم وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح ، فيجيبون برخاء الأسعار . وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا إلا عن ذلك !

الفائدة الثانية : أنه ينبغي للمشايخ أن يتفقدوا أحوال المريدين ويجوز للمريدين إخبار الأستاذين ، وإن لزم من ذلك كشف حال المريدين ، لأن الأستاذ كالطبيب ، وحال المريد كالعورة ، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى .

الفائدة الثالثة : انظر إلى قوة نور حارثة في قوله : أصبحت مؤمناً حقاً . فلولا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين ، والتحقق بالسنّة ، ما أخبر بذلك وأبداه وأثبت لنفسه حقيقة الإيمان بين يدي صاحب المحو والإثبات ، وإنما أبدى ذلك حارثة ، لأنه علم أن طواعية رسول الله ﷺ واجبة ، والرسول قد استخبره عن حاله ، فلم يسعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه ببركات متابعة الرسول ﷺ ليفرح له الرسول ﷺ بمنة الله ، فيشكر الله عنه ، ويسأله تثبيت ما أعطاه مثل ما ذكره بعض العلماء العارفين قال : وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضى الله عنه . فقال عمر : ما هذا ؟ ما أسرع ما أحدثتم . والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم .

فانظر رحمك الله هذه البصيرة التامة ، كيف أشهدته أن الزلزلة إنما هي من حدث كان . وأن ذلك الحدث منهم ، والله برىء منه ؟

فهل هذا إلا من نور البصيرة الكاملة التي وهبها عمر رضى الله عنه ؟ وكذلك ضربه لأبي هريرة رضى الله عنهما في صدره حين وجد معه نعل رسول الله ﷺ . وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله أن يبشره بالجنة . ورجوعهما إلى رسول الله ﷺ . وقول عمر رضى الله عنه : يا رسول الله أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشر من لقي وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله بالجنة ؟ قال : نعم . قال : لا تفعل يا رسول الله . خلتهم يعملوا . فقال رسول الله ﷺ : خلتهم يعملوا .

وهاتان الواقعتان تعرفانك بعظيم قدر عمر رضى الله عنه ، ووفور أخذه من رسول الله ﷺ ، واختطافه من نوره وهذا الحديث مروي في صحيح مسلم ، وإنما ذكرناه ههنا مختصراً .

الفائدة الرابعة : يفهم من هذا الحديث انقسام الإيمان إلى قسمين : إيمان حقيقى ، وإيمان رسمى .

فلذلك أخبر الصحابي بقوله : أصبحت مؤمناً حقاً . والحديث يشهد له أيضاً . وروى البخارى يرفعه إلى رسول الله عليه وسلم ، أنه قال : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً . وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا » . وروى أيضاً قال صلوات الله عليه وسلامه : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن توقد نار عزيمة فكان أن يقع فيها خير له من أن يشرك بالله » وقد جاء في الحديث أيضاً قال ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » . وقد قال سبحانه : (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) .

وهما صنفان : عباد آمنوا بالله على التصديق والإذعان . وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان . وهذا الإيمان الثاني تارة يسمى إيماناً وتارة يسمى يقيناً ، لأنه إيمان انبسطت أنواره ، وظهرت آثاره . واستمكن في القلب عموده . وداوم السر شهوده وعنه يكون خالص الولاية كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية ، وليس يستوى إيمان مؤمن يغلب الهوى وإيمان مؤمن يغلب الهوى . ولا إيمان مؤمن تعرض له العوارض فيدافعها بإيمانه . كما إيمان مؤمن غسل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشهوده وعيانه ، ولأجل هذا اختلف أهل الطريق في عبيدين : أحدهما يرد عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه . والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلاً . أيهما أتم ؟ والذي لا شك فيه تفضيل هذا القسم الثاني . فإنه أقرب لأحوال أهل المعرفة ، والأول هو حال أهل المجاهدة ، ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة إلا والنور قد ملأ زواياه ، فلأجل ذلك لم يجد خاطر الذنب مساعاً .

الفائدة الخامسة : مطالبة الرسول ﷺ لحارثة بإقامة البرهان على ما أثبتته لنفسه فبدل ذلك أنه ليس كل من ادعى دعوة سلمت له ، وقد قال الله سبحانه : (فَمَنْ تَوَلَّى الْوَيْلَ لِلْمُصَلِّينَ إِذَا دُعِيَ لِحَاجَتِهِمْ فَهُم يَأْخُذُونَ) وقال : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فوازين الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم ، وقد قال سبحانه : (وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ بِالْقِسْطِ) .

فمن ادعى حالاً مع الله أقم عليه ميزانها . فإن شهد له سلمناها له . وإلا فلا . وإذا كانت الدنيا على خسارة قدرها عند الله . لا تسلم لك إلا ببينة تقيمها فمن الأحرى ألا تسلم لك مراتب الموقنين إلا أن يثبتها لك برهان ، أو تسلمها لك حقيقة .

الفائدة السادسة : كان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه يقول : لو كان المسئول أبا بكر رضي الله عنه لم يطالبه الرسول ﷺ بإقامة البرهان على ما ادعى . لأن عظم

رتبة أبي بكر رضى الله عنه شاهدة له من غير إظهار برهان ، فأراد الرسول ﷺ أن يعرفنا الفرق بين رتب أصحابه . فمنهم من هو كحارثة ، لما ادعى حقيقة الإيمان طولب ببرهانها . ومنهم من هو كأبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، يثبت لهما الرسول ﷺ الرتب ، وإن لم يثبتاها لأنفسهما . ألا ترى الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ أن بقرة في بني إسرائيل ركبها رجل وأجهداها فقالت : سبحان الله ، لم أخلق لهذا ، وإنما خلقت للحرث . فقال الصحابة : سبحان الله أبقرة تتكلم ؟ فقال الرسول ﷺ : « آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر » .

وهما غائبان . فانظر هذه المرتبة ما أفخمها . وهذه المنزلة ما أعظمها ! وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول : معنى قول الرسول ﷺ « آمنت أنا وأبو بكر وعمر » . أى من غير عجب ، وأنتم آمنتم متعجبين ! لأجل ذلك قالوا : سبحان الله . أبقرة تتكلم ؟ وكان أبو العباس يقول : إن الملائكة لما بشرت زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد قالت : (أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ؟ !)

فقالت لها الملائكة : (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟) أى أمر الله لا يتعجب منه ، فلم يسمها الحق صديقة . ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سماها الله صديقة . فقال سبحانه : (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) .

الفائدة السابعة : استدلال الصحابي على حقيقة إيمانه بزهده في الدنيا ، وكذلك هو الإيمان إذا تحقق من قام به أورثه الزهد في الدنيا ، لأن الإيمان بالله يوجب لك التصديق ببلقائه ، وعلمك بأن كل آت قريب يوجب لك شهود قرب ذلك ، فيورثك ذلك الزهد في الدنيا ، ولأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك فتأنف همتك من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها ، مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد في الدنيا مثبت لها ، فإنه شهد لها بالوجود إذا أثبتها مزهوداً فيها . وإذا

شهد لها بالوجود فقد عظمها . وهو معنى قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه : والله لقد عظمها إذا زهدت فيها . ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه فناء الفاني عما فنى عنه . فإثبات أنك فان عن الشيء إثبات لذلك الشيء . فما لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك .

ولنا في هذا المعنى أبيات كتبها لبعض الأصحاب يسمى حسنا :

حسن بأن تدع الوجود بأسره	حسن فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمت لتعلمن بأنه	لا ترك إلا للذى هو حاصل
ومتى شهدت سواه فاعلم أنه	من وهمك الأدنى وقلبك ذاهل
وحديث كان وليس شيء غيره	يقضى به الآن اللبيب العاقل
ولقد أشرت إلى الصريح من الهوى	دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شيء غيره	يقضى به الآن اللبيب العاقل
لاغير إلا نسبة مشبوة	ليذم ذو ترك ويحمد فاعل

الفائدة الثامنة : قول الصحابي رضى الله عنه : عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها ، والعزوف هو ترك الشيء بالتقزز له والإعراض عنه ، إذ لو قال تركت الدنيا لم يلزم من الترك عدم التطلع . فرب تارك للشيء وهو له متطلع ، فالعزوف إعراض مع كراهة وتحقير . ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا فهذا شأنه فيها . وقد قال الرسول ﷺ : « الدنيا جيفة قذرة » وقال ﷺ للضحاك : « ما طعامك ؟ » قال : اللحم واللبن . قال : « ثم يعود إلى ماذا ؟ » قال : إلى ما قد علمت يا رسول الله . قال : « فإن الله قد جعل ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنيا » .

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشدها جيفة قذرة فحرى أن يصرف همته

عنها . فإن قلت : فقد قال رسول الله ﷺ : الدنيا حلوة خضرة . فاعلم أن الدنيا جيفة قذرة في مرأى البصائر . وحلوة خضرة في مرأى الأبصار .
 فإن قلت : فما فائدة الإخبار بأنها حلوة خضرة ؟ فاعلم أن قوله ﷺ : الدنيا جيفة قذرة للتقدير . وقوله : الدنيا حلوة خضرة ، للتحذير . أى فلا تغرنك بحلاوتها وخضرتها . فإن حلاوتها في التحقيق مرارة ، وخضرتها يابس . ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله قال :

« هم الذين نظروا باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها » :

الفائدة التاسعة : وقوف الصحابي رضي الله عنه ؛ على مستحق رتبته بقوله :
 وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون . ولم يقل نظرت . وقد تقدم ذلك من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء ، والأولياء يطالعون مثلها .

الفائدة العاشرة : قوله فمن أجل ذلك أسهرت ليلي ، وأظلمات نهاري ،
 فحارثة عبد وصل بكرامة الله إلى طاعة الله . ألا تراه كيف قال في الأول : عزفت نفسي عن الدنيا . ثم قال بعد ذلك : فمن أجل ذلك أسهرت ليلي ، وأظلمات نهاري . فسبق عزوف نفسه عن الدنيا ، معاملته لربه .

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه يقول : الناس على قسمين :

قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله .

وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله .

قال الله سبحانه : (الله يجتبي إليه من يشاء . ويهدي إليه من ينيب) .
 ونور الله يرد إلى القلب ، فيوجب له الاتصاف بصفة الزهد في الدنيا ، والإعراض عنها . ثم ينبث منه إلى الجوارح . فما وصل منه إلى العين أوجب الاعتبار . وإلى الأذن أوجب حسن الاستماع ، وإلى اللسان أورث الذكر ، وإلى الأركان أورث الخدمة .

والدليل على أن النور يوجب عزوف الهمة عن الدنيا ، والنأى عنها . قول الرسول ﷺ : « إن النور إذا دخل الصدر انشرح وانفسح » ف قيل : يا رسول الله ، فهل لذلك من علامة ؟ قال : « التجافى عن دار الغرور ، والإنبابة إلى دار الخلود » .

أما المثال الثانى : فهو بمثابة حديث حنظلة رضى الله عنه ، فقد روى مسلم فى صحيحه ، قال : لقي حنظلة أبا بكر رضى الله عنه فقال : نافق حنظلة . فقال أبو بكر رضى الله عنه : وما شأن حنظلة ؟ قال : نكون عند رسول الله ﷺ فيذكرنا الجنة والنار حتى كأننا رأى عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيرا ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة ، ثم أتيا رسول الله ﷺ فقال حنظلة : يا رسول الله نافق حنظلة . فقال رسول الله ﷺ : « وما شأن حنظلة ؟ » فقال : نكون عندك فتذكرنا الجنة والنار حتى كأننا رأى عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيرا فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده يا حنظلة ، لو تدومون على ماتكونون عليه عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم ولكن ساعة وساعة » ففى هذا الحديث ثمانى فوائد :

الفائدة الأولى : قول حنظلة نافق حنظلة ، النفاق مأخوذ من اليربوع ، وهو أن يجعل لبيته بابين متى طولب من أحدهما خرج من الآخر . كذلك المنافق يظهر بظاهر الإيمان ، وله مسرب من الكفر باطن . إذا عاتبه أهل الكفر على ما أظهر من الإيمان . فتح مسربا من باطن كفره ليسلم من عتابهم ، وإذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق فعوتب عليها ، تصون من ذلك بظاهر الإيمان الذى أظهره ، ولذلك أخبر الله عنهم بقوله . (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون) .

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله ﷺ على حالة ، فإذا خرج وحاول أسباب الدنيا تغير حاله ، فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله ﷺ ، خاف أن يكون ذلك نفاقاً لاختلاف حالته . فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ وحمله الإيمان على أن يظهر ذلك ليتطلب الشفاء منه ، ويشكو داءه لمن يجد الشفاء عنده . فلما شكّا ذلك لأبي بكر رضي الله عنه قال له أبو بكر : إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة . ولم يحبه أبو بكر رضي الله عنه لأن رسول الله ﷺ كان بين أظهرهم ، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة ولو أن حنظلة أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأجابه .

الفائدة الثانية : يستفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على إظهار ما به حصل له الشفاء . إما بأن يقال : إن ما ظننته داء ليس بداء . وإما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء . فحنظلة قيل له : إن ما ظننته داء ليس بداء .

الفائدة الثالثة : قول حنظلة لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كانا رأى عين ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها . فلذلك قال حنظلة : حتى كانا رأى عين . ولم يقل : حتى نراها رأى عين . كما قال حارثة : وكأني أنظر إلى أهل الجنة ، ولم يقل نظرت إلى أهل الجنة . وقد تقدم هذا من قبل .

الفائدة الرابعة : ينبغي أن يقلل الدخول في أسباب الدنيا ما أمكن . فهذا الصحابي يقول : فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيراً . وقد قال رسول الله ﷺ : « إن قليلاً من الدنيا ، يلهي عن كثير من الآخرة » : وقال ﷺ : « ما طلعت شمس إلا بجانبها ملكان يناديان : يا أيها الناس . هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى ! »

الفائدة الخامسة : قوله ﷺ : « لو تدومون على ما تكونون عليه عندي . وفي الذكر لصافحتكم الملائكة ، في طرقكم وعلى فرشكم » . فيه إشارة إلى أن الدوام

على تلك الحالة عزيز ، وأن عدم دوام العبد على تلك الحالة لا يوجب معتبة ، لما طبع عليه البشر من الغفلة ، فكان الدوام على تلك الحالة من المتعذر .

الفائدة السادسة : كان الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول : لم يقل رسول الله ﷺ أن ذلك محال أن يكون . أعنى مارتب على تقدير الدوام ، وهو يقول . « لصافحتكم الملائكة ، في طرقكم ، وعلى فرشكم » . فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك .

الفائدة السابعة : إنما خص الرسول ﷺ الفرش والطريق ، لأن الفرش محل الشهوات ، والطريق محل الغفلات ، فإذا صافحتهم الملائكة في طرقهم وفرشهم . فمن الأحرى أن تصافحهم في محل طاعتهم . ومواطن أذكارهم .

الفائدة الثامنة : اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ألا يستوى وقت كينونتهم عنده . ووقت ذكرهم بما سواهما . حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرتهم ﷺ وعزارة الذكر ، وجلالة منصبهما . ا . هـ .

هذان المثالان من نوع الشرح الصوفى الذى يشرح الموضوع . ويبين الغاية والهدف .

* * *

ولأبى العباس درر كثيرة ، وإلهامات جليلة- فى كثير من آيات القرآن ، وأحاديث رسول الله ﷺ .

ولقد كنا نتمنى أن نجد من ذلك الكثير حتى يمكن أن ننسق منه باقة متكاملة . ولكن المراجع التى حوت آثار أبى العباس لم تعطنا ما نتمناه .

ونذكر فيما يلى ما استطعنا الوصول إليه . كأمثلة جزئية هى لمحات من النور الإلهى يفيضه الله سبحانه على من حققوا له العبودية فأناار أفئدتهم بنوره .

والآن نذكر - بتوفيق الله - ما أمكن جمعه من هنا وهناك ، مرتباً بحسب ترتيب سور القرآن الكريم :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

قال الله سبحانه : (الحمد لله رب العالمين) .

قال الشيخ رضى الله عنه : علم الله عجز خلقه عن حمده . فحمد نفسه بنفسه في أزله . فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمده بحمده . فقال : الحمد لله رب العالمين . أى قولوا الحمد لله رب العالمين . أى أن الحمد لله الذى حمد به نفسه بنفسه . هو له لا ينبغى أن يكون لغيره . فعلى هذا تكون الألف واللام للعهد . يقول ابن عطاء الله : وسمعه يقول فى قوله عز وجل :

(إياك نعبد وإياك نستعين) .

إياك نعبد شريعة . وإياك نستعين . حقيقة .

إياك نعبد . إسلام .

وإياك نستعين . إحسان . إياك نعبد . عبادة . وإياك نستعين . عبودية .

إياك نعبد . فرق . وإياك نستعين . جمع ^(١٠) .

(١٠) وقد كتب ابن عطاء الله السكندرى عن ذلك ما يلى : واعلم رحمك الله بإقباله عليك بوجهه . وجعلك من الراعين لعهد أن الله سبحانه طلب من العباد أن يعبدوه . واقتضى منهم أن يسجلوا ذلك على أنفسهم نطقاً كما قاموا به علماً واقتضى منهم أن يفردوه . واقتضى منهم تنظيم العبادة فى جميع جوارحهم الظاهرة . وحقائق وجوداتهم الباطنة . واقتضى منهم الرجعى إليه من دعوى القيومية فى العبادة بصدق التبرى من الحول والقوة .

فلما قام العبد لله بالعبادة عملاً ، اقتضى الحق أن يعترف به نطقاً : ليكون ذلك معاهدة بينه وبين الحق عز=

ثم قال سبحانه وتعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) .

فقال الشيخ رضى الله عنه : بالتثبيت فيما هو حاصل . والإرشاد لما ليس بحاصل . وهذا الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره ^(١١) .. وبسطه الشيخ رضى الله عنه . فقال : عموم المؤمنين يقولون : (اهدنا الصراط المستقيم) . أى بالتثبيت فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل فإنهم حصل لهم التوحيد ، وفاتهم درجات الصالحين .

والصالحون يقولون : (اهدنا الصراط المستقيم) معناه : نسألك التثبيت فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم الصلاح ، وفاتهم درجات الشهداء .

والشهداء يقولون : (اهدنا الصراط المستقيم) : أى التثبيت فيما هو حاصل ، والإرشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصديقية .

والصديقون يقولون : (اهدنا الصراط المستقيم) ، أى بالتثبيت فيما هو

=وجل ، حتى إذا انفلتت نفسه عن القيام بالعبادة ، وثقلت عليها ملازمة التكليف ، قلعت الحجة على العبد بما أعطى الله سبحانه من الاعتراف بالعبادة له ، ولأنه لا يعبد غيره لقوله : إياك نعبد ، واقتضى من العباد أن تستوعب العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وعوالمهم ، بإتيانه بالصياغة هكذا : نعبد ، وإعراضه عن التعبير بالهمزة المفردة بالمتكلم ، لأن النون إنما تكون للواحد المعظم نفسه ، أو العظيم في نفسه ، وليس هذا موضع هذين المعنيين ، إذ العبد لا يتدنى بين يدي الله بوصف عظمته : فلم يبق إلا أن يكون للواحد ، ومعه غيره ، وذلك ما أشرنا إليه من الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة ، وأما أنه اقتضى منهم الرجعى إليه من دعوى القيومية في العبادة ، لأنه لما قال : إياك نعبد ، فأضاف العبادة إليهم واقتضى منهم أن يعترفوا بذلك قياماً بدائرة الفرق التي عليها يترتب التكليف ، أردف ذلك بقوله : وإياك نستعين كيلا يدعى العباد معه أنهم قاموا بالعبادة بأنفسهم فأراد منهم أن يوفوا الحقيقة حقها ، والشرعة حقها ، فلذلك جمع بين الأمرين : القيام بالعبادة لربوبيته ، والتبرى من الحول والقوة مع الهيبة .

٢ (١١) المحرر الوجيز ، وقد بدأ طبعه في المغرب ، وظهرت منه الأجزاء الأولى .

حاصل ، والإرشاد لما ليس بمحاصل ، فإنهم حصل لهم درجات الصديقية . وفاتهم درجات القطبية .

والقطب يقول : (اهدنا الصراط المستقيم) ، أى بالتثبيت فما هو حاصل . والإرشاد لما ليس بمحاصل فإنه قد حصل على رتبة القطبانية ، وفاته علم إذا شاء الله أن يطلع عليه أطلعه .

٢ - قال الله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) . كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح ، فإنما جاء لمن أقام الصلاة . إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها . قال الله سبحانه :

(الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة)

(رب اجعلني مقيم الصلاة) .

(أقم الصلاة)

(وأقام الصلاة)

(وأقاموا الصلاة)

(والمقيم الصلاة)

ولما ذكر المصلين بالغفلة قال :

(فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون) ، ولم يقل فويل للمقیمی الصلاة .

والإقامة هو أنه إذا صلى المؤمن صلاة فتقبلت منه خلق الله من صلاته صورة في ملكوته ، راحة ساجدة إلى يوم القيامة ؛ وثواب ذلك لصاحب الصلاة .

٣ - قال الله تعالى : (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) .

بقرة كل إنسان نفسه . والله أمرك بذبحها .

٤ - قال الله تعالى : (مانسوخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) أى

مانذهب من ولى لله إلا ونأت بخير منه أو مثله .

٥ - يقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته . ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) . فقال له القائل : من أين للعبد أن يتقى الله حق تقاته ؟ ومن أين له ألا يموت إلا وهو مسلم ؟

فقال الشيخ رضى الله عنه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

فكانوا قد خوطبوا أولاً أن يتقوا الله حق تقاته . وهو أن يطاع فلا يعصى . ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، ثم خفف عنهم بقوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

قال الشيخ رضى الله عنه ويمكن الجمع بين الآيتين :

(فاتقوا الله ما استطعتم) أى فى جانب الأعمال .

وقوله تعالى : (اتقوا الله حق تقاته) أى فى جانب التوحيد .

وقوله تعالى : (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى لا تتعاطوا من الأعمال إلا أعمالاً إذا متم عليها متم مسلمين .

٦ - (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

قيل إنما وقع لتفصيل فى العبادة أدباً من الله لنا ، فأضاف المحاسن إليه وأضاف المساوى إلينا ، وإن كان فعل العبد كله خلق الله تعالى حسنة وسيئة كما قال : (.... فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) .

فأضاف ذلك إلى الله . وقال فى السفينة : (فأردت أن أعيبها) ولم يقل :

فأراد ربك أن يعيبها أدباً فى التعبير ، وكما قال إبراهيم عليه السلام : (وإذا مرضت فهو يشفين) . فأضاف المرض لنفسه ، والشفاء لله تعالى .

ومنهم من قال إن ذلك داخل فى مضمون القول . وإن هذا التفصيل حكاه الله

عنهم . والتقدير : (فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) في قولهم :
(ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) . ورد عليهم
بقوله تعالى : (قل كل من عند الله) .

٧ - قال الله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) .

قال : سمي خليلاً لأنه خالل سره بحبة الله تعالى . قال الشاعر :
قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلاً
فإذا نطقت كنت كلامي وإذا صمت كنت العليلاً

٨ - قال الله تعالى : (سماعون للكذب أكالون للسحت) .

نزلت في اليهود ، ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للسماع بهواه آكلاً مما
حرمه مولاه ، فهي نزعة يهودية لأن القوال يذكر العشق وما هو بعاشق ، والمحبة
وما هو محب ، والوجد وما هو متواجد ، فالقوال يذكر الكذب والمستمع سماع له .
ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قول الله
تعالى : (سماعون للكذب أكالون للسحت) .

٩ - قال الله تعالى : (إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت
العزیز الحكيم) .

قال رضى الله عنه وقد سأله سائل : لم قال عيسى عليه السلام : (إن تعذبهم
فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) ولم يقل الغفور الرحيم ؟
قال الشيخ رضى الله عنه : إنما عدل عن قوله : إنك أنت الغفور الرحيم إلى
قوله : (فإنك أنت العزيز الحكيم) لأنه لو قال وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور
الرحيم ، لكانت شفاعته من عيسى عليه السلام لهم في المغفرة . ولا شفاعته في
كافر ، ولأنه عبده من دون الله ، فاستحى من الشفاعته عنده وقد عبده معه .

١٠ - قال الله تعالى حاكياً عن الشيطان : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) .
 قال رضى الله عنه : لم يقل من فوقهم ولا من تحتهم . لأن فوق التوحيد ، وتحت الإسلام . والشيطان لا يمكنه أن يأتى المؤمن من توحيد ولا من إسلام .
 أما قوله : (ولا تجد أكثرهم شاكرين) .
 فإنه لو علم الشيطان أن ثمَّ طريقاً توصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف عليها .
 ألا ترى قوله : (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ولم يقل صابرين ، ولا خائفين ولا راجين .

١١ - للناس أسباب . وسببنا الإيمان والتقوى . قال الله تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

١٢ - يقول الله تعالى : (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) .
 الحق الذى خلق الله به كل شىء كلمة « كن » .
 قال الله سبحانه وتعالى : (ويوم يقولُ كن فيكون قوله الحق) .
 ١٣ - قال الله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) . أى من طاعتهم وأعمالهم ، ومثل ذلك : (ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

١٤ - يقول الله تعالى : (ولقد هَمَّتْ به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه) .
 همت به هم إرادة ، وهم بها هم ميل لا هم إرادة .

١٥ - قال الله سبحانه وتعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً) ، ولم يقل بنبيه ولا برسوله ، وهو نبيه ورسوله . وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع ، فأعلمنا بأن الإسراء من بساط العبودية . فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية ، فكان له كمال الإسراء . أسرى بروحه وجسمه ، وظاهره

وباطنه : فالأولياء لهم قسط من العبودية ، فلهم قسط من الإسرائ يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم .

١٦ - قال الله تعالى : (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) .
الفتوة : الإيمان والهداية .

١٧ - قال الله تعالى : (وماتلك يمينك ياموسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال ألقها ياموسى فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) .

يقال للولى : وماتلك يمينك أيها الولى ؟
قال : هى دنيائى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى . وغنمه أعضاؤه ولى فيها مآرب أخرى . فيقال له : ألقها فناء عنها .

فألقاها . فيكشف له عن حقيقتها ، فإذا هى حية تسعى . ثم يقال له : خذها ولا تخف . فلا يضره أخذها لأنه أخذها بإذن الله فى أخذها كما أطاعه فى إلقائها .

١٨ - قال الله تعالى : (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) .
سمى إبراهيم فتى ، لأنه كسر الأصنام . فمن كسر الأصنام فهو الفتى الخليل عليه السلام . وجد أصناماً حقيقية فكسرها . وأنت لك أصنام معنوية فإن كسرتها كنت فتى . ولك أصنام خمسة : النفس . والهوى . والشيطان . والشهوة . والدنيا . فإن كسرتها فأنت الفتى .

١٩ - قال الله تعالى : (يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل) .
يولج المعصية فى الطاعة . ويولج الطاعة فى المعصية ، يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها . ويستصغر من لم يفعلها . ويطلب من الله العوض عليها . فهذه حسنة أحاطت بها سيئات . ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويعتذر منه ،

ويستصغر نفسه ويعظم من لم يفعله . فهذه سيئة أحاطت بها حسنات . فأيهما الطاعة ؟ وأيها المعصية ؟ .

٢٠ - يقول الله تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن) . إنما قال للرحمن . ولم يقل للقهار ولا للعزیز ؟ لأن تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة مظهران في مظاهر القهر والسطوة . فلو قال للقهار أو العزيز لم يطق ذلك العباد ، وتفطرت قلوبهم . ففرق بهم أن قال : (الملك يومئذ الحق للرحمن) . وهكذا قوله : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) . ولم يقل إلى القهار ، ولا إلى العزيز ، لأن الحشر وهو المطلع شديد ، فلاطفهم برحمانيته في ظهور سلطان قهره .

٢١ - يقول الله تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) . « الولي لا يزال مضطراً » (١٢) . وقال رضى الله عنه : « عبر بعض الصحابة على

(١٢) ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب ، فإذا زالت زال اضطرارهم ، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم ، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله دائم ، لأن اضطرارهم تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن ، وكل ممكن مضطر إلى مد يده ومد يده به ، وكما أن الحق سبحانه هو الغنى أبداً . فالعبد مضطر إليه أبداً ، ولا يزال العبد هذا الاضطرار لا في الدنيا ولا في الآخرة . ولو دخل الجنة فهو محتاج إلى الله فيها ، غير أنه غمس اضطارره في المنة التي أفرغت عليه ملابسها ، وهذا هو حكم الحقائق ألا يختلف حكمها لا في الغيب ولا في الشهادة ولا في الدنيا ولا في الآخرة . فالعلم صفته الكشف أى علم كان . وفي أى وقت كان . والإرادة صفتها التخصيص أى إرادة كانت وفي أى وقت كانت . ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطارره .

وقد عاب الله قوماً اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار . فلما زالت زال اضطرارهم . قال الله سبحانه وتعالى : (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) . وقال سبحانه وتعالى : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره) . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون .

وقال تعالى : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لن أنجانا من هذه لنكونن من =

بعض اليهود فسمعهم يقرءون التوراة . فتخشعوا ، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ نزل عليهم جبريل عليه السلام فقال : اقرأ . قال : وما أقرأ ؟ قال : اقرأ (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) . فعوتبوا إذ تخشعوا من غيره . وهم إنما تخشعوا من التوراة وهى كلام الله ، فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهى والغناء ؟ !

٢٢ - يقول الله تعالى : (أن اشكر لى ولوالديك) .

إنما قرن شكرهما لأنها الأصل فى وجودك .

٢٣ - قال الله سبحانه وتعالى : (إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدوًا) .

فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان ، فشغلهم عن محبة الحبيب . وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لهم عدو . أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه . قيل لبعضهم كيف صنعك مع الشيطان ؟ قال : وما الشيطان ؟ نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله فكفانا من دونه .

٢٤ - قال الله سبحانه وتعالى : (الله ينجي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من

ينيب) . الناس على قسمين : قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله ، وهؤلاء قد

«الشاكسين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون» إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المعنى . ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم ، سلط عليهم الأسباب المثيرة للاضطراب ليعرفوا قهر ربوبيته ، وعظمة إلهيته وكبريائه .

ومن الدليل على فخامة رتبة الاضطراب ، أن الحق سبحانه ، أوقف الإجابة عليه فقال : (أمّن يحيب المضطر إذا دعاه) .

إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطى عبداً شيئاً وهبه الاضطراب إليه فيه ، فيطلب باضطراب فيعطى . وإذا أرد الله أن يمنع عبداً أمراً منعه الاضطراب إليه فيه . ثم منعه إياه وقامت حجة الله على العبد : لو اضطرت إلينا لأعطيناك ، فلا يخاف عليك أن تضطر وتطلب فلا تعطى . بل يخاف عليك أن تحرم الاضطراب ، فتحرم الطلب ، أو تطلب بغير اضطراب فتحرم العطاء .

اجتباهم . وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله وهؤلاء قد هداهم .
 (يهب لمن يشاء إناثاً) . قال رضى الله عنه : صليت خلف الشيخ صلاة
 الصبح . فقرأ بحم عسق حتى انتهى إلى قوله تعالى : (يهب لمن يشاء إناثاً) . فخطر
 لي أنها الحسنات .

(ويهب لمن يشاء الذكور) . فخطر لي أنها العلوم .

(أو يزوجهم ذكراً ، وإناثاً) علوماً وحسنات .

(ويجعل من يشاء عقيماً) . لا علم ولا حسنة .

فلما سلم الشيخ من الصلاة استدعاني وقال : لقد وجدت فهمك في الصلاة
 (يهب لمن يشاء) إناثاً : الحسنات . (ويهب لمن يشاء الذكور) : العلوم . (أو
 يزوجهم ذكراً وإناثاً) : علوماً وحسنات . (ويجعل من يشاء عقيماً) : لا علم
 ولا حسنة . فعجبت من اطلاع الشيخ على ذلك ! فقال : أتعجب من اطلاعي
 على فهمك في الصلاة !

قد فهم فلان كذا ، وفهم فلان كذا ، حتى عد أفهام الجماعة الذين خلقه .

٢٥ - يقول الله تعالى : (وبالأسحار هم يستغفرون) .

قال رضى الله عنه : من طاعتهم ، ومن أعمالهم التي قاموا لله تعالى بها في
 ليلهم . أن يشهدوها من أنفسهم .

ويقول ابن عطاء الله : ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه أن الله عز وجل
 وصفهم قبل ذلك بقوله : (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) .

ثم قال : (وبالأسحار هم يستغفرون) .

فلم يتقدم منهم في ليلهم ذنوب يكون استغفارهم منها . وقد جاء في الحديث
 الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من صلاته استغفر الله ثلاثاً . وقال الواسطي :
 العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الإعواض عليها .

٢٦ - يقول الله تعالى : (وإبراهيم الذي وفى) .

قال رضى الله عنه : (وفى) بمقتضى قوله : حسبي الله .

٢٧ - وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه وتعالى :

(إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند ملك مقتدر) .

إن المتقين فى جنات ونهر ، فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، فى الدنيا ، فى جنات العلوم ، وأنهار المعارف . وفى الآخرة فى الجنة التى وعدوا بها ، فى مقعد صدق فى هذا الدار ، وفى تلك الدار ، عند ملك مقتدر فى هذه الدار . وفى تلك الدار (١٣) .

يقول الله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله) . قال رضى الله عنه : فى هذه الآية مدح لسيد المرسلين ﷺ ، أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها ، وأنت يا محمد ثبت لنزوله بالقوة لربانية التى أودعنا فىك . وفيها ذم للكافرين . أى أن هذا القرآن لو نزل على جبل لخشع وتصدع ، وأنتم ماخشعتم ولا تصدعتم .

٢٨ - قال الله سبحانه وتعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) .

قال رضى الله عنه : قرأت مرة (والتين والزيتون) إلى أن انتهيت إلى قوله

(١٣) وبسط كلام الشيخ رضى الله عنه : هو أن نعم الجنة الكائن فيها ، يكون رفائقه معجلة للمتقين فى هذه الدار . فما كان لهم فى الجنة حساً ، يكون لهم فى هذه الدار معنى . ومثل هذه الآية قوله سبحانه وتعالى : (إن الأبرار لى نعم) أى فى هذه الدار ، وفى تلك الدار فى الدنيا ، فى نعم الشهود . وفى الآخرة فى نعم الرؤية . وكذلك قوله تعالى : (وإن الفعجار لى جحيم) أى فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، فى هذه الدار . فى جحيم القطيعة . وفى تلك الدار فى جحيم العقوبة . وقوله تعالى : (فى مقعد صدق) أى فى هذه الدار ، وفى تلك الدار فى مقعد صدق خصوصى (عند ملك مقتدر) فى هذه الدار . وفى تلك الدار ، فى هذه الدار لهم عندية الإمداد ، وفى تلك الدار لهم عندية الإشهاد .

تعالى : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين) .
 فكثرت في معنى هذه الآية ، فكشف لي عن اللوح المحفوظ فإذا مكتوب فيه :
 (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) .
 روحاً وعقلاً . ثم رددناه أسفل سافلين ، نفساً وهوى .

٢٩ - قال رضى الله عنه في قوله ﷺ :

« سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمسجد لا يخرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

فقال الشيخ رضى الله عنه : الإمام العادل هو القلب . ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه ، أى رجل قلبه معلق بالعرش ، فإن العرش مسجد قلوب المؤمنين ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، أى خالياً من النفس والهوى ، ورجل تصدق بصدقة ، أى أخفاها عن نفسه وهواه .

وكذلك قال في قوله عز وجل : (إذ نادى ربه نداء خفياً) .

أى من النفس والهوى . فاعلم أن هؤلاء السبعة جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم إياه أما الإمام العادل : فإنه عدل في عباد الله . فأوى المظلوم إلى ظل عدله ، فأواه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وأما الشاب الذى نشأ في عبادة الله ، فإنه آوى إلى الله معرضاً عن هواه ، آوياً إلى كنف مولاه ، فصنع الحق معه ذلك في الآخرة جزاء ، كما صنع هو ذلك مع الله في الدنيا معاملة .

وأما الرجلان اللذان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه . فإنهما تواصلا بروح الله ، وتآلفا بمحبة الله . وكان ذلك منهما انحياشًا إلى الله فأواهما الله بظله . يوم لا ظل إلا ظله .

وأما الرجل الذي دعت امرأة ذات حسن وجمال فقال : إني أخاف الله . فإنه صلى نار مخالفة الهوى مخافة من المولى . وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى . فلما خاف من الله هرب إليه ، ولما هرب إليه هاهنا معاملة آواه الله إليه في الآخرة مواصلة . فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله .

وأما الرجل الذي ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه فإنه لم تفض عيناه إلا من القرح التي أحرقت قلبه . إما حياء من الله أو شوقًا إليه ، أو خوفًا من ربوبيته . أولشهود التقصير معه . فلما فعل ذلك حيث لا يراه أحد إلا الله الواحد الأحد ، كان ذلك منه معاملة لله ، وانحياشًا إليه ، بالاعتذار إليه ، أو بالشوق إليه ، فأوى إلى الله فأظله الله ، يوم لا ظل إلا ظله .

وأما الرجل الذي تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . فإنه قد أثر الله على نفسه ببذل الدنيا إيثارًا لحب الله على ما تحبه نفسه . لأن شأن النفس حب الدنيا وعدم البذل لها ، فلا يبذلها إلا من أثر الله عليها . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « والصدقة برهان »

أى برهان يدل على أن العبد أثر مولاه على نفسه وهواه . فلما مال هذا العبد إلى الله بالمعاملة ، من الله عليه بأن أظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وتشترك الأقسام السبعة في معنى واحد ، فلذلك جوزوا جزاء واحدًا اشتركت في أن كلاً من هؤلاء السبعة : صلى حر مخالفة الهوى في الدنيا ، فلم يذقه الله حر الآخرة . وقد قال ﷺ حاكياً عن الله تعالى :

« لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أمنين . إن أمتته في الدنيا ، أخفته في الآخرة . وإن أخفته في الدنيا أمتته في الآخرة » .

٣٠ - وقال رضى الله عنه في قوله ﷺ : « يسروا ولا تعسروا » .
 أى دلوهم على الله . ولا تدلوا على غيره . فإن من دلك على الدنيا فقد غرك ، ومن دلك على الأعمال فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد نصحك .
 ٣١ - وقال في قوله ﷺ :

« رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » .
 فقال رضى الله عنه : الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها .
 فلذلك قال الرسول ﷺ : « رأيت الجنة » ولم يقل كأنى رأيت الجنة .

٣٢ - وكان يقول في معنى حديث : « من عرف نفسه عرف ربه » .
 معناه من عرف نفسه بذللها وعجزها ، عرف الله بعزته وقدرته . قلت : وهذا أسلم الأجوبة والله أعلم .

٣٣ - وقال في قوله ﷺ : « السلطان ظل الله في الأرض » .
 هذا إذا كان عادلاً . فأما إذا كان جائراً فهو ظل النفس والهوى .
 ٣٤ - وقال رضى الله عنه : « مات رجل من أهل الصفة ، فوجد في شملته ديناران ، فقال ﷺ : كيتان من نار » .

قال الشيخ وقد مات - على عهد رسول الله ﷺ - كثير من الصحابة وتركوا أموالاً . فما قال رسول الله ﷺ فيهم مثل ما قال في هذا ، لأنهم لم ييطنوا بخلاف ما أظهروا ، وهذا الذى كان من أهل الصفة . أظهر الفاقة ، وكان عنده هذان الديناران ، فلما أظهر خلاف ما أبطن ، قال الرسول ﷺ : « كيتان من نار » .
 ٣٥ - وقال : كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول : المؤمن في

الدنيا أسير . ولا فكاك للأسير إلا بإحدى ثلاث :
 إما بالحيلة - وإما بالقديّة - وإما بالعناية .
 وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله ﷺ :
 « الدنيا سجن المؤمن » . وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه في تفسير هذا
 الحديث ، شأن المسجون التحديق بعينه ، والإصغاء بأذنيه . متى يدعى فيجيب .

٧ - وحدة الوجود عند أبي العباس والصوفية على وجه العموم

هل كان أبو العباس يعتقد في وحدة الوجود ؟
 وما موقف شيخه منها ؟
 وما رأى تلميذه ابن عطاء الله فيها ؟
 إن موضوع وحدة الوجود من الموضوعات التي استخدمها أعداء التصوف في
 تأليب الجماهير المؤمنة . ونرجوا الله أن نوفق الآن إلى إلقاء بعض الأضواء على هذا
 الموضوع . أضواء نرسمها من جو المدرسة الشاذلية ، ومن جو الصوفية على وجه
 العموم ، ومن الجو القرآني .
 يقول أبو العباس : كان الإنسان بعد أن لم يكن ، وسيفنى بعد أن كان ، ومن
 كلا طرفيه عدم فهو عدم . هذه الكلمة يشرحها ابن عطاء الله مضمناً كلامه رأيه
 الشخصي ، ورأى أبي الحسن رضي الله عنهم ، وهي تصوير لرأى أبي العباس ،
 ويمكن على هذا الوضع أن نقول إنها رأى المدرسة الشاذلية في وحدة الوجود .
 يقول ابن عطاء الله : ومعنى كلام الشيخ هذا أن الكائنات لا تثبت لها رتبة
 الوجود المطلق ، لأن الوجود المطلق إنما هو الله ، وله الأحدية فيه . إنما للعوالم

الوجود من حيث ما أثبت لها .

واعلم أن من الوجود له من غيره فالعدم وصفه في نفسه ، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : الصوفي من يرى الخلق في طي سره كالهباء في الهواء لا موجودين ، ولا معدومين حسباً هم في علم رب العالمين .

وقال أيضاً رضي الله عنه وقد تقدم : وإنا لا نرى أحداً من الخلق هل في الوجود أحد سوى الملك الحق ؟ وإن كان ولا بد فالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئاً . وفي كتاب الحكم من كلامنا : العوالم ثابتة بإثباته ، ممحوة لأحادية ذاته .

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : كان لي صاحب كثيراً ما يأتيني بالتوحيد . فقلت له : إن أردت التي لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجوداً ،

والجمع في باطنك مشهوداً . وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال . والظل لا وجود له باعتبار جميع مراتب الوجود ،

ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم ، وإذا أثبت ظلية الآثار لم تنسخ أحادية المؤثر . إذ الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله . كذلك أيضاً من شاهد ظلية

الآثار لم تعقه عن الله . فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا يعوق السفن عن التسيار .

ومن هاهنا يبين لك أيضاً أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله ، ولو كان

بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ، ولا شيء أقرب إليك

من الله ، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب فما حجبك عن الله وجود

موجود معه . إذ لا موجود معه ، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه . وذلك

كرجل بات في مكان وأراد الخروج فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير

أسد ، فمنعه ذلك عن الخروج ، فلما أصبح لم يجد هناك أسداً وإنما هو الريح

انضغط في تلك الكوة . فما حجبه وجود أسد وإنما حجبه توهم الأسد .

ويقول ابن عطاء الله في مكان آخر من كتاب لطائف المنن : الحقيقة تقتضي أن

الزاهد في الدنيا مثبت لها . فإنه شهد لها بالوجود إذا أثبتها مزهودًا فيها ، وإذا شهدت لها بالوجود فقد عظمتها . وهو معنى قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه : والله لقد عظمتها إذا زهدت فيها . ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه فناء القاني عما فنى عنه . فإثبات أنك فان عن الشيء ، إثبات لذلك الشيء ، فما لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك . ولنا في هذا المعنى أبيات كتبها لبعض الأصحاب يسمى حسنًا .

حسن	بأن تدع الوجود بأسره	حسن	فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن	فهمت لتعلمن بأنه	لا ترك	إلا للذي هو حاصل
ومنى	شهدت سواه فاعلم أنه	من وهمك	الأدنى وقلبك ذاهل
حسب	الإله شهوده لوجوده	والله	يعلم مايقول القائل
ولقد	أشرت إلى الصريح من الهوى	دلت	عليه إن فهمت دلائل
وحديث	كان ولبس شيء غيره	يقضى	به الآن اللبيب العاقل
لاغير	إلا نسبة مثبتة	ليدم	ترك ويحمد فاعل

وإذا كان هذا هو رأى المدرسة الشاذلية ، فهل هو رأى الصوفية على وجه العموم ؟

هل يتفق رأى أبي العباس المرسى في هذا ، مع رأى الحلاج . وابن العربي رضي الله عنهم ؟

وما هو التوجيه الإسلامى في الصلة بين العبد وربّه في هذا المجال ؟
ونريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل - بصورة غير متوقعة - حدة المناقشة في هذا الموضوع . وذلك أننا بصدد « وحدة الوجود » ولسنا بصدد وحدة الوجود .
والموجود متعدد : سماء وأرضاً ، جبالا وبحاراً ، لونا ورائحة وطعماً متفاوت ثقلًا وخفة .. إلخ .

ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين - ومنهم ابن العربي والحلاج - بوحدة الوجود - وما كان للصوفية ، وهم الذروة من المؤمنين أن يقولوا - وحاشاهم - بوحدة الوجود . وقد تتساءل : من أين إذن أتت الفكرة الخاطئة التي يعتقدونها كثير من الناس ، من أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود ؟ وتفسير ذلك لاعتسافه : إن فريقاً من الفلاسفة في الأزمنة القديمة ، وفي الأزمنة الحديثة ، يقولون بوحدة الوجود . بمعنى أن الله - سبحانه وتعالى عن إفكهم - هو والمخلوقات شيء واحد . قال بذلك هيراقليطس في العهد اليوناني : والله عنده نهار وليل ، صيف وشتاء ، وفرة وقلة ، جامد وسائل - إنه على حد تعبيره - كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذي يفوح منها . تقدس سبحانه وتنزه عما يقول .

والله سبحانه وتعالى في رأى « شلى » في العصور الحديثة . هو هذه البسمة الجميلة على شفتى طفل جميل باسم . وهو هذه النسائم العلية التي تنعشنا ساعة الأصيل . وهو هذه الإشراقة المتألقة بالنجم الهادى في ظلمات الليل ، وهو هذه الوردة اليانعة تتفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة . إنه الجمال أينما وجد ، ولكنه أيضاً - سبحانه وتعالى - القبح أينما كان . وكما يكون طفلاً فيه نضرة ، وفيه وسامة يكون جثة ميت ، ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ، ويكون قبراً يضم بين جدرانها هذه الجثة ، وهذا الدود . أستغفرك ربى وأتوب إليك . ولوحدة الوجود - بمعنى وحدة الوجود - أنصار في كل زمان .

ولما قال الصوفية . . بالوجود الواحد . . شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الوجود وفرق كبير بينهما . ولكن الخصومة كثيراً ما ترضى عن التزييف وعن الكذب في سبيل الوصول إلى هدم الخصم . والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون .

وشىء آخر في غاية الأهمية ، كان له أثر كبير في الخطأ في فهم فكرة الصوفية

عن الوجود الواحد ، وهو أن الإمام الأشعري رضي الله عنه رأى في فلسفته الكلامية أن الوجود هو عين الوجود . ولم يوافقته الكثير من الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية . ولم يوافقته الكثير من مفكرى الإسلام وفلاسفته على رأيه . وهو رأى فلسفى يخطئ فيه أبو الحسن الأشعري أويصيب . وما مثله في آرائه الفلسفية إلا مثل غيره في هذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى .

ورأى مخالفوه أن الوجود غير الموجود وأنه ما به يكون وجود الموجود ، ولما قال الصوفية بالوجود الواحد . شرح خصومهم فكرتهم في ضوء رأى الأشعري ، دون أن يراعوا مذهبهم ولا رأيهم ففسروا قولهم بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد . وهذا التفسير على هذه الطريقة يسحب الثقة في آراء هؤلاء الخصوم . وأمر ثالث يجب ألا نعيره أدنى التفات لأنه أتفه - في منطق البحث - من أن نعيره التفاتاً ، وهو هذه الكلمات التي تناثرت هنا وهناك ، مخترعة ملفقة مزيفة ، ضالة في معناها ، تافهة في قيمتها الفلسفية غريبة على الجو الإسلامى تنادى بصورتها ومعناها أنها اخترعت تضليلاً وافتياتاً .

إنها هذه الكلمات التي يعزونها إلى الحلاج رضوان الله عليه . أو إلى غيره . . لا توجد في كتاب من كتبه ولم يخطها قلمه . . لقد اخترعوها اختراعاً ثم وضعوها أساساً تدور عليه أحكامهم بالكفر والإضلال ، ويكفى أن يتشبث بها إنسان فيكون في منطق البحث غير أهل للثقة .

الوجود الواحد :

وهل في الوجود الواحد من شك ؟

إنه وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، وهو الوجود الحق الذى أعطى ومنح الوجود لكل كائن ، وليس لكائن غيره سبحانه ، الوجود من نفسه . إنه سبحانه الخالق . وهو البارئ المصور . (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .

ومن بعض معاني التصوير قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وصلة الله بالإنسان إذن : هي أنه سبحانه يمنحه الوجود الذي يريده له في لحظة من اللحظات المتتابعة . فشكل حياته في كل لحظة بصورة أمدته سبحانه وتعالى بها . وصلة الله بكل كائن إنما هي على هذا النمط : إنه سبحانه مثلاً : (يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) إنه يمسكها وجوداً ، ويمسكها تدبيراً ، ويمسكها تماسكاً وتناسقاً . إنه يمسك فيها الكيف والكم . وإذا ماسحب إمداده عنها تلاشتا كماً وكيفاً . إن الله سبحانه وتعالى محيط بالكون ، مهيمن عليه قيوم السموات والأرض قائم على كل نفس بما كسبت ، وقائم على كل ذرة من كل خلية ، وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكبر ، بحيث لا يعزب عن هيئته وعن قيوميته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

هذه القيومية أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنها في استفاضة مستفيضة ليهزا الإنسان هزة عنيفة ، فلا يخلو إلى الأرض ، ولا يتبع هواه ، وإنما يرتفع ببصره ، ويستشرف بكيانه إلى الملأ الأعلى مستخلصاً نفسه من عبودية المادة ليوحد الله سبحانه وتعالى في عبودية خالصة ، وفي إخلاص لا يشوبه شرك من هوى أو شرك من سيطرة المادة أو الغرائز .

ونريد الآن أن نصور بعض مواقف القرآن في هذا الصدد :
إن الله سبحانه وتعالى يوجه نظرنا في سورة الواقعة إلى مسائل نحن عنها في العادة غافلون : (أفأريتم ما تمنون . أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) .

(أفرايتم ماتحراثون . أنتم تزرعون أم نحن الزارعون) !
 (أفرايتم النار التي تورون . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) .
 وعلى العكس من ذلك ، لو شاء الله لما خلق هذا الفرد . ولجعل الزرع
 حطامًا . ولما أنزل الماء من المزن ، ولما أنشأ شجرة النار ، إنه سبحانه بيده الأمر سلبيًا
 وإيجابًا ، وبيده أمر الخلق إيجابًا وإعدامًا .
 أرأيت إلى هذه الرمية التي ترميها ؟ إنك مارميت إذ رميت ولكن الله رمى ..
 أرأيت إلى الانتصار في الجهاد ؟
 إن هذا الانتصار من عند الله . أما القتلى : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) .
 ورزق الإنسان هذا وطعامه : (فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبًّا
 ثم شققنا الأرض شققًا ، فأنبتنا فيها حبًّا ، وعنبًا وقضبًا ، وزيتونًا ونخلًا ، وحدائق
 غلبًا ، وفاكهة وأبًا . متاعًا لكم ولأنعامكم) .
 هذه الهيمنة وهذه القيومية يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتًا ، إنهم يمرون بها مرور
 الحيوانات بما لا تدرك ولا تعقل . إن الله سبحانه وتعالى لا يحتل من شعورهم درجة
 أيًا كانت ، وهمهم كل همهم مصبحين ممسين ، إنما هو ملء البطن ، أو كثر الذهب
 والفضة ، أو النزاع على جاه ، أو العمل لتثبيت سلطان . إنهم يمرون بآيات الله
 فلا يشهدونها ، وتحيط بهم آثاره ، فلا ينظرون إليها ، وتغمرهم نعمائهم وآلاؤه . فلا
 يوجههم ذلك إلى الحمد ولا إلى الشكر . إن الله سبحانه وتعالى لا يحتل في قلوبهم
 ولا في تفكيرهم ولا في بيئتهم قليلًا ولا كثيرًا . والطرف الآخر المقابل لهذا هو هؤلاء
 الذين انغمسوا حقًا في محيط الإلهية . سبحوا في بحارها ، واستنشقوا نسائمها
 الندية ، وغمرهم لآلؤها وضياؤها ؛ لقد بدءوا بحمد الله وشكره على نعمائه
 وآلائه التي تحيط بهم من جميع أقطارهم ، فزادهم الله نعمًا وآلاء : (لن شكرتم
 لأزيدنكم) .

لقد اتقوا الله حتى تقاته فعلمهم الله .

لقد اكتفوا بالله هاديًا ونصيرًا فهداهم الله إلى صراطه المستقيم ، ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم . وأخذوا شيئًا فشيئًا يحاولون تحقيق التوحيد : قولا وعقيدة ، وتذوقًا وتحققًا ، وأخذوا يرون في « أشهد أن لا إله إلا الله » معاني لا يتطلع إليها غيرهم .

وبدأ معنى الشرك يتضح لهم في صورة لا تخطر على بال اللاهين الذين شغلهم أموالهم وأهلؤهم ، وبدءوا يحطمون الشرك . يحطمون أصنامهم وأوهامهم . من النفس والهوى والشيطان ، ومن الغرائز الحيوانية والغرائز الإنسانية ، وأنهار الشرك حتى من همسات الفؤاد ، لقد انهار الشرك الواضح ، وانهار الشرك الخفي . وثبت في أذواقهم ، واستقر في أحوالهم ومقاماتهم أن « لا إله إلا الله » وأنه : (أينما تولوا فثم وجه الله) .

وأينما كانوا فالله معهم ، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد . وهو أقرب إليهم من جلسائهم ومعاشريهم . إنه يغمر كيانتهم ، فلا يرون غيره سبحانه ، لا يرون غير قيام السموات والأرض ، ولا يرون غيره مصرفًا للسير من الأمور وللعظيم منها ، ولا يرون غيره مالكًا للملك : يؤتى الملك من يشاء ، ويتزرع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويدل من يشاء .

لقد أصبحوا ربانيين ، وأصبح الله في بصرهم وسمعهم وجوارحهم وفي قلوبهم من قبل ذلك ومن بعده . يشغله كله فلا يدع فيه مكانًا للأغيار .

وأخذ هؤلاء الصوفية يوجهون أفراد هذا القطيع من البشر اللاهية عن الله . السادر في ضلاله .. إلى الله تعالى . أخذوا في محاولة جامدة مستمرة - لانتزاع الإنسان من الإخلاق إلى المادة ليتطلع إلى السماء لقد حاولوا أن يوجهوا نظر الناس

إلى الله ، عن طريق آلائه التي تغمرهم وعن طريق صنعه ، وقد أحسن كل شيء خلقه سبحانه .

أخذوا يوجهون نظر الناس إلى الله تعالى . في الزهرة تفتح ، وفي الزرع يسقى متجهًا إلى السماء ، وفي الشمس تشرق ، وفي القمر يتألق ، وفي مواقع النجوم ومداراتها . وفي كل هذا الإبداع السارى في الكون أخذوا يشرحون معنى تلك الآيات الكريمة :

(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير !!) .

وكانت تعبيراتهم تعبيرات متذوقين ، وليست التعبيرات الجافة لعلماء الكلام أو الفلاسفة ، وهم فى تعبيراتهم يشرحون أن الله سبحانه وتعالى الممد الوجود لكل موجود . إنه يمد القائم بالقيام ، ويمد الماشى بالمشى ، والمتحرك بالحركة . إنه - على حد تعبير أهل السنة والأشاعرة الذى يقطع وليست السكين هى التى تقطع . وهو الذى يحرق وليست النار هى التى تحرق . وهو الذى حينما يريد ، يقول للنار : كوني بردًا وسلامًا ، فتكون بردًا وسلامًا .

ومهما عبر الصوفية فى هذا الميدان عن الوجود الواحد . فقالوا فى ذلك : وزعم الناس أنهم أسرفوا واشتطوا فإنهم لن يبلغوا المدى الذى بلغته تلك الآية الكريمة . التى تمثل فى روعة رائعة الهيمنة المهيمنة . والاستغراق القاهر . والجلال الشامل : والتى لا تعنى وحدة متحدة . ولا اتحادًا متطابقًا بين الخالق والمخلوق . أو العابد والمعبود . والآية هى : (هو الأول والآخر . والظاهر والباطن) .

وهذه الآيات القرآنية التى ذكرناها . هدفها أن تدفعنا دفعًا إلى الشعور بقيومية

الله سبحانه وتعالى مهيمنة . وهيمنته مهيمنة . وإلى الشعور بتوجيهه سبحانه وتعالى للإنسان أن يفر إلى الله في كل أمر من أموره . وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن : لا إله إلا الله . وما فعل الصوفية أكثر من ذلك . إنهم ... دون يهدى القرآن والسنة يريدون للإنسان أن يكون ربانيًا . فإذا ما استمر الكثير من الناس يخلدون إلى الأرض . وينظرون دائمًا إلى أسفل . فليس ذلك ذنب الصوفية فقد أدوا واجبهم نحو التوجيه إلى الله . خير أداء .

أما إذا لم يكتف بعض الأفراد بالإخلاق إلى الأرض . وبالنظر إلى أسفل . وأخذوا يهاجمون من يدعوهم للتطلع إلى السماء ويوجههم إلى الله تعالى . فهؤلاء إنما يحاربون الله ورسوله . وجزاؤهم معروف .

وقد نتساءل : فم إذن حُوكم الخلاج وقضى عليه بالقتل ؟ !

إن أمر هذه القضية قضية الخلاج معروف سرها . وما كان سرها خافيًا في يوم من الأيام . لقد كان الخلاج قوة جارفة . كان مركزًا للجاذبية لا يضارع . يلتف حوله الناس أينما حل . ويسيرون معه أينما ارتحل . وكان - ككل صوفي - يحب آل البيت لأنه كان يحب الرسول ﷺ . وكان آل البيت إذ ذاك يطمحون في أن تكون الدولة لهم . وما كان بنو العباس يطمحون إلى شخصية كشخصية الخلاج المحبة لآل البيت . نسل رسول الله ﷺ . ومادام الخلاج دعاية قوية تسير في كل مكان . وتتجه إلى كل بلد . فيجب حفاظًا على أمن الدولة . وتحصينًا لاستقرارها . أن ينكل بالخلّاج ..

وما كان مقتل الخلاج دينيًا قط . كلا . وإنما كان سياسيًا بحثًا . ومن السهل على الملوك المستبدين أن يزيفوا القضايا . أو يأتوا بشهود الزور . وأن يعدوا القضية بالمال والترقية . وأن ينفذوا أهواءهم .

فكان ما كان من قضية ومن قتل . والدين من كل ذلك براء . والألفاظ التي

ينسبونها للحلاج ليست في كتاب من كتبه الموجودة لا تسند خصومه ولا تريد لهم .
هذا ما كان من أمر الحلاج . وبقيت كلمة :
إن المنطق الصحيح ألا يفتي المهندس في أبحاث الأطباء . وألا يحكم الأديب
باعتباره أديباً في أعمال المهندسين ..

ومن العدالة - على هذا الوضع - ألا يحكم على هذه القمم الشامخة :
ابن عربي ، الحلاج ، ابن الفارض .. من لم يبلغ مداهم أويقاربه .
لقد قيل مرة لأحد شيوخنا الصالحين الأجلاء : إن فلاناً ينتقد ابن عربي في
المجلات . فقال رضوان الله عليه . وهل من حق الخنافس أن تحكم على أعمال
الأسد . إن الخنافس لا تحكم على أعمال السباع . وليس من حقها أن تتحدث فيما
تفعله السباع . ومنطقها دائماً منطق الخنافس .

أما الإمام الياقعي رضوان الله عليه فإنه يقول عن خصوم سيدنا محيي الدين :
« إن حكمهم حكم ناموسة على جبل تريد إزالته من مكانه ، وتذهب الريح بأهم من
الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، بها تثبت الأرض ، وبها يحفظ ميزان
الدنيا » اهـ .

والرأي الذي لا يتأتى غيره من المنصف ، الرأي الحق ، هو ما قاله الإمام
الشعراني عن الصوفية عامة . وعن سيدنا محيي الدين خاصة : « ولعمري إن عباد
الأوثان لم يجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله . بل قالوا : ما نعبدكم إلا ليقربونا
إلى الله زلفى . فكيف يظن بأولياء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه وتعالى . هذا
محال في حقهم رضوان الله عليهم » اهـ .

فلا بد أن يبلغ الإنسان المستوى ويقارب المستوى . وحينئذ سيقول كما قال
أسلافنا الذين بلغوا المستوى أو قاربوه . رضى الله عن سيدنا محيي الدين . ورضى
الله عن الحلاج ، وعن ابن الفارض . ونفعنا بهم ويكتبهم .

٨ - شخصيات - إلهامات - عادات

قال رضى الله عنه : الأنبياء إلى أمهم عطية ، ونبينا ﷺ هدية . و فرق بين العطية والهدية . لأن العطية للمحتاجين ، والهدية للمحبوبين . قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » .

وقال رضى الله عنه فى قول رسول الله ﷺ وسلم : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » . أى لا أفتخر بالسيادة ، وإنما أفتخر بالعبودية لله سبحانه .
وقال فى قول أبى يزيد رضى الله عنه : « خضت بحراً وقف الأنبياء بساحته » معناه : أن أباً يزيد رضى الله عنه يشكو ضعفه وعجزه عن اللحق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاضوا بحر التوحيد ، ووقفوا على الجانب الآخر على ساحل الفروق ، يدعون الخلق إلى الخوض . أى فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا .

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه : وهذا الذى فسر به الشيخ كلام أبى يزيد رضى الله عنه . وهو اللائق بمقام أبى يزيد . وقد كان يقول : جميع ما أخذ الأولياء بالنسبة لما أخذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كزق ملئ عسلاً ثم رشحت منه رشاحة ، فما فى باطن الزق للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتلك الرشاحة للأولياء رضى الله عنهم . والمشهور عن أبى يزيد رضى الله عنه التعظيم لمراسم الشريعة ، والقيام بكمال الأدب ، فألحق تأويل أحوال الأكابر من أهل الاستقامة دون المبادرة إلى الإنكار .

وقال فى حكاية الحارث بن أسد من أنه كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبة تحرك عليه أصبعه . هذا وقد قدّم لأبى بكر الصديق رضى الله عنه لبن فأكل منه ثم

وجد كدورته في قلبه ، فقال من أين لكم هذا اللبن ؟ فقال غلام له : كنت تكهنت لقوم في الجاهلية ، فأعطوني ثمن كهانتى فتقايأه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فلم يكن للصديق عرق يتحرك عليه إذا أكل طعاماً فيه شبة . مع كونه أفضل من الحارث بالإجماع .

الجواب : أن أبا بكر رضى الله عنه كان خليفة مشرعاً للعباد . حتى يقتدى به من أكل طعاماً فيه شبة ولم يعلم فيتكلف طرحه بعد أكله فيثيبه الله على ذلك . والحارث رضى الله عنه . ولم يكن إذ ذاك مشرعاً ولا قدوة . إنما يعمل بقصد نفع نفسه فقط . ومعلوم أن القدوة مَنْ من شأنه التتزل في المقام للتعليم . ولقد كان الشيخ رضى الله عنه معنياً بأبي بكر الصديق رضوان الله عليه . يقول : كنت أخرج كل يوم من باب البحر إلى نحو المنار . فخرجت يوماً إلى المنار ، فنمت عند الجانب الشرقى . وكان قد خطر في نفسى : ما سبب قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ مع كثرة ملازمته له . فإذا قائل يقول لى : أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه . وإنما قلت روايته عنه لتحقيقه به .

وتكلم يوماً في فضائل أبى بكر رضى الله عنه فقال : قال رسول الله ﷺ : « ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ، ولكن بشيء وقر في صدره » ثم قال : ما هو هذا الشيء الذى وقر في صدره ؟ فقال بعض الحاضرين : المراقبة . فقال الشيخ : هذا كلام هو قشور . من هو دون الصديق في الرتبة ؟ إذا وجد المراقبة يستغفر الله منها كما يستغفر العاصى من المعصية وذلك أنه إذا أضاف المراقبة لنفسه كأنه يقول : أنت الرقيب ، وأنا الرقيب . أإله مع الله . تعالى الله عما يشركون .

يقول ابن عطاء الله السكندرى : وسمعتة يقول : قال رسول الله ﷺ :

يا أبا بكر أتعلم يوم القيامة ؟ قال : نعم يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير . ولقد سمعتك حينئذ وأنت تقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وسمعتك يقول : قال رسول الله ﷺ : (يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر ؟ قال : وما هو يا رسول الله ؟

قال : هو ذاك .

وكان يقول : أبو بكر وعمر خلفاء الرسالة ، وعثمان وعلي خلفاء النبوة . وكان يقول : طريقتنا هذه لا تنسب للمشاركة ولا للمغاربة ، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو أول الأقطاب . وكان يقول : دخل رجل علي عثمان رضى الله عنه ، وقد كان نظر إلى محاسن امرأة في الطريق .

فقال : يدخل أحدكم وآثار الزنى بادية في وجهه .

وكان يقول : قد يطلع الله الولي على غيبه إذا ارتضاه بحكم التبع للرسول عليهم الصلاة والسلام . ومن هنا نطقوا بالمغيبات وأصابوا الحق فيها .

وكان رضى الله عنه يقول : كان الجنيد رضى الله عنه قطباً في العلم ، وكان سهل التستري قطباً في المقام . وكان أبو يزيد رضى الله عنه قطباً في الحال .

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه : قرأت على الشيخ أبي العباس كتاب « الرعاية » للمحاسبي . فقال : جميع ما في هذا الكتاب يغني عنه كلمتان : اعبد

الله بشرط العلم . ولا ترض عن نفسك أبداً . ثم لم يأذن لي في قراءته بعد .

وكان رضى الله عنه يقول : إنما بدأ القشيري في رسالته بالفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم لأنهما كانا قد تقدم لهما زمن قطيعة ، فلما أقبل الله عليهما .

فبدأ بذكرهما بسطاً لرجاء المريدين الذين كانت تقدمت منهم الزلات والمخالفات ، وليعلم أن فضل الله ليس بمعلل بعمل ، ولو أنه بدأ بالجنيد ، وسهل بن عبد الله ،

وعتبه الغلام وأمثالهم ممن نشأ في طريق الله . لربما قال قائل : من يدرك هؤلاء ؟
إن هؤلاء لم يسبق لهم زلات ولا مخالفات .

وقال رضى الله عنه : قال الجنيد : أدركت سبعين عارفاً كلهم يعبدون الله على
ظن ووهم ، حتى أخى أبى يزيد ، لو أدرك صبيّاً من صبياننا لأسلم على يديه . فقال
الشيخ : معنى قوله يعبدون الله على ظن ووهم ، لا يريد بذلك ظناً في المعرفة ،
ووهماً فيها ، وكيف تجتمع المعرفة والظن والوهم . وإنما المراد أنهم وصلوا إلى
مقامات توهموا أن ليس وراءها للموقنين مقام .

فقال الجنيد : لو أدرك صبيّاً من صبياننا لأسلم على يديه . أى يبين له أن فوق
ذلك المقام مقاماً ، وفوق ذلك مقام إلى ما لا آخر له . ومعنى لأسلم على يديه . أى
لانتقاد له . فالإسلام هو الانقياد .

وقال رضى الله عنه : قال بشر الحافى رضى الله عنه . منذ أربعين سنة أشتى
الشواء ، فما صفا لى ثمنه . فقال الشيخ رضى الله عنه : من ظن أن هذا الشيخ
مكث أربعين سنة ما وجد درهما حلالاً يشتري به شواء فقد أخطأ ، من أين له في
الأربعين سنة ، ما يأكل ، وما يلبس ؟

وإنما المعنى في ذلك : أن هؤلاء قوم أصحاب مراتب ، لا يأكلون
ولا يشربون ، ولا يدخلون في شيء ، ولا يخرجون من شيء . إلا بإذن من الله
وإشارة . فلو أذن له في أكل الشواء لصفا له ثمنه .

وبهذه المناسبة : يتحدث الشيخ عن أنواع القوت والرزق وأوصافها . فيقول
رضى الله عنه : قوت القوم على أربعة أوجه : مباح - وحلال - وطيب -
وصاف .

فالمباح : ما كان مستوى الطرفين . ما على أخذه عقاب . ولا في تركه ثواب .
والحلال : هو ما لم يخطر لك ببال ، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال .

والطيب : هو ما أخذه العبد بوصف الفناء . إذ لا وصف له مع مولاه .
والصافي : هو ما عاينه العبد من المنبع ، يعنى من عين قدرة الله سبحانه
وتعالى .

وقال رضى الله عنه : قال سهل بن عبد الله : لا تكونوا من أبناء الدهور .
ولا من أبناء العد والإحصاء . وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم سعيد .
ثم قال رضى الله عنه : يقول أحدهم صليت كذا وكذا ركعة ، وصمت كذا
وكذا شهرا ، ختمت كذا وكذا ختمة ، حججت كذا وكذا حجة . فهؤلاء من
أبناء العد والإحصاء ، فهم إلى عد سيئاتهم أحوج منهم إلى عد حسناتهم .
وأما أبناء الدهور فيقول أحدهم : لى فى طريق الله سبعون سنة ، لى فى طريق
الله ستون سنة . وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم سعيد ، يعنى لاحظوا ما سبق فى علم
الله . ولا تتكلموا على ما لكم من العلم والعمل . ولكن ارجعوا إلى وجود الأزل .
وقال رضى الله عنه : يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى :
« ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك . وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما
هو لك عمن أنت له » .

وقال رضى الله عنه : « الأكوان كلها عبيد مسخرة . وأنت عبد الحضرة » .
وسمعه يقول : حقيقة النية عدم غير المنوى .
وكان يقول : من صحب المشايخ على الصدق وهو عالم بالظاهر ازداد علمه
ظهوراً .

وكان يقول : إنما يلزم الإنسان تعيين المشايخ الذين استند إليهم إذا كان طريقه
لبس الخرقه ، لأنها رواية . والرواية يتعين رجال سندها . وطريقنا هذه هداية .
وقد يجذب الله تعالى العبد إليه . فلا يجعل عليه منة لأستاذ . وقد يجمع شمله
برسول الله ﷺ فيكون آخذاً عنه . وكفى بهذه منة .

وكان يقول عن شيخه : كل شيء نهانا الله عنه ، فهو في معنى شجرة آدم عليه السلام . وكان يقول : للأولياء الإشراف^(١٤) على مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وما لهم الإحاطة بمقاماتهم ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يحيطون بمقامات الأولياء . وكان يقول عن شيخه : اصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري . فإن وجدتم منيلا أعذب من هذا المنهل فردوا .

وكان رضى الله عنه يقول : قد يكون الولي مشحوناً بالعلوم والمعارف ، والحقائق لديه مشهورة حتى أعطى العبارة كالإذن من الله تعالى في الكلام . ويجب أن تفهم أن من أذن له في التعبير ، جلت في مسامع الخلق إشاراته . وكان يقول : كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار .

وكان رضى الله عنه يقول : والله ما جلست بالناس حتى هددت بالسلب . وقيل لى : لئن لم تجلس لسلبناك ما وهبناك .

وكان يقول رضى الله عنه : لى أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله ﷺ . ولو حجبت طرفة عين ما أعددت نفسى من جملة المسلمين . وكذلك كان يقول فى حق الجنة ، وفى الوقوف بعرفة كل سنة .

وكان رضى الله عنه يقول : إذا قرأت القرآن فكأنما أقرؤه على الله عز وجل . وكان إذا سمع أحدا ينطق باسم الله تعالى أو اسم النبي ﷺ . يقرب منه حتى يلتقط ذلك الاسم إجلالا أن يبرز فى الهواء .

وكان يقول : ما سمعتموه منى ففهمتموه ، فاستودعوه الله ، يردده عليكم وقت الحاجة . وما لم تفهموه فكلوه إلى الله ، يتولى الله بيانه ، واسعوا فى جلاء مرآة قلوبكم بتضح لكم كل شيء .

(١٤) بمعنى الاستشراف والتطلع .

وكان إذا مدح بقصيدة يحز المادح بإقباله عليه ، ويعطيه العطايا .
 وكان يقول لأصحابه : إذا جاءنا رئيس قوم فأخبروني به ، أخرج إليه ، فإذا
 فارقه مشى معه خطوات ثم رجع . ويقول إن هؤلاء كلفوا أنفسهم إلى زيارتنا ،
 ونحن لم نزرهم . وكان لا يأكل من طعام عني له ، ولا من طعام أعلم به قبل أن
 يأتيه . وكان لا يدعو حتى يخرج من مجلسه ، فيدعوه بظهر الغيب ، وكانت صلاته
 موجزة في تمام ، ويقول : هي صلاة الأبدال .

وكان إذا سمع أحداً يقول : هذه ليلة القدر . يقول : نحن بحمد الله أوقاتنا كلها
 ليلة القدر (١٥) .

وكان يكرم الناس على نحو رتبته عند الله ، حتى أنه ربما يدخل عليه المطيع
 فلا يلتفت إليه ، لكونه يرى عبادته . ويدخل عليه العاصي فيقوم له ، لأنه دخل
 بذلة وانكسار .

ومدحوا عنده شخصاً بالعلم ، وكان كثير الوسوسة في الوضوء والصلاة . فقال
 الشيخ : أين علمكم الذي تمدحون به هذا الرجل ؟

العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض ، والسواد في الأسود .
 وقال لرجل من الحجاج : كيف كان حجكم ؟

فقال : كان كثير الرخاء ، كثير الماء ، سعر كذا وكذا ، فأعرض عنه الشيخ .
 فقال أسألكم عن حجهم وما وجدوا فيه من الله تعالى من العلم والفوز والفتح ،
 فيجيئون برخاء الأسعار وكثرة المياه .

وكان لا يثنى على مريد بين إخوانه خشية الحسد .
 وكان يقول : إذا ضاق الولي هلك من يؤذيه في الوقت ، وإذا اتسعت معرفته

(١٥) الذي قال هو ابن عطاء الله السكندري .

احتمل أذى الثقلين ، ولم يحصل لأحد منهم ضرر بسببه . وكان يقول : لحوم الأولياء مسمومة ، ولو لم يؤاخذوك ، فإياك ثم إياك .

وكان يقول : نحن في الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا ، وسنكون في الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا . قلت : وفي هذا رد لمن قال : يكون الناس في الجنة بأرواحهم لا بأجسامهم . وعليه جماعة من أهل الكشف الناقص . وسبب غلطهم شهودهم أهل الجنة يتحولون في أى صورة شاءوا . وهذا شأن الأرواح لا الأجسام . وغاب عنهم أن الأجسام هنا منظوية على الأرواح لا معدومة ، كما أن الأرواح في هذه منظوية في الأجسام .

وكان سيدى أبو العباس - رضى الله عنه - يقول : معرفة الولى أصعب من معرفة الله عز وجل ، فإن الله تعالى معروف بكماله وجهاله ، وحتى متى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب .

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول :

الطىّ على قسمين : طىّ أصغر و طىّ أكبر .

فالطىّ الأصغر : لعامة هذه الطائفة ، أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد .

والطىّ الأكبر : طىّ أوصاف النفوس (١٦) .

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول : قال ملك من الملوك لبعض العارفين تمن علىّ . فقال له ذلك العارف : ألى تقول ولى عبدان قد ملكتهما وملكاك ، وقهرتهما وقهراك ، وهما الشهوة والحرص ، فأنت عبد عبدى ، فكيف أتمنى على عبد عبدى ؟ (١٧)

(١٦) السامع هو ابن عطاء الله السكندرى .

(١٧) السامع هو ابن عطاء الله السكندرى .

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول : إن الله عبادةً محمواً أفعالهم بأفعاله ، وأوصافهم بأوصافه ، وذواتهم بذاته ، وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه (١٨) .

وكان يقول : لما خلق الله تعالى الأرض ، اضطربت فأرسلها بالجبال . وكذلك النفس ، لما خلقها الله تعالى ، اضطربت فأرسلها بجبال العقل .

وكان يقول : الأكوان كلها عبيد مسخرة ، وأنت عبد لحضرته .
وكان يقول لأصحابه : إذا وصلتكم إلى مكة فليكن همكم رب البيت لا البيت . ولا تكونوا ممن يعبد الأصنام والأوثان .

وكان يقول : من عرف الله لم يسكن إليه ، لأن في السكون إلى الله ضرباً من الأمن ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .
وكان رضى الله عنه يقول : السماء عندنا كالسقف . والأرض كالبيت ، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت .

وكان يقول : الكائنات على أربعة أقسام : جسم كثيف ، وهو بمجرد ملك . وجسم لطيف ، وهو بمجرد جان . وروح شفاف ، وهو بمجرد ملك . وسر غريب ، وهو المعنى المسجود له ، فالآدمى صورته بظاهاها جامد ، وبوجود نفسه وتخليها وتشكلها جان ، وبوجود روحه ملك . وبإعطائه السر الغريب استحق أن يكون خليفة .

وكان يقول : ليس العجب ممن تاه في نصف ميل أربعين سنة ، إنما العجب ممن تاه في مقدار شبر الستين ، والسبعين ، والثمانين سنة ، وهو : البطن .
وكان يقول : لن يصل الولي إلى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى

(١٨) السامع هو ابن عطاء الله السكندرى .

الله تعالى : أى انقطاع أدب ، لا انقطاع ملل ، لغلبة التفويض على قلبه .
 وكان يقول : الولي في حالة فنائه لا بد أن تبقى معه لطيفة علمية عليها تترتب
 التكاليف ، وذلك كما يكون الإنسان في البيت المظلم ، فهو عالم بوجوده . وإن كان
 غير مشاهد .

وكان يقول : علامة حب الدنيا خوف المذمة ، وحب الثناء ، فلو زهد لما
 خاف ، ولا أحب .

وكان رضى الله عنه يقول : الورع من ورعه الله .
 وكان يقول : من لم يصلح للدنيا لا للآخرة ، يصلح لله .
 وكان يقول : من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم .
 وسمعه^(١٩) يقول : لو عذب الله الخلائق أجمع لم ينلك من عذابهم شيء ،
 ولو نعمهم أجمع ، لم ينلك من نعمهم شيء ، وكأنك في الوجود وحدك ثم
 أنشد :

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصخ إلى يلح لك البرهان
 وكان من مذهبه رضى الله عنه : أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفاً حسناً ،
 بل قد يكون من غير هذا القبيل^(٢٠) .

(١٩) السامع هو ابن عطاء الله السكندري .

(٢٠) لطائف المنن .

٩ - الأحزاب والأوراد

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم^(٢١)
 (الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك
 نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم
 ولا الضالين) آمين .

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات
 وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم
 وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات
 والأرض ولا يئوده حفظها وهو العلى العظيم) .

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه
 ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك
 المصير . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا
 لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من
 قبلنا ، ربنا ولا تُحِمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاغْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ، أَنْتَ
 مَوْلَانَا ، فَانصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

(٢١) مصدر هذا الحزب : كتاب لطائف المنن ، تأليف الإمام تاج الدين بن عطاء الله . وقد بدأ الحديث
 بقوله : وهانحن نثبت حزب سيدنا ومولانا الشيخ الإمام قطب العارفين ، وعلم المهتدين ، شهاب الدين
 أبى العباس أحمد بن عمر المرسى رضى الله عنه ، وإن كان بعضه من كلام شيخه الشيخ أبى الحسن الشاذلى
 رضى الله عنهما .

ويقول أيضاً : فأما حزب الشيخ أبى العباس رضى الله عنه فهو هذا وهو ورد شيخه بعد العشاء الآخرة .

(أَلَمْ يَأْتِ الْبَشَرُ إِلَّا بِالْحَقِّ الْمَصْدُوقِ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ ، هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ) .
 (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكْبِرْ ، وَثِيَابُكَ فَطْهَرْ ، وَالرَّجَزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .
 (الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ، وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ) . (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) .

سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ .
 (سُبْحَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَحْيَى وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ . يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ، يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ . وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يَسْبَحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

(قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر التفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد) .

(قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس) .

اللهم يا من هو كذلك ، وعلى ما وصفه به عباد الله المخلصون من النبيين والصدّيقين ، والشهداء والصالحين ، والعلماء الموقنين ، والأولياء المقربين . ومن أهل سماواته وأرضه ، وسائر الخلق أجمعين ، أسألك بها وبآيات والأسماء كلها ، وبالعظيم منها ، وبالأُم (٢٢) ، والسيدة (٢٣) . وبخواتم سورة البقرة . وبالمبادئ والخواتيم . وبآمين على الموافقة . وبجاء الرحمة . وميم الملك ، ودال الدوام . (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سباهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل ، كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا) .

أحون قاف آدم حم هاء آمين .

كهيعص : اغفر لي وارحمني برحمتك التي رحمت بها أنبياءك ورسلك « ولا تجعلني بدعائك رب شقيًا » .

وإني خفت ، وأنخاف أن أخاف ثم لا أهتدي إليك سبيلاً ، فاهدني إليك ، وأمنّي بك من كل خوف ومخوف ، في الدنيا والآخرة ، إنك على كل شيء قدير اللهم يا بديع السموات والأرض ، يا قيوم الدارين ، يا قيوم بكل شيء ،

(٢٢) هي الفاتحة .

(٢٣) سيد آي القرآن : آية الكرسي .

يا حي يا قيوم ، يا إلهنا لا إله لنا إلا أنت . كن لنا ولياً ونصيراً وأميناً ، وآمناً بك من كل شيء ، حتى لا نخاف إلا أنت ، واجعلنا في جوارك ، واحجبنا بالذي حجبت به أولياءك ، فترى ولا يراك أحد من خلقك ، واصيب علينا من الخير أكمله وأجمله ، واصرف عنا من الشر أصغره وأكبره . طس . حم . عسق . مرج .
البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان .

اللهم إنا نسألك الخوف منك ، والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا عنك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك . ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك ، لا إله إلا أنت سبحانك ، ربنا ظلمنا أنفسنا وقد تبنا إليك قولاً وعقداً ، فتب علينا جوداً وعطفاً ، واستعملنا بعمل ترضاه ، وأصلح لنا في ذرياتنا ؛ إنا تبنا إليك ، وإنا من المسلمين . يا غفور ، يا ودود ، يا بر ، يا رحيم ، اغفر لنا ذنوبنا ، وقربنا بودك ، وصلنا بتوحيديك ، وارحمنا بطاعتك ، ولا تعاقبنا بالفترة ، ولا بالوقفة مع كل شيء دونك ، واحملنا على سبيل القصد ، واعصمنا من جائرها ، إنك على كل شيء قدير .

اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه . اجمع بيننا وبين الصديق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة والنور واليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم في القرآن ، وخصنا منك بالمحبة والاصطفائية والتخصيص والتولية ، وكن لنا سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وعقلاً ويداً ومؤيداً وآتنا العلم الدني ، والعمل الصالح ، والرزق الهني ، الذي لا حجاب به في الدنيا ، ولا حساب ولا سؤال ولا عقاب عليه في الآخرة على بساط علم التوحيد والشرع سالمين من الهوى والشهوة والطبع ، وأدخلنا مدخل صدق ، وأخرجنا مخرج صدق ، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً .

يا الله ، يا على ، يا عظيم ، يا حلیم ، يا علیم ، يا سمیع ، يا بصیر ، يا مرید ،

يا قدير ، يا حي ، يا قيوم ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا من هو هو هو يا هو ، أسألك بعظمتك التي ملأت أركان عرشك ؛ وبقدرتك التي قدرت بها على خلقك وبرحمتك التي وسعت كل شيء ، وبعلمك المحيط بكل شيء ، وبإرادتك التي لا ينازعها شيء ، وبسمعك وبصرك القريبين من كل شيء ، يا من هو أقرب إلى من كل شيء ، قد قل حيائي وعظم افترائي ، وبعد منائي ، واقترب شقائي ، وأنت البصير بمحنتي وحيرتي وشهوتي وسوءتي ، تعلم ضلالي وعميتي وفاقتي ، وما قبح من صفاتي ؛ آمنت بك وبأسمائك وصفاتك ، وبمحمد رسولك ؛ فمن ذا الذي يرحمني غيرك ، ومن الذي يسعدني سواك ؛ فارحمني وأرني سبيل الرشداً ، واهدني إليه سبيلاً ، وأرني سبيل الغنى وجنبي إياه ، واصحبني منك النور والحق والحكم والفصل والبيان ، واحرسني بنورك يا الله يا نور ، يا حق ، يا مبين ، افتح لي قلبي بنورك ، وعلمني من علمك ، وفهمني عنك ، وأسمعني منك ، وبصرني بك ؛ إنك على كل شيء قدير .

اللهم إني أصبحت وأنا أريد الخير وأكره الشر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؛ فاهدني بنورك لنورك ، فيما يرد على منك ، وفيما يصدر مني إليك ، وفيما يجري بيني وبين خلقك ، وضيق على بقربك ، واحجبني بحجب عزتك وعن حجبتك ، وكن أنت حجابي حتى لا يقع شيء مني إلا عليك ، وسخر لي أمر هذا الرزق ، واعصمني من الحرص والتعب في طلبه ، ومن شغل القلب وتعلق الهم به ، ومن الذل للخلق بسببه ، ومن التفكير والتدبر في تحصيله ، ومن الشح والبخل بعد حصوله ، وما يعرض في النفس من ذلك وتخلقه بقدرتك على وفق إرادتك وعلمك ، ومن ضرورات الحاجات إلى خلقك ؛ فاجعله اللهم سبباً لإقامة العبودية ، ومشاهدة لأحكام الربوبية ، وهب لي خفية من خفياتك ، ونوراً من أنوارك ، وذكرًا من أذكارك ،

وسراً من أسرارك . وطاعة من طاعات أنبيائك ، وصحبة لملائكتك ، وتول أمري بذاتك ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك ، واجعلني حسنة من حسناتك ، ورحمة بين عبادك . تهدي بها من تشاء إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور .

اللهم اهدي لنورك . واعطني من فضلك ، وامنعني من كل عدو حولك ، ومن كل شيء يشغلني عنك ؛ وهب لي لساناً لا يفتر عن ذكرك ، وقلباً يسمع بالحق منك . وروحاً يكرم بالنظر إليك ، وسراً ممتعاً بحقائق قربك ، وعقلاً جائلاً بجلال عظمتك . وزين ما ظهر وما بطن من أنواع طاعتك ؛ يا سميع يا عليم ، يا عزيز يا حكيم .

اللهم كما خلقتني فاهدني . وكما أمتني فاحيني . وكما أطعمتهم فاطعمني واسقني ، ومرضى لا ينقي عليك فاشفني ، وقد أحاطت بي خطيئاتي فاغفر لي ، وهب لي علماً يوافق علمك ، وحكماً يصادف حكمك ، واجعل لي لسان صدق بين عبادك ، واجعلني من ورثة جنتك ، ونجني من النار بعفوك ، وأدخلني الجنة حالا ومآلاً برحمتك ، وأرني وجه سيدنا محمد نبيك ، وارفع الحجاب فيما بيني وبينك ، واجعل مقامي عندك دائماً بين يديك وناظراً منك إليك ، واسقط البين عني حتى لا يكون شيء بيني وبينك ، واكشف لي عن حقيقة الأمر كشفاً لا طلب بعده لعبدك ؛ مع المزيد المضمون بكرم وعدك ؛ إنك على كل شيء قدير .
يا الله ، يا عظيم ، يا سميع ، يا عليم ، يا بر ، يا رحيم ؛ عبدك قد أحاطت به خطيئاته ؛ وأنت العظيم ، وندائي كأنه لم يسمع وأنت السميع ؛ وقد عجزت عن سياسة نفسي ، وأنت العليم . وأني لي برحمتها وأنت البر الرحيم ؟ كيف يكون ذنبي عظيماً مع عظمتك ؟ أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك ؟ أم كيف أسوس نفسي بالبر ، وضعفي لا يعزب عنك ؟ أم كيف أرحمها بشيء ، ونخزائن

الرحمة بين يديك ؟ إلهي عظمتك ملأت قلوب أوليائك . فصغر لديهم كل شيء .
فاملاً قلبي بعظمتك حتى لا يصغر ولا يعظم لديه شيء ، واسمع ندائي بخصائص
اللطيف . فإنك السميع من كل شيء .

اللهم ستر عني مكاني منك حتى عصيتك وأنا في قبضتك واجترحت
ما اجترحت فكيف لي بالاعتذار إليك . إلهي جذبك لي أطمعني فيك ، وحجائي
عنك آيسني من غيرك . فاقطع حجائي حتى أصل إليك ، واجذبني جذبة لا أرجع
بعدها لغيرك .

إلهي كم من حسنة ممن لا تحب لا أجر لها ؛ وكم من سيئة ممن تحب لا وزر لها .
فاجعل سيئاتي سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتي حسنات من أبغضت . فإن
كوم الكرم من السيئات أتم منه مع الحسنات . فأشهدني كرمك على بساط
رحمتك ، ورضني بقضائك ، وصبرني على طاعتك فيما أجريت على من أمرك
ونهيك ، وأوزعني شكر نعمتك ، وغطني برداء عافيتك حتى لا أشرك بك مع
المزيد المضمون بكرم وعدك . إنك على كل شيء قدير .

إلهي معصيتك نادتنى بالطاعة . وطاعتك نادتنى بالمعصية ؛ ففي أيهما أخافك ،
وفي أيهما أرجوك . إن قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك ، فلم تدع لي خوفاً . وإن قلت
بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لي رجاء . فليت شعري كيف أرى إحسانى مع
إحسانك . أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك قاف جيم ، سران من شرك .
وكلاهما دالان على غيرك . فبالسر الجامع الدال عليك لا تدعني لغيرك . إنك على
كل شيء قدير .

يا الله ، يا غفار ، يا منعم ، يا هادي ، يا ناصر ، يا عزيز ، هب لي من نور
أسمائك ما أتحقق به حقائق ذاتك ، وافتح لي واغفر لي ، وأنعم علي واهدني ،
وانصرني وأعزني ، يا معز لا تدلني بتدبير مالك ، ولا تشغلني عنك بما لك ، فالكل

كلك ، والأمر أمرك ، والسر سرّك . عدى وجودى ، ووجودى عدى . فالحق
 حَقّك ، والجعل جعلك ، ولا إله غيرك . وأنت الله الحق المبين .
 يا عالم السر وأخفى ، يا ذا الكرم والوفاء . علمك قد أحاط بعبدك وقد شقّ في
 طلبك . فكيف لا يشقّ من طلب غيرك . تلطفت بى حتى علمت أن طلبى لك
 جهل ، وطلبى لغيرك كفر . فأجرتنى من الجهل ، واعصمنى من الكفر . يا قريب
 أنت القريب وأنا البعيد ، قربك أياسنى من غيرك ، وبعدى عنك ردنى للطلب
 لك . فكن لى بفضلك حتى تمحو طلبى بطلبك . يا قوى يا عزيز . إنك على كل
 شىء قدير .

اللهم لا تعذبنا بإرادتنا وحب شهواتنا ، فنشغل أو نحجب أو نفرح بوجود
 مرادنا . أو نحزن أو نسخط أو نسلم تسليم النفاق عند الفقد . وأنت أعلم بقلوبنا ،
 فارحمنا بالنعم الأكبر ، والمزيد الأفضل ، والفوز الأكمل . وغيبنا وغيب عنا كل
 شىء . واشهدنا إياك بالإشهاد وانصرنا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .
 يا الله ، يا قدير ، يا مرید ، يا عزيز ، يا حكيم ، يا حميد ، إنا نسألك
 بالقدرة العظمى ، وبالمشيئة العليا ، وبالآيات والأسماء كلها ، وبهذا العظيم منها أن
 تسخر لنا هذا البحر ، وكل بحر هو لك فى الأرض والسماء والملك والملكوت ، كما
 سخرت البحر لموسى ، وسخرت النار لإبراهيم ، وسخرت الجبال والحديد لداود ،
 وسخرت الريح والشياطين لسليمان ، وسخرت لنا كل شىء يا من بيده ملكوت كل
 شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، يا عليم ، يا عظيم ، يا حلیم يا عليم ، أحون قاف
 آدم حَمَّ هاء آمين اهـ .

ومن دعائه وذكره :

١ - لا إله إلا الله الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، محمد رسول الله ، السيد الكامل ، الفاتح الخاتم .

٢ - ومن ذكره أيضاً : يا الله يا نور يا حق يا مبین ، احی قلبي بنورك ، وأقنی بشهودك وعرفني الطريق إليك .

٣ - ومن ذكره أيضاً : رب اغفر لي ، واجعلني لك عبداً ذائب النفس بأنوارك ، مطموس الحس بجلالك ، واغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات .

٤ - ومن دعائه : اللهم اغفر لي ، واسترني ولا تفضحني في الدنيا والآخرة ، وعلمني وفهمني ، وارحمني وفرحني وبرني وفرغني من كل شيء إلا من ذكرك وطاعتك وطاعة رسولك ، ومحابك ومحاب رسولك ﷺ .

٥ - ومن دعائه عقب كلامه : اللهم كن بنا رءوفاً ، وعلينا عطوفاً ، وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك ، اللهم قومنا إذا اعوججنا ، وأعنا إذا استقمنا ، وخذ بأيدينا إذا عثرنا ، وكن لنا حيثما كنا .

٦ - ومن دعائه رضي الله عنه : اللهم ارزقني من كثر لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كثر من كنوز الجنة ، واضربي بها ضرباً تمحق بها من قلبي كل قوة ، واغني بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والخلق ، وأخرجني به عن ذل الفقر والتدبير والاختيار ، وعن الغفلة والشهوة ومشية النفس والقهر والاضطراب . إنك على كل شيء قدير .

٧ - ومن دعائه رضي الله عنه : باسم المهيمن العزيز القادر أجل كل شيء . وهو ناصري قحان ص انصرني فإنك خير الناصرين . وافتح لي فإنك خير الفاتحين . وارزقني فإنك خير الرازقين . واهدني ونجني من القوم الظالمين .

٨ - ومن دعائه رضى الله عنه : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه . اجمع بينى وبين طاعتك على بساط مساعدتك . وفرق بينى وبين هم الدنيا وهم الآخرة . ونب عز في أمرهما . واجعل همى أنت واملاً قلبى بمحبتك وبهجة بأنوارك . وخشع قلبى بسلطان عظمتك . ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين . ولا أقل من ذلك .

١٠ - مسجده وضريحه

أقام أبو العباس المرسى فى الإسكندرية ثلاثاً وأربعين سنة ، ينشر العلم ، ويهذب النفوس ، ويضرب المثل بورعه وتقواه . إلى أن انتقل إلى جوار ربه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ ودفن فى الإسكندرية فى مقبرة باب البحر . إلى أن كان سنة ٧٠٦ هـ حين رأى الشيخ زين الدين بن القطان كبير تجار الإسكندرية رؤيا . فبنى عليه مسجداً . وقد خضع هذا المسجد لتطورات كثيرة حيث أعاد بناءه الأمير قجاش الإسحاقى الظاهرى وإلى الإسكندرية فى أواخر القرن التاسع الهجرى . وبنى لنفسه قبراً فيه . وفى سنة ١٠٠٥ هـ جدد بناءه الشيخ أبو العباس السنقى . ودفن فيه بعد وفاته . وفى سنة ١١٨٩ هـ زار الإسكندرية الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله المعزى وجدد معظم أجزاء المسجد ووسع بعض نواحيه . وفى سنة ١٢٨٠ هـ جددته أحمد الدخاخنى شيخ طائفة البنائين . وأوقف عليه أوقافاً كثيرة .

وفى سنة ١٩٢٧ م أعدت وزارة الأوقاف مشروعاً لإعادة بناء المسجد ، وإنشاء ميدان فسيح أمامه . ووضعت الأسس للبناء الجديد فى أوائل سنة ١٩٢٩ م . وتم المسجد فى سنة ١٩٤٤ م . فأصبح أجمل مساجد المدينة .

ولقد كان مسجد أبى العباس المرسى مركز تجمع للمظاهرات الشعبية التى قام بها السكندريون خلال ثورة سنة ١٩١٩ م . إذ كانت تخرج منه مختقة أحياء المدينة .

كما اتخذ منه رجال الدين ملتقى يجتمعون عنده ، ويثبون من على منبره الدعوة إلى الكفاح والتضحية في سبيل الحرية والعدالة .

ويقول أحد المؤرخين القدامى : وحدثني قاضي القضاة بالإسكندرية قال : قبر سيدى أبى العباس عندنا تريقا مجرب . ما قصد الله عنده أحد في شيء إلا استجاب له . كما قال أهل بغداد في قبر سيدنا معروف الكرخي رضى الله عنه . وكان قبره في جبانة عليها حائط قصير ، ارتفاعه قدر ثلاثة أذرع وفي قبلة الجبانة محراب للصلاة . وعلى قبره سارية مكتوب فيها :

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) .
إلى قوله : (واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) .

وفيها تاريخ وفاته كما تقدم .

قال : فبنى عليه زين الدين المذكور ، لما رأى هذه الكرامة ورد الله عليه ما ذهب عنه ، بناءً عظيماً ، ومسجداً للصلاة ، وصومعة للأذان من أحسن صوامع الإسكندرية ؛ وحبس عليها حبساً كبيراً للمؤذن والإمام والمقيم . وصار رمزاً عظيماً ومقاماً كريماً .

نفعنا الله ببركاته في الدنيا والآخرة . إنه سميع مجيب . والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبيه الأمين . وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

الفصل الثالث

العارف بالله

الشيخ عبد الواحد يحيى

١ - كيف عرفت عبد الواحد يحيى

إني لأذكر ذلك اليوم المشمس الجميل من شهر يونيو سنة ١٩٤٠ ، فقد صحت من نومي مبكراً ، أتأهب لخوض غمار معركة علمية هي : مناقشة رسالة الدكتوراه في جامعة السربون . سرت في طريق ميمماً شطر الجامعة . وكنت أينما التفت لا أجد إلا وجوهاً يجلها الوجوم ، ونفوساً يعروها الذعر ويطاردها الخوف فقد كان الألمان يحثون الخطى إلى قلب باريس ، ويدكون ، في عنف ، كل ما يعترضهم من قلاع وحصون ؛ ولكنني كنت مشغولاً عن هذا كله بما يتردد في نفسي ويجول بذهني من اعتراضات ستلقى ونقد سيوجه . ووصلت إلى فناء السربون ، فإذا بي أجد صديقي بول ريفوليتي - وهو من الروس البيض الذين هاجروا إلى باريس - ينتظرني ويده كتاب هو : « صوفية دانت » وطلب إليّ أن أوصله إلى الشيخ عبد الواحد يحيى في مصر . إذ كان من المقرر عندي أن أسافر غداً ذلك اليوم الذي تناقش فيه رسالتي . حاولت أن أعرف من صديقي من هو الشيخ عبد الواحد يحيى ، فأثر الصمت متعمداً .

وانتهت المناقشة ، ومرت الأيام بخيرها وشرها وحلوها ومرها ، ووصلت في

النهاية إلى القاهرة . ولم يكد يستقر بي المقام فيها حتى يممت شطر ضاحية الدقي باحثاً عن الشيخ عبد الواحد . وفي شارع نوال « فيلا فاطمة » طرقت الباب ، فأطلت الخادم التي أعطيتها الكتاب ، وطلبت إليها أن تستأذن في مقابلة الشيخ . ثم وقفت أنتظر الإذن بالدخول فإذا بي أجد الخادم مقبلة نحوي ، وبيدها مقعد من الخشب عليه مسحة الخشونة والشظف ، وتطلب إليّ أن أنتظر هنيهة من الزمن .

وجلست أمام الباب في الشارع أنتظر . الدقائق تمر والانتظار يطول . أرى الخادم مقبلة فأتياً للدخول ، ولكنها تطلب مني أن أنصرف اليوم ، غير مطرود ، وأحضر في الغد في الساعة الحادية عشرة . فأنصرفت متراخياً ، وفي نفسي دهشة ، وعلى وجهي شيء من طابع الخجل ، ومع ذلك فقد أثارت هذه الحادثة رغبتي في أن أرى هذا الشيخ الذي يضع الكرسي في الشارع للزائرين ، والذي يأمرهم بالانصراف اليوم . ليحضروا إليه في الغد .

وحضرت من الغد في الموعد المضروب . وكنت دقيقاً كالساعة . وطرقت الباب وفي قلبي إشفاق ، وفي نفسي تطلع إلى الدخول ، ولم يكن حظي في هذا اليوم . بأسعد منه في اليوم السابق ، فقد صُرفت ولكن لا إلى موعد يبعث في النفس الأمل ، بل أبلغت عن لسانه بأن أكتب إليه ما أريد وهو يتولى الرد على ما أحب . وأنصرفت بعد أن أضعت يومين في محاولة لقائه . لم أكتب إليه ، فلم يكن يهمني رده وإجابته بقدر ما كان يهمني لقاءه . ثم لم أكتب إليه . وفيم أكتب إليه ؟ .. ومرت الأيام ولم يزل من نفسي هذا التساؤل .. من هو هذا الشيخ عبد الواحد يحبي ؟

وفي يوم من الأيام كنت أزور مسيو دي كومنين مدير البعثة الألمانية الفرنسية بمصر وهو شخص له خطره وأثره ومكانته في الأوساط المصرية ، وجرى الحديث على العادة في فنونه وشئونه ، وإذا به يسألني هل أعرف رينيه جينو . فلما أجبت

بالنفي أخذ يحدثني عنه وعن اسمه الاسلامي : عبد الواحد يحيى . فحدثته بما كان بيني وبينه : فرجاني أن أعود إلى محاولة لقائه من جديد ، وأن أستاذن له كذلك في لقائه . ولكنني مع ذلك لم أجد في نفسي عزيمة تدفعها إلى إعادة المحاولة . فقد كان الكرسي الخشب لا يزال ماثلاً أمام ناظري .. ومرت الأيام أيضاً .

وفي ذات يوم يحمل إلى البريد خطاباً من أستاذ جليل يقول فيه : « إن مسيو هيكتور ماديرو » وزير الأرجنتين المفوض في مصر قد زاره بمكتبه ، ورجاه في أن يرشده إلى شخص يمكنه أن يتحدث معه عن الفلسفة الإسلامية ، والتصوف الإسلامي ولم أجد من يصلح لهذه المهمة سواك وطلب إلى أن أقابله ..

والتقيت بالوزير فكان أول ما يستفسر عنه : أتعرف رينيه جينو؟ ومر بذهني مرة أخرى الكتاب والكرسي الخشبي وحديث مسيو دي كومنين ، وذكرت كل ذلك للوزير . وقال الوزير : إنك قد وصلت إلى نقطة حاسمة ، هي معرفة بيته ، وفي هذا نصر عظيم إذ أن الصحفيين الفرنسيين والسويسريين وغيرهم يأتون إلى مصر ، فيجعلون من بعض مهامهم البحث عنه ويتجهون أول ما يتجهون نحو حي الأزهر وحي سيدنا الحسين أو السيدة زينب ، ولكنهم لا يعثرون له على أثر ، فيعودون وفي نفوسهم حسرة ، لأنهم لم يقضوا وطراً شهياً من زيارة مصر . وصح منا العزم ذات يوم ، أنا ومسيو ماديرو ، على أن نخترق الحجاب المضروب بيننا وبين الشيخ عبد الواحد ..

لا أزال أذكر ذلك اليوم . وكان يوم أحد ، حيث وقفنا أمام باب « فيلا فاطمة » ندق الجرس ، وبعد برهة إذا شيخ طويل القامة يكاد وجهه يضيء نوراً ، عليه سمت المهابة وطابع الوقار والجلال . تشع عيناه ذكاء ، وتنطق قسامته بالصلاح والتقى . إذ بهذا الشيخ يفتح الباب بنفسه . ويقف أمامنا وجهاً لوجه ، فألقينا إليه بالسلام فرد التحية . ثم سألنا عن مقصدنا فأبلغه الوزير سلام أحد أصدقائه ، فما إن

سمع اسم صديقه حتى أذن لنا بالدخول . ودخلنا والتزم الشيخ الصمت ، وقد كان من الممكن أن يكون الموقف حرجاً لولا دبلوماسية الوزير الذي أخذ يتحدث ويتحدث ذاكراً آراء الشيخ عبد الواحد ، مثنياً عليها ، مشيراً إلى دقتها . كل ذلك والشيخ عبد الواحد صامت لا يكاد ينبس ببنت شفة . وانتهت الجلسة ، وطلبنا إليه أن يسمح لنا بأن نعود لزيارته مرة أخرى ، فأذن في تल्पف وفي رقة .

وحين عدنا إلى المفوضية بعد لقائه قال الوزير لعقيلته متبسّطاً :

- لقد قابلنا اليوم شخصية هامة جداً ، فمن تظنين ؟

- أحد الوزراء ؟

- أعظم .

- رئيس الوزراء ؟

- أعظم .

- ملك ؟

- أعظم .

- ربنا ؟

- إنه على كل حال شخصية إلهية . إنه رينيه جينو .

فقالت في دهشة واستغراب : أحقاً ؟ يالكما من سعيدين .

وعدنا وتكررت الزيارة ، وتحدث الشيخ عبد الواحد ، وأفاض في الحديث ، وذكر لنا أن عزلته هذه إنما هي عزلة بالنسبة للمتطفلين الذين لا يرغبون إلا في إضافة الوقت بالأحاديث الشخصية التافهة ، ولكنه وقد رأى فينا رغبة صادقة في المعرفة فليس بيننا وبينه إذن حجاب .

واستطعنا بعد ذلك أن نخرجه من وكره ، وأن نصحبه إلى مسجد السلطان أبي العلا في الليلة الكبيرة من مولده ، وجلسنا في حلقة من حلقات الذكر . فأخذ

يهمهم في نفسه ويهتز ، ثم أخذ كلامه يبين واهتزازه يشتد ؛ وإذا به يذكر مع الذاكرين في نبرة واضحة وفي هزة رتيبة ، ثم إذا به ينغمس في الذكر ويستغرق . ولم أكد أنه بعد فترة حتى انتفض انتفاضة قوية خِلْتُ أنها انتفاضة العائد من آفاق قصية مجهولة .

وتتابعت الأيام وسافر الوزير ومات الشيخ عبد الواحد . ولم يبق في نفسي سوى الذكريات الجميلة .

ثم هيا الله لي أن أطبع كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالي فقدمت له بمقدمة في منطق التصوف جعلت من بعض فصولها تلخيصاً لمقال عن التصوف بقلم الشيخ عبد الواحد . وقد نال هذا الفصل استحساناً كثيراً لدى القراء فشجعني ذلك على أن استفيض نوعاً ما في دراسة الشيخ فكان هذا الجزء . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

٢ - جيد وجينو

قال صاحبي^(١) :

- تحدث مع جيد عن جينو : فإنه كثيراً ما يلتقي الآن بمريد مشهور هو السيد عبد الله .

كنت على صلة بالسيد عبد الله ، فقد كان فرنسياً اعتنق الإسلام . وكان ينتسب روحياً إلى جينو الذي كان يقيم حينئذ في القاهرة ؛ وكانا يتبادلان الرسائل دون انقطاع .

كان جينو في القاهرة ، الحلقة المركزية على ما يقولون التي تصل الشرق بالغرب

(١) من حديث جرى في الجزائر بين الكاتب الفرنسي : هنري بسكو ، وبين أشهر كتاب فرنسا وأدبائها في العصر الحديث : أندريه جيد ، نشرته مجلة فرنسا - آسيا « باختصار » .

في الناحية الروحية . وكنت أنا وزوجتي قد أخذنا بحظ وافر من الثقافة التي كتبها جينو ، وكنت معجباً بآرائه . واستمر هذا الإعجاب على مر الزمن .
لقد انتقل جيد وعبد الله وجينو ، من هذا العالم إلى حيث يلقون ربهم : أما عبد الله - وكان يسمى بالفرنسية جورج - فقد توفاه الله في مكناس . توفاه الله صوفياً ، وحيداً . مضطجعاً على فراش صلاته . مسجى في ثيابه البيضاء . وفي يده المسيحة .

لقد وجدوه نائماً على فراشه . عيناه مسبلتان . وسبابته تشير إلى السماء .
كان عبد الله في حياته يعيش عيشة الزاهد . ويسير متواضعاً في ثيابه النظيفة الطاهرة . كان متحدثاً لأمعاً : وكان لحديثه : وهو ينساب من بين شفثيه في سهولة ويسر . جاذبية لطيفة . كان قد تعلم لغة الضاد . وكان يفهم نصوصها في دقة . ولم يكن على شيء من العُجب أو الادعاء الكاذب . وكان يضم بين جوانحه الإيمان الحار والتواضع المثالي .

قال صاحبي : تحدث مع جيد عن جينو .. وتحدثت ..
قال جيد : إذا كان جينو على حق فإنه من الواضح أن كل آرائى تصبح عديمة القيمة . إنها تنهار انهاراً تاماً .

فقال أحد الحاضرين : ويرافقها في الانهيار كثير من آراء أئمة الفكر . آراء الفيلسوف « منتني » مثلاً .

فاستغرق جيد في التفكير . وبدأ عليه عدم الرضا بهذا الاحتمال . بل بدا عليه القلق . ثم أعلن في صراحة : إنني حقاً ما أجد شيئاً قط أعترض به على ما كتبه جينو . إن ما كتبه لا يتطرق إليه النقض .

وساد المجلس صمت عميق . ولم يجرؤ أحد على أن يتعرض لنقض ما أعلن جيد نفسه أنه لا ينقض : بل بدا على وجوه القوم الرضا بما قال جيد ، وإن كان ما قاله .

لم يكن متوقفاً . وقطع جيد الصمت بتصريح لم تكن أيضاً نتوقعه منه :
لقد قضى الأمر . وبلغت من الكبر عتياً . وتخطيت السن التي كان من الممكن
أن يقلب الإنسان فيها حياته رأساً على عقب .

وتابع حديثه : ثم إنني أحب الحياة . أحبها في قوة . وأحبها في تنوعها ،
ولا أريد أن أحرم نفسي من متعها مختلفة الألوان . لا أريد أن أضحي بكل ذلك
في سبيل الوحدة . الوحدة المبهمة . اللامحدودة^(٢) .

ومما كتبه جيد بقلمه في « جرناله » : إن السيد عبد الله ، الذي اعتنق
الإسلام ، قد مهد لي الفرصة لقراءة كتب جينو^(٣) .

ماذا كنت أصير لو صادفتُ هذه الكتب في ريعان شبابي . في ذاك الوقت
الذي استغرقتُ فيه في قراءة « طريقة للوصول إلى الحياة السعيدة » . في ذاك الوقت
الذي كنت أنتبه فيه إلى دروس الفيلسوف فيشت هادئاً وديعاً ؟

ولكن كتب جينو لم تكن قد ألفت حينئذ . وإذا كانت موجودة الآن فإن السن
قد تقدمت لي . « لقد قضى الأمر ولم يعد في الإمكان عمل أى شيء » .

لم يعد في الإمكان الرجوع القهقري إلى سن الشباب المقدام . لقد أصبح ذهني
مجرداً عن المرونة . وليس من السهل عليه أن يتقبل هذه الحكمة القديمة ، حكمة
جينو . إنني على مذهبي ديكرت ويكون . وسأظل كذلك .

(٢) عن العدد ٨٠ من مجلة فرنسا - آسيا الخاص « جينو » .

(٣) ألف جينو ما يقرب من سبعة عشر كتاباً بالفرنسية . وقد ترجم منها الكثير إلى اللغة الإيطالية
والإنجليزية . وترجم منها إلى الأسبانية والبرتغالية والألمانية .

ومن الطريف أن كتابين من كتبه قد ترجما إلى لغة التبت . ولأجل أن تنتشر ترجمتها في أكبر عدد ممكن
وضعها المترجم كشرح لوصية « الدالاي لاما » الثالث عشر .

وكان الشرح - وهو الترجمة - يتدنى بالعبرة : قال لاما عظيم عربي . . ولم يدر بجلد أهل التبت شك في
أن هذا اللاما العربي العظيم كان يشرح حقيقة وصية رئيسهم الديني .

حقاً إن كتب جينو رائعة . وإنه لعلى هدى فيما يتعلق بآرائه الخاصة بالنتائج السيئة للقلق الذى يسود العالم الغربى ؛ ولكن المخاطرة الخطرة « الحضارة الحديثة » التى ألقينا بنفسنا فيها مجازفين غير متحفظين ، هى أهل لأن نتحمل من أجلها ما تثيره لنا من متاعب . ومع ذلك فإننا لا نستطيع الآن ، ولو حاولنا ، أن نعود إلى الوراء . يجب أن نسير إذن فيما شرعنا فيه ، إلى الأمام ، وأن ننتهى به إلى غايته مهما كانت هذه الغاية . « انتهى باختصار » .

من هو جينو؟ كيف كانت حياته؟ وما هى آراؤه؟
ذلك ما سأخذ فيه الآن إن شاء الله .

٣ - حياة جينو

ولد جينو فى بلدة بلوا^(٤) فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٦ من أسرة فرنسية كاثوليكية محافظة كانت تعيش فى يسر ورخاء . فقد كان والده مهندساً ذا شأن .
وحياة جينو لاتسم بحوادث معينة . فقد كان هادئاً وديعاً . وكانت تلوح عليه ، منذ الطفولة مخايل الذكاء الحاد ، وقد بدأ تعليمه فى إقليمه الذى نشأ فيه ، وكان دائماً متفوقاً على أقرانه . وانتهى به الأمر سنة ١٩٠٤ إلى نيل شهادة البكالوريا . بعد أن نال جوائز عدة كانت تمنح للمتفوقين . وفى هذه السنة ، سنة ١٩٠٤ م سافر جينو إلى باريس لتحضير الليسانس ، ومكث عامين فى الدراسات الجامعية ، ولكن باريس لم تدعه يستمر فى دراسته المدرسية المحدودة فقد فتحت له أبواباً أخرى كلها لذة . وكلها نعيم . ولانقصد لذة حسية . أونعيمًا

(٤) هى بلدة فرنسية على نهر اللوار ، على بعد ١٧٢ ك . م من باريس . يبلغ عدد سكانها ٨٦٨ وهى

شهيرة بصناعة البسكويت والشكولاته . وقد نشأ فيها كثير من المشاهير .

مادياً ، وإذا كانت باريس تمنح ذلك للماديين الحسين فإنها تمنح لذة روحية ،
ونعياً وجدانياً لمن لم تغرهم الدنيا وزينتها .

وقد كان جينو من هذا النمط الأخير . كان متطاعاً إلى المعرفة . المعرفة بمعناها
الصوفى . كان يتطلع إلى السماء يريد أن يخترق الحجب ، وأن يكشف القناع ، وأن
يرفع المساتير ، وأن يصل إلى الحق .

وقد كان مثله إذ ذاك مثل الإمام الغزالي بالضبط . ولو عبرنا عن حالة جينو لما
وجدنا أبرع من حديث الإمام الغزالي عن نفسه إذ يقول :

« ولم أزل في عنقوان شبابي - منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ سن العشرين إلى
الآن وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق [بحر المعرفة]
وأخوض غمرته خوض الجسور . لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل
مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة . وأتقحم كل ورطة . وأتفحص عن عقيدة كل
فرقة . وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن
ومبتدع . لا أغادر باطناً إلا وأحب أن أطلع على بطائه . ولا ظاهرياً إلا وأريد أن
أعلم حاصل ظهارته . ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته . ولا متكلماً
إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته . ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور
على سر صفواته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً
معطلاً إلا وأتجسس وراءه . للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني . من أول أمرى ،
وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله ، وضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ،
حتى انجلبت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد المورثة ، على قرب عهد
سن الصبا » .

كانت تلك بالضبط حالة جينو . ولقد أخذت باريس تشير إليه بالابتعاد عن

الرسميات والشكليات ، وتقدم له الكثير من النواحي الثقافية الروحانية . كانت باريس مفعمة بالمدارس مختلفة الألوان . كان فيها الماسونية . وكان فيها المدارس التي تنتسب إلى الهند ، أو إلى التبت ، أو إلى الصين ، كان فيها الروحانيون على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ونزعاتهم ، بل كان فيها هؤلاء الذين يعالجون السحر ، والتنجم ، والتصرف في العناصر ، وتحضير الأرواح ..

وترك فتانا التعليم الجامعي غير آسف عليه . وأخذ ينهل من هذه المنابع المختلفة . لقد انتسب إليها . واتصل بها عن قرب . وعرف ما تهدف إليه . بل أسهم في نشاطها . ومنحته هذه المدارس درجاتها الكهنوتية السامية ...

ولقد كانت صلته الوثيقة بهذه المدارس السبب المباشر في انفصاله عن أغلبها ، فقد أدرك الطيب منها والخبيث . وهدته بصيرته النقادة . وهداه رأيه القويم إلى أن الكثرة الكثيرة من هذه المدارس إنما هي شكلية سطحية لا تصل بالإنسان حقيقة إلى معرفة ما وراء الطبيعة ، أو إلى اختراق حجاب المساتير ، فأخذ في الانفصال عنها شيئاً فشيئاً . وما إن تخلص جينو من هذه النزعات حتى أنشأ سنة ١٩٠٩ م مجلة سماها « المعرفة » . وهذه المجلة اتسمت بالطابع الذي كانت تسير عليه مجلة أخرى سبقتها كانت تسمى « الطريق » ، وهي ذات طابع صوفي .

كان يسهم في إصدار مجلة « الطريق » ، ويشرف على منهجها ، عالم فرنسي اسمه شميرينو . وقد اعتنق شميرينو الإسلام ، وتسمى باسم عبد الحق ، واستمر يسهم في إصدار مجلة الطريق من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٠٧ . ثم ، لأسباب عدة ، انتهى إصدار المجلة . وفي هذه الأثناء تعرف جينو بعبد الحق ، وساعد عبد الحق جينو في تحرير مجلة المعرفة . وكانت المجلة تنشر الأبحاث عن الإسلام ، وعن الديانة الهندية ، وعن الديانة البوذية . وكانت في الوقت نفسه تنتقد كل ما لا تراه مستقيماً في المدارس التي تنتسب إلى الروحانية .

استمرت هذه المجلة إلى سنة ١٩١٢ وفي هذه السنة اعتنق جينو الإسلام .
وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى .

كيف اعتنق جينو الإسلام ؟ ولمَ اعتنقه ؟ وعلى يد من أسلم ؟
هذه أسئلة وضعها الغربيون وأخذوا يفترضون مختلف الفروض للإجابة عنها .
ولكن آراءهم لم تخرج عن أن تكون مجرد فروض .

ولقد قال جينو إنه اتصل بممثلي الأديان الشرقية عن طريق مباشر . فكيف
اتصل بهم ؟ وبمن منهم اتصل ؟ ثم إن جينو أهدى أحد كتبه إلى الشيخ
عبد الرحمن عlish^(٥) . فمن هو هذا الشيخ عبد الرحمن عlish ؟ وكيف عرفه
جينو ؟ وهل هو الذى هداه إلى الإسلام ؟ وكيف ؟

كل هذه الأسئلة كانت غامضة حتى ألقى عليها الأستاذ فلسن الذى اعتنق هو
الآخر الإسلام ، وأتقن لغة القرآن ، شيئاً من الضوء فى بحث مستفيض نشر فى عدد
يناير - سنة ١٩٥٣ من مجلة « إيتيد ترادسيونل » الفرنسية . وهذا البحث نلخصه
فيما يأتى :

(٥) أسرة الشيخ عlish أسرة مغربية أشهر رجالها هو الشيخ محمد عlish الكبير ١٢١٨ - ١٢٩٩ هـ . وقد
درس الشيخ محمد عlish فى الأزهر ثم جلس للتدريس به ١٢٤٥ هـ . وكان يحضر عليه ماينوف عن المائتين من
الطلبة . وقد تقلد مشيخة السادة المالكية والإفتاء بالديار المصرية سنة ١٢٧٠ هـ ، وتذكر الخطط التوفيقية أنه
كان فى حال حياته مستغرقاً زمنه فى التأليف ، والتدريس ، والعبادة متجافياً عن الدنيا وأهلها ، لا تأخذه فى
الله لومة لائم . وقد ألف الكثير من الكتب فى مختلف الفنون التى تدرس بالأزهر .

والطريف هو أن الشيخ عlish فى ١ يولية سنة ١٨٨٢ م خطب ممتدحاً « الجيش الذى خلص البلاد من
الوقوع فى أيدي الكفار » وأثنى على رؤسائه وعلى وطنيتهم . وكانت هذه الخطبة تتعارض كل المعارضة مع
سياسة الخديو توفيق ، ولكن الشيخ عlish لم يبال به .
ثم ألقى الشيخ عlish بمروق الخديو توفيق من الدين كمروق السهم من الرمية ، لخيانته دينه ووطنه . وتلا
الشيخ محمد عبده هذه الفتوى فى الجمعية العمومية فى ٢٢ يولية سنة ١٨٨٢ م ، وكان الخديو قد أصدر أمراً
بعزل عرايى ، وتداول الأعضاء فى الموقف . وفيما يجب عمله فاتفقت آراؤهم على عدم قبول عزل عرايى .
وقررت الجمعية وقف أوامر الخديو وعدم تنفيذها .

الشيخ عlish والشيخ عبد الواحد :

إن الصلة بين الشيخ الأكبر ، سيدنا محي الدين بن عربي ، وبين الشيخ عبد الواحد بادية ظاهرة .

ولقد اعتنق جينو الإسلام بواسطة شيخ ينتسب إلى روحانية الشيخ الأكبر ، أعني الشيخ عlish الكبير وهو الشخص الذي أهدى إليه جينو أحد كتبه في هذه العبارة : « إلى الذكرى المقدسة ، ذكرى الشيخ عبد الرحمن عlish الكبير ، المالكى ، المغربى ، الذى أدين له بالفكرة الأولى لهذا الكتاب . من مصر القاهرة ١٣٢٩ - ١٣٤٧ هـ » .

وهذا الشيخ المصرى يهمننا من ناحية أخرى ، لأنه فضلا عن صفته الصوفية السامية ، كان له صفة أخرى ، فلقد كتب جينو فى أحد خطاباتة يقول : « كان الشيخ عlish شيخ فرع من الطريقة الشاذلية ، وكان فى الوقت نفسه شيخ المذهب المالكى بالأزهر » .

والشاذلية طريقة أسسها فى القرن السابع الهجرى الشيخ أبو الحسن الشاذلى وهو صورة من أروع الصور الروحانية فى الإسلام .

كان الشيخ الذى ينتسب إليه جينو ، إذن ، يجمع بين صفتين ، هما : الحقيقة والشرعية ؛ كان شيخ طريقة ، وشيخ مذهب ، وهذا له أهميته بالنسبة لتلميذه فيما يتعلق بتقديرنا لآرائه من الناحية الإسلامية .

ومما ينبغى ملاحظته فى عناية ، أن هذا الشيخ هو الذى يدين له جينو بالفكرة الأولى لكتابه : « رمزية الصليب » ، وهكذا كان هذا الشيخ يفتح السبل أمام جينو ، ويهديه الطريق ، ولذلك ينبغى أن نعرف القراء بهذا الشيخ ، وبواسطة التى كانت بينه وبين جينو . والمعلومات التى ستحدث عنها مصدرها مجلة عربية

إيطالية كانت تصدر في القاهرة سنة ١٩٠٧ تسمى : النادى .
 كانت الروح التى تسود هذه المجلة ، هى روح الشيخ الأكبر محيى الدين ،
 وكانت هذه المجلة تعتبر طليعة لمجلات أخرى صدرت فيما بعد فى فرنسا ، وساهم فيها
 جينو بحظ وافر ، وكان من ألمع محررى مجلة النادى - سواء فى ذلك قسمها العربى
 أو قسمها الإيطالى - هو عبد الهادى . وعبد الهادى هذا من أصل لتوانى فنلندى ،
 ونشأ مسيحياً ، وكان اسمه : إيفان جوستاف ، ثم اعتنق الإسلام ، وتعلم العربية ؛
 وأخذ يكتب فى المجلة المقالات ، ويطلع فيها الرسائل الصوفية الإسلامية من
 مؤلفات الشيخ الأكبر ، ويترجم بعض النصوص . وقد تحدثت هذه المجلة كثيراً
 عن الشيخ عبد الرحمن عlish . ولقد كتب فيها الشيخ عlish نفسه مقالة خاصة
 بمحيى الدين بن عربى .

وكان عبد الهادى على صلة شخصية طبعاً بالشيخ عبد الرحمن عlish ، قد
 أعطانا عنه معلومات نفيسة . إنه يراه من أشهر رجال الإسلام ، ووالده من كبار
 رجال المذهب المالكى ، أما هو نفسه فقد كان حكيماً عميق الحكمة ، وكان محترماً
 من الجميع ، سواء فى ذلك الرجال العاديين أم الأمراء والسلاطين . وكان شيخاً
 لكثير من الجماعات الدينية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . وكان زعيماً من
 زعماء الإسلام ، سواء فى ذلك ما يتصل بالجانب الصوفى ، أو الجانب الفقهى
 أو الجانب السياسى ؛ ومع ذلك فقد ابتعد هو ووالده عن ألعيب السياسة
 ومؤامراتها . وكانت صفاتهما الكريمة ، وتكشفهما فى الحياة ، ومعرفتهما
 المستفيضة العميقة ، وحسبهما العريق .. كل ذلك سما بهما إلى مركز ممتاز فى العالم
 الإسلامى ، بيد أنهما لم يعبرا ذلك التفاتاً والتزماً مرضاة الله .

أما شهرتهما بالتعصب التى لا أساس لها ، فقد كان مصدرها فتوى شهيرة
 كانت نتيجتها كما يقولون ثورة عزابى باشا سنة ١٨٨٢ . وفى هذه السنة - سنة

١٨٨٢ - زج بالشيخين في السجن ، وحكم عليهما بالإعدام ، وقد مات الأب في السجن ، أما الشيخ عبد الرحمن فقد استبدل حكم الإعدام فيه بالنفي . ولكن الحظ السيئ تابعه في منفاه ؛ كانت شهرته وكان حبه ونبله الذاتي . . كان كل ذلك من عوامل الشك فيه ، واتهم في حماقة ، بأنه يتطلع إلى إقامة الخلافة الإسلامية لحسابه أو لحساب سلطان مراكش ، فوضع في السجن من جديد ، ولكن وضعه في السجن هذه المرة كان بناء عن أمر أمير مسلم . ومكث عامين في زنزانة لا تطاق ، حيث العفونة والروائح الكريهة ، وغير ذلك مما تضيق به النفس . ولأجل بعث الرعب في نفسه كانوا يتعمدون أن يقتلوا أمامه بعض من حكم عليهم بالإعدام ؛ ثم أخرج من السجن ونفى إلى رودس . ولقد أقام أيضاً في دمشق ، حيث التقى بعدو الفرنسيين العتيد : الأمير عبد القادر الجزائري ؛ فتألفت بينهما صداقة وطيدة ، كان من أسسها الحب القوي في نفسيهما للشيخ الأكبر الذي كان الأمير يكرس وقته ؛ في أخريات حياته ، لدراسته ، وحمله إعجابه به ، على أن يمول الطبعة الأولى لكتاب الفتوحات المكية . ذلك الكتاب الذي تبلغ صفحاته حوالي « ٢٥٠٠ » ، ولما مات الأمير كفنه الشيخ وصلى عليه ودفنه في الصالحية بجوار مقبرة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي .

وأصدرت الملكة فيكتوريا العفو عن الشيخ ، فعاد إلى مصر وأقام في القاهرة ، وأخذ نوره ينبعث من القاهرة إلى جميع أقاليم العالم الإسلامي . وكان يبتعد ، ويبعد تلاميذه عن جميع الصغائر ، وكان تأثيره قوياً إلى درجة أنه حينما تلتقى برجل شرقى ، ترى فيه سمو الأخلاق وسعة المعرفة ، فيجب أن تعلم أنه « شاذلى » . والشاذلية^(٦) لا شك مدينة ، في احتفاظها بالمثل العليا للسنة التي أقامها أبو الحسن

(٦) هذا رأى عبد الهادي . ورجال التصوف الحقيقيون كلهم خير وكلهم بركة .

الشاذلى ، وإلى السمو الروحى للشيخ عlish .

وقد نشرت مجلة النادى مقالة للشيخ عlish عن محبى الدين وقد اختتمها بشكره لعبد الهادى بسبب ما أداه للحضارة من خدمة جليلة هى تعريف الناس بمحبى الدين ، ثم ينتهى الشيخ بأن يبحث عبد الهادى على أن يستمر فى متابعة دراساته الصوفية غير معنى بما يثيره حوله بعض من لم يفهموا الإسلام على حقيقته . وما إن نشرت مقالة الشيخ فى المجلة حتى أعلن فى العدد التالى أنه تألفت جمعية فى إيطاليا وفى الشرق لدراسة ابن عربى وسميت « الأكبرية » ووضعت منهاجاً هو التالى :

- ١ - دراسة ونشر تعاليم الشيخ محبى الدين سواء ما يتصل منها بالشريعة وما يتصل بالحقيقة ، والعمل على طبع مؤلفاته ومؤلفات تلاميذه ، وشرحها ، وإلقاء محاضرات خاصة به وأحاديث تشرح آراءه .
- ٢ - جمع أكبر عدد ممكن من محبى الشيخ ابن عربى ، وعقد صلة قوية بينهم ، تقوم على الأخوة وتؤسس على الترابط الفكرى ، بين النخبة المختارة من الشرقيين والغربيين .
- ٣ - تقديم المساعدة المادية والتشجيع الأدبى لمن هم فى حاجة إلى ذلك ممن يتبعون الطريق الذى اختطه محبى الدين بن عربى ، وعلى الخصوص هؤلاء الذين ينشرون دعوته بالقول أو بالعمل .
- ٤ - ولا يقتصر عمل الجمعية على ذلك بل يتعداه أيضاً إلى دراسة مشايخ الصوفية الشرقيين ، كجلال الدين الرومى مثلاً ، بيد أن مركز الدائرة يجب أن يستمر ابن عربى .
- ٥ - ولا صلة للجماعة قط بمسائل السياسة مهما كان مظهرها ؛ إذ أنها لا تخرج عن دائرة البحث فى الدين والحكمة .

وبدأ عبد الهادي ينشر دراساته الصوفية ، وقد ساعده الحظ ، فوجد حوالى
عشرين رسالة لابن عربي مخطوطة ، نادرة الوجود ، نفيسة القيمة ، فأخذ في
تحليلها . ولكن المجلة للأسف لم تسلم من شر أعداء التصوف فقضى عليها . ورأى
عبد الهادي ، متابعا لإشارة الشيخ عlish ، أن يحاول إقامة صلة روحية بين الشرق
والغرب ، فسافر إلى فرنسا حيث التقى بجينو .

وكان جينو إذ ذاك يصدر مجلة باسم « المعرفة » ، فأخذ عبد الهادي في سنة
١٩١٠ يساهم فيها بجد ونشاط . لقد نشر فيها أبحاثا . ولكنه نشر فيها على الخصوص
ترجمة كثير من النصوص الصوفية إلى اللغة الفرنسية . وأثمرت مرافقته لجينو أن عقد
بينه وبين الشيخ عlish صلة قوية متينة عن طريق تبادل الرسائل والآراء ، وكانت
النتيجة أن اعتنق جينو الإسلام سنة ١٩١٢ ، بعد أن درسه دراسة مستفيضة .
وقامت الحرب سنة ١٩١٤ فأوقفت كل نشاط يتصل بالدين والروح والفكر .
وسافر عبد الهادي إلى أسبانيا ، وهناك ، في بلدة برشلونة ، توفاه الله سنة ١٩١٧ .
وحمل جينو راية الجهاد فاستمر يبنى على ما أسسته « الأكبرية » : تلك الجماعة
التي تنهج نهج الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي .

والواقع هو أن الذي وجه جينو هذه الوجهة ، هو الشيخ عlish ، والشيخ
عlish إنما كان مرآة تعكس صورة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ، وهو أسمى
مظهر للتصوف الإسلامى والعقيدة الإسلامية . وإذا كان الشيخ عlish مالكا
محافظا ، فإن تصوفه لا يخرج عن التعاليم الإسلامية . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة
له فإنه كذلك أيضا بالنسبة لتلميذه جينو .

* * *

وفي السنة التي اعتنق جينو فيها الإسلام وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحى ،
أعنى سنة ١٩١٢ ، تزوج من فتاة فرنسية من إقليمه .

وفي هذه السنة نفسها توقفت مجلة المعرفة عن الصدور ، فأخذ الشيخ عبد الواحد يكتب في مختلف المجلات ، أخذ يكتب عن انحراف الماسونية ، فأثار سخط الماسونيين . وأخذ يكتب عن انحراف البروتستانتية ، فأثار سخط البروتستانتين . وانتقد الروحانية المزيفة أنى وجدت ، فغضب منه الذين يتسبون إلى الروحانية الحديثة .

وفي سبتمبر سنة ١٩١٧ عين الشيخ أستاذاً للفلسفة في الجزائر ، ف قضى فيها عاماً عاد بعده إلى فرنسا ، وعين في مدرسة بلدته ، ولكنه استقال بعد عام قضاه في التدريس ليتفرغ لأبحاثه ، وكان من ثمره هذا التفرغ أن نشر في سنة ١٩٢١ كتابين هما :

١ - مدخل لدراسة العقائد الهندية .

٢ - التيوزوفية : تاريخ دين مزيف .

وتوالى نشر كتبه ، وتوالى مقالاته في مختلف الجرائد .

وفي سنة ١٩٢٥ فتحت له مجلة : « قناع إيزيس » صدرها فأخذ يكتب فيها ، وانتهى به الأمر في سنة ١٩٢٩ أن أصبح أهم محرريها ؛ ذلك أنه رفض ما عرضته عليه المجلة من رئاسة التحرير .

ومن بين من التفوا حوله في تحرير المجلة العالم الضليع الأستاذ شون الذي ألف كتباً بالفرنسية من بينها كتاب : « عين القلب » ، وقد اعتنق هذا العالم الإسلام أيضاً ، وهو يدين ، برغم أصالته وعبقريته ، إلى جينو بكثير من اتجاهاته . ثم عرض بيت من بيوت النشر في باريس ، على الشيخ عبد الواحد أن يسافر إلى مصر ، ليتصل بالثقافة الصوفية ، فينقل نصوصاً منها ويترجم بعضها . فقبل العرض .

وفي ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٠ سافر إلى مصر لهذا الغرض . وكان المفروض أن

يقضى فيها بضعة أشهر فقط . ولكن هذا العمل اقتضاه مدة طويلة ، ثم عدل بيت النشر عن مشروعه ، فاستمر الشيخ عبد الواحد يحيى فى القاهرة ، يعيش فى حى الأزهر ، متواضعاً ، مستخفياً لا يتصل بالأوربيين ، ولا ينعمس فى الحياة العامة ، وإنما يشغل كل وقته بدراساته .

كانت والدته وزوجه ووالده قد توفاهم الله قبل حضوره إلى القاهرة ، فحضر إليها وحيداً ، ووجد الكثير من المشاق فى معيشته منفرداً ، فتزوج فى سنة ١٩٣٤ كريمة الشيخ محمد إبراهيم ، فهدت له حياة من الطمأنينة والهدوء . وانتقل بها من حى الأزهر إلى حى الدقى . واستمر يرسل المقالات إلى فرنسا ، وينشر الكتب مستريحاً إلى عطف زوجته ورعايتها ، ورزقه الله بفتاتين ، سمى إحداهما خديجة ، والأخرى ليلي ، ورزقه بولد سماه أحمد ، كان له قررة عين ، وبعد وفاته بأربعة أشهر أتت زوجته بولد سمته عبد الواحد .

ولقد حاول الشيخ عبد الواحد بمجرد وصوله إلى القاهرة ، أن ينشر فيها الثقافة الصوفية ، فساهم مالياً وأدبياً فى إخراج مجلة « المعرفة » . وقد بدأت المجلة وعليها طابع التصوف ، ولكنها ، فيما يبدو ، لم تجد الإقبال المنتظر ، فأخذت تتسم شيئاً فشيئاً بالطابع الأدبى . ثم توقفت عن الصدور بعد ثلاث سنوات من حياتها . ومكث الشيخ عبد الواحد فى القاهرة يؤلف الكتب ، ويكتب المقالات ويرسل الخطابات إلى جميع أنحاء العالم . كان حركة دائمة ، حركة فكرية وروحانية ترسل بسنائها إلى كل من يطلب الهداية والرشاد .

واستمر هكذا إلى أن أتاه المصير المحتوم فى ٧ يناير سنة ١٩٥١ تحيط به أسرته الكريمة ؛ وبجواره السيدة فلتين دى سان بوان ؛ تلك السيدة العظيمة التى أقامت فى القاهرة منذ سنة ١٩٢٤ ؛ واستقبلت الشيخ عند حضوره . واستمرت صديقة له طيلة إقامته بالقاهرة ، ثم ودعته الوداع الأخير .

كانت هذه السيدة أدبية مشهورة ، وصحفية لامعة . ولا عجب في ذلك فقد كانت من أسرة «لامرتين» . وقد اعتنقت الإسلام ، وناضلت عنه جزاها الله خيرا الجزاء . ولقد وصف الكاتب المشهور أندريه روسو - حيث كان في القاهرة إذ ذاك ، جنازة الشيخ عبد الواحد فكتب في جريدة الفيجارو الفرنسية يقول :

« شيعت جنازته في اليوم التالي لوفاته ؛ فذبح تحت نعشه ، كما هي العادة ، كبش وأسيل دمه على عتبة المنزل ؛ وسار في الجنازة زوجه وأطفاله الثلاث ، واخترقت الجنازة البلدة إلى أن وصلت إلى مسجد سيدنا الحسين حيث صلى عليه ، ثم سارت الجنازة إلى مقبرة الدراسة . لقد كانت جنازة متواضعة مكونة من الأسرة ومن بعض الأصدقاء ، ولم يكن فيها أى شيخ من مشايخ الأزهر . ودفن الشيخ عبد الواحد في مقبرة أسرة الشيخ محمد إبراهيم .

وكان آخر ما قال لزوجته : « كوني مطمئنة : لن أتركك أبداً . حقيقة أنك لا تريننى ، ولكننى سأكون هنا وسأراك » .

ويضيف روسو : « والآن حينما لا يلتزم أحد أطفالها الهدوء فإنها تقول له : كيف تجرؤ على ذلك مع أن والدك ينظر إليك ، فيلتزم الطفل السكون في حضرة والده اللامرتى » .

وفي ٩ يناير وصلت إلى باريس برقية تعلن : « وفاة رينيه جينو الفيلسوف والمستشرق الفرنسى » ، وما إن وصلت هذه البرقية حتى أخذت الصحف والمجلات تنشر مختلف المقالات عن الشيخ تحت عناوين مختلفة منها : « حكيم كان يعيش في ظل الأهرامات » ، « فيلسوف القاهرة » ، « أكبر الروحانيين في العصر الحديث » . ووصفوه « بالبوصلة المعصومة » ، « وبالدرع الحصين » . ثم خصصت له مجلة « إيتودترا ديسيونيل » عدداً ضخماً كتب فيه الكثيرون من كتاب فرنسا ، أروع المقالات .

وكذلك خصصت له مجلة « فرنسا - آسيا » عدداً ضخماً كتب فيه كذلك كثير من الكتاب الفرنسيين . ولكن جينو كان عالمياً . ولذلك أوسعت المجلتان صدرهما لكتاب الألمان ، والإنجليز ، وغيرهم من غربيين وشرقيين . فكتبوا المقالات المستفيضة التي تناولت آثاره بالتحليل والتقدير ، وأخيراً خصه الكاتب الفرنسي الشهير بول سران بكتاب خاص تناول فيه نواحيه المتعددة مبدئياً إعجابه العظيم وتقديره السامي .

ولكن ما كتب عنه لم يكن كله من هذا النمط . فقد كان هناك أعداؤه . كان هناك الماسونيون المنحرفون ، وكان هناك المسيحيون الحانقون ، وكان هناك المشايعون لهذه الحضارة المادية التي هاجمها جينو ولعنها في غير ما رأفة أو رحمة . وقد كتب هؤلاء كلهم ضد جينو ، واحتد الخلاف بين أنصاره وأعدائه وكانت النتيجة من ذلك كله خيراً وبركة ، فقد حث ذلك الكثيرون على قراءة كتب جينو . وفي قراءته الخير كل الخير . وكانت النتيجة المباشرة لذلك كله أن اضطربت وتهافت حجج المبشرين ضد الإسلام ، وأخذ الإسلام يغزو أوروبا في بعض أفراد من طبقته المثقفة . وتكونت الجمعيات في فرنسا وسويسرا تريد أن تنهج نهج الشيخ عبد الواحد وتسير على منواله .

ولا يتأتى أن نترك المجال دون أن نذكر بعض ما سبق أن كتبناه عن الشيخ . لقد كتبنا عنه في البكتيب الذي نشرناه بعنوان : « أوروبا والإسلام » . ما يلي : أما الذي كان إسلامه ثورة كبيرة ، هزت ضمائر الكثيرين من ذوى البصائر الطاهرة ، فاقصدوا به ، واعتنقوا الإسلام ؛ وكونوا جماعات مؤمنة مخلصه ، تعبد الله على يقين في معقل الكاثوليكية في فرنسا . وفي سويسرا .. فهو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصوفي : « رينيه جينو » الذي يدوى اسمه في أوروبا قاطبة وفي أمريكا .

والذى يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون اتصالاً وثيقاً بالدراسات الفلسفية الدينية فى أوربا ، أوفى أمريكا .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً فى آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد - بعد دراسة عميقة - سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله تحريف ولا تبديل : لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به . وسار تحت لوائه فغمره الأمن النفسانى فى رحاب الفرقان .

ومؤلفاته كثيرة مشهورة من بينها كتاب : « أزمة العالم الحديث » بين فيه الانحراف الهائل الذى تسير فيه أوربا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى الغرب عن سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والغرب » فهو من الكتب الخالدة ، التى تجعل كل شرقى يفخر بشرقيته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبيناً أصالته فى الحضارة ، وسموه فى التفكير ، وإنسانيته التى لا تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء ، وعدوانه الذى لا يقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهراً فى كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم وفهمهم للأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ومع أسمى المبادئ الإنسانية .. !

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعريف به ، ننشره فيما يلى :
« رينيه جينو من الشخصيات التى أخذت مكانها فى التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الإمام الغزالى وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار أفلوطين ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

وإذا كان الشخص ، في بيئتنا الحالية ، لا يُقدَّر التقدير الذي يستحقه إلا بعد وفاته ، فقد كان من حسن حظ : « رينيه جينو » أنه قُدر في أثناء حياته ، وقُدر بعد وفاته . أما في أثناء حياته فكان أول تقدير له أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه . والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين ، الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت في « رينيه جينو » خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت ، حتى الحديث عنه .

وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابي ، الذي لا يقل في أهميته ، عن التقدير السلبي ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة « رينيه جينو » فألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى الخصوص ، في سويسرا ، وفي فرنسا ؛ والمكونون لهذه الجمعيات ، احتذوا حذو « رينيه جينو » فاتخذوا الإسلام ديناً ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ، شعاراً وديناً ؛ ويكونون ، وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة ، يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

ومن التقدير الإيجابي أيضاً ، أن كتبه ، برغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد انتشرت في جميع أرجاء العالم . وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة ، ماعدا العربية ، للأسف الشديد .

ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة : الهند الصينية . ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا « الدالاي لاما » . ولم يكن يوجد في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بآراء « رينيه جينو » . كل هذا التقدير كان في حياته .

أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير ، لقد كتبت عنه جميع صحف العالم ، ومنها بعض الصحف المصرية العربية ، كالمصور مثلاً ، الذي كتب عنه ، في

استفاضة ، والصحف الإفرنجية أيضاً ، كمجلة « إيجيت نوفل » ، التي أخذت تكتب عنه ، عدة أسابيع . ثم أخذت تكتب عنه كل عام في ذكرى وفاته . وقد خصصت له مجلة « فرنسا - آسيا » وهي مجلة محترمة ، عدداً ضخماً ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحته بتقدير شاعر فرنسا الأكبر « أندريه جيد » ، لـ « رينيه جينو » وقوله في صراحة لا لبس فيها : إن آراء « رينيه جينو » لا تنقض .

وخصصت مجلة « إيتودترا ديسيونيل » ، وهي المجلة التي تعتبر في الغرب كله لسان التصوف الصحيح ، عدداً ضخماً من أعدادها ، كتب فيه أيضاً ، كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

ثم خصص له الكاتب الصحفي الشهير « بول سيران » كتاباً ضخماً تحدث فيه عن حياته وعن آرائه ووضعه كما وضعه الآخرون ، الذين كتبوا عنه في المكان اللائق به بجوار الإمام الغزالي أو الحكيم أفلوطين .

نشأ « رينيه جينو » في فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجهاً بطبيعته ، إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة . وهاله ، حينما نضج تفكيره ، ما عليه قومه من ضلال ، فأخذ يبحث في جد عن الحقيقة : ولكن أين هي ؟ أف الشرق أم في الغرب ؟ وهل هي في السماء أم في الأرض ؟

أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه « رينيه جينو » إلى نفسه ، كما وجهه من قبل إلى نفسه الإمام المحاسبي ، والإمام الغزالي . والإمام محيي الدين بن عربي ، وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستقيموا للتقليد الأعمى .. وتأق فترة الشك والحيرة والألم الممض ، ثم يأتي عون الله ، وكان عون الله بالنسبة لـ « رينيه جينو » أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة ، وغمره ضياؤه الباهر ، فاعتنقه

وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى ، وأصبح جندياً من جنوده يدافع عنه ويدعو إليه . ومن أمثلة ذلك ما كتبه في كتابه : « رمزية الصليب » تفنيداً للفرية التي تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه في العدد الخاص الذى أصدرته مجلة : « كاييه دى سود » ، فى عددها الخاص بالإسلام والغرب دفاعاً عن الروحانية الإسلامية . لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأنها ، ووضعوا التصوف المسيحى فى أسنى مكانة ، وقللوا من شأن التصوف الإسلامى .

كتب الشيخ عبد الواحد يحيى ، مبيناً سمو التصوف الإسلامى وروعته ، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحى ، أو « الميستيسيسم » وانتهى بأن هذا « الميستيسيسم » لا يمكنه أن يبلغ ولا عن بُعد ، ما بلغه التصوف الإسلامى من سمو ومن جلال . على أن الشيخ عبد الواحد يحيى لم يشد بالإسلام فحسب ، وإنما أشاد فى جميع كتبه ، وفى مواضع لا يأتى عليها الحصر ، بالشرق ، ثم خصص كتاباً ضخماً بعنوان : « الشرق والغرب » تزيل قراءته من نفس كل شرقى مركب النقص الذى غرسه الاستعمار فى نفوس الشرقيين فى هذه السنوات الأخيرة . لقد دأب الاستعمار على أن يغرس فى نفوس الشرقيين أنهم أقل حضارة بل أقل إنسانية من الغربيين ...

وأتى الشيخ عبد الواحد ، فقلب الأوضاع رأساً على عقب ؛ وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور والهداية . ومشرق الوحي والإلهام . إن كل شرقى يفخر بشوقيته بمجرد قراءته لهذا الكتاب ، وهو ليس كتاباً يشيد بالشرق على الأسلوب الصحفى ، أو على الطريقة الإنشائية ، وإنما هو كتاب علمى بأدق المعانى لكلمة علم ؛ وهذا وحده يكفى لأن يقيم الشرقيون مظاهر التكريم للشيخ عبد الواحد ؛ اعترافاً منهم بالجميل . والله الموفق .

٤ - دفاعه عن الإسلام

لقد أخذ المبشرون منذ زمن بعيد يخلقون الأباطيل ضد الإسلام ، ولكنهم كانوا كناطح الصخرة يرتد عنها واهن القوى ، والله غالب على أمره .
(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

لقد اتهم المبشرون الإسلام بأنه لا يثمر الروحانية العميقة ، فرد الشيخ عبد الواحد هذه الشبهة ردًا عنيفاً في فصل عن التصوف الإسلامى ، مقارناً بينه وبين التصوف المسيحى ، وستحدث عنه فيما بعد .

واتهم المبشرون الإسلام بأنه دين سيف ، لم ينتشر بالبرهان ، وإنما انتشر بجد الحسام . وأرجفوا بأن الحضارة الإسلامية لم تتسم بالقوة الذاتية ، التى تجعلها تؤثر فى أقاليم غير التى نشأت فيها ، ولذلك كانت حضارة إقليمية محلية تسهم فى التقدم الإنسانى .

وكما رد الشيخ عبد الواحد على التهمة الأولى فى أبحاثه عن التصوف الإسلامى ، فقد رد كذلك على التهمتين الأخيرتين بما لا يدع لأراحيف المبشرين مكاناً ، ونحن نذكر رده فيما يأتى :

١ - الإسلام والسيف :

تعود الغربيون أن ينظروا إلى الإسلام على أنه دين يتميز بطابعه الحربى ، وإذا ذكر السيف فى النصوص الإسلامية فهمه الغربيون فهمًا حرفيًا ، ولم يتأت لهم قط أن يسألوا أنفسهم عما إذا كان له معنى آخر .

ومما لاشك فيه أن الإسلام لا يخلو من جانب حربى ، ولكن ذلك ليس خاصاً

بالإسلام ، فإنه يوجد في أكثر الأديان ، ويوجد في المسيحية . إننا لا نريد في هذا المقام أن نذكر كلمة المسيح . نفسه : « لم آت لأحمل إليكم سلاماً وإنما أتيت بالسيف » لأنها قد تحمل حمل السخرية .

ولكن تاريخ المسيحية ، في العصور الوسطى ، أعنى تلك العصور التي انتشرت فيها وازدهرت ، يقدم لنا الدليل الكافي على جانبها الحربي ؛ بل إن الديانة الهندية ، التي يأخذ عليها كثير من الناس أنها لا تدعو إلى العمل ، لا تخلو من الجانب الحربي الذي يتمثل في بعض نصوصها .

إن أى شخص لم يعمه رأى فطير عن رؤية الحق ، من السهل عليه أن يفهم أن الحرب ما دامت موجهة ضد هؤلاء الذين يعثون بالنظام الاجتماعي ، فإنها تعتبر مشروعة . من أجل إعادة النظام واستتبابه ، إنها ليس إلا مظهرًا من مظاهر « العدل » حينما يفهم العدل بمعناه الأعم . لابد إذن من الجانب الحربي في كل دين لتحقيق العدالة ، وإشاعة الأمن ، ونشر الطمأنينة والنظام .

ومع ذلك فإن هذه النظرة إلى الحرب إنما هي النظرة الظاهرة الشكلية . أما النظرة الحقيقية الباطنة ، فإنها تنظر إلى الحرب على أنها رمز للجهاد العنيف الذي يجب أن يقوم به الإنسان ضد أعدائه الذين بين جنبيه ، أعنى ضد كل العناصر التي تعمل في داخله ضد النظام والوحدة . وسواء كنا بصدد النظام في المجتمع أو بصدد النظام الروحي للشخص ، فإن الحرب يجب أن تتجه أيضاً وباستمرار إلى توطيد التوازن والتناسق - من أجل ذلك تعلق حقيقة « بالعدل » - وإعادة الوحدة نوعاً ما بين مختلف العناصر التي تتعارض وتتصارع فيما بينها ، وهذا يرشد في وضوح إلى أن نتيجة الحرب الطبيعية هي الانسجام .

والعلة الوحيدة التي تبرر وجودها في الإسلام إنما هي السلام ، والسلام لا يتأتى حقيقة إلا بالاستسلام التام للمشئة الإلهية : الإسلام .

وأظن أننا لسنا في حاجة إلى أن نبين العلاقة الوثيقة في اللغة العربية بين كلمة الإسلام والسلام ؛ فإن ذلك من الواضح بحيث لا يحتاج إلى تبيان . وفي السنة الإسلامية يتمثل هذان المعنيان للحرب ، وتمثل نسبة أحدهما إلى الآخر واضحة جلية في حديث شريف قاله الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات وهو : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . فالجهد المقدسة الخارجية هي الجهاد الأصغر ، في حين الحرب الداخلية ، حرب النفس ، هي الجهاد الأكبر . وأهمية الجهاد الأصغر إذن تعتبر ثانوية بالنسبة لأهمية الجهاد الأكبر . وفي مثل هذه الأحوال يكون من الطبيعي جداً أن ما يستعمل في الحرب الخارجية قد يتخذ رمزاً فيما يتعلق بالحرب الداخلية ، ويتمثل ذلك على الخصوص فيما يتعلق بالسيف . ومما ينبغي ملاحظته أن الخطيب في أثناء خطبة الجمعة ، يمسك بيده سيفاً . وإنه لمن الواضح أن الخطيب حينئذ ليس في حالة حرب بالمعنى العادي لهذه الكلمة ؛ على أن سيفه عادة يتخذ من خشب ، فلا يمكن والحالة هذه إلا أن يكون رمزاً . إنه على الخصوص رمز لقوة تأثير الكلام في النفس .

أما حدّاه فإنهما رمز للبناء والهدم بواسطة الأسلوب ، إن الخطيب يمكنه بالخطابة أن يقود المستمعين إلى الإيمان بفكرة ، أو أن ينفي من رءوسهم الإيمان بها . وهذه المعاني الرمزية للسيف لا توجد في الإسلام فحسب ، وإنما وجدت في غيره من الديانات . والسيف ، أحياناً ، رمز للمحور ، وهذه الفكرة نفسها تذكرنا بالهدف الذي اتخذه الإسلام للحرب المقدسة ، سواء كانت داخلية أم خارجية - أعني التناسق والانسجام - ومن البين الواضح أن المحور هو المكان الذي ينسجم عنده المتعارضون ويزول تعارضهم ، أو بتعبير آخر : هو مكان التوازن الكامل ، وهو الوسط الذي لا يطرأ عليه التغير .

ومما ينبغي ملاحظته بالنسبة للإسلام ، أنه يفرق بين « حرب » و « جهاد » ؛

فإذا كان الأمر أمر مبادئ عليا ، أمر إعلاء كلمة الله : فالواجب « الجهاد » أعني الحرب المقدسة ؛ الحرب من أجل الحق . وذلك هو المشروع في الإسلام . أما غير ذلك فإنه حرب وليس بجهاد . وهكذا يرمز السيف في الإسلام إلى التوازن الاجتماعي « العدالة » . وإلى سيطرة الإنسان على أهوائه « الجهاد الأكبر » وإلى وجوب انسجام الفرد والمجتمع في وحدة لا تعارض فيها كوحدة المحور الذي لا يعتريه التغير أبداً .

إن ما سبق إنما هو جمع لبعض الملاحظات التي كان من الممكن أن تتوسع فيها وتعمق ولكنها ، على ما هي عليه ، تبين في وضوح أن الذين لا يفهمون من معنى السيف في الإسلام إلا المعنى المادي بعيدون كل البعد عن الحقيقة .

٢ - أثر الثقافة الإسلامية في الغرب :

إن كثيراً من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية ، أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية في القرون الماضية ؛ بل ربما لم يدركوا منهما شيئاً مطلقاً ، وذلك لأن الحقائق التي تلقى إليهم ، حقائق مشوهة ، حظها من الصحة قليل ، فإنها تبالغ كل المبالغة في الخط من شأن الثقافة الإسلامية ، والتقليل من قدر المدنية العربية ، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك . ويلاحظ أن دراسة التاريخ في المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير . بل إن الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف ، قصداً في كثير من الحوادث عظيمة الشأن جليلة الخطر . مثال ذلك ما هو شائع معروف من أن أسبانيا ظلت تحت الحكم الإسلامي عدة قرون في حين لا يذكر التاريخ الغربي أن صقلية والجزء الجنوبي الحالي لفرنسا كانا تحت الحكم الإسلامي أيضاً . وربما عزا البعض هذا الإهمال من المؤرخين إلى تعصبهم الديني ، ولكن ما هي حجة المؤرخين المعاصرين - وغالبيتهم

لا ديني - في موافقتهم أسلافهم في قلب الحقائق ؟ لهذا ينبغي أن ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم ، مما منعهم عن إدراك الحقائق الصحيحة ، ومقدار ما هم مدينون به للشرق . والأغرب من ذلك كله : أنه بينما يعتبر الأوروبيون أنفسهم الورثة المباشرين للمدنية اليونانية القديمة ، فإن الحق يدحض زعمهم هذا ، إذ أن الواقع المعروف من التاريخ نفسه ، يثبت لنا أن علوم اليونان وفلسفتهم لم تنتقل إلى الأوروبيين إلا بواسطة المسلمين . وبعبارة أخرى لم تصل المخلفات العقلية لليونانيين إلى الغرب ، إلا بعد أن درسها الشرق . ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم زمناً طويلاً ؛ بل ربما لم يدركوها كلية . وينبغي أن نلاحظ أننا نبحث هنا عن مقدار تأثير الحضارة الإسلامية لا العربية فحسب ، كما يختلط على البعض أحياناً ، وذلك لأن معظم من حاولوا نقل هذه الثقافة الإسلامية لم يكونوا من العرب الخُلص ، وإذا كانت لغتهم عربية ، فإن ذلك ناتج عن تأثيرهم بدينهم الإسلامي . وما دمنا قد ذكرنا اللغة العربية . فإننا نلاحظ دليلاً واضحاً يثبت لنا انتقال المؤثرات الإسلامية في الغرب ؛ وهو تلك الكلمات العربية الأصل والمنبت ، التي تستعمل تقريباً في كل اللغات الأوروبية ؛ بل مازالت تستعمل حتى وقتنا هذا ، على أن معظم الغربيين الذين يستعملونها يجهلون حقيقة مصدرها كل الجهل . وإنما أن الكلمات هي التي تستعمل لنقل الأفكار ، وإظهار ماتكنه النفوس ، فإن من السهل علينا جداً أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الإسلامية نفسها ، وفي الحق أن تأثير الحضارة الإسلامية ، قد تناول للدرجة بعيدة وبشكل محسوس . كل العلوم ، والفنون والفلسفة . وغير ذلك . وقد كانت بلاد الإسبان مركز الوسط الهام الذي انتشرت منه تلك الحضارة . وليس غرضنا الآن أن نفحص كل هذه الأنواع بالتفصيل . ونرى مقدار ما خلفته الثقافة الإسلامية فيها . ولكننا نركز بحثنا في بعض نقط ، نعتقد أنها من الأهمية بمكان ، وإن قل من يدركها

في وقتنا هذا .

أما عن العلوم فمن السهل أن نفرق بين العلوم الطبيعية . والعلوم الرياضية ، فأما عن الأولى فإننا نعلم علم اليقين أنها انتقلت بكلياتها وجزئياتها إلى أوروبا ، عن طريق الحضارة الإسلامية ، مصبوغة بالنصبغة الإسلامية تماماً . فالكيمياء احتفظت دائماً باسمها العربي الذي يرجع أصله إلى مصر القديمة . والذي كان له معنى من أعمق المعاني التي لم يعرفها الكيميائيون الحديثون حقيقة . ولنضرب مثلاً آخر بعلم الفلك ، فإن أكثر اصطلاحاته الخاصة ما تزال محتفظة في كل اللغات الأوروبية بأصلها العربي . كما أن كثيراً من النجوم ما يزال علماء الفلك في كل الأمم يطلقون عليها أسماءها العربية . وهذا يرجع إلى أن مؤلفات الفلكيين اليونانيين القدماء . مثل بطليموس الإسكندرية . كانت معروفة في التراجم العربية . ومجتمعة مع المؤلفات الإسلامية . ومن السهل جداً أن نوضح أن كثيراً من المعارف الجغرافية الخاصة بالمناطق السحيقة في آسيا وأفريقيا ، عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيراً من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمّة . أما من ناحية الاختراعات - وهي تابعة للعلوم الطبيعية - فقد انتقلت أيضاً بنفس الطريق أي بواسطة المسلمين . وما تزال قصة الساعة المائية التي أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان . عالقة بالأذهان ، ثابتة الواقع .

أما الرياضيات فيجب أن نعيها التفاتاً خاصاً . وذلك لأهميتها في هذا البحث . فإن ميدانها الواسع لا نرى فيه علوم اليونان فحسب ؛ بل نرى فيه أكبر الأثر للثقافة الإسلامية . مضافاً إليها علوم الهند أيضاً . أما اليونانيون فقد بلغوا درجة الكمال في الهندسة . وعلم الأرقام . ويلاحظ أن الأخير يرتبط دائماً مع الأول في الأشكال الهندسية المناسبة . وهذا التوافق الذي كان للهندسة يظهر لنا جلياً في الجملة التي حفرها أفلاطون على مدخل مدرسته : « لا يدخله إلا عالم بالهندسة » .

ولكن يوجد علم آخر من الرياضيات يتبع علم الأرقام ، ولكنه لم يكن معروفاً - كالعلوم الأخرى - في اللغات الأوربية بالاسم اليوناني ، لأنه لم يكن معروفاً بين اليونانيين القدماء ؛ هذا هو علم الجبر الذي كان مصدره الأول الهند ، والذي يسهل علينا من اسمه العربي أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب .

حقيقة أخرى حان حين ذكرها ولو أنها قليلة الأهمية ، ولكنها تدل أيضاً على ما قدمناه ، وهي أنه من الشائع في كل مكان أن الأرقام التي يستعملها الأوربيون هي نفس الأرقام التي استعملها العرب . ولو أن مصدرها الأول هو الهند ، لأن علامات العد التي كان العرب يستعملونها قديماً ما هي إلا حروف الهجاء نفسها . وإذا انتقلنا من بحث العلوم إلى بحث الفنون ، فإننا نلاحظ أن كثيراً من المعاني التي جادت بها قرائع الكتاب والشعراء المسلمين في الأدب والشعر ، قد أخذت واستعملت في الأدب الغربي ؛ بل أكثر من هذا ، فإن بعض كتاب الغرب وشعرائه قد قلدوا تمام التقليد بعض كتاب المسلمين وشعرائهم . وكذلك نلاحظ أن أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضوح ، وبصفة خاصة في فن البناء ، وذلك في العصور الوسطى ؛ فن ذلك شكل القوس المعقود الذي صار متميزاً بنفسه حتى صار يدل على طريقة خاصة للبناء كان يستعمل فيها . وقد كان مصدره فن البناء الإسلامي ، ولو أن كثيراً من النظريات الخيالية اخترعت لمخالفة هذه الحقيقة . ومما هدم هذه النظريات وجود رواية يتناقلها دائماً البناؤون أنفسهم ، وهي تثبت انتقال هذه الطريقة من الشرق . وقد كان لهذه الحقيقة صفة سرية جعلت لغتهم معنى رمزياً ، فكانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الأرقام . وقد نسب هذا العلم في مصدره الأول لهؤلاء الذين بنوا هيكل سيدنا سليمان . ومهما يكن من أمر هذا المصدر البعيد فلا يمكن بحال ما أن يكون انتقاله إلى أوروبا إلا بواسطة العالم الإسلامي . ومما يحسن ذكره أن هؤلاء المماريين - وقد كانوا هيئات متحدة لها

شعائر خاصة - كانوا يعتبرون أنفسهم كأنهم أجنب في الغرب حتى في مساقط رءوسهم . وقد ظلت هذه التسمية حتى الآن . على أن هذه الأمور صارت غير معروفة إلا للقليلين جداً .

في هذه النظرة العجلى ، ينبغي أن نذكر بصفة خاصة نوعاً آخر هو الفلسفة . فقد بلغ التأثير الإسلامى في القرون الوسطى مبلغاً عظيماً لم يستطع أشد خصوم الشرق تعصباً أن ينكر قوته . وهذا صحيح فإن أوربا لم يكن فيها من وسيلة أخرى لمعرفة الفلسفة اليونانية في ذلك الزمن . وذلك لأن التراجم اللاتينية لأفلاطون وأرسطو - وهى التى استعملت حينئذ - لم تنقل أو تترجم من الأصل اليونانى مباشرة ؛ بل أخذت من الترجمة العربية السالفة . وأضافوا إليها ما كتبه المعاصرون المسلمون في الفلسفة الإسلامية . ومن أولئك المعاصرين : ابن رشد ، وابن سينا . وغيرهما .

والفلسفة التى كانت معروفة في ذلك الوقت باسم « الفلسفة المدرسية » كانت تتميز بها الفلسفة الإسلامية ، واليهودية ، والمسيحية ، ولكن من الإسلام استمد النوعان الآخران مصدرهما ؛ بل إن الفلسفة اليهودية ، وهى التى ازدهرت في أسبانيا . كانت لغتها عربية . وذلك ثابت ويرى في المؤلفات الهامة لموسى بن ميمون . وعنه نقل فيلسوف يهودى آخر - بعد قرون عديدة - كثيراً من فلسفته الخاصة . ذلك هو « سبينوزا » .

وليس من الضروري أن نصر على بحث أشياء معلومة لكل من درس شيئاً من تاريخ الفكر . بل يحسن أن نبحث أخيراً في أشياء أخرى من نوع مختلف لا يعرفه معظم الحديثين . خصوصاً في الغرب . بل لا يكاد يكون لأحد ما أية فكرة ذات أهمية عنه . ولكن من وجهة نظرنا نرى له أهمية كبيرة أكثر من كل المعارف الخارجية التى تحتويها العلوم والفلسفة . وما نقصده بهذا هو التصوف . وما يتصل

به . أو يعتمد عليه من أنواع المعرفة الأخرى الثانوية . التي تختلف عن تلك العلوم التي يدرسها الحديثون كل الاختلاف .

وليس للغرب في وقتنا هذا شيء من أمثال تلك العلوم على حقيقتها . بل أكثر من هذا أن الغرب لا يعرف أيضاً من المعارف الحققة كالتصوف أو ما يماثله شيئاً مطلقاً . على أن هذه الحال لم تكن هي الحال في القرون الوسطى . وهذه المعارف لها أيضاً أثرها الإسلامى البين الواضح بأجلى وضوح في تلك العصور . ومن السهل جداً ملاحظة أثر ذلك في بعض المؤلفات التي تختلف معانيها الحقيقية عن الثمرات الأدبية كل الاختلاف .

وقد بدأ هذا النوع يتضح لبعض الأوربيين أنفسهم . وذلك خلال دراساتهم لأشعار « دانتي » الإيطالى . ولكنهم لم يدركوا ماهية طبيعتها الحققة . ومنذ سنين عدة كتب المستشرق الإسباني « دون ميغيل آسين بلاثيوس » كتاباً عن المؤثرات الإسلامية في مؤلفات « دانتي » جاء فيه أن جزءاً كبيراً من الرموز والإشارات التي استعملها « دانتي » كان يستعملها قبله بعض المحققين والكتاب المسلمين . وبخاصة سيدى محيى الدين بن عربى . ولكن لسوء الحظ نرى أن ملاحظاته لم تتعد التخيلات الشعرية . على أن هناك كاتباً آخر إيطالى الجنس . هو « لويجى فاللى » . تعمق بعض التعمق في البحث . فذكر أن دانتي لم يكن وحده الذى استعمل الإشارات المماثلة لما كان مستعملاً في الشعر الصوفى . الفارسى والعربى . بل إن كثيراً من الشعراء المعاصرين لدانتي في مملكته كانوا أعضاء في اتحاد أو هيئة سرية تسمى « أمناء الحب » وكان دانتي نفسه أحد رؤساء تلك الهيئة .

ولما حاول « لويجى فاللى » أن يحل ألغاز لغتهم السرية لم يتمكن من إدراك ما كانت تتميز به تلك الهيئة . أو ما يماثلها من الهيئات التي وجدت في أوربا أيام القرون الوسطى . على أن الحق هو أن بعض الشخصيات السرية كانت تستتر خلف

تلك الهيئات لتكون مصدر إرشاد لها . وقد كانت تلك الشخصيات السرية ، تعرف بأسماء مختلفة ، من أهمها تلك التسمية « إخوان الوردية والصليب » وليس هؤلاء قواعد مكتوبة يسرون عليها . كذلك لم يكن لهم اجتماعات معينة . وكل ما كانوا يعرفونه به . هو أنهم وصلوا إلى حالات روحية خاصة . ويمكننا أن نصفهم بأنهم صوفيون غربيون ، أو على الأقل متصوفة في درجات عالية .

وقد قيل إن هؤلاء « الإخوان » الذين كانوا يتسترون بألبسة البنائين ورموزهم ، كانوا يعلمون الكيمياء وعلوم أخرى تماثل ما كان مزدهراً من العلوم في العالم الإسلامي .

والحق أنهم كانوا حلقة اتصال بين الشرق والغرب . وكانوا على اتصال مباشر بالصوفيين المسلمين . وقد كان ذلك الاتصال يستمر وراء رحلات مؤسسيهم الخيالي . وليس هذا معروفاً في التاريخ الذي لا يتعمق كثيراً في البحث ، بل يكتفى فقط بمظهر الحوادث الخارجي ، مع أن هناك المفتاح الحقيقي الذي يفتح لنا مغاليق كثير من الأشياء ولولاه لاستمرت دائماً غير واضحة بالمرّة .

هذا جزء من كل من أثر الثقافة الإسلامية في الغرب . ولكن الغربيين لا يريدون أن يعترفوا به في وضوح . لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الشرق عليهم . ولكن الزمن كفيل بتبيان الحقائق التي يريدون إخفاءها .

٥ - في المعرفة

تمهيد :

كيف نصل إلى المعرفة ، المعرفة الحقّة ، معرفة ما وراء الطبيعة ؟ كيف نخترق الحجب ، ونكشف المساتير ، ونزيل النقاب عن الملا الأعلى ، فنصل إلى الروح ، وإلى الملائكة ، وإلى الله ؟ كيف نصل إلى اليقين ؟ أياكون ذلك عن طريق

الروحانية الحديثة ، أم عن طريق الفلسفة الحديثة ؟
 سنذكر فيما يلي رأى الشيخ عبد الواحد فى هذين الأمرين اللذين يعدهما بعض
 الناس خطأ وسائل للمعرفة .
 ثم نتبع ذلك بالوسيلة الصحيحة للمعرفة فى نظره وهى التصوف .

١ - الروحانية الحديثة وخطوها :

من أخطر الأغلاط الغربية الحديثة . واحدة ثبتت فى أمريكا منذ أقل من مائة
 سنة^(٧) أى : سنة ١٨٤٧ م . وعرفت باسم [الروحانية الحديثة] ويمكن تحديد
 معناها بأنها ثبوت إمكان الاتصال بالموتى بواسطة وسائل مادية .. أما كيف بدأت
 أولاً : فإنها لاحت فى بعض ظواهر طبيعية كانبعاث أصوات . وتحرك أشياء فى
 أحد المنازل بدون ما سبب واضح لها . أما هذه الظواهر فقد لوحظت فى كل زمان
 ومكان . فلا يمكن القول بأنها ظواهر شاذة . فلماذا إذن يستولد منها الغربيون عقيدة
 جديدة فى تلك الحالة الخاصة ؟ فى حين لم يفكر أحد فى شىء من ذلك من قبل !
 الحق أنهم ثاروا على تلك المادية المنتشرة فى العالم فعملوا على إيجاد وسيلة سرية
 تعمل على هدمها . ولكن إذا اعتبرنا أن غايتهم من ذلك حسنة فإن الوسائل التى
 استعملوها لبلوغ غايتهم لم تكن كذلك .

وحقيقة أن الباطل هو شر دائماً . ولذا يمكننا أن نوافق على ما يدعيه البعض
 من أن الغاية تبرر الوسطة . وفى الواقع أن الوسطة إذا لم تكن صالحة تماماً فإنها
 كثيراً ما تنقلب سريعاً ضد الغاية المرجوة . وإنما إذا تخيلنا صورة الحياة بعد الموت .
 على مثال صورة حياة الجسم على الأرض . وهى التى انقاد إليها أتباع العقيدة

الجديدة ، فيمكننا أن نعتبر أن ما يسمى « الروحانية الحديثة » ما هي في الحقيقة إلا مادية من نوع آخر ، بل أكثر ضرراً من المادية ، لأنها تخلق الأوهام والتخيلات في حقيقة طبيعتها حتى تتمكن من التأثير في الذين لم يقبلوا الآراء المادية الصريحة الشائعة ، أكثر من هذا أن فيها خطراً آخر ، ويكفي أن نرى كم من الأشخاص - بواسطة ما يسمى الاتصال بالمولق - أصيبوا بالجنون أو الخراب ثم الانتحار ، عند ذلك يكون لنا الحق في التصريح بأن هذا التعليم الذي يجلب مثل هذه العواقب ، هو لعنة على بني الإنسان ، وهذه العدوى المزمنة التي رسخت في عقول الكثيرين من الأشخاص الطاهري السريرة ، وذوى النوايا الطيبة ، هذا الخطر ينتشر في الشرق ، بل لا نغالي إذا قلنا إنه امتد إلى الشرق الأقصى حيث نلاحظ - منذ سنوات قليلة - انبعاث دين جديد من الهند الصينية يسمى « كاوداي » ويدعى أنصاره أنه لا يستمد تعاليمه عن طريق الوحي بل يستمدّها مباشرة من الله بواسطة « سلة » متحركة .

وينبغي أن يفهم القارئ أننا بعيدون جداً عن إنكار حقيقة أنواع الظواهر المختلفة التي يرى فيها « الروحانيون الحديثون » برهاناً على وجهة نظرهم ، فإن هذه الظواهر - كما سبق القول - كانت معروفة دائماً عند القدماء ، بل كانوا أكثر علماً بها ممن يعرفونها الآن .

ولكننا ننكر تفسيرها الحديث الذي تفسر به هذه الحقائق بنسبتها إلى فعل « الأرواح المجردة » . وهي التي يقصد بها الشخصيات الإنسانية التي زالت عن عالم الوجود الأرضي .

كيف يقبل التفكير السليم أن « الأرواح المجردة » يمكنها تحريك مائدة ، أو استيلاء قوة خفية على اليد نجعلها تكتب أو ترسم ، أو تفعل أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ؟

مثل هذه الإثباتات لا تدل إلا على عدم العلم - الذى أصبح تقريباً هاماً فى وقتنا هذا - باختلاف الظروف فى حالات الوجود المتباينة . وينبغى أن نذكر أنه إذا أمكن الإنسان أن يتصل بالأرواح - إنسانية أو غير إنسانية - فإن ذلك لا يكون إلا بأن يصير نفسه متيقظاً فى حالة وجوده الخاصة التى تطابق الحالة نفسها . والتى تكون فيها تلك « الأرواح » فعلاً . ولكن هذه مسألة أخرى ليس لها أية صلة بتعاليم وأفعال « الروحانية الحديثة » .

وفى الحقيقة توجد عناصر كثيرة من أنواع مختلفة ربما ساعدت على إيجادها . على حسب الحالات المختلفة . ولكن ينبغى أن نفرق بين هذه العناصر بدقة . وسنشير بإيجاز إلى أنواعها المختلفة حيث لا يمكننا أن نفسر كلا منها تفسيراً كاملاً مفصلاً . لأن ذلك لا يتسع البحث فيه الآن :

(١) من أهم العناصر التى تحدث هذه الظواهر تلك التى تحدث فى معظم الحالات . وكثيراً ما تكون منفردة . وهى التى فى قوى الإنسان العقلية . هذه القوى التى يمكن أن تتسع وتكبر أكثر مما يظنه علماء النفس الحديثون . أو الذين يشتغلون بدراسة الحالات الشاذة .

هذه القوى كامنة فى كل إنسان . وإذا نمت واتسعت بطبيعتها فإن ذلك يكون فى حالات نادرة . لكن يمكن تسميتها صناعاتٍ فى بعض الأشخاص بوضعهم فى حالات خاصة . مثل تلك الحالات المعروفة تحت الاسم العام « التنويم المغناطيسى » . وهى التى فيها يمكن الإنسان أن يحس بأشياء بدون أن يتصل جسمه بها . وكذلك يمكنه تحريكها . كما يمكنه أيضاً رؤية أشياء مخفاة عن حواسه العادية . أو بعيدة عنه فى الزمان أو فى المكان وغير ذلك .

ولا يمكن لغير الرجل المادى - فى أضيق حدود معنى هذه الكلمة - أن يقول بأن الإنسان محدود بالقياس إلى جسمه . ولكن الروحانيين - بتسميتهم هذه التى

درجت في الفلسفة الغربية - يشكّون جدّاً في قدرة الإنسان على احتمال ما هو فوق مستوى قواه الجسمية . أو تلك القوى التي تتصل وثيقاً بالجسم وتظهر في الحياة المعتادة لأي فرد . ومن جهة أخرى ينبغي أن نذكر أن تلك التي تسمى القوى الشاذة - وهي التي نتكلم عنها - ليس فيها شيء روحى في الحقيقة أكثر من القوى المعتادة .

وإن التصور الذي جعل الإنسان الحي يتكون من جزأين أو عنصريين فقط - وهو ما انتشر في الفلسفة الحديثة خاصة وفي العقل الغربي عامة - هذا التصور هو الذي سبب هذا الاضطراب ، لأنه صيّر الناس جاهلين بالفرق الأساسي بين النفس والروح . وإن طبيعة المقدرة التي تظهر في الأشخاص الذين ينامون تنويماً مغنطيسياً - وهم الذين يسمونهم «الروحانيون الحديثون» بالوسطاء - ليست «روحية» بالمرّة ، بل هي «نفسية» تماماً ، وهي تخص الحالات التي يمكن وصفها بأنها ألطف من الحالات العادية كما أنها أكثر اتساعاً ، وأعلى منزلة أيضاً في درجات الوجود : كما يجب أن تكون الحالات الروحية .

وإنما مثل هذه القوى في الإنسان هو إنماء الإحساس بالاتساع لا الإحساس بالارتفاع .

هذه الحالات النفسية التي تظهر إما في التنويم المغنطيسي . أو في بعض حالات من الأمراض العقلية ينشأ عنها ما يسميه علماء النفس خطأ «بالشخصيات المتعددة» لأنها تظهر منفصلة عن الحالات العادية . وربما كان هذا خطأ في استعمال الكلمات . وإلا فإنه يكون خطأ فاحشاً لأنه لا يمكن لعقل ما أن يتصور أن الإنسان الحي له أكثر من شخصية واحدة .

وحقيقة أن كل حالات الكائن ما هي الا مظاهر جزئية لشخصية واحدة غير متغيرة .

وصحيح أن الإنسان في حالاته العادية لا يحس بالأعمال التي يؤديها ، أو المعارف التي يستقيها في الحالات الأخرى . ومن السهل جدًا أن ندرك هذا ، لأن الحالة العادية هي أضيق الحالات مجالاً . كما أنها لا تعتمد إلا على الشروط الجسمية ، في حين الحالات الأخرى تكون مطلقة الحرية . وإننا لا نجد غرابة في هذا لو فكرنا فقط في التفرقة التي توجد عادية في كل فرد بين شعوره بحالة اليقظة وشعوره بحالة النوم .

ينبغي أن نوجه بحثنا نحو نقطة واحدة : هي أن كل ما يسمى « بالظواهر » إما أن يصدر من القوى العقلية في الحالات العادية ، أو من قوى الحالات النفسية الأخرى . هذه الظواهر تمثل فقط الجزء الظاهري من الكائن ، وواضح من الكلمات نفسها أن « الظواهر » - من أي نوع أو درجة - هي كلها من الظاهر وليست من الباطن ؛ أي أنها تعديلات سطحية للكائن وليست عناصر مكونة لذاته الباطنية العميقة ، والقوى التي يمكن تسميتها تماماً باطنية ينبغي أن يبحث عنها في حالات تختلف تماماً عن الحالات النفسية ، وتسمو كثيراً عن الظواهر العادية أو الشاذة .

(ب) إذا رجعنا إلى الحالات النفسية التي تكلمنا عنها فينبغي أن نقرر أن الإنسان في هذه الحالات - كما في الحالة العادية - يحاط بقوى فعالة مختلفة ألطف من تلك التي في عالم الجسم والحس ، ولكن بعضها ربما كان مشابهاً - لا ذاتياً - لقوى مثل الكهرباء وغيرها ، ولا ينبغي أن هذه القوى يمكن للطبيعي العادي الاستدلال عليها بتأثيراتها المحسوسة .

هذه القوى النفسية التي كان يعبر عنها [الطاو - صى] الصينيون بأنها « قوى ساجمة » كان لها قوانين مثل أي قوانين أخرى طبيعية . وربما كان الغرض منها علمياً فإذا أمكن أن تجمع وتركز بشروط خاصة . فإنه ينبعث منها تأثيرات ربما تظهر غريبة

لمن يجهلون مثل هذه الأشياء . مثلها في ذلك مثل ظهور التأثيرات الكهربائية لمن يجهلون الطبيعيات .

أضف إلى هذا أن الإنسان إذا اتصل بمثل هذه القوى يمكنه - بدون أن يشعر - أن يلبسها لوقت ما شخصية ظاهرية بزوال شخصيته الخاصة . ومن هذا يمكننا تفسير ظواهر كثيرة .

وهنا يمكننا أن نرى أحد الأسباب للأخطار التي يقع فيها من يمارس « الروحية الحديثة » أو ما يماثلها ، يعرض الفرد نفسه لتأثيرات ربما أثرت فيه أحوال كثيرة فتبعث في كائنه الخاص عناصر الاضطراب ، وعدم الاتزان النفسى ، تذهب به أحياناً إلى نوع من الوحدة والعزلة . ويمكننا أن نجد ما يماثل هذه الوحدة في بعض ما يسمى « بالشخصيات المتعددة » التي تكلمنا عنها سابقاً .

هذه الأخطار لا يستهان بها . وربما لا يمكن تجنبها إذا كان الأشخاص الذين يتصلون بهذه القوى جاهلين تماماً بطبيعتهم . كما هى الحال مع الأكثرية العظمى لمعاصرينا ، وخاصة « الروحانيين الحديثين » الذين هم في الحق كالأطفال يلعبون بالنار .

(ح) الإنسان في حالته العقلية أو النفسية يجد نفسه متصلاً - كما في الحالات العادية - بكائنات أخرى موجودة في حالات تتفق مع حاله . وأهم ما نقصده هنا بالكائنات هم بنو البشر . وهذا هو ما يحدث لهؤلاء الذين يشتركون في « جلسات » الروحانية الحديثة بدون رغبة منهم أو معرفة فيوصلون أفكارهم إلى الوسيط ، وليست أفكارهم هى المطابقة للواقع حينئذ فحسب . بل أيضاً وغالباً أفكارهم البعيدة التى تلوح لهم كأنهم تسوها لبعد العهد بها . فيعجبون جداً من اكتشافها ، ويمكن للأشخاص الغائبين أيضاً أن يتصلوا بأنفسهم مهما كانوا بعيدين إذا كانوا في مثل هذه الحال متجردين من كل القيود الجثمانية . ويمكن إجراء هذه التجربة

بشعور من الأشخاص . أوبدون إحساسهم بها . وتحدث الأولى في الحالات النادرة للأشخاص الذين لهم معارف خاصة . والذين يعملون هذا لغرض محدود كما حدث عند ابتداء العلم « بالروحانية الحديثة »

وتحدث الثانية في الحالة العامة وهي اتصال أى فرد - وخاصة في أثناء النوم - ويجدر بنا أن نضيف إلى ما ذكر أنه يوجد بعض المظاهر في الحيوانات لأن لهذه أيضاً حالات لطيفة في كائنها الخاص .

(د) وفي بعض الحالات تحدث الظواهر - طبيعية كانت أو مفتعلة - بعناصر تنبعث حقيقةً من الموتى ، ولكن ليس اتصال فعلى بشخصياتهم الحقيقية ؛ وهذه العناصر ما هى إلا بقايا نفسية مشابهة لبقايا الجسم التى يتركها الميت بعده بتحله . لأنه يوجد في الطبقة النفسية عناصر تلازم الخالد من الكائن . وهذه العناصر أقرب إلى الحالة الجسمية . ولذا يمكنها أن تولد تأثيرات حسية . وهذه البقايا النفسية تمثل حقيقة حالات خاصة من « القوى السابجة » التى سبق ذكرها قبلاً ، وإذا ذكرناها على حدة فإن ذلك لأن مظاهرها جميعها يمكن اعتبارها كمظاهر حسية للموتى ، ولكن في معنى يختلف تماماً عما يقصده « الروحانيون الحديثون » ، مثل هذه العناصر يمكن أن تأخذ مظهراً مؤقتاً للحياة ثم تعطى حينئذ إجابات آلية تعكس بعضاً من أفكار الفرد التى سبق أن كانت تختص به .

وهذا الطيف من الشخصية - إذا أمكن تسميته كذلك - هو ما كان يسميه اليهود القدماء [أوب] كما يرى في بعض الكتب المقدسة ، وقد أعطى إجابات في « الاستحضارات » التى استعملت بين معظم الناس ، ولو أن الدين يحرمها بصفة عامة .

(هـ) وأخيراً ليكون الموضوع تاماً ؛ ينبغى أن نذكر إمكان تداخل تلك الكائنات التى ليس لها حياة جسمية . هذه الكائنات - التى تعتبر غير إنسانية -

ليس لها مطلقاً طبيعة روحية خالصة . ولكنها بالعكس تقرب جداً من العالم الحسى ، ولهذا يمكنها أحياناً أن تحدث تأثيرات فيه . ونريد هنا أن نشير بصفة خاصة إلى فعل الجن - ولكن ليس هنا مجال الإفاضة في هذا الموضوع - وبما أنه لا يوجد شيء روحى فى كل هذه الأشياء أكثر من تلك التى لها اتصال بالحياة الأرضية ؛ فلا ضرورة للقول بأنه لا يمكن المقارنة بينها وبين الأشياء الأخرى التى تختلف فى طبقتهما ؛ كوحى الأنبياء - عليهم السلام - أو التى فى طبقة أقل ارتفاعاً ، كالمقدرة الخاصة للأولياء - رضى الله عنهم - وهى التى تنبعث فى مبدئها من العالم الروحى . وينبغى أن نقرر أن هذه المبادئ تختلف فى حقيقتها . فى حين تتفق فى المظاهر الخارجية . ولكن هذه أيضاً مسألة أخرى تلك مسألة « المؤثرات الروحية » وليس لها صلة بموضوعنا الحالى . أما من حيث الظواهر النفسية فإننا سنصف هذا : بعض الغربيين - وليس هؤلاء الذين يقبلون فحسب وجهة نظر الروحانية الحديثة . بل الذين يسمونها أغراضاً علمية - يحاولون بكل جهدهم أن يكتشفوا أشياء كانت معروفة تمام المعرفة فى الأزمنة السحيقة عند الأمم الشرقية . ويلاحظون بعض الحقائق ، ولكن يعجزون عن تفسيرها ، فى حين يوجد - كما سبق أن أوضحنا باختصار - كل ما نحتاج إليه لتفسير هذه الحقائق نفسها . بل حقائق أخرى كثيرة لم يكن لديهم أقل فكرة عنها .

والنتيجة :

أن كل من يود معرفة حقيقة مثل هذه الموضوعات ، لا يمكنه أن يجد ضالته فى البحوث الغربية الحديثة . بل عليه أن يرجع إلى المعارف الشرقية القديمة .

٢ - الروحانية الحديثة « رد على رد » :

لو كان الأستاذ فريد بك وجدى قد قرأ ما كتبناه منذ عشر سنين تقريباً عن موضوع « الروحانية الحديثة »^(٨) ، فإنه ما كان ليكلف نفسه عناء جمع هذه الملاحظات التى كتبها فى الجزء الماضى من هذه المجلة . لأننا أجبنا عن كل منها إجابة تامة . وأكثر إسهاباً مما يمكننا ذلك فى هذه الصفحات القلائل . ومع ذلك سنحاول هنا ثانياً ، أن نحدد مركزنا فى مثل هذا الموضوع ؛ حتى لا يبقى مجال آخر لذلك الاضطراب الذى نشأ من هذا البحث .

ينبغى علينا أولاً ألا ننكر أنه منذ ابتداء ما يسمى بالعصور الحديثة - أى منذ ثلاثة أو أربعة قرون - شك الغربيون فى كل معارف القدماء . ولكن ذلك إنما حدث لأنهم لم يدركوا تماماً معنى وطبيعة هذه المعارف . وفى نفس الوقت يظهر أنهم لم يستطيعوا أن يقبلوا أى شىء خارج عن دائرة التجارب الحسية . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ظهور وانتشار المادية واتساع دائرة البحث اتساعاً غير عادى فى بعض علوم خاصة تختص بالمادة فقط .

وقد كان هذا الأمر فى الغرب فحسب ؛ أما الشرق فإنه لحسن الحظ لا يزال محتفظاً للآن بمعرفته القديمة . ولم يقبل هذه الحدود المتعسفة ولم يستغ أيضاً تعاليم فرنسيس باكون . أو تعاليم ديكارت التى لا توضح شيئاً ما للعقول الشرقية النقية . أى التى لم تتأثر بسموم الأفكار الغربية .

والآن إن فكرة محاربة المادية المنتشرة فى الغرب بواسطة العمل المادى نفسه هى فكرة خاطئة . ولا تؤدى إلى نجاح ما . لأن هذه الوسائل ليس لها من قيمة .

(٨) مجلة المعرفة : ربيع الثانى ١٣٥٠ هـ ، سبتمبر سنة ١٩٣١ م .

إلا في دائرة خاصة ضيقة جدًا ، وإذا تعدتها تكون عديمة القيمة ، ويظهر أن هذه الفكرة نشأت من توهم أن مثل هذه الوسائل هي الوحيدة [الوسائل العلمية] التي يمكن الاعتماد عليها في محاربة المادية ، ولكن هذه أيضاً أوهام غريبة . وفي الحق أن لدينا علومًا أخرى لا تقل في أهميتها وحقيقتها عن سابقتها ؛ تستخدم وسائل مخالفة تمام المخالفة ، غير معروفة للغربيين الحديثين .

وإذا قلنا ذلك ينبغي أن نميز بين حقيقة مسألة الظواهر الشاذة التي نتحدث عنها هنا ، والتفسيرات المختلفة التي أعطيت لها هناك . وإننا لنستغرب جدًا أن الأستاذ فريد بك وجدى لا يزال يصر على النقطة الأولى « للظواهر » لأننا قلنا إن حقيقة هذه الظواهر لا تقبل الشك ، وإنها كانت معروفة في كل العصور ، وفي كل الأقطار ، فإن مثل هذه الحقائق شائعة الوجود وليست نادرة ، ولها من الأنواع ما يكثر عما يدركه الغربيون « الروحانيون الحديثون » أو غيرهم من الذين يحاولون دراستها . وإننا لنأسف على أن الأستاذ فريد بك وجدى - في هذه المسألة - يعدد كثيرًا من أسماء العلماء الأوربيين والأمريكيين ، الذين اشتركوا في هذه الدراسة . كأننا ملزمون أن نقبل ما عليه علينا هؤلاء العلماء ، وإننا لنأسف لأننا لا يمكننا أن نسيغ للشرق أن يعتقد أنه ملزم بأن يتبع الغربيين ، ويتقبل تعاليمهم . وخاصة في أشياء لا تزال حقيقتها معروفة دائمًا في الشرق ؛ في حين أن الغرب ليس إلا باحثًا فيها فقط ، وليس من حاجة إلى القول بأن الذين يبحثون عن شيء هم الذين لا يعرفون حقيقة هذا الشيء .

وأضيف إلى ذلك أن الأشخاص الذين ذكروا ليست قيمتهم متعادلة فلا يمكننا أن نضع في صف واحد رجالا [طبيعيًا] نقدره حق قدره مثل : ولیم كروكس ؛ مع آخر نعتبره « متجربًا بالعلوم » مثل : كاميل فلاماريون ، كما علينا أن نضيف أنه إذا كان بعض الرجال قد قبل « الروحانية الحديثة » فإن كثيرًا منهم اختلفوا في وجهة

نظرهم ، أو ربما صدوا أنفسهم عن أى نظرية أو تفسير ، وإننا نجد بين هؤلاء الذين صاروا « روحانيين حديثين » من اشتغل - لأسباب لا صلة لها - بالعلم مثل : سيزار لومبروزو ، وأولفرلودج ؛ فإن الأول اشتغل بها بعد موت والدته ، والثاني بعد أن قتل ابنه فى الحرب ، وهذا يظهر لنا أن مثل هؤلاء الرجال - بصرف النظر عن علومهم الخاصة - ضعاف القول جداً .

وينبغى أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن بعض العلماء لم يمنعهم تعليمهم من أن يخدعوا بالظواهر المصطنعة ، كما حدث لوليم كروكس مع وسيطته فلورنس كوك . وكما حدث حديثاً مع شارل مريشييه فى الجزائر ، وحدث ذلك سهل الإدراك جداً ، لأن هؤلاء الأشخاص - وهم بعيدون عن حدود علومهم - ليس لهم أية كفاية أكثر من أى إنسان جاهل آخر ، بل ربما وقعوا فى الخطأ بسهولة أكثر من أى شخص آخر ، لأنهم حين ذاك يبحثون فى أشياء تختلف طبيعتها وقوانينها اختلافاً تاماً عن تلك التى اعتادوها ، ولأنهم يحاولون استعمال وسائلهم العادية فى هذه الأشياء ، فى حين هذه الوسائل لم توضع لمثل ذلك مطلقاً .

وماذا نقول فى ذلك التاجر الغنى الذى كان يتاجر بالنبذ « جان ماير » الذى مات . ولقد صرف هذا الرجل ملايين عديدة ، لأنه طمع فى أن يصير يوماً ما بابا « الروحانية الحديثة » ، وقد أثار حرباً بلاشفقة على هؤلاء « الإخوان الدينيين » الذين تعمدوا أن يؤسسوا جمعيات ومكاتب مستقلة ، واضطروا أن يذعنوا لقوة المال ، وكان ذلك بالطبع تحت اسم [الإخوة - والإخاء] ، وقد أسس هذا الرجل نفسه فى باريس معهداً (علمياً) لغرض إخضاع الباحثين الأحرار ، ونقصدهم بهم الذين لم يكونوا « روحانيين حديثين » ، وبتسلمهم منه إعانات مالية لم يكونوا قادرين على أن يعارضوا شيئاً من « الروحانية الحديثة » .

وفى الحق إننا لنجد عاراً فى اضطرارنا إلى التصريح بمثل هذه الأسماء والوقائع

على صفحات هذه المجلة التي نزهها عن ذكر مثل هذه الأعمال .

أما الأخطار التي تنتج من « الروحانية الحديثة » فإننا نؤكد للأستاذ فريد وجدى بأن الجنون والحوادث الأخرى التي تنتج منها ليست شاذة بالمرّة . بل كثيرة الحدوث في الواقع ، فإذا قال لنا إنها تحدث لغير المتعلمين ؛ أجبتنا بأن هؤلاء في الواقع هم العدد الأكبر بين « الروحانيين الحديثين » في كل الأقطار . وليس لنا الحق في أن نترك هؤلاء الناس معرضين بدون وقاية من مثل هذه الأخطار . التي تنشأ من انتشار الأفكار الضارة . وهم على استعداد لقبولها بدون فحص ولا روية . بل ينبغي أن يكون العكس تماماً ، ونضيف فوق ذلك أننا لا نظن مطلقاً أن التعاليم الخارجية كما تحصل في المدارس والجامعات الغربية ؛ يمكن أن تحفظ صاحبها من هذه الأخطار البتة .. وذلك لأن ما يسمون بالأشخاص « المتعلمين » ، أوحى مشاهير « العلماء » يجهلون تماماً هذه الأشياء التي تبحث هنا .

أما تفسير الظواهر بواسطة مقدرة « الوسيط » نفسه فهذا صحيح . ولكننا غير ملزمين بأن نقبله أو نرفضه . لأن بعض الغربيين استساغوه . حدث من هذا القبيل أنهم قرروا أشياء - بدون علم منهم - لم تكن بمستحدثة بالمرّة ، بل كانت معروفة في الشرق منذ آلاف السنين ، ولسوء الحظ نرى أن الغربيين ، يفهمونها في معنى ضيق جداً . لأن معرفتهم بطبيعة الإنسان الحقيقية ومقدرته ناقصة . ولذلك لم يستطيعوا استعمال ذلك التفسير في حالات كثيرة يناسبها تماماً . ولا ينبغي أن نذكر أن تلك القوى التي لها نصيب هام في توليد هذه الظواهر هي قوى عقلية . بل هي قوى نفسية تختلف تماماً ، ويتسع مدلولها ومعناها أكثر من الأولى . ولكن ينبغي أن نكرر ثانياً أنها نفسية وليست روحية بالمرّة . مثل تلك العناصر التي يتركها الرجل بعد موته . والتي ليست لها صلة بالجزء الخالد من كائنه .

ونحن إنما نصر على هذه النقطة ، لأنه برغم أننا أوضحناها سابقاً فإن الأستاذ

فريد بك وجدى يجعلنا نتكلم عن هذه كأنها عناصر روحانية ، وإذا قلنا إن هذه ألطف وليست « من القوى التى فى الجسم » ، بل « من تلك التى فى عالم الجسم والحس » أى أنها من تلك التى تدرس بواسطة العلوم الطبية الحديثة ، فإنها تتسبب من طبيعتها النفسية ، وذلك لأن عبارة « العالم اللطيف » هى ترجمة أدبية للتعبير الهندى الذى يقابل « العالم النفسى » ، هكذا يعبر عنه للمقارنة بينه وبين العالم الحسى ، ولا يمكن أبداً أن يطابق « العالم الروحى » .

وعلى أية حال فإن القوى التى تعمل فى هذه الظواهر - سواء كانت تخص الوسيط نفسه أو أى حى آخر سواه ، أو كانت قوى أخرى خارجية مثل القوى السابجة أو قوى تنبعث من أحياء مثل الجن ، هذه القوى كما ذكرنا سابقاً تقرب جداً من العالم الحسى ، ويجب أن تعتبر حقيقة من طبيعة منحطة ، وفى مثل كل هذه الحالات لا تتداخل القوى العلوية مطلقاً ، ولو أن الأستاذ فريد بك وجدى يؤكد ذلك .. ويعطينا سبباً معقولاً لهذا التأكيد ، ونحن مضطرون لأن ننكر ذلك إنكاراً باتاً - وحينئذ يسقط من تلقاء نفسه كل ما يحتم علينا أن نصدق ظهور شخصية أحد الموتى ، ولو أنه ينبغى علينا ألا نقرر كذب ذلك ، مثلاً نقرر إذا رأينا أحد القردة يقلد حركات الإنسان ، وتستمد هذه القوى مظهر الحس من الأشخاص الذين تظهر بينهم ، ولذا فإن الأفكار التى تعبر عنها هذه القوى تطابق تماماً ما يحول فى خاطر الأشخاص الذين يتسمعونها ، وهذا يفسر لنا لماذا تتناقض ما تسمى « الأرواح » بعضها مع بعض .

خذ مثلاً لذلك : بينما تشيع نظرية « التقمص » فى فرنسا - إذ لا يُعترف بها فى إنجلترا وأمريكا - فإننا رأينا « أرواحاً » مادية فى بعض الرسائل التى تسلمت فى هولندا منذ عشرين سنة ، تنكر الخلود وتثبت أن حياة الإنسان تبقى بعد الموت على الأكثر لمدة ١٥٠ سنة .

والآن ينبغي أن نضيف ما يأتي :

توجد أشياء لا يمكن أن تخضع لوسائل العلوم الغربية الحديثة المادية ، ولذا يقال عنها إنها خرافات أو من خيال القدماء ، في حين هي في الواقع المنفذ الذي يؤدي إلى نوع آخر من العلوم يختلف تماماً عن العلوم المادية ، وهذا العلم القديم هو الذي يجدر بنا أن نسميه - بحق - العلم الصحيح .

وإننا لا نخاف إذا قررنا وجود نفوس بالكواكب ، وأن لها تأثيراً فعالاً على الحوادث الأرضية ، ولا نخاف أيضاً إذا اعترفنا - كما علمنا القدماء - بأن العناصر ليست أربعة بل خمسة ، وأنه لا يوجد أكثر من ذلك أو أقل ، وأن هذه العناصر ليس لها أية صلة بما تسميه الكيمياء الحديثة « المواد الأولية البسيطة » لأنها - أي العناصر - ليست أجساماً بل هي تلك التي تكون منها الأجسام .

لا يمكننا أن نعطي أي أهمية - إذا نظرنا إلى المعرفة الحقة - للعلوم الحديثة ، وهي على الدوام متغيرة غير ثابتة في تفسيراتها ، فإذا سلمنا بالنتائج العلمية التي تنتج من أشياء كثيرة كالكهرباء مثلاً بدون معرفة لطبيعتها ، فلا نسمى هذا علماً ، بل يجب أن يسمى فقط صناعة .

فلا نستطيع مشاركة الأستاذ فريد بك وجدى في تفاوله بنتائج البحوث الغربية ، التي تظهر لنا كأنها تحاليل لا نهاية لها ، ظاهرية لا نفع فيها . وبما أننا نرى أن التقدم في هذه البحوث يؤدي إلى عكس كل ما هو طبيعة روحية ، فإننا لا نشك في صعوبة ، بل استحالة الوصول بهذه البحوث إلى فتح الطريق إلى العالم الروحاني .

وإذا افترضنا حدوث ذلك بأي حادث كان ، فإن ذلك سيكون نهاية العلم الحديث ، والمدنية كما يفهمها الغربيون ، ومع ذلك فن المحتمل جداً ، أن يصل الغربيون إلى ذلك .

وأخيراً نقول : إن الشرق يجب أن يحتفظ بعلمه الخاص ، فإنه أصدق وأتم وأكثر انتشاراً في كل الوجود بدلا من تضيق دائرته في عالم المادة فقط . ولسنا كما يظننا الأستاذ فريد بك وجدى نعيش في زمن غير زمننا . لأن زمننا يختلف عن زمن الغربيين ، فبينما يحلم هؤلاء « بالتقدم » حتى يستيقظوا على صوت إحدى الكوارث . نعرف أن العهد الذهبي كان في الحق عند ابتداء التاريخ البشرى . إذ أعطيت كل المعرفة للإنسان في المبدأ . أخذت تختفى عنه تدريجياً بتوالى العصور ، وتثقل رويداً من عالم الروح إلى عالم المادة . وأخيراً نحن نؤكد أن تلك العقول التى تأثرت بالفكر الغربى سوف تتهمنا بأن كل ما نقرره خرافات . ولكن ذلك لا قيمة له من جهتنا . وإنما نحن نوجه كلامنا هذا لا إلى مثل هؤلاء الأشخاص . بل إلى الشرقيين الحقيقيين الذين يصرون دائماً على أن يكونوا - كما هو الواجب عليهم - محافظين على الحكمة الأبدية .

٣ - القوى السابجة :

عندما بينا العناصر^(٩) المختلفة التى تتضافر فى إحداث تلك الظواهر التى ينسبها الروحانيون المحدثون إلى ما أسموه « بالأرواح » : أشرنا بصفة خاصة إلى واحد منها يلعب دوراً خطيراً : هو عنصر القوى اللطيفة التى أسماها « الطاو - صى » الصينيون [بالقوى السابجة] . ولقد يكون من المهم الآن أن نعطي تفسيراً تكميلياً لهذه النقطة . حتى نتجنب الخلط الذى يقع فيه بسهولة أولئك الذين لهم دراية بالمعارف الغربية الحديثة أكثر مما لهم من علوم الشرق القديمة . وهم لسوء الحظ كثيرون فى أيامنا هذه .

(٩) مجلة المعرفة : جمادى الآخرة ١٣٥٠ هـ . نوفمبر سنة ١٩٣١ م .

لقد نبهنا إلى أن القوى التي نعنيها هنا - لكونها ذات طبيعة نفسية - تكون بالضرورة ألطف من قوى العالم الحسى أو الجسمى . ولهذا فينبغى ألا نخلط بينهما حتى ولو تشابهت نتائجها مع نتائج القوى الحسية بعض الشبه ، مثل هذا التشابه يوجد في الواقع على وجه الخصوص مع نتائج الكهرباء . ولكن هذا التشابه يفسره ما يوجد من تطابق بين سائر القوانين التي تسير كل العوالم وكل الحالات .. ذلك التطابق الذي بواسطته يتحقق التناسق والانسجام في درجات الوجود كلها .

ولهذه القوى السابجة أنواع متباينة تمام التباين ، ونحن نجد في العالم الحسى أنواعاً عديدة من القوى ، ولكننا نجد في العالم النفسى أن الأمور أكثر تعقيداً مما هي هنالك ، ولهذا فالميدان النفسى أكثر امتداداً من الميدان الجسمى . وأقل ضيقاً منه إلى حد كبير ، ويندرج تحت هذه التسمية العامة « القوى السابجة » كل القوى الخارجة عن الأفراد ، وأعنى بذلك كل القوى التي تفعل وتؤثر في الوسط الكونى من غير أن تدخل في تركيب أى كائن معين ، وفي بعض الحالات تكون هذه القوى بذاتها ، وفي حالات أخرى تكون صادرة عن عناصر نفسية منحلة كانت تخص فيما سبق كائنات حية ؛ ومن بينها الإنسان ، كما أوضحنا ذلك في المقال السابق . على أن المقصود في كل الحالات إنما هو صنف معين من القوى الطبيعية التي لها قوانينها كما لغيرها من القوى ، والتي لا تشذ عن تلك القوانين كما لا يشذ غيرها من القوى عن قوانينه ، وإذا لاح أن فعلها إنما يجرى غالباً اتفاقاً ومصادفة ومن غير نظام ؛ فما ذلك إلا لجهلنا بقوانينها ، ويكفى أن نلقى نظرة إلى نتائج صاعقة مثلاً ، النتائج التي ليست أقل غرابة من هذه القوى لنعلم أنه لا يوجد البتة شيء في هذا العالم لا يجرى وفق قانون .

وهذه القوى - كغيرها - يمكن أن يجمعها ويستخدمها أولئك الذين يعرفون قوانينها ، وهنا يجب علينا أن نميز بين حالتين :

تدبير هذه القوى والتصرف فيها على الوجه المتقدم ؛ يمكن أن يكون بواسطة كائنات تنتسب لنفس العالم اللطيف كالكائنات المعروفة بالجن أو بواسطة أناس أحياء يوجد لديهم حالات مطابقة لذلك العالم اللطيف مما يؤهلهم للتأثير فيه ، وهؤلاء الذين يتصرفون في هذه القوى بإرادتهم - سواء أكانوا من الإنس أم من الجن - يلبسون تلك القوى نوعاً من الشخصيات المصطنعة المؤقتة ، وتلك الشخصية في حقيقة الأمر ليست إلا انعكاساً لشخصيتهم الذاتية وطيفاً لها ، ولكنه يحدث أحياناً أيضاً أن هذه القوى عينها يمكن أن تجتذب وتدبر من غير شعور بواسطة كائنات تجهل قوانينها ولكنها هيئت وأعدت لذلك بما لها من خصائص شاذة في طبائعها ، ومثل تلك الكائنات ما اتفق اليوم على تسميته [بالوسطاء] وهؤلاء أيضاً يعبرون القوى التي ينقلون بها شخصية ظاهرية ، ولكنهم يخسرون بإزاء ذلك سلامة حالاتهم النفسية التي يعترها من تلك القوى اضطرابات قد تصل إلى حد الانحلال الجزئي في الشخصية .

ولنا على هذا النوع من الاستحواز اللاشعوري ، أو اللا إرادي الذي يقع فيه الكائن تحت رحمة القوى الخارجية بدلاً من تسلطه عليها .

ملاحظة هامة : هي أن جاذبية هذا النوع يمكن أن تؤثر في هذه القوى ليس فقط بواسطة أناس [وسطاء] كما تقدم ذكره ، ولكنه يحدث أيضاً بواسطة كائنات حية أخرى ، بل حتى بواسطة أشياء غير حية ، أو بواسطة أمكنة معينة تتركز فيها تلك القوى فتنتج بعض الظواهر الشاذة ، هذه الكائنات والأشياء إذا جاز لنا أن نستعمل اصطلاحاً يبرره التشابه بقوانين القوى الطبيعية ، إنما تقوم مقام « الأجهزة المكثفة » ، وهذا التكثيف قد يتم من تلقاء نفسه ، ومن جهة أخرى يستطيع الذين يعرفون قوانين هذه القوى اللطيفة أن يركزوها أيضاً بطرق خاصة وذلك بالاستعانة بمواد أو أشياء معينة طبيعتها توافق النتائج المرغوب في تحصيلها .

وعلى عكس ما تقدم يمكن هؤلاء أيضًا أن يحلوا تكاثف تلك القوى اللطيفة التي كونوها قصدًا بأنفسهم أو بواسطة غيرهم ، أو التي تكونت بذاتها من غير تدخل .

ولهذا التحليل لم يجهل الإنسان - في أى عصر من العصور - ما للأطراف المعدنية المدببة من منفعة في تحليل أو تفريع القوى المكثفة ، وفي هذا مشابهة شديدة بتفريع الظواهر الكهربائية ، وإنه ليحدث إذا ما لمس الإنسان بطرف معدني مدبب نفس النقطة التي يوجد منها ما يمكن أن يسمى « عقدة التكاثف » ، فإنه يصدر عن ذلك شرار ، ولو أن هذا التكثيف قام به ساحر - كما يحدث كثيرًا - فإنه يجوز أن يجرح أو يقتل برد فعل الضربة مهما كان موضعه . ومثل هذه الظواهر شوهدت في كل زمان وفي كل مكان .

وعمليتا التكثيف والتحليل المشار إليهما لهما نظائر في حالات تستخدم فيها قوى من نوع آخر كما في علم الكيمياء ، لأنها إنما ترجعان إلى قوانين كلية شاملة كانت معروفة في العلم القديم وخاصة في الشرق ، ولكنها مجهولة عند الحديثين بتاتًا على ما يظهر ، وفي الفرجة التي تنحصر بين هذين الطرفين « التكثيف والتحليل » يستطيع الشخص الذى يدبر هذه القوى اللطيفة أن يلبسها نوعًا من الشعور مما يجعل لها شخصية ظاهرية تخدع الذين يواجهون تلك القوى المكثفة فيظنون أنها أمام كائنات حقيقية .

وإمكان تكثيف تلك القوى اللطيفة في أشياء تختلف طبائعها تمام الاختلاف ، ثم الحصول على نتائج ذات مظهر شاذ غير عادى من ذلك التكثيف ، إنما يميّط اللثام عن خطأ الرأى الذى يعتنقه المحدثون والذى يذهب إلى أن « الوسيط » لا بد أن يكون إنسانًا . وينبغى أن ننبه هنا إلى أنه قبل الروحانية الحديثة كان استخدام الإنسان كمكثف أمرًا مقصورًا على أحط أنواع السحرة ، لما يحق بالوسيط من

مخاطر مهلكة من جراء ذلك الاستخدام .

ونضيف إلى ما تقدم أنه بخلاف ما سبق من وسائل التكثيف . توجد وسيلة أخرى مخالفة لها تمامًا ، لا تقوم على مبدأ تكثيف القوى اللطيفة في كائنات أو أشياء خارجة عن الشخص الذي يقوم بهذا العمل . ولكنها تقوم على مبدأ تكثيفها في نفسه . وذلك كما يستخدمها وفقًا لإرادته . وكما يوجد تحت تصرفه إمكان مستديم لإنتاج ظواهر معينة . واستعمال هذه الطريقة أمر مراعى في الهند على وجه الخصوص . ويحسن بنا أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الذين يتوفرون على الحصول على نتائج غير عادية بهذه الطريقة . أو غيرها مما سلف ذكره . ليسوا أهلاً لما يسبغه الناس عليهم من جدارة وتفوق . وإنما هم في الحقيقة أناس وقف نحوهم الباطني في درجة معينة - لسبب من الأسباب - فلم يستطيعوا أن يسيروا إلى أبعد منها . فنتج عن ذلك أنهم توفروا على بذل نشاطهم في أشياء من نوع أعلى .

على أن المعرفة التامة الدقيقة بتلك القوانين التي تسمح للإنسان بأن يتصرف في القوى اللطيفة إنما كانت على الدوام مقصورة على عدد يسير من الناس . وذلك لما ينتج من المضار إذا ما ذاعت بين من لهم مقاصد سيئة . ويوجد في الصين كتاب منتشر جدًا عن « القوى السابجة » ولكنه لا يتناول غير تطبيق ضيق لتلك القوى على نشأة الأمراض وكيفية علاجها . وما عدا هذا ألا يكون في الحقيقة غير موضوع دراسة شفهوية محضة . ومع ذلك فإن الذين يعرفون قوانين القوى السابجة معرفة تامة . يكتفون بتلك المعرفة ويزهدون تمام الزهد في تطبيقها واستخدامها عملياً . وهم ينكرون على أنفسهم أن يثيروا أى ظاهرة من ظواهر تلك القوى بقصد إدهاش الناس أو بقصد إشباع نزعة حب الاستطلاع عندهم . وإذا تحتم عليهم مع ذلك أن يحدثوا بعض الظواهر - لأسباب مباينة تمامًا لما تقدم ذكره من الأسباب وفي ظروف خاصة - فإنهم يفعلون ذلك بوسائل مخالفة تمامًا لما هو معروف . ويستعملون فيه

قوى من نوع آخر . ولو تشابهت النتائج الظاهرة .

وإذا وجد هناك تشابه بين القوى الحسية كالكهرباء . وبين القوى اللطيفة أو النفسية . فإنه يوجد أيضًا مثل هذا التشابه بين هذه الأنحيرة . وبين القوى الروحية التي يمكن - مثلاً - أن تتركز بدورها في أمكنة معينة . أو في أشياء معينة أيضًا . ويمكن أن تصدر نتائج تشابه في الظاهر عن تلك القوى المتباينة في طبائعها . وهذه المشابهات الظاهرية . هي مصدر الخلط والانخداع الكثيرين اللذين لا يمكن أن يتحاشاهما الذين يتوفرون على تحقيق تلك الظواهر . فالسحرة يمكنهم - ولو إلى حد محدود - أن يقلدوا بعض كرامات الأولياء . ومع هذا التشابه الظاهري في النتائج . فإنه ليس يوجد شيء مشترك بين مصادرها المتباينة فيما بينها تمامًا .

وليس يدخل في موضوعنا هذا التكلم عن فعل هذه القوى الروحية . ولكننا مما تقدم نستطيع على أقل تقدير أن نستمد النتيجة المهمة . وهي : أن الظواهر بمفردها لا تقوم دليلًا . ولا تنهض حجة على شيء من الأشياء . وأنها لا تستطيع أن تثبت صحة نظرية من النظريات أيًا كانت . إذ أن نفس الظواهر تجب أحيانًا أن تفسر بصورة تختلف باختلاف الأحوال والظروف . وإنه ليندر ألا يوجد لظواهر معينة إلا تفسير واحد ممكن .

ونخلص من هذا كله إلى أن العلم الحقيقي لا يمكن أن يتكون إلا إذا بدأ من فوق . أعني من « مبادئ عالية » . نطبقها على الوقائع التي ليست في الحقيقة إلا نتائج لتلك المبادئ تقرب أو تبعد عنها . وهذا نقيض ما يفعله العلم الغربي الحديث تمامًا ، ذلك العلم الذي يريد أن يبدأ من الوقائع ليستخرج منها تفسيرًا شاملًا كما لو كان الأكثر يمكن أن يستخرج من الأقل . وكما لو كان الأوضع يتضمن الأرفع . وكما لو كانت المادية يمكن أن تكون معيارًا للروح وحدًا لها .

في الحضارة الرومانية لا يتصور أن إنساناً يزعم أنه صاحب فكرة معينة ابتدعها أو اخترعها. وإذا زعم ذلك شخص ، فإن هذا يكفي في إزالة الثقة بفكرته. لأنها تعد حيثئذ مجرد خيال ؛ إذ أن الفكرة إذا كانت حقيقة ، فهي مشاع بين كل من هم أهل لفهمها . أما إذا كانت خطأ فإنه لا يفتخر أحد بادعاء اختراعها. والفكرة الحقيقية لا يمكن أن تكون « جديدة » ؛ ذلك أن الحقيقة ليست نتاج العقل الإنساني . إنها موجودة مستقلة عنا ، ومهمتنا أن نعرفها ، أما إذا خرجنا عن دائرة هذه المهمة فإنه لا يمكن أن نخرج إلا الخطأ . ولكن أبحاث الحديثون عن الحقيقة ، وهل يعلمون معنى هذه الكلمة ؟ إن الكلمات فقدت معانيها في هذا العصر الحديث ، فأصحاب مذهب « البرجماتسم » المعاصرون يعرفون « الحقيقة » بأنها كل ما يصل بالإنسان إلى منفعة عملية. وهم في هذا يتعدون كل البعد عن النظام الروحاني .

إن الفلسفة الحديثة ، لأنها فردية شخصية ، قد وصل بها الأمر إلى إنكار البصيرة ، ووضع العقل فوق كل شيء . ولقد جعلت منه - وهو الملكة الإنسانية المحضة - الجزء الأسمى من القوة الداركة ؛ بل إنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فقصرت القوة الداركة على العقل ؛ وهذا هو مذهب « العقليين »^(١٠) والمؤسس الحقيقي له هو في الواقع ديكارت . وقصر القوة الداركة على العقل ليس إلا مرحلة أولى ؛ إذ أن العقل نفسه أخذ يتزل شيئاً فشيئاً عن صفته النظرية إلى أن حدد عمله بأنه على الخصوص الناحية العملية. وهذا التحديد كان تابعاً لزيادة الاهتمام بالتطبيق العملي ، ذلك الاهتمام الذي يجعل الناحية العلمية النظرية في المرتبة

(١٠) Rationalisme مذهب فلسفي يرفض الوحي كمصدر للمعرفة ، ويزعم تفسير كل شيء بواسطة العقل وحده .

الثانية . على أن ديكارت نفسه كان في الحقيقة معنيًا بالتطبيق العملي أكثر من عنايته بالعلم البحت . وليس هذا كل شيء ، فإن الفردية الشخصية في الفلسفة قد أدت بالضرورة إلى المذهب الطبيعي^(١١) لأن كل ما هو خارج عن الطبيعة بعيد عن تناول الفرد باعتباره فردًا . والمذهب الطبيعي وإنكار ما وراء الطبيعة ، هما شيء واحد . وإذا كانت الفلسفة الحديثة قد أنكرت البصيرة ، فإنه لم يعد هناك مجال للبحث فيما وراء الطبيعة . بيد أنه إذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يصرون على إقامة مذاهب « مزيفة » فيما وراء الطبيعة ، فإن غيرهم قد اعترف في صراحة بعدم إمكان ذلك ؛ ومن هذه النظرة نشأ « النسبيون »^(١٢) في مختلف صورهم ، سواء في ذلك « المذهب النقدي »^(١٣) لكانت ، أو « الفلسفة الوضعية »^(١٤) لأوجيست كونت ؛ وبما أن العقل نفسه نسبي ، ولا يمكن أن يثمر حقيقة إلا في محيط نسبي كذلك ، فإنه من الواضح أن مذهب « النسبية » هو النهاية المنطقية للمذهب العقلي .

وبذلك يهدم المذهب العقلي نفسه ؛ ذلك أن « الطبيعة » و « الصيرورة » يعنيان في الواقع شيئًا واحدًا ؛ ولذلك كان الطبيعي المنطقي المنسجم مع منطق فيلسوفًا من فلاسفة الصيرورة ، ومثله الأعلى يتحقق في مذهب « النشوء

(١١) Naturalisme المذهب الطبيعي ، هو المذهب الذي يعزو كل شيء إلى الطبيعة ، ويرى أنها المبدأ الأول .

(١٢) المذهب النسبي Relativisme مذهب فلسفي يرى أن المعارف الإنسانية كلها نسبية .

(١٣) Criticisme مذهب فلسفي لكانت ، يبحث في الحدود التي يجب أن يتخطاها العقل إذا أراد السير في دائرته التي خلق لها .

(١٤) Positivisme هو مذهب فلسفي أسسه أوجيست كونت ، يزعم أن الإنسان لا يمكنه أن يعرف في دقة إلا الحقائق التي تستمد عن طريق الملاحظة أو التجربة .

والارتقاء . وهذا المذهب هو الذى ينتهى إلى معارضة « المذهب العقلى » فى أنه يأخذ على العقل أنه لا يمكنه أن يقوم بدوره قياماً صحيحاً فى دائرة التغير والصيرورة والكثرة . إنه يعجز عن أن يجعل قواعده تحتوى على التغيرات الحسية اللانهائية المتأرجحة . ومن هنا كانت الصورة الحديثة التى لبسها مذهب النشوء والارتقاء ، أعنى مذهب « الجدس » لبرجسون وهو مذهب فردى لا يتمشى مع الاتجاه الروحاني ، مثله فى ذلك مثل « المذهب العقلى » . وإذا كان صاحب مذهب الجدس قد انتقد المذهب العقلى فإنه قد نزل إلى مرتبة دنيا حينما التجأ إلى ملكة أحقر من العقل هى الحدث الحسى الذى لم يحدده برجسون تمام التحديد ، والذى امتزج قليلاً أو كثيراً بالخيال وبالغريزة وبالعاطفة ؛ وهكذا وصل بنا الأمر أننا لم نعد بصدد البحث عن « الحقيقة » ولكن بصدد البحث عن « الواقع » ، بل « الواقع » المقتصر على الدائرة الحسية مفهومة على أنها فى جوهرها متغيرة متأرجحة . بين هذه النظريات جردت القوة الداركة عن جميع أقسامها السامية ، واقتصر فيها على أدنى أجزائها ؛ بل إن العقل نفسه لم تعد له من قيمة إلا فى الأعمال الصناعية . وبعد كل ذلك لم يعد إلا خطوة واحدة هى الإنكار المطلق لقيمة القوة الداركة ، وللمعرفة ووضع « المنفعة » بدل « الحقيقة » ، وهذا هو مذهب « البرجماتسم »^(١٥) ، وهو مذهب لا يستشرف المعرفة الروحانية ، ولا يتجه إلى السماء يستلهمها الرشاد الحق ، بل إنه لا يقف بنا عند حد المعرفة البشرية الإنسانية كالمذهب العقلى ، إنه يتزل بنا إلى مرتبة أقل من المرتبة الإنسانية ، مرتبة تستضىء « باللاشعور » الذى يجعله وليم جيمس الواسطة إلى الاتصال بالألوهية . وفى هذا قلب للأوضاع الطبيعية .

(١٥) عقيدة تجعل الفائدة العملية مقياس الحقيقة ؛ فالحقيقة فى هذا المذهب تطلق بكل بساطة على كل

ماله فائدة عملية .

تلك هي خاتمة الفلسفة في العصر الحديث وهي خاتمة ما كان يمكن أن توجد في حضارة روحانية .

لا نريد أن نطيل في الحديث عن الفلسفة الحديثة فإنه يجب ألا نعطيها من الأهمية أكثر مما ينبغي لها ؛ إنها من وجهة نظرنا لا تعدو أن تكون نصًا يعبر عن اتجاه البيئة في زمن معين . إنها تعبر عن اتجاه البيئة ولكنها لا تنشئها . وإنه لمن المؤكد أن الفلسفة الحديثة تنتسب في أصولها إلى ديكارت ؛ ولكن تأثير ديكارت في عصره أولا ، ثم فيما تلاه ، ما كان يمكن أن يوجد لو لم تكن الآراء التي قال بها تتجاوب مع اتجاهات سبقتة وعاصرتة . إن الروح الحديثة وجدت في الديكارتية مرآة تصورها ، فلما نظرت في المرآة تبينت نفسها في وضوح أوضح . على أننا نجد في كل الميادين أن الظواهر التي تشبه الديكارتية هي نتائج أكثر منها مبادئ مبتدعة . إنها ثمرة عمل موجود وإن كنا لا نشعر به في وضوح . وإذا كان ديكارت أوضح مثل للانحراف الحديث فإنه ليس المسئول عن ذلك وحده ؛ بل ليس أول مسئول عن ذلك .

٥ - من جو الفلسفة إلى جو التصوف :

« اعرف نفسك بنفسك .. » (١٦)

كثيرًا ما يقال هذه الجملة - اعرف نفسك بنفسك - وكثيرًا ما يخفى القصد . وبين هذا القول وذلك الغموض يعترضنا سؤالان :

أولهما : ما هو المصدر الأصلي للجملة ؟

وثانيهما : ما مدلولها الحقيقي وما ترمى إليه من أغراض ؟

(١٦) مجلة المعرفة : ذو الحجة سنة ١٣٤٩ هـ ، مايو سنة ١٩٣١ م .

قد يخيّل لبعض القراء - عند أول وهلة - أن السؤالين مفترقان . لا رابطة ولا صلة تجمعهما . وعند تدقيق النظر والبحث والتحصيل : سيثبت لهؤلاء أن السؤالين مرتبطان ببعضهما كل الارتباط .

إذا سألنا أغلب مَنْ درسوا الفلسفة اليونانية : عن الإنسان الذى فاه بهذه الحكمة ، لما تردد فريق منهم فى الإجابة بأن القائل سقراط .. فى حين يقول فريق ثان أفلاطون .. ويقرر فريق ثالث بأنه فيثاغورث .

من هذا التضارب فى رأى ، وذلك التباين فى القول نستطيع الحكم بأن الجملة تقرأ فى كتاب لأحدهم باعتباره مصدرها .

وقد يبدو حكمنا هذا جائرا ، ولكنه فى الحق حكم صحيح ، تثبت للقارئ صحته عندما يعلم أن اثنين من أولئك الفلاسفة - هما فيثاغورث وسقراط - لم يخلفا شيئا مكتوبا أو منقوشا . وأما ثالثهم أفلاطون فإن أحدا - بالغًا ما بلغ من العلم بالفلسفة - لا يستطيع أن يميز على التحديد ، ما قاله أفلاطون نفسه . أو ما قاله بلسان أستاذه سقراط ، الذى لم نعرف أكثر آرائه إلا بواسطة أفلاطون . وقد يكون أفلاطون استقى من مدرسة فيثاغورث بعض التعاليم التى بثها فى محاوراته ، كما استقى من سقراط نفسه .

من هذا نرى أن من الصعب جدًا أن تحدد نسبة بعض العبارات إلى أحد الثلاثة : فما ينسب لأفلاطون قد ينسب لسقراط فى حين قد يكون سابقا لوقت الاثنين معًا ، فيكون صدر من المدرسة الفيثاغورية ، إن لم يكن من فيثاغورث نفسه .

والحق هو أن المصدر الحقيقى لهذه الجملة لأقدم تاريخًا من أولئك الفلاسفة أنفسهم ، بل لأكثر قدمًا من تاريخ الفلسفة نفسها ، وأكثر من هذا وذاك ، إنها أسمى مجالًا من مجال الفلسفة ذاته .

هذه العبارة ، وجدت محفورة على باب هيكل « أبولون » في « دلفي » ..
واتخذها سقراط كما اتخذها غيره قاعدة لتعاليمهم - وإن اختلفت التعاليم ، وتباينت
المقاصد - ومن المحتمل جداً أن فيثاغورث استعملها قبل سقراط نفسه .

والذى نفهمه من هذا هو أن أولئك الفلاسفة حاولوا أن يظهروا لنا ، بل
أظهروا لنا بالفعل ، أن تعاليمهم لم تكن من تلقاء أنفسهم فحسب ، بل كانت من
مصدر أسمى ، ومنتزلة أرفع ، يتناسبان مع مصدر الوحي ، ومنتزلة الإلهام .

لهذا نراهم مختلفين جد الاختلاف عن الفلاسفة الحديثين ، الذين يحاولون جهد
طاقاتهم أن يقولوا شيئاً جديداً يدعون أنه من بنات أفكارهم الخاصة ، وأنَّ
ما يبدو منه من آراء وقف عليهم .. كأن الحقيقة ملك لشخص معين .

والآن لماذا كان يود الفلاسفة القدماء أن يربطوا تعاليمهم بهذه العبارة ؟
أو بعبارات تماثلها ؟ ولماذا يمكننا أن نقول : إن هذه العبارة أسمى منتزلة من الفلسفة
نفسها ؟

للجواب عن الفقرة الأخيرة من هذا السؤال ، نقول : إنه منحصر فى المعنى
الأصلى المقصود من اشتقاق كلمة الفلسفة نفسها .. التى قيل إن أول من استعملها
فيثاغورث .

فكلمة « فيلسوفيا » تعنى تماماً « حب الحكمة » والميل للحصول عليها . وقد
استعملت لتدل دائماً على كل تحضير للحصول على الحكمة ، وعلى الأخص لحبها ،
حيث تساعد على أن يصير « سوفوس » أى « حكيماً » وبما أن الوسيلة لا تؤخذ
على أنها غاية ، كذلك « حب الحكمة » ليس هو « الحكمة » بذاتها .

وبما أن الحكمة هى بذاتها المعرفة الحقيقية الباطنة ، فإنه يمكن القول بأن المعرفة
الفلسفية ، إنْ هى إلا المعرفة السطحية الخارجية ، فليس لها قيمة فى نفسها ، أو منْ

نفسها ، وما هي إلا درجة أولية ، في الطريق المؤدية للمعرفة السامية الحققة التي هي الحكمة .

معروف لمن درسوا الفلسفة ، أن معظم الفلاسفة القدماء ، كان لهم في مدارسهم ، نوعان من التعليم : خارجي ، وداخلي .

أما الأول : فهو ما كان مكتوباً . وأما الثاني : فيصعب علينا معرفة طبيعته على التحقيق ، وذلك لقصره على القليلين أولاً ، ولصبغته السرية ثانياً ، وهذه الصبغة وتلك القلة دليلان على وجود غرضٍ أسمى من تعلُّم الفلسفة الذي لا يستطيع تأديته . على أنا نعتقد أن لهذا التعليم السري أقوى صلة مباشرة بالحكمة ذاتها ، والذي ما كان عماده - في حالٍ ما - العقلُ أو الاستدلالُ المنطقي : كالفلسفة التي تعتمد عليها . وبهما سميت المعرفة العقلية .

ومسلم من الفلاسفة القدماء بأن المعرفة العقلية - أي الفلسفة - ليست هي المعرفة العليا الحققة ، وبعبارة أخرى : ليست هي الحكمة ذاتها .

لكن ، هل يمكن أن تُعلِّم الحكمة كما تُعلِّم المعرفة الخارجية بواسطة التلقين أو الكتب ؟ هذا مستحيل كل الاستحالة ، وسترى سبب ذلك والذي يمكننا أن نقرره هو أن التحضير الفلسفي ما كان ليكفي مطلقاً . لأنه لا يختص إلا بقوى محدودة هي نفسها العاقلة ، في حين يستمد التحضير للحكمة من الكون الكلي للإنسان نفسه .

وإذن فهناك تحضير آخر للحكمة أسمى منزلة من التحضير الفلسفي ، لا يلجأ فيه إلى العقل . بل إلى النفس والروح ، وهذا ما نستطيع تسميته بالتحضير الباطني ، الذي عرف أنه من الصفات التي امتاز بها تلاميذ الفيثاغورية الممتازون . والذي ظل حتى مدرسة أفلاطون . بل حتى وصل إلى الأفلاطونية الحديثة بمدرسة

الإسكندرية ، التي ظهر فيها ذلك التحضير بوضوح تام . كما ظهر جلياً في نفس الوقت عند أتباع الفيثاغورية الحديثة .

لمثل هذا التحضير الباطني ، تستعمل الكلمات على أنها صور رمزية لإحدى الوسائل التي تساعد على تركيز التأمل الباطني . وبهذا التأمل ينقل الإنسان إلى بعض حالات نفسية ، وروحية يمكنه فيها أن يسمو فوق درجة المعرفة العقلية ، التي وصل إليها سابقاً . وبما أن هذه فوق مستوى العقل فإنها - منطقياً - فوق مستوى الفلسفة ، إذ يستحيل علينا أن نعطي الفلسفة غير المعنى المعروف عنها ، فهي دائماً لتعين ما يبحثه العقل فحسب .

ومن الغرابة أن الفلاسفة الحديثين كثيراً ما يقيدون الفلسفة بهذا القيد كأنها كاملة في نفسها . وغاب عن أذهانهم أن فوق فلسفتهم ما هو أسمى بكثير . وقد عُرف هذا النوع من التعليم الباطني في الأقطار الشرقية قبل أن يعرف في اليونان ، حيث كان معروفاً عند الأخيرين باسم « ميستيريا » أي [المساتير]^(١٧) وقد أدخل أولئك الفلاسفة - وخاصة فيثاغورث - تلك الميستيريات في تعاليمهم لأنها كانت بالنسبة إليهم نوعاً جديداً ، ومعنى حديثاً للآراء القديمة . فقد كان يوجد أنواع كثيرة من تلك الميستيريات لها مصادر مختلفة . ولكن التي ألهمها فيثاغورث وأفلاطون كان لها صلة بطقوس معبد [أبولون] .

وقد احتفظت الميستيريات دائماً بصيغة سرية ، ولذلك صار اسمها مرادفاً للسر ، فالمعنى الأصلي لتلك الكلمة هو الصمت التام ، فكل الأشياء التي تتصل بالغيبيات غير قابلة للتفسير بواسطة الكلمات ، وبهذا لم يكن لها من طريق التعليم غير

(١٧) لم نثر على ترجمة دقيقة تؤدي المقصود من كلمة (ميستيريا) وقد راجعنا الاستاذ فريد بك وجدى في هذا فعبّر عنها بكلمة (المساتير) وكنا نرى أنها قد تكون الغيبيات أو الرموز ، أو الخفايا .. فلعل أحد حضرات القراء يجد لها معنى أدق .

طريقة الصمت . وجاء الفلاسفة الحديثون فلم يعرف أكثرهم تلك الطريقة ، فهربوا خلف استعمال الكلمات التي ندعوها من طريق التعليم الخارجى .

ويمكننا أن نؤكد أن هذا التعليم الصامت كانت طريقته الأشكال والرموز ووسائل أخرى ، يراد منها تهيئة الإنسان لحالات باطنية يمكنه فيها - بعد خطوات متتابعة - أن يصل أخيراً إلى المعرفة الحقيقية ، وهذا هو الغرض الأساسى العام من «الميستيرات» وما يشابهها غرضاً . أما «الميستيرات» التى تتصل بطقوس [أبولون] أو [بأبولون] نفسه ، فإنه ينبغى أن نشرح للقراء بأنه كان معروفاً فى عرفهم بأنه رب الشمس والنور ، والمعنى الروحى للنور وهو المبدأ المشرق الذى منه تنبعث كل المعارف من علوم وفنون .

وقد قيل إن الطقوس الدينية لمعبد «أبولون» جاءت من الأقطار الشمالية ، وقد ثبت هذا فى الكتب المقدسة «كالفيدا» الهندى ، و«الآفتشا» الفارسى ، وقد كانت دلفى معروفة بأنها المركز العام . وقد وجد فى هيكلها حجر يسمى «أومفالوس» يرمز إليه بأنه مركز العالم .

يظهر أن تاريخ فيثاغورث ، بل اسم فيثاغورث نفسه له صلة وثيقة بالطقوس الدينية لأبولون . فقد كان يسمى «بيثيوس» . وقد قيل إن «بيثو» هو الاسم القديم لدلفى ، وإن المرأة التى كانت تتلقى وحى الآلهة فى الهيكل كانت تسمى «بيثيا» ومعنى «بيثيا جوراى» هو دليل «بيثيا» ، ودليل بيثيا هو نفسه . وقيل أيضاً إن البيثيا هى التى أعلنت أن سقراط أحكم الرجال . ومن هنا نستطيع أن نفترض أن لسقراط اتصالاً خاصاً بالمركز الروحى فى دلفى كفيثاغورث أيضاً . أضف إلى ذلك أن كل العلوم كانت تنسب إلى أبولون . وبخاصة الهندسة والطب ، وقد كان أبولون يمثل نفسه كأنه يمارس هذه العلوم عامة والهندسة منها بوجه خاص . وفى مدرسة فيثاغورث كانت الهندسة وسائر فروع الرياضة هى الجزء

العام في التحضير للمعرفة العليا ، وعند هذه المعرفة لم يكن لتلك العلوم لتترك جانباً . بل كانت تُستعمل كرموز للحقيقة الروحية . وقد كانت الهندسة لدى أفلاطون تحضيراً ضرورياً لكل فرع من فروع تعاليمه ؛ حتى صبح عند قوله الذي حفره على مدخل مدرسته « لا يدخله إلا عالم بالهندسة » . ويظهر معنى هذه الكلمات جلياً إذا قورنت بقول آخر لأفلاطون نفسه « الإله يصنع الهندسة دائماً » وهنا يجب أن نذكر أن المقصود بالإله المهندس هو أبولون .

وإذن فيجب ألا ندهش إذا ما رأينا الفلاسفة القدماء استعملوا تلك الجملة المحفورة على مدخل هيكل دلفي . بعد أن عرفنا صلة الاتصال بينهم وبين طقوس أبولون ورموزه .

من كل ما تقدم يمكننا أن ندرك بسهولة ما الغرض الحقيقي لهذه الجملة . ويمكننا أيضاً أن ندرك أخطاء الفلاسفة الحديثين فيها . وأساس خطئهم هذا ناشئ من أنهم أخذوا الجملة باعتبارها صادرة من أحد الفلاسفة الذي كثيراً ما ينسبون إليه فكرة كفكرتهم ؛ مع أن الحقيقة هي أن الفكرة القديمة كثيراً ما تختلف عن الفكرة الحديثة كل الاختلاف . ولذا يعطى كثير منهم لهذه الجملة معنى سيكولوجياً « علم النفس » . مع أن علم النفس هو دراسة الظواهر العقلية فحسب . أى دراسة الوصف الخارجى - لا الذاتى - للكائن الحى . ويرى بعض الحديثين - وخصوصاً الذين ينسبونها إلى سقراط - أنها وضعت لغرض خلقى . هو البحث عن قانون داخلى لاستعماله فى الحياة العملية . وكل هذه التفسيرات الظاهرة - ولو أنها أحياناً لا تكون باطلة - فإنها على الأقل لا تكفى تماماً . ولا تحقق الصفة المقدسة التى كانت لهذه الجملة فى أول الأمر . وهى التى لها معنى أعمق كثيراً من هذه التفسيرات الظاهرة .

فإنها أولا تفيد أن التعليم الخارجى لا يمكن أن ينتج معرفة حقيقية . وهى التى يجدها الإنسان فى نفسه فقط . ولا يخفى أن أى معرفة لا يمكن الحصول عليها إلا بالإدراك الشخصى . وبدونه لا يكون التعليم ذا نتيجة فعالة . والتعليم الذى لا يوقظ فيمن يتلقاه ما يناسبه لا يمكن أن يعطى أى معرفة بالمرّة . ولذلك قال أفلاطون : إن كل ما يتعلمه الإنسان هو فى قرارة نفسه ، وإن تجاربه وما يحيط به من الخارج ما هى إلا أسباب تساعد على تصير عالماً بما فى نفسه ، وهذا التيقظ الهام يسمى « أنامنيسيس » أى التذكر ، فإذا كان هذا صحيحاً لأى معرفة فالأحرى أن يكون أصبح بالنسبة للمعرفة الأسمى والأعمق . فإذا شَخَّص الحصول على تلك المعرفة فإن كل الوسائل الخارجية الحسية تصبح - شيئاً فشيئاً - غير كافية . حتى أنها أخيراً تكون عديمة الفائدة . ومع أنها ربما تساعد على الاقتراب عدة درجات نحو الحكمة فإنه لا يمكن بواسطتها الحصول عليها تماماً . ومن الشائع فى الهند أن « الجورو » الحقيقى أى « الشيخ » هو فى نفس الإنسان . ولا ينبغى البحث عنه فى العالم الخارجى ، أما المساعدة الخارجية فربما تكون ضرورية فى البداية . وذلك لتجهيزه ليصير قادراً على أن يجد فى نفسه بنفسه ما لا يمكنه أن يجده فى العالم الخارجى ، وخصوصاً ما كان فوق مستوى المعرفة العقلية . فإنه يحتاج إلى تحقيق حالات تتعمق دائماً فى باطن الكائن . وتتجه نحو المركز الرموز إليه بأنه القلب . وعنده ينبغى انتقال إحساس الإنسان حتى يصير قادراً على الحصول على المعرفة الحقيقية . وهذه الحالات التى كانت تتحقق فى [الغيبات] كانت درجات فى الانتقال من العقل إلى القلب . وقد كان فى هيكلى دلفى حجر يسمى « الأومفالوس » يمثل به مركز الكائن الإنسانى . وفى نفس الوقت مركز العالم . وذلك للصلة التى بين « العالم الأكبر » . و « العالم الأصغر » أى الإنسان . ولذا تجد أن كل ما فى أحدهما يتصل اتصالاً تاماً بما فى الآخر .

قال ابن سينا :

وتعجب أنك جرّم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومما يدعو إلى التسلية حقًا هذا الاعتقاد الذى سار قديمًا بأن « الأومفالوس » كان قد سقط فى السماء ؛ وإنك لتدرك شدة اعتقاد اليونان القدماء فى هذا الحجر إذا علمت أنه يقرب من اعتقادنا فى الحجر الأسود الذى فى الكعبة المقدسة . وهذا التشابه الذى بين العالم الأكبر والعالم الأصغر [الإنسان] هو الذى لا يجعل من أحدهما صورة للآخر ، وهذا الاتصال بين العناصر التى تحتويها كلاهما يبين لنا أن الإنسان يجب أن يعرف نفسه أولاً لكي يمكنه أن يعرف كل ما حوله ؛ لأنه يمكنه أن يجد كل شيء فى نفسه ولهذا السبب نجد أن لبعض العلوم - وخاصة تلك التى كانت جزءًا من المعرفة القديمة - والتى أصبحت غير معروفة تقريبًا عند الحديثين - معنيين :

ففى الشهود العينية تشير هذه العلوم إلى « العالم الأكبر » فتعتبر صحيحة من هذه الوجهة ؛ كما يوجد لها فى نفس الوقت معنى أكثر عمقًا ، وهو يشير إلى الإنسان وإلى الطريق الباطنى الذى بواسطته يمكنه إدراك المعرفة الحقيقية فى نفسه ، أى : إدراك كائنه الخاص ، وقد قال أرسطو فى ذلك : « الكائن هو كل من يعرف ماهيته » ولذلك حيث توجد المعرفة الحقيقية - لا ظواهرها ولا شبحها - تندمج المعرفة والكون ويصيران شيئًا واحدًا .

والشبح فسرّه أفلاطون بأنه كان معرفة بالحس ، حتى المعرفة العقلية . فإنها برغم أنها تتكون من درجة أعلى من مصدرها فإن مصدرها الأول هو الحس . والمعرفة الحقيقية هى فوق مستوى العقل ، ولهذا نرى أن تحقيقها أو تحقيق ماهية الكائن نفسه يشابه أو يطابق تكوين العالم كما ذكرنا سابقًا . ولذا فإن بعض العلوم

تحت ظواهر هذا التكوين قد استعملت « الغيبيات » القديمة على هذا المعنى الثنائى . كما وجد أيضاً فى كل أنواع التعاليم التى كانت ترمى إلى نفس الغرض بين الأمم الشرقية . وفى الغرب يظهر أن مثل هذه التعاليم وجدت فى زمن القرون الوسطى . ولو أنها فقدت الآن تماماً . لدرجة أن غالبية الغربيين ليس عندهم أقل فكرة عن طبيعتها أو وجودها أو مكانها .

مما سبق ترى أن المعرفة الحقيقية ليس طريقها العقل . بل طريقها النفس والروح . ويمكن أن نضيف إليهما الكائن الكلى . لأنها ما هى إلا الإدراك الكلى لهذا الكائن فى كل حالاته . وهذا هو نهاية وكمال المعرفة . والحصول على الحكمة السامية . وحقيقة كل ما يختص بالنفس وما يختص بالروح أيضاً . يظهر فقط الدرجات فى هذه الطريق إلى الجوهر الباطنى : أى النفس الحقيقية .

وهذا يمكن إدراكه فقط عندما يصل الكائن إلى مركزه الخاص : متحدة كل أجزاء فؤاده ومركزه فى نقطة واحدة . عندها تظهر له كل الأشياء تحتويها جميعها تلك النقطة كما كانت فى مبدئها الأول . وهذا يمكن أن يعرف كل الأشياء كما هى فى نفسه ومن نفسه . كما يظهر الوجود الكلى الأوحى فى وحدة جوهر الفرد . ومن السهل أن نرى الفرق بين هذا . وبين علم النفس فى المعنى الحديث : فإن الأول يسمو على الثانى بمعرفة للنفس أصح وأعمق . والثانى ما هو إلا خطوة أولى فى الطريق . ويجب أن نلاحظ أن المعنى لا ينبغى أن يقصر على النفس . لأن كلمة « النفس » مستعملة فى اللغة العربية بما يطابقها فى اليونانية « بسىخى » لا يظهر معناها إلا فى الجملة الأصلية التى تبحثها . ففى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يسرى لهذه الكلمة المعنى الدارج . بل لابد أن يكون لها معنى أكثر سموً يجعلها مطابقة لكلمة « ذات » ويجعلها تطابق النفس الحقيقية . ولدينا ما يثبت هذا المعنى فى

الحديث الشريف الذى يطابق الجملة اليونانية هو « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ » .

فعندما يعرف الإنسان نفسه ، ويعرفها حقاً فى جوهره الباطنى ، أى فى مركز كائنه ؛ عندئذ يعرف ربه ؛ فإذا عرف ربه عرف كل الأشياء التى منه تصدر وإليه ترجع ، يعرف كل الأشياء فى الوحدة السامية للمبدأ الإلهى الذى لا شىء خارج عنه على الإطلاق ، وهذا معنى ما قاله سيدى محيى الدين بن عربى من أن لا شىء يخلو من اللامحدود .

٦ - التصوف الإسلامى هو الوسيلة الصادقة للمعرفة الحقة :

ربما كانت العقيدة الإسلامية ، من بين العقائد الموحدة^(١٨) ، هى القيدة التى يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما : « الظاهر » و « الباطن » ، أعنى « الشريعة » ، وهى الباب الذى يدخل منه الجميع ، و « الحقيقة » ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار وهذه التفرقة ليست تحكمية ، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس متفاوت ، وبعضهم معد بفطرته لمعرفة الحقيقة .

وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها . والشريعة تتضمن فضلاً عن الناحية الاعتقادية - الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزءان لا يتجزآن عن الدين الإسلامى . إنها أولاً وقبل كل شىء قاعدة للسلوك . أما الحقيقة^(١٩) فإنها معرفة محضة . ولكن يجب أن

(١٨) ترجمنا هذا المقال عن مقالات باللغة الفرنسية للشيخ عبد الواحد يحيى ، وحاولنا استكمالها واستطعنا بالتعليقات الكثيرة التى اقتطفناها من كتب أئمة التصوف الإسلامى .

(١٩) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محسولة ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن =

نعلم أن هذه المعرفة هي التي تعطى الشريعة معناها السامى العميق ، بل هي التي تبرر وجود الشريعة إنما في الحقيقة - وإن لم يشعر بذلك المؤمنون - المركز الأساسى ، مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

بيد أن « الباطن » لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبل الموصلة إليها ، أعنى الطرق التي تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة .

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية ، الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى ، تنتهى - كلها - إلى المركز .

إنها « الطرق » وهي طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية .

ولهذا يقال : « الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد ، لأنه لا يوجد إلا مركز واحد . وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة في المبدأ تزول شيئاً فشيئاً مع زوال الانية . وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا تزول فيها « صفات العبد » التي ليست إلا سجنًا : « الفناء » . فلا تبقى إلا الصفات الربانية وقد تحققت « الذات » بها : « البقاء » .

والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : التصوف . وهو ليس مذهباً خاصاً ، لأنه الحقيقة المطلقة . وليست الطرق مدارس مختلفة ؛ لأنها طرق ، أى

= تصريح الحق ، فالشريعة أن تعبد ، والحقيقة أن تشهد ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخى وأظهر .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول في قوله : إياك نعبد حفظ للشريعة ، وإياك نستعين إقرار بالحقيقة . واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه أيضاً وجبت بأمره . « عن الرسالة القشيرية » .

سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة : « التوحيد واحد » .
ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفي . اللهم
إلا إذا كان ذلك منه جهلاً محضاً ؛ لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفي .
وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفي الحقيقي وبين ربه ، ويمكن أن يقول
الإنسان عن نفسه إنه متصوف . وهو عنوان يطلق على « السالك » في أى مرحلة
كان . ولكن الصوفي بمعناه الحقيقي لا يطلق إلا على من بلغ الدرجة العليا . أما
أصل هذه الكلمة : صوفي ^(٢٠) ، فقد اختلف فيه اختلافاً كبيراً ، ووضعت فروض
متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض ، وكلها غير مقبولة ، إنها في الحقيقة تسمية
« رمزية » ، وإذا أردنا تفسيرها ينبغي لنا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ،
وإن لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف « صوفي » تماثل القيمة العددية
لحروف « الحكمة الإلهية » ، فيكون الصوفي الحقيقي هو الرجل الذي وصل إلى
الحكمة الإلهية ، إنه « العارف بالله » إذ أن الله لا يعرف إلا به ، وتلك هي الدرجة
العظمى « الكلية » فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

من كل ما سبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئاً أضيف إلى الدين
الإسلامي ، إنها ليست شيئاً أتى من الخارج فألصق بالإسلام ؛ وإنما هي ،

(٢٠) هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك
يقال له متصوف وللجماعة المتصوفة . وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه
كاللقب . فأما قول من قال : إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال تقمص إذا لبس
القميص . فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف . ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد
رسول الله ﷺ ، فالنسبة إلى الصفة لا تنجى على نحو الصوفي . ومن قال : إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي من
الصفاء بعيد في مقتضى اللغة . وقول من قال : إنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من
حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف ، ثم إن هذه الطائفة
أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق . « عن الرسالة القشيرية » .

بالعكس تكون جزءاً جوهرياً من الدين^(٢١) . إذ أن الدين بدونها يكون ناقصاً ؛ بل يكون ناقصاً من جهته السامية أعنى جهة المركز الأساسى . لذلك كانت فروضاً رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى : يونانى ، أو هندى فارسى ، وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً . وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وبين ما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى لا يحتاج إلى فرض الاستعارة . وذلك أنه مادامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويجب ألا نعطى عناية كبيرة - حينما نتحدث عن أصل التصوف - لتلك المناقشات التى لا تنتهى بين مؤرخى التصوف خاصة لتحديد الفترة الزمنية التى وجدت فيها لفظة صوفى .

فإن الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجد تحت اسم آخر أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته^(٢٢) . وعلى كل حال ففصل الحق فى مسألة أصل

(٢١) قال الأستاذ ماسينيون فى دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة (تصوف) : أما دراسة مصادر التصوف فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة ، وقد حار علماء الإسلاميات الأول فى تعليل ذلك الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذهب الوحدة الحالى ومذهب أهل السنة الصحيح ، فذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل فى الإسلام مأخوذ ، إما من رهبانية الشام (وهو رأى ماركس) ، وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهندود (وهو رأى جونز) وقد بين (نيكولسون) أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين نشأت فى قلب الجماعة الإسلامية نفسها فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتقرئها ، وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وماحل بالأفراد من نوازل . على أنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة فما لا يخلو من فائدة أن نتعرف على المحسنات الأجنبية التى أدخلت عليه ونمت فى كنفه .

(٢٢) اشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة ، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين

=

(ابن خلدون)

التصوف هو ما يأتي : إن السنة ترشد في صراحة لا لبس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة كليهما ينبعان مباشرة من تعليمات الرسول صلوات الله عليه . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على « سلسلة » تصل دائماً إلى الرسول . وإذا كانت بعض الطرق ، فيما بعد ، « استعارت » أو بتعبير أصح « تبنت » بعض التفاصيل في الطريق [وإن كان التشابه هنا أيضاً يمكن أن يعزى إلى التماثل في المعارف وعلى الخصوص فيما يتعلق « بعلم المقاطع والأوزان » في مختلف فروعه] فإن أهمية ذلك لا تعدو أن تكون أهمية ثانوية لا تمس الجوهر من قرب أو من بعد . والحق أن التصوف عربي إسلامي ، كما أن القرآن - الذي يستمد التصوف أصوله منه

= ويقول بعض العلماء : إن هذا الاسم معروف في الملة الإسلامية من قبل ذلك بل يذهب بعضهم إلى أنه لفظ جاهلي عرفته العرب قبل ظهور الإسلام . قال أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) في كتاب « اللع » في التصوف : « وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فبحال ، لأنه في وقت الحسن البصري كان يعرف هذا الاسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم ، وقد روى عنه أنه قال : (رأيت صوفيًا في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي) .

وروى عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء . وقد ذكر في الكتاب الذي جمع أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار وعن غيره يذكر فيه حديثاً : « إن قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد . وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف . فإن صح ذلك يدل على أن قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم . وكان ينسب إلى أهل الفضل والصلاح والله أعلم » .

ويعقب المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق على ذلك فيقول : فاستعمال لفظ صوفي ومتصوف لم ينشر في الإسلام إلا في القرن الثاني وما بعده ، سواء أكان هذا التعبير عن الزاهد « بالصوفي » حدث في أثناء المائة الثانية كما هو رأي ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٦ هـ (١٤٠٦) في مقدمته ، أم كان لفظاً جاهلياً على ما ذكره صاحب « اللع » الذي يحاول أن يبرئ الصوفية من انتحال اسم مبتدع لم يعرفه الصحابة ولا التابعون .

« عن دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية »

مباشرة - عربى إسلامى إذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبراً تتفجر عنه ينابيع « الحقائق » التى هى فى الواقع معناه العميق . ولقد فسر القرآن أبـ غويًا ومنطقيًا . وكلاميًا ، ولكن تفسيره صافيًا اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معًا فلا يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لا تقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها ..

٧ - التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى المزعوم :

على أنه يجب ملاحظة أن التصوف الإسلامى - خلافاً للفكرة الشائعة حالياً عند الغربيين - لا يمت بأية صلة إلى ما يزعمون أنه تصوف مسيحى . أعنى ذلك النوع الذى يطلق عليه « الميستيسيم » . أما أسباب ذلك فإنها سهلة الفهم وقد تضمنها ما سبق من حديثنا وهى :

١ - يبدو واضحاً أن « الميستيسيم » شىء خاص بالمسيحية . وإنه لتشبيه قائم على ضلال ، ذلك الذى يستندون إليه فى ادعاء وجود ما يماثل « الميستيسيم » فى الأوساط التى لا تعتنق المسيحية .

ولا شك فى أن هذا الفهم الخاطئ يركز على شىء من التشابه الخارجى الذى يتمثل فى استعمال بعض التعبيرات . ولكن هذا لا يبرر أبداً دعوى التشابه . وذلك لأن الفروق الجوهرية تفجأ النظر ولا تدع للتماثل مجالا . فالميستيسيم خاص بالمسيحية إذن .

٢ - ثم إنه جزء من الشريعة . إنه من قسم الظاهر ، وهدفه بعيد كل البعد عن أن يكون المعرفة المحضة فى حين التصوف على خلاف ذلك .

٣ - ثم إن المسيحي الذي اتخذ « الميسيسيم » سبيلا في الحياة ينهج في سلوكه منهجاً سلبياً . إنه يقتصر على تلقى ما يأتيه بدون أن يكون له أثر شخصي ، إنه لا طريقة له إذن يسلكها هدفاً من وراء سلوكها إلى بلوغ غاية معينة . ومن أجل ذلك لم يكن في المسيحية طرق صوفية : ولذلك لا يتخذ المسيحي « شيخاً » وليس عنده فكرة عن السلسلة أو الإسناد الذي بواسطته يصل إليه التأثير الروحي الذي لا بد منه في التصوف .

٤ - والاختلاف في الهدف أيضاً واضح ، فهدف التصوف المعرفة ، وهدف « الميسيسيم » الحب ، والنتيجة الحتمية من كل ما سبق هي أن التصوف و « الميسيسيم » مختلفان كل الاختلاف . بل إن اللغة العربية لا تشمل على أية كلمة تترجم ، ولو تقريباً ، كلمة « ميسيسيم » ؛ ذلك أن الفكرة التي تعبر عنها هذه الكلمة غريبة كل الغرابة عن السنة الإسلامية .

٨ - التصوف والتحلل من الشريعة :

يبدو أن كثيراً من الناس^(٢٣) يشكون في ضرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفي ، وهذا في الواقع استعداد نفسي لا يوجد إلا في الغرب الحديث .

ولا شك في أن أسباب ذلك متعددة ، ولا يعنينا هنا البحث في مدى المسؤولية التي تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم الذين يميلون إلى إنكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة في مظهرها الحرفي ، فليس ذلك جوهر بحثنا هنا .

بيد أنه من المدهش أن بعض من يزعمون الانتساب إلى التصوف يقعون فيما

(٢٣) لخصنا هذا الموضوع عن مقال بالفرنسية للشيخ رحمه الله .

وقع فيه رجال الشريعة ، وإن كان بطريقة عكسية ، ذلك أنهم ينكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها .

وقد يكون من المحتمل أن نرى أحد ممثلي الشريعة يجهل التصوف ، وإن كان جهله لا يبرر إنكاره ، ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعي أن يجهل رجال التصوف ميدان الشريعة ، ولو من جانبها العملي ، ذلك أن الأكثر ، وهو « التصوف » ، يتضمن بالضرورة الأقل ، وهو « الشريعة » .

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفي إلى الشريعة ، من حيث عدم أهميتها ، وعلى الخصوص ، أهمية الجانب العملي منها بالنسبة له .. هذه النظرة تتضمن ، ولو نظرياً ، تقليل أهمية الجانب العملي في التصوف نفسه . وفي هذا الخطورة كل الخطورة ، فإنه من المشكوك فيه كثيراً ، أن يتوفر للشخص الذي عنده الفكرة ، الاستعداد الصوفي ، ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاماً كلياً قبل أن يبدأ السلوك ، فإذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه ، بالنسبة للجانب الصوفي . إن تقليل شأن الشريعة إنما هو مظهر من مظاهر الروح التي لا تبالي بما أنزل الله . وإعادة تكوين الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة في طريق السالكين . وتجاهل الناحية العملية إنما هو سمة من سمات الغريب الحديث على الخصوص ، ومن الطبيعي أن يقوم الجو الدنيوي الذي يعيش فيه الغربيون عقبة في سبيل فهمهم للجانب العملي من الشريعة وممارستهم له ، بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوي ، هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا . وهو السبيل إلى عودتهم إلى النهج المستقيم ، أعني التزام الشريعة .

قلنا : إن الاتجاه النفسي الذي نتحدث عنه هنا ، إنما هو سمة من سمات الغرب الحديث . وفي الواقع لا يمكن أن يوجد هذا الاتجاه في الشرق ، ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة في بيئاته .

ثم إن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، أحدهما خارجي والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .
لذلك كان ما يوجد في الغرب الآن ، من جماعات تدعى أنها على النهج الصوفي ، وهي مع ذلك لا تركز على أية شريعة إلهية . مجرد خداع ، ومن البديهي أن هذه الجماعات - ومن وجهة النظر الصوفية الصحيحة - ليست على شيء .

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول :

إن الإنسان لا يشيد القصر في الهواء ، إنه لا يشيده على غير أساس ، وكل فكرة لا تركز على أساس من السنة الصحيحة إنما هي بناء في الهواء . إنها بناء على غير أساس . والبناء الذي يمكن أن يبقى على الدهر لا بد له من أساس مدعم ، وعلى الأساس يركز البناء كله ، حتى الأجزاء العليا منه ، والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء .

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف ، فالشريعة الصحيحة هي الأساس الذي لا بد منه لكل سالك ، وكالأساس تماماً . لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق .

بل نقول أكثر من ذلك : إنه كلما سار التصوف في طريقه واستغرق فيه . بدت له ضرورة الشريعة واستنارت معرفته بها ، وأصبح فهمه لها أكثر عمقاً وأكثر دواية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها بدون أن يضربوا بسهم في الميدان الصوفي . ذلك أنهم لا يرون من الشريعة إلا مظهرها الخارجي ، ولكن الصوفي يعيش في جوها الروحي ، ويحيها ، إذا أمكن هذا التعبير .

على أن هذا الذي لا يعتق شريعة صحيحة ولا يلتزمها ، لا يمكن أن يحيا إلا

حياة دنيوية بحتة ، فلا يمكن أن يطلق عليه رجل دين ، فضلاً عن أن يطلق عليه وصف الصوفي .

على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومي ، كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ، لا يمكن أن يوصفوا بأنهم متدينون ، وإن آمنوا بعيسى وأدوا الشعائر الكنسية .

وإذا كان لا يقبل من رجل الدين أن يعلن تدينه بدون أن يجعل للشرعية السيطرة على قياده ، فإنه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف أن يزعم انتسابه إلى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته .

وهناك ، لا شك ، نوعان من الحياة : حياة دينية ، وحياة دنيوية ، ومع ذلك فالفرق بينهما إنما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الإنسان عن الأعمال التي يؤديها .

أريد أن أقول : إن الأعمال في نفسها لا توصف بأنها دينية أو دنيوية ، وإنما يتأق لها أحد الوصفين بسبب سيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ، وقد يكون العمل واحداً في نوعه ويؤديه شخصان . فيوصف عند أحدهما بأنه ديني ، وعند الآخر بأنه دنيوي . فإن كان القصد « لله » فالعمل ديني ، وإن كان القصد شيئاً آخر فالعمل دنيوي ، والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ومن البديهي أن الحديث في أوله عام بالنسبة لكل الأعمال ، وإن مسألة الهجرة فيه تطبيق جزئي لقضية عامة .

وفي العصور القديمة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا ، بل لم يكن هناك مجرد

القهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه ، وإنما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الإنسانية وانحطت شيئاً فشيئاً ، وها نحن أولاء قد وصلنا في هذا التأخر إلى أن الغرب حالياً يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ضرورة سيادة الروح الدينية في مجتمعاته ، إنه على نهج انفصالي لا يوجد في الحياة السليمة .

وإننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل إنسان ، ولكننا - ونحن على يقين من الأمر - لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفي بأنهم لن يصلوا حتى إلى أولى مراحل الطريق إذا لم يلتزموا الشريعة التزاماً تاماً . وبالله التوفيق .

٩ - علوم التصوف :

إن التصوف^(٢٤) في جوهره معرفة في محيط ما وراء الطبيعة ؛ على أن التصوف وإن كان « معرفة » عليا فإن بعض العلوم تتصل به اتصالاً وثيقاً ، بل إنها ليست إلا تطبيقاً لبعض جوانبه ، وهذا مما يميزه أيضاً عن « الميسيسيم » ، من هذه العلوم علم الفلك القديم ، وهو ليس « تنجيماً » كما يعتقد الباحثون الحديثون ، وإنما يتعلق بمعرفة أسمى وأعمق ، وكذلك الأمر في الكيمياء القديمة ، إنها ليست استخراج الذهب الحقيقي من المعادن الحقيقية ، وإنما كانت رمزاً لمعرفة لا صلة لها بالمادة وليس لها بالكيمياء الحديثة أى ارتباط أو تشابه . إن الباحثين الحديثين لا يعرفون عن المعنى الحقيقي لهذين العلمين شيئاً ، على أن هناك علومًا أخرى لا يعرف عنها متفلسفة العصر الحديث إلا اسمها ، مع أنها كانت من الدقة بحيث تبلغ درجة العلوم الرياضية .

(٢٤) الصفحات التالية ترجمة لكلمات للشيخ باللغة الفرنسية تحريتها في ترجمتها الدقة التامة .

١٠ - من شروط التصوف :

ولابد في التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى » أو بتعبير أدق « البركة » وهى لا تتأتى إلا بواسطة « شيخ »^(٢٥) ، ومن هنا كانت « الطرق » ، ومن هنا كانت السلسلة . وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مرید يوشك أن يصبح شيخاً فيؤثر بدوره فى مرید أو مریدين ؟

ونختم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهى :
أن التصوف ليس عملاً علمياً ولا بحثاً نظرياً ، إنه لا يتعلم بواسطة الكتب^(٢٦)

(٢٥) يجب على المرید أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً . هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان . وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ، لكن لا تثمر ، كذلك المرید إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً ، فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً . « الرسالة القشيرية ص ١٩٩ » .

ويشترط الإمام الرازى فى الشيخ أن يكون مخلصاً صادقاً قد انتبه الصراط المستقيم . وأن يكون سالكاً (أما السالك فلأن الوصول تارة بالجدية على ما قال عليه السلام : جدبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين ، وأخرى بالسلوك الأول لا يصح أن يقتدى به لأنه مثل من وجد كنزاً فصار غنياً فإنه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال . فلا ينتفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب ، وأما الثانى فهو الذى يصلح لتربية المرید . لأن من سلك الطريق ، وعرف مراحلها ومنازلها ، واطلع على متالفها ومعاطبها ، أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل . « شرح الإشارات ١١٢ » .

(٢٦) من كلام الإمام الغزالى فى المنقذ من الضلال : « تم إلى لما فرغت من هذه العلوم . أقبلت بهمنى على طريق الصوفية . وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل » .

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتتره عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبى طالب المكي - رحمة الله - وكتب الحارث المحاسبى ، والمتفرقات الماثورة عن الحنيد ، والشبلى ، وأبى يزيد البسطامى قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع .

على الطريقة المدرسية بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته متصوفاً ؛ على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلاً لفهمه . ولأجل أن يسير الإنسان في طريق التصوف لابد له من :

- ١ - استعداد فطري خاص^(٢٧) لا يغني عنه اجتهاد أو كسب .
- ٢ - الانتساب إلى « سلسلة » صحيحة ، إذا أن البركة التي تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هي الشرط الأساسي الذي لا يصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .
- ٣ - ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذي باركه شيخه ، في الجهاد

= فظهر لي أن أخص خواصهم ، مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحاً وشبعاناً . وبين أن يعرف حد السكر . وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على الفكر وبين أن يكون سكراناً .

بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء .

والصاحي يعرف حد السكر ، وأركانه ومأمعه من السكر شيء .

والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة ، وأسبابها ، وأدويتها ، وهو فائدة الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لأصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك . « المنقذ من الضلال » .

(٢٧) يرى الإمام الرازي أنه لابد - لتكون الرياضة نافعة - أن تكون نفس المريد : (مستعدة لهذا

الحديث ، ملائمة له ، إذ لو لم يكن كذلك ما نجحت فيه الرياضة أصلاً ، لأن تأثير الرياضة ليس إلا في إزالة العوائق ، ورفع الحجب والأستار . وزوال العائق لا يكفي في حصول المطلوب ، بل لابد معه من القابل المستعد ، فإذا لم تكن النفس مستعدة لم تفد الرياضة سعادة أصلاً ، لكنها تفيد السلامة) .

الأكبر « التأمل الروحي » . وفي الذكر : أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع ، وفى تركيز الذهن فى الملا الأعلى فيصل موفقاً من درجة إلى درجة حتى يصل إلى أعلى الدرجات . وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانياً . ذلك هو الصوفى الحقيقى .

١١ - مقامات الوصول :

وحينما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية .
والولى إما أن يمكث ولياً فقط فتكون معرفته خاصة به . أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبياً . أو يكون رسولا .

والرسول نبى ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية . أما رسالة النبى فإنها محددة الأهداف محدودة المكان . إن الرسول مظهر الصفة الإلهية « الرحمن » فى جميع أنحاء العالمين . إنه « رحمة للعالمين » فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة .

ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية . ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولى « القرب » من الله فى حين أن النبى متجه بطبيعة رسالته إلى الخلق . ولكن ذلك خطأ محض . فإن النبوة تتضمن الولاية . فهى متضمنة لمقام القرب . ثم إنها أكثر من الولاية . وعلى ذلك فإن حالة الولى « ناقصة » بالنسبة لحالة النبى . إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة . ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها فى العموم . وهذا العموم يصل إلى أعلى درجات ازدهاره فى الرسالة : إذ هى عالمية . والرسول - لا غيره - هو حقيقة « الإنسان العالمى » .

• وللرسول كما للنبى اتجاهان :

١ - اتجاه داخلى : إنه الاتجاه نحو الحق .

- ٢ - اتجاه خارجي : إنه الاتجاه نحو الخلق .
ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبي المحدودة ، ودرجة النبي المحدودة ،
أعلى من درجة الولي الخاصة ، ومقام الجميع القرب .

الفصل الرابع

العارف بالله

الشيخ عبد الفتاح القاضي

١ - كيف عرفت الشيخ عبد الفتاح القاضي

صلينا العصر في رحاب مولانا الإمام الحسين رضوان الله عليه ، وكنا على موعد في المسجد المبارك .

ثم يمينا شطر محطة مصر لناخذ القطار إلى بلد القطب المُلتم .
كان ذلك في شهر أكتوبر سنة ١٩٦٠ ، وكنا نستقبل في المساء الليلة الكبرى لمولد السيد البدوي رضي الله عنه .

وركبنا القطار في صعوبة ، وحمدنا الله على أن وجدنا في القطار مكاناً للوقوف .

وقفنا لنسير مع الزمن متحدثين تارة وصامتين أخرى ، وكلنا أمل في أن نحظى بليلة تتسم بالإشراق وتفيض بالمدد في رحاب شيخ العرب
وسار القطار .

وكان في مواجهتنا - جالساً - رجل ريفي تبدو عليه سمات الصالحين ، يلبس جلباباً من الصوف ، وعلى رأسه عمامة ، وعلى جبهته علامة الإقبال على الصلاة .

وكان على يمينه سيدة ، ريفية هي الأخرى ، لعلها أخته أو لعلها زوجته ، فقد كان يتحدث إليها في ألفة بادية ، وفي ابتسامة سهلة لا تكاد تفارق شفثيه ؛ لقد كان منظره وهو يتحدث مع السيدة يشعر بأنه نسي العالم من حوله ، وتلاشى بالنسبة له كل شيء . كان وجهه سمحًا ، وقسماته لا توتر فيها ، وكان كل شيء فيه يدل على أنه لا يحمل في قلبه كراهية لأحد ، ولا حقًا لمخلوق ؛ لقد كانت ترتسم على وجهه صورة البراءة أصفى ماتكون البراءة .

وراقني منظره . منظر البراءة والسماحة . وراقني أن أنظر إلى هذا الوجه السمح وهذه البراءة البادية . وتعلقت عيناى به .

ويبدو أنه وصل في حديثه مع السيدة إلى نهاية قصة أو خاتمة حديث . فأخذ يدور بوجهه في من حوله . جالسين وواقفين . ثم نظر إلى . فقد عينية نحوى . وتركزت عيناه على وجهى . وزال من وجهه شيء قليل من سماحته . وحل محلها نوع خفيف من التوتر وبدا عليه الاهتمام .

وأردت أن أنهى هذا الموضع فاتجهت إلى صديق أتحدث إليها متكلفًا الحديث . وكان أحدهما بجوار الرجل . فانتهر الرجل فرصة صمت منا واتجه إلى من بجواره قائلاً له : بشر صاحبك - مشيراً إلى - بالحج هذا العام .

وأخذت الأمر على أنه قال حسن ، وعلى أنه بشرى من الجائز أن تتحقق ، وكان في هذا النبأ على كل حال تخفيف من الشعور بزحمة القطار ، وسلوى عن حرارة الجو .

ومضت الأسابيع والشهور ، وقرب موعد الحج ، ثم أعلنت الجرائد موعد قبول الطلبات .

ولم أكن قد اتخذت العدة للحج فلم أتقدم بطلب وإن كنت في شوق ملح للحج وللزيارة إذ لم أكن قد أدبت الفريضة بعد .

وحينما أعلنت الجرائد عن موعد قبول الطلبات . تذكرت الفأل الحسن .
وتذكرت البشرى التى ... يجوز أن تتحقق .
ولكن هاهى ذى المدة المحددة لقبول الطلبات تنقضى يوماً فيوماً . حتى
أوشكت على الانتهاء .

فلم أحرك ساكناً . وكأنى بموقفى هذا أتحدى نبوءة هذا الشيخ . تلك النبوءة
التى ... يجوز أن تتحقق ... ثم ثم انتهت المدة وضعف بانتهاؤها الأمل فى أداء
فريضة الحج هذا العام ، وإن لم يضعف الأمل فى أن تحدث معجزة .
وبدأت أفواج من استجابوا للأذان بالحج تتجه نحو الأرض المقدسة . تحييمهم
الزغاريد ، وتودعهم الدعوات .

وكانت محطة كوبرى الليمون تقع فى طريقى اليومى المعتاد ؛ فكنت أرى هذا
المنظر السار البهيج وأتخسر إذ لم أكن فى الركب .
ولم يبق على سفر آخر فوج إلا ستة أيام .
وذاات يوم

فى صباح اليوم السادس قبل سفر آخر فوج اتصل بى أحد الأصدقاء يستفسر
عن أسماء كتب الشيخ عبد الواحد يحى . وعن كيفية الحصول عليها ثم قال :
إن السيد حسن عباس زكى يجب أن يشتري بعضها أوكلها إذا أمكن . ويجب
أن يعرف أسماءها والسبيل إلى شرائها .

وبعد حديث بينى وبين هذا الصديق اتفقنا على أن أحضر له المجموعة كاملة
لينظر فيها السيد الوزير حتى إذا ما راقه بعضها اتصلنا بالمكتبات الفرنسية فى القاهرة
لتحضر الكتب من باريس .

وفى عصر اليوم نفسه سلمت صاحبي مجموعة الكتب .
وفى مساء اليوم نفسه أيضاً ، مرّ على صاحبي قائلاً :

إن السيد الوزير يحب أن يراك . فهيا بنا لزيارته . ولم أكن قد التقيت به من قبل .

والتقينا بالسيد الوزير وأخذنا نتحدث عن الشيخ عبد الواحد يحيى . ثم ذهب السيد الوزير ليحبيب على نداء التليفون ، وأراد صاحبي ألا يمر الوقت في صمت وأن يقطعه بالحديث . فقال كعادة الحجاج :

ألا ترغب في شيء من الحجاز؟ منتظرًا أن أقول له سبحة مثلا ، أو شيئًا من هذه الأمور التي يتزود بها الحجاج في عودتهم .

فأريت نفسي مندفعًا إلى أن أقول له فورًا : وكأني مسخر بقوة لاقبل لي بردها . نعم أرغب في أمر سهل بالنسبة لك وأرجو أن تقوم به مشكورًا . وتها صاحبي لسماع الطلب في انتباه ظاهر .

فقلت : أرجوك أن تقف أمام الضريح الشريف وتقول :

إن عبد الحليم يقبل اليد الشريفة ، ويرسل تحياته ، ويبلغ أشواقه إلى سيده رسول الله ﷺ ، ويرجو منك يا أكرم الخلق على الله أن تدعوه لزيارتك ، فإنك إذا فعلت زالت كل العقبات ، وأتى يسعى ليلى النداء .

وقال صاحبي في نوع من التأمل البادى على ملامحه : أرجو أن تكون قد استجيبت ، ولعلها قد استجيبت .

وانتهى أمير الحج من الحديث التليفوني - فقد كان السيد حسن عباس زكى هو أمير الحج في ذلك العام - وجاء فذكر له صاحبي ما تحدثنا به في غيبته ، فقال أمير الحج : إنه يدعو الله أن يتحقق الرجاء . وانتهى الحديث عند ذلك .

ثم اتفقنا على أن نذهب معًا إلى منزل الشيخ عبد الواحد يحيى لزيارة أسرته وليأخذ السيد الوزير صورة أوضح عن حياته .

ولن أنسى صورة السيد الوزير وهو واقف في غرفة المكتبة بجوار المكتب الذى

كان يجلس عليه الشيخ قارئاً كاتباً ، وقف مستغرقاً وكأنه يسافر بروحه في الزمن عودة إلى الماضي ، يريد أن يتعرف إلى الشيخ في حياته ، أو كأنه بعبارة أدق يسافر في الحاضر إلى عالم الأرواح ، يريد أن يرى في عالم الغيب صورة الشيخ الحقيقية .

إن شيئاً من آثار الشيخ رضوان الله عليه ، مازال باقياً - لاشك - في هذا المكان . ونحيل إلى حينئذ أن السيد الوزير بروحه الشفافة ، وبروحانيته القوية ، وببصيرته النافذة ينطلق مسترشداً بالأثر إلى .. صاحب الأثر .

إن عبير الشيخ الزكي ، مازال يملأ أرجاء المكان ، ولا يزال الأريج الطيب يعطر الجو ، يشعر بذلك كل من رق شعوره ، وشفت نفسه وأنار الله بصيرته ... وافترقنا ،

وفي اليوم التالي - الخامس قبل سفر آخر فوج - بينما أنا جالس في كلية أصول الدين مشتركاً في أعمال الامتحان ، إذا بالنداء : احضر لاتخاذ الإجراءات للحج ... فقلت : صلوات الله وسلامه عليك يا أكرم الخلق على الله .

وتكرر اللقاء بأمير الحج في أثناء الحج ، ثم لم ينقطع الاتصال به بعد العودة ، وفي يوم من الأيام دعاني السيد الوزير لتناول الغداء في منزله .

وكان الشيخ عبد الفتاح القاضي هناك : بسمته الوقور ، وهيبته المطمئنة ، ووجهه المشرق نوراً .. وكان يتحدث .

ولم يكن الشيخ عبد الفتاح القاضي يتحدث حديثاً شعبياً ، ولا حديثاً مألوفاً ، وإنما كان يتحدث حديث قمة . إنه يفاجئ الحاضرين بالمشكلة ، يشرحها باعتبارها مشكلة ، ويوضح جوانبها من حيث الإشكال ، ثم يطلب من السامعين حلها . وما كان رحمه الله يطلب الحل إلا ليشير انتباههم بصورة أعمق ، حتى إذا كان انتباههم كاملاً بدأ في ذكر الحل .

هذه المشاكل كانت تدور حول آيات من القرآن ، فيرى السامع في النهاية أن القرآن مازال بَكْرًا .

وتدور كذلك حول أحاديث للرسول ﷺ ، فيرى السامع في النهاية أيضًا أن الرسول ﷺ ، أوتى حقًا جوامع الكلم .

وهكذا كانت مجالس الشيخ ، إنها تفسير للقرآن الكريم ، أو شرح للسنة الشريفة . لقد كان الناس ينسون الدنيا في مجلسه ، ولم يكن مجال في مجلسه للغو الحديث . ولا للزور والباطل ، سواء ألبس هذا الزى ، أم ذاك . لم يكن للشيطان إلى مجلسه من سبيل . هذا التفسير ، وهذا الشرح ، أهما عقليان ؟ أكان الشيخ يتحدث عقليًا ؟ أكان يتحدث علميًا ؟ أكان يتحدث إلهاميًا ؟ إن العقل والعمل والإلهام ، إن البصيرة والإشراق والنص ، إن كل ذلك ، كان يتكاتف ويمتزج ، ويتألف منه باقة ترضى الذوق المترف والعقل الراشد ، والتدين المستنير .

لقد فوجئت بالشيخ ، فوجئت به شخصية مكتملة متناسقة ، وفوجئت به شخصية قوية مسيطرة ، وفوجئت به شخصية ودودة متحبة ، وفوجئت به شخصية عالمة ناقدة ، وفوجئت به شخصية ملهمة تستمد النور من منابع النور . لقد كانت الأعين معلقة به ، والآذان مشدودة إليه ، والعقل يدور فيما يهيئه من مجال لتفكيره . والقلب راض مغتبط

ثم يسكت الشيخ ويتجه نحو الشيخ عبد الجليل ويقول له ، في مودة بادية :
تكلم أنت الآن « يا ولد يا عبد الجليل » .

وهذا الذى يخاطبه الشيخ بقوله : « يا ولد يا عبد الجليل » من علماء الأزهر النابهين ، يعمل مدرسًا بوزارة التربية ، فنى فى الشيخ حبًا ، وإجلالا ، وتقديرًا . وعيناه دائمًا معلقتان بالشيخ ، وسمعه على الدوام مصغ إلى الشيخ .

إنه يسمع الهمس من حديثه ، ويرى مالا يكاد يرى من إشارات ، ويبلج كل ما يريد الشيخ من أمر ولو لم يعلن الشيخ عن رغبته .

ومع أنه فني في الشيخ فإن شخصيته بالنسبة للآخرين غير فانية ولا خفية . إن أتباع الشيخ يعرفون ذكاءه اللامع ، وعلمه الجرم ، واتزانة فيما يأتي وفيما يدع ، ويعرفون تصرفه الحكيم فيما يعرض لمجتمعهم الخاص من مشاكل ، ويعرفون اجتهاده في العبادة ويعرفون حب الشيخ له ..

ويقوم الشيخ عبد الجليل ويتحدث مفسراً آية أو شارحاً حديثاً . وقد أمره الشيخ في تلك الجلسة أن يفسر قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) .

وقلت في نفسي حينما سمعت أمر الشيخ له بتفسير هذه الآية . وماذا عسى أن يقول الشيخ عبد الجليل في هذه الآية الواضحة المعنى ، السلسلة التركيب ، إن مجرد قراءتها بيان لمعناها ...

وتحدث الشيخ عبد الجليل ، فأجاد ، وأفاد ، وبهر . وكان من الواضح أن الشيخ يعد الشيخ عبد الجليل للخلافة . لقد كان يريه بالتعليم ، ويريه بالأوامر ، ويريه بالعبادة ، ويريه بالصمت . لقد كان يهيئه ليملاً مركز المرشد بعده .

ولقد كان عند الشيخ عبد الجليل الاستعداد التام للخلافة . وقد كان انتهاء الشيخ عبد الجليل من كلمته إيذاناً بانتهاء الجلسة . وافترقنا جسمائياً وبقيت ذكرى الشيخ في القلوب حية نابضة . وتكرر اللقاء بالشيخ في داره بشبلنجة وفي القاهرة .

من هو الشيخ عبد الفتاح القاضي ؟

٢ - حياته

إنه الإمام العارف بالله تعالى ، الشيخ (عبد الفتاح بن سيد أحمد بن محمد القاضي) الحسني أبا الحسيني أمّا ، الشافعي مذهباً ، المحمدي تربية ، الشاذلي طريقة ، الشبلنجي داراً ومزاراً .

ولد رضي الله عنه في « شبلنجة »^(١) من أبوين شريفين في آخر صفر ١٣١٧ من هجرة خاتم المرسلين ، الموافق ٨ من يوليو ١٨٩٩ ميلادية .

وبرغم الوثائق الظاهرية التي تؤكد انتسابه إلى الدوحة النبوية المباركة . كان شديد الشغف إلى ما يحقق له نسبه الشريف عن طريق كشف لا مجال للشك فيه . فنّ الله تعالى عليه بذلك ، إذ سمع في منامه من مصدر علوي ذلكم النداء : « أنت شريف أباً وأمّاً » .

فاستراح فؤاده ، واطمأن خاطره ، وحمد الله تعالى ، على هذه المنة العظيمة . وبعد سنوات ست من ميلاده تقريباً ، توفي والده إلى رحمة الله . وتركه يتيماً في رعاية أمه الهاشمية .

ولانسأل عما قامت به الهاشمية - مع صغرسنها - من تربية صادقة له ولإخوته اليتامى ، وتوافرها وعكوفها على أداء ما يلزم لهؤلاء الصغار ، الذين لا عائل لهم إلا الله ، وهي مستعينة - بعد الله - على تربيتهم بما ورثته من قراريط من المرحوم والدها الشيخ « حسن هاشم » وبما تركه المرحوم زوجها « الشيخ سيد أحمد » من عقار يسير .

ثم أرسلته أمه إلى المكتب ، لحفظ القرآن الكريم ، فاشتهر بين لداته وأترابه

(١) بالقرب من بنها .

بسرعة الحفظ وحدة الذكاء . مما جعل معلم المكتب يقبل عليه ويخصه بمزيد من الرعاية والعناية . ولشديد تعلقه به . اختاره مساعداً له في تعليم القرآن بالمكتب بعد أن حفظه وجوده . وأتقن أحكام قراءته . في سن مبكرة . وظل في تعليم القرآن . لأولاد قريته . حتى اجتباه الله . فجذبه إليه . فاختره في بيته متعبداً لله ذاكراً . وقد تجلت فيه رجولة مبكرة . فما إن خطا خطواته الأولى . في طريق الشباب حتى خالط الرجال . وجالس أصحاب الرأي واستمع منهم وأصغى لحكمهم . فبدأ يسير سيرهم . حتى لقد كان أحياناً يشير عليهم فيجدون عنده الرأي . فاشتهر بينهم . وعرف عندهم بالرأي السديد . والحكم العادل النزيه . فصار الشيوخ والمسنون من أهل البلدة وذوو الخبرة والتجربة . يستعينون به . ويستشيرونه في مهام الأمور . ويدعونهم في مجالس الصلح . ويصحبونه لفض المنازعات وللحكم في القضايا والخصومات .

وكانت عادته البكور . فيستيقظ قبيل الفجر ليؤدي فرض ربه ويذكره ويسبحه . ثم يتناول فطوره . ويغزو معتمداً على الله تعالى إلى المكتب لتعليم القرآن . حتى وقت الظهيرة . فيعود إلى داره . فيتناول غداءه ويستريح قليلاً وقت القيلولة . ثم يشتغل بالإشراف على الزراعة . وترتيب شئونها ثم يعود إلى البيت لقضاء مهامه . وبعد ذلك يفرغ بقية يومه لقراءة كتب الدين وسير الصالحين . وقص مآثرهم وكراماتهم على أصحابه وأهل مجلسه . إذ كانت هذه هوايته لتتبع سنهم والسير على طريقهم .

و ذات يوم حضر إلى منزله أحد شيوخ القرية من العلماء المسنين . وبعد حديثها عن الصالحين ومناقبهم قدم هذا العالم للشيخ مخطوطاً جمع صيغاً متعددة الفضل . مضاعفة الثواب والأجر . في الصلاة على المصطفى ﷺ وقال له :
« خذ هذه وانقلها . واجعلها وردك . فإنها عظمة النفع والبركة » .

فقال له فضيلة الشيخ : « عن نقلتها ؟ » .

فقال : « نقلتها عن الشيخ الأشموني رضى الله عنه عالم الأزهر المشهور .
وأوصاني بقراءتها لأنها ذات سر عجيب في الفتح ، ومقربة من حضرة الرسول
ﷺ » .

فعلم الشيخ أن هذه منة من الله تعالى مساقاة إليه على يد هذا العالم ، وفعلا
نسخها في أيام قليلة ، كما كانت عادته المسارعة والتعجيل في أمور الدين
والآخرة ، وجعلها الشيخ ورده ، فكانت مفتاح كل خير له ، وكان يقول عنها : لم
أجد في طريق الله أسرع سبيلا إلى الفتح وأقرب طريقاً إلى حضرة الرسول ﷺ .
وأجلب لرضا المولى سبحانه وتعالى ، من هذه الصلوات ، إنها سبب في تذليل
صعوبات الحياة كتفريج الكروب ، وإدراك الرزق ، وقضاء الحوائج ، وكان كلما
حزب الشيخ أمر فزع إلى الصلاة إلى قراءة هذه النسخة .
أما فزعه إلى الصلاة فاقتداء بحضرة الرسول ﷺ ، إذ كان يفزع إلى الصلاة
كلما حزبه أمر .

وأما فزعه إلى قراءة هذه النسخة فما جربه كثيراً أنه ماهمه أمر أو أحاط به
مكروه وقرأ هذه النسخة إلا وجد بعدها الفرج والتيسير ، لذا كان حرص الشيخ
عليها شديداً جداً ، ووصيته لأولاده بالمحافظة عليها وتلاوتها أشد ، لما لمسه فيها من
النور والبركة ، ورضا النبي ﷺ ، ولما يعلمه من أن الصلاة على الرسول ﷺ ،
مفتاح لمغاليق الأمور وسبيل السعادة في الدارين^(٢) ، وكانت هذه الصلوات
ديدنه وشعاره ، وكان يقرؤها في اليوم مرات ، وإذا سئل عن ذلك يقول : إنما أقرأ

(٢) ولقد جمعت هذه الصلوات مع بعض أحزاب للشيخ الشاذلي رضى الله عنه وغيره وطبعت في
آخرات أيام الشيخ بإذنه على نفقة العارف بالله تعالى السيد الدكتور « حسن عباس زكى » جزاه الله خير
الجزاء ، وبلغه مناه في الدارين ، ليعم النفع بها .

لى مرة ، وأجبر تقصير أولادى بالمرات الأخرى ، ولشغفه الشديد بها سمع منه مراراً تلاوته لها مرتبة بصوت مسموع فى أثناء نومه يسمعه من حوله ، وعندما كان يستيقظ يكمل تلاوتها حيث وقف وكان هذا قبيل انتقاله بقليل . وحسبك دليلاً على عظم فضلها ، وكبير نفعها وخيرها أن الرسول ﷺ أمسكها بيده الشريفة وقال للشيخ مناماً : « إني أحبها ، إني أحبها » .

لذا لم يتركها الشيخ قط لافى سفر ولا فى حضر ، ولا فى صحة ، ولا فى مرض ، حتى اليوم الذى لقي الله تعالى فيه قرأها كعادته ، ولتعلق الشيخ بها وولوعه بحبها رأت كثيراً فى المنام ممسكاً بها ، تالياً لها ، حاثاً عليها ، مبيناً فضلها ، حتى قال لبعض من رآه كذلك مناماً : إنها أهم ورد فى الطريق ، بل هى الطريق جله .

وهذه الصلاة هى للشيخ عبد الله بن محمد الهاروشى المغربى الفاسى منشأ وداراً ، ثم التونسى رحلة ومزاراً ، وهو مدفون فى تونس وقبره مبارك ، ومن المشهور بين أهل تونس أن من زار ضريحه متعمداً مخلصاً كان هذا علامة على قبول الله له وعلى أنه من أهل الجنة .

وننقل هنا أزهاراً موفقة من هذه الصلوات المباركة نفعا الله بمن قيلت فيه ونفعنا بها وبصاحبها ونرجوه سبحانه أن يمن بالرضوان على من عرّف بها أتباعه ومريديه :

« اللهم إنا قد عجزنا من حيث إحاطة عقولنا ، وغاية أفهامنا ، ومُنْتَهَى إرادتنا وسوابق هِمَمِنَا أن نصلى عليه من حيث هو وكيف نقدر على ذلك وقد جعلت كلامك خلقه وأسماءك مظهره ومنشأ كونك منه وأنت ملجؤه وركنه وملوك الأعلى عصابته ونصرته . فصل اللهم عليه من حيث تعلق قدرتك بمصنوعاتك وتحقق أسمائك بإرادتك منه ابتدأت المعلومات وإليه جعلت غاية الغايات وبه أقيمت الحجج على المخلوقات ، فهو أمينك خازن علمك حامِلُ لواءِ حمدك معدِنُ شرك

مَظْهَرُ عَزْكَ نَقْطَةُ دَائِرَةِ مُلْكِكَ وَحَيْطَةُ وَمَرْكَبِهِ وَبَسِيطَةُ .

« اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَحْشِرَنَا فِي زُمْرَتِهِ وَأَنْ تَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ سِتِّهِ وَلَا تَخَالَفْ بِنَا يَا مَوْلَانَا عَنْ مِلَّتِهِ وَلَا عَنِ طَرِيقَتِهِ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ مُجِيبُ لِمَنْ دَعَا أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . اللَّهُمَّ كَمَا مَنَنْتَ عَلَيْنَا بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ فَامْنُنْ عَلَيْنَا بِفَهْمِ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ شَفَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

« اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُبْعُوثِ رَحْمَةً لِكُلِّ أُمَّةٍ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ لِلسِّيَادَةِ وَالرِّسَالَةِ قَبْلَ خَلْقِ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُوصُوفِ بِأَفْضَلِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُخْتَصِ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ وَخَصَائِصِ الْحِكَمِ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَانَ لَا تُتْهَكُّ فِي مَجَالِسِهِ الْحَرَمُ وَلَا يُغْضَى عَنْ ظِلِّهِ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَانَ إِذَا مَشَى تُظِلُّهُ الْغَمَامَةُ حَيْثَا يَمُّ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي انْشَقَّ لَهُ الْقَمَرُ وَكَلِمَةُ الْحَجَرِ وَأَقْرَبَ رِسَالَتَهُ وَصَمَّمَ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَثْنَى عَلَيْهِ رَبُّ الْعِزَّةِ نَصًّا فِي سَالِفِ الْقَدَمِ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ رَبُّنَا فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ وَأَمَرَ أَنْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَيُسَلَّمَ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَا هَلَّتْ الدِّيْمُ وَمَاجَرَتْ عَلَى الْمَذْنِبِينَ أَذْيَالُ الْكُرْمِ وَسَلَمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا وَشَرَفًا وَكَرَمًا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

« اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى أَشْرَفِ مَوْجُودٍ وَأَفْضَلِ مَوْلُودٍ وَأَكْرَمِ مَخْصُوصٍ وَمَحْمُودٍ ، سَيِّدِ سَادَاتِ بَرِّيَّاتِكَ وَمَنْ لَهُ التَّفْضِيلُ عَلَى جُمْلَةِ مَخْلُوقَاتِكَ صَلَاةً تَنَاسِبُ مَقَامَهُ الْعَالِيَّ وَمَقْدَارَهُ وَتَعْمُ أَهْلَهُ وَأَزْوَاجَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ وَأَنْصَارَهُ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى جُمْلَةِ رَسَلِكَ وَأَنْبِيَائِكَ وَزُمَرِ مَلَائِكَتِكَ وَأَصْفِيَائِكَ ، صَلَاةً تَعْمُ بَرَكَاتِهَا الْمُطِيعِينَ مِنْ أَهْلِ أَرْضِكَ وَسَمَائِكَ . اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِلْمِكَ مِنْ جَهْلِي وَبِعَنَّاكَ مِنْ فِقْرِي ، وَبِعَزِّكَ مِنْ ذُلِّي ،

وبجولك وقوتك من عجزى وضعفى ، وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر . اللهم إني أعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء والآراء . »

« اللهم يا من بيده خزائن السموات والأرض عافنا من معن الزمان وعوارض الفتن فإننا ضُعفاء عن حملها وإن كنا أهلاً لها فعافيتك أوسع لنا يا واسع يا عليم . اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجِرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة . اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر ، اللهم اجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتيمه ، وخير أيامي يوم ألقاك فيه . اللهم لا تجعل عيشي كدًا ، ولا تجعل دعائي ردًا ، ولا تجعلني لغيرك عبدًا ، ولا تجعل في قلبي لسواك ودًا ، إني لا أقول لك ضِدًّا ولا شريكًا ولا ندًا . اللهم ارزقني نفسًا قانعة بعطائك ، موقنة ببقائك ، شاكرة لنعماك ، محبة لأوليائك ، مبغضة لأعدائك . اللهم وسّع على رزقي في دنياي ، ولا تحجبني بها عن أخرى ، واجعل مقامي عندك دائمًا بين يديك وبك ناظرًا إليك ، وأرني وجهك الكريم ، وواريني عن الرؤية وعن كل شيء دونك ، وارفع الين بيني وبينك يا من هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . »

« اللهم صلّ على سيدنا محمد كما أمرتنا أن نصلي عليه ، اللهم صلّ على سيدنا محمد كما هو أهله . اللهم صلّ على سيدنا محمد كما تحب وترضى له . »
« اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد سيّد الأولين والآخرين ، قائد الغرّ المحجلّين ، السيّد الكامل الفاتح الخاتم الحبيب ، الشفيع الرؤوف

الرحيم ، الصادق الأمين ، السابق للخلق نوره ، والرحمة للعالمين ظهوره ، عدد من مضى من خلقك ومن بقي ومن سعد منهم ومن شقى صلاة تستغرق العدّ وتحيط بالحدّ ، صلاة لا غاية لها ولا منتهى ولا أمد ولا نقضاء ، صلاة دائمة بدوامك باقية ببقائك وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأصهاره وأنصاره وسلم تسليمًا مثل ذلك ، واجر يامولانا خفي لطفك في أمورنا كلّها وأمور المسلمين .

« اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله صلاة أهل السموات والأرضين عليه واجر يامولانا لطفك الخفي في أمرى وأرنى سرّ جميل صنعك فيما أوّله منك يارب العالمين . »

« اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم ، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمدًا ﷺ عبدك ورسولك فلا تكلّنى إلى نفسى طرفة عين ، إنك إن تكلنى إلى نفسى تُقربنى من الشر وتبعدنى من الخير ، فإنى لا أثق إلا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهدًا تؤديه إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . »

« اللهم لك الحمد كما أنت أهله ، فصلّ على سيدنا محمد كما هو أهله وافعل بى ماأنت أهله ، فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة . اللهم إنى أسألك بحقه عليك الذى أثبتته ، وبقسَمِكَ بعمره الذى شرفّته به وفضلته ، وبمكانه منك الذى خصصته واصطفيته ، أن تجازيه عنا أفضل ما جزيت به نبيًا عن أمته وتوثيه من الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة فوق أمنيته ، وتُعظّم عن يمين العرش نوره بما نورت به من قلوب عبيدك ، وأن تضاعف فى حضيرة القدس حُبوره بما قاسى من الشدائد فى الدعاء إلى توحيدك ، وأن تجدّد عليه من شرائف صلواتك ولطائف بركاتك وعوارف تسليمك وكرامتك ماتزیده به فى عرصات القيامة إكرامًا وتعليه به فى عليين مُستقرًا ومُقامًا . اللهم وأطلق لسانى بإبلاغ الصلاة عليه والتسليم ، واملاً

جناني من حبه ، وتوفيه حقه العظيم . واستعمل أركانى بأوامره ونواهيه فى النهار
الواضح والليل البهيم ، وارزقنى من ذلك مايبوئنى جنات النعيم ويشعرنى رحماك
وفضلك العميم ، ويقربنى إليك زلفى فى ظلّ عرشك الكريم . وتحلنى دار المقامة
من فضلك وتُرحزنى عن نار الجحيم ، وتعطينى شفاعته يوم العرض وتوردنى مع
زمرته على الحوض ، وتؤمننى يوم الفزع الأكبر يوم تبدّل الأرض غير الأرض ،
وارفعنى معه فى الرفيق الأعلى واجمعنى معه فى الفردوس وجنة المأوى واقسيم لى
أوفر حظ من كأسه الأوفى ، وعيشه الهنى الأصفى واجعلنى ممن شفى غليله بزيارة
قبره وتشفى ، وأناخ ركابه بعربات حزبك وحزبه قبل أن تُتوفى .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ماأكرمك على الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ماخاب من توسل بك إلى الله .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله كل من دونك محب وأنت حبيب الله .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله الأملاك تستغيث بك عند الله .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله الأنبياء والرسل ممدّون من مددك الذى
خُصّصَ به من الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله الأولياء أنت الذى واليتهم فى عالم الغيب
والشهادة حتى تولاهم الله .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من سلك على محبّتك وقام بحُجّتك أيده
الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله المخدول من أعرضَ عن الاقتداء بك
إلى والله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من أطاعك فقد أطاع الله .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من عصاك فقد عصى الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من أتى لبابك متوسلاً بك قبله الله
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من حطَّ رحل ذنوبه في عتباتك غفر له
الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من دخل حرَمَكَ خائفاً أمَّنه الله .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من لاذ بِجَنابِكَ وَعَلِقَ بِأَذْيَالِ جَاهِلِكَ أَعَزَّهُ
الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله من أم لك وأُمَّلَكَ لم يَخِبْ من فضلك
لا والله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله أَمَلْنَا شَفَاعَتَكَ وَجَوَارِكَ عِنْدَ اللهِ .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله تَوَسَّلْنَا بِكَ فِي الْقَبُولِ عَسَى وَلَعَلَّ نَكُونُ
مِمَّنْ تَوَلَّاهُ اللهُ .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله بِكَ نَرْجُو بُلُوغَ الْأَمَلِ وَلَا نَخَافُ الْعَكْسَ
حاشا لله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله مُجِئُوكَ مِنْ أُمَّتِكَ وَاقْفُونْ بِبَابِكَ يَا أَكْرَمَ
الْخَلْقِ عَلَى اللهِ .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله قَصَدْنَاكَ وَقَدْ فَارَقْنَا سِوَاكَ يَا وَسِيلَتَنَا إِلَى اللهِ .
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله قَدْ جِئْنَاكَ بِشَوْقِ الْمَحَبَةِ ضِيَوْفًا نَرْجُو الْقِرَى
فاجعل قِرَانَا مَا يَلِيقُ بِكَرَمِكَ مِنْ إِحْسَانِ رَبِّكَ يَا عَزِيزَ الْقَدْرِ عِنْدَ اللهِ .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله الْعَرَبُ يَحْمُونَ التَّزِيلَ وَيُحِيرُونَ الدَّخِيلَ وَأَنْتَ
سَيِّدُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ يَا رَسُولَ اللهِ .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله قَدْ نَزَلْنَا بِحَيْكَ وَاسْتَجَرْنَا بِجَنَابِكَ وَأَقْسَمْنَا
بِحَيَاتِكَ عَلَى اللهِ .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله أنت الغياث وأنت الملاذ فأغثنا بجاهك
الوجيه الذي لا يردده الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله .

الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله .

الصلاة والسلام عليك يا نبي الله .

الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، مادامت ديمومية الله صلاة وسلاماً
ترضاهما وترضى بهما عنا يا مولانا يا رسول الله .

الصلاة والسلام عليك وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى سائر الملائكة
أجمعين . اللهم وارض عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابع
التابعين ومن تبعهم بخير وإحسان إلى يوم الدين .

اللهم يا على يا عظيم يا حلیم يا حكيم يا كريم يا غفور يا رحيم إنا نتوسل إليك
بجاه هذا السيد الكامل الذي من جميع خلقك اخترته واصطفيته ، وبجميع المكارم
خصصته واجتبته أن تميتنا على الإيمان والإسلام ، وأن تسعدنا به وبلقائك يا رحيم
يارحمن يا سلام .

واجعل اللهم مامننا به علينا في جمع هذه المواهب التي وهبتها لنا ثلجاً في
قلوبنا ومحوراً لذنوبنا ونوراً في يقيننا وقوة في إيماننا وتركية لأعمالنا وزخراً لآخرتنا .
وارحم بها والدينا وإخواننا وأشياخنا وكل من انتمى إلينا .

وانفع اللهم بها كل من طالعها واقتبس منها نوراً يزكيه ، وخيراً ينميه
ولا تؤاخذنا بذنوبنا وسوء أفعالنا ، وعاملنا بما أنت أهله من الجود والكرم يا أرحم
الراحمين . اللهم إنا نتوسل بك إليك ، ونسألك لانسأل غيرك بحق نبيك
أن تميتنا على دينه وملته ، وأن تحشرنا في زمرة وتحت لوائه وغايته ، وأن تغفر ذنوبنا
وأن تستر بمَنِّك عيوبنا ، وأن تطهر من صدى الغفلة قلوبنا .

وامح اللهم زللنا وخطايانا . وأن تتجاوز عنا وعن سيئاتنا ، وأن تهوّن علينا
سكرات الموت ومابعد من فتنة القبر والحشر ، وأن تطيبنا للموت ، وأن تجعل فيه
راحتنا . وقنا اللهم من الأهوال العظيمة التي لا يسعنا حملها ولاضعفنا إلا ما كان
من عفوك وجودك ورحمتك فأنت الجواد الكريم الغفور الرحيم .

الصلاة والسلام التّامان الأكملان على سيدنا ومولانا محمد الذي انعقدت له
العزة في الأزل ، وانسحب فضلها إلى ما لا يزال وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته .

سبحان الله عدد ماخلق في السماء . سبحان الله عدد ماخلق في الأرض ،
سبحان الله عدد ما بين ذلك . وسبحان الله عدد ما هو خالق . والحمد لله عدد
ماخلق في السماء . والحمد لله عدد ماخلق في الأرض . والحمد لله عدد ما بين
ذلك . والحمد لله عدد ما هو خالق . ولا إله إلا الله عدد ماخلق في السماء . ولا إله
إلا الله عدد ماخلق في الأرض . ولا إله إلا الله عدد ما بين ذلك . ولا إله إلا الله
عدد ما هو خالق . والله أكبر عدد ماخلق في السماء . والله أكبر عدد ماخلق في
الأرض . والله أكبر عدد ما بين ذلك . والله أكبر عدد ما هو خالق . ولا حول
ولا قوة إلا بالله عدد ماخلق في السماء ولا حول ولا قوة إلا بالله عدد ماخلق في
الأرض . ولا حول ولا قوة إلا بالله عدد ما بين ذلك . ولا حول ولا قوة إلا بالله عدد
ما هو خالق .

اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه . وأستغفرك من
كل ما وعدتك به من نفسي ثم لم أوف به . وأستغفرك من كل عمل أردت به
وجهك فخالطه غيرك . وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على
معصيتك . وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيت في بياض النهار
وسواد الليل في ملأ وخلاء ، وسر وعلانية يا حلیم .

اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك . وأنا على عهدك ووعدك

ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك عليّ . وأبوء بذنبي
فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (ثلاثاً) . أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو
الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم وأتوب إليه .

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي . ورحمتك أرجى عندي من عملي (ثلاثاً) .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .
وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

هذه بعض مقتطفات مما ورد في الصلاة التي كان يهيم بها حباً شيخنا رضي الله
عنه . وكل فقرة منها تعتبر ذكراً قائماً بنفسه وقد أوردناها على هذا الاعتبار .
أما فيما يتعلق بالصيغ المفردة فقد سئل الشيخ رضي الله عنه عن أفضل صيغة في
الصلاة على رسول الله ﷺ ، فقال : إنها :

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء
نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك .

فسأله أتباعه : أهى أفضل من :

« اللهم صلّ على سيدنا محمد النور الذاتى والسر السارى سره فى جميع الأسماء
والصفات » ؟ وكان الأتباع يعرفون حبه أيضاً للصيغة الأخيرة . فقال :
إن العبودية فى قولنا - فى الصيغة الأولى - « محمد عبدك » أفضل من أى
صيغة أخرى .

وكان رضى الله عنه يقول عن الصلاة الإبراهيمية : إنها الصلاة التامة . لأنها
من جميع المقامات . فكما أن إبراهيم عليه السلام له مقامات كثيرة - الخلة -
التسليم كونه أمة . . . إلخ فيصلى عليه من جميع ذلك فكذلك محمد ﷺ مع
عدم الاتحاد فى الحكم والكيفية بل المعنى .

« كما صليت عليه في جميع المقامات صلاة تليق به . فكذلك صلّ على محمد صلاة تليق به في جميع المقامات ، وكذلك آل كلٍّ وصحب كلٍّ »
 ونعود من جديد بعد هذه الترويحة في الدعاء والصلاة على الرسول ﷺ إلى سيرة الشيخ العطرة فنقول :

وظل الشيخ في الجهاد الأكبر حتى جاوزت سنه الثلاثين بقليل ، فأحس برغبة ملحة ، ودفع قوى وميل شديد إلى نسخ القرآن الكريم بيده أجزاء ، ولم يلبث أن سارع مستجيباً لهذه الرغبة كمادته ، فاعتكف لهذا العمل الجليل ، خمسة وعشرين يوماً أتم بانتهاؤها كتابة المصحف كله أجزاء بخط النسخ الواضح مع وضع علامات الوقف والشكل والرموز التي بالمصحف ، وزخرفته أوائل السور والأجزاء . وتجليد كل جزء من الأجزاء الثلاثين بغلاف جميل متين . وكان في هذه الفترة قليل النوم والطعام . يشعر بروحانية عجيبة وهمة عليّة ونشاط كبير . فعلم أن هذا الأمر من الله ، وأن له مابعده .

ولعلمه بأن لمن كتب القرآن الكريم دعوة مجابة فساءل نفسه ، أى دعوة أدعو بها ؟ ولم يجد في قلبه غير الابتهاال إلى الله عقب الفراغ منه أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه . وأن يسلك به السبيل إليه . وأن يوفقه لما يحبه ويرضاه ، ويحسن له الختام . وبعد كتابته القرآن الكريم مباشرة ، رأى في نومه جمعية من رجال الله تقلّب صفحات أجزاء هذا المصحف ، وينظر بعضهم إلى بعض نظرة إعجاب وتقدير ، ثم قررت هذه الجمعية قبوله ، وتداوله في المناسبات بين أهل القرية ، لتوافر الإخلاص في كتابته . وفعلا تداول المسلمون هذا المصحف في مناسباتهم الدينية .

عزلته :

وبعد كتابته المصحف الشريف بأيام ، وجد عنده نزوعاً إلى الاعتكاف وميلاً إلى عزلة الناس ، فترك المكتب ، واعتكف في منزله بعيداً عن الخلق ، واشتغل بالعبادة والذكر ، ولهج بقراءة القرآن الكريم ، والصلاة على النبي ﷺ . واستمر الشيخ في عبادته وذكره وعزلته الدائمة . ثم خطر على قلبه ، ما أراد بي ؟ أسلك طريق القوم بلاشيخ ؟ فاتاه الرسول ﷺ في المنام وقال له : « خير الأمور أوساطها الروح المحمدى يتولاك » . فاستقيظ الشيخ مستبشراً مطمئناً وزاد ذلك في همته .

خلواته :

ثم أمر الشيخ رضى الله عنه بالخلوة في الأيام التسع الأولى من ذى الحجة ، إذ لها فضل عظيم ، ولقد نزل فيها قوله تعالى : (والفجر وليال عشر) وهذه أولى خلواته . ثم أمر بعد ذلك بخلوة أربعين يوماً . وكان في هذه الخلوات مأخوذاً ناسياً نفسه مسلمها إلى ربه ليظهرها . فكنت تسمع منه أنه لا يفكر في أمور الحياة حتى يرغب عن الطعام ، فصار لا يتناول منه إلا القليل ، وتعجب منه حاله إذ يقول : « كنت أفطر على خمس زيبات أوسع ، وعند السحور قد أكتفى بلقمتين أو ثلاث ، ومع ذلك لا أحس بضعف ولافتور » . ومن شروط الخلوة عدم الخروج إلا للحاجة الشيخ رضى الله عنه لا يخرج من خلوته إلا للصلاة الجمعة في المسجد ، ويخرج على هيئة مخصوصة حتى لا تتفرق جمعيته بربه ، وبعد الصلاة مباشرة يعود إلى خلوته .

وقد أذن للشيخ في بعض خلواته . بزيارته لأمه في حجرتها الخاصة بها في المنزل . فكان يدخل عليها بين الحين والحين ، ويقدم لها الطعام ، ويطعمها بيده . وقد يكون هذا الطعام من الأطعمة غير المباحة له في الخلوة كالسمك واللحم . ويظل يطعمها حتى تشبع ، ويحدثنا عن ذلك فيقول :

كنت أجد في ذلك لذة لا تعدلها لذة ، وكأن لذة هذا الطعام تدخل بطني . ولذا كانت أمه لا تفتر عن الدعاء له ، وكان الشيخ يقول في ذلك :
إني أعتقد أن ماأنا فيه من خير إنما هو بركة دعاء أمي لي ورضاها عني طول حياتها ، إذ أن أكبر سعادة هو رضا الأم ، وبعد هذه الخلوة الأربعينية أمر بخلوة أربعينية أخرى . وبعدها بمدة قليلة أمر بخلوة تسعينية أي ثلاثة أشهر ، وحددوا له وقتها من يوم كذا إلى يوم كذا ، فوجدناها أشد أيام الصيف الشديد الحرارة وأطولها ، وكان في كل خلواته يصوم النهار ، ويقوم الليل ، وطعامه من غير ذى روح مع خبز الشعير ، وكان إدامه أحياناً في بعض هذه الخلوات الملح فقط ، وفي البعض الآخر السكر فقط .

ثم اختتم الشيخ خلواته بالخلوة الصمدانية ، وهي التي أمر بها في شهر رجب الفرد ، وشرطها فوق شروط الخلوات السابقة ، يعرفها أهل الله ، وسميت بالصمدانية لمحاولة التخلُّق فيها بأخلاق الله ومااستطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً . وبعد انتهاء فترة الخلوات تلك ، وكانت نحو ثلاث سنوات أمره الرسول ﷺ مناماً بالتوجه إلى السيد العارف بالله تعالى فضيلة الشيخ : عبد الوهاب . ابن فضيلة مولانا الكبير الشيخ حسنين الحصافي الشاذلي ، رضى الله عنهما ، ليأخذ منه الخلافة لتكون هذه الخلافة كسلاح له في المجتمعات ، وحجة على من يعترض طريقه في الإرشاد والدعوة . وكان من آخر الأعمال الجليلة التي قام بها في أخريات حياته ، هذا المسجد العظيم بمئذنته السامقة التي تجذب الأنظار من بعيد .

فلقد اشترى أرضه وأعد مواد بنائه ، وهباً له ماتيسر من مال لإقامته وإنشائه واطمأن على رسمه وأشار بتنفيذه ولكن المنية عاجلته . وهذا المسجد يعد واحدة في صحراء الحياة ، ففيه يجتمع المريدون كل يوم على الذكر وعلى العلم تحفهم الملائكة ، وتنزل عليهم الرحمة ، ويذكروهم الله فيمن عنده .

أما عمله الخالد حقاً فهو تربية هؤلاء الصفوة الذين تتلمذوا عليه ، وعلى رأسهم خليفته الشيخ عبد الجليل قاسم وابنه الأستاذ سليمان القاضي ، نفع الله بهم وجعلهم منارة يستضيء بها المهتدون .

٣ - جهاده

أساس طريقته رضى الله عنه هو أساس الطريقة الشاذلية عادة ، وهو مايلي :

١ - أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ « مائة » اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَبْنِكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا بِقَدْرِ عَظَمَةِ ذَاتِكَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينَ « مائة » . لا إله إلا الله « مائة » سيدنا محمد رسول الله ﷺ « مرة » .

وإذا فات لا يقضى ولكن القضاء أولى من تركه إذا فات اضطراراً . وهذا الأساس هو الورد اليومي للشيخ وللمريد على حد سواء . ومن أوراد الشيخ اليومية :

١ - التسبعات .

٢ - سفينة النجاة لسيدى أحمد زروق .

أما الأسماء التي يجب على المريد سلوكها في بدايته فهي :

١ - « الأصول » : لا إله إلا الله ، الله ، هو ، حَيٌّ ، واحد ، عزيز ، ودود .

٢ - « الفروع » : حق ، قهار ، قيوم ، وهاب ، مُهَيِّم ، باسط .

يقرأ كل اسم مائة مرة على مدى الأيام حسب قدرته وقراغته ، ولا ينتقل من اسم إلى آخر قبل تمام العدد ، إلا إذا رأى رؤيا وعرضها على شيخه ، ووجد منها الانتقال نقله ، وإلا فليتم العدد .

ولكن الشيخ رضى الله عنه لم يكن يكتفى بهذا ، وقد جمعت أوراده فيما عدا ماسبق - فى كتاب طبعه السيد / حسن عباس زكى بعنوان « كنوز الأسرار » فى الصلاة والسلام على النبي المختار ، وفى هذا الكتاب صلوات الشيخ عبد الله الهاروشى الفاسى ، وقد اقتطفنا منها زهرات فيما سبق ، وفى الكتاب صلوات أخرى مباركة كثيرة ، وفيه تسبيح ودعاء مأثور ، ووصايا للنبي ﷺ ، وفيه من الأحزاب للشاذلى ، رضى الله عنه ، حزب اللطف ، وحزب الإخفاء ، وحزب الشكوى ، وحزب البحر ، وفيه مناجاة واستغاثات وقصائد وصيغ لتفريج الكرب .

وكان الشيخ رضى الله عنه يداوم على قراءته ويجهده فى أن يقرأه يومياً . وما كان يقرؤه يومياً فى هذا الكتاب حزب اللطف ، لسيدي أبي الحسن الشاذلى ، نثبته هنا بتمامه لما فيه من لطف ، ولما لثمرته من لطف الله ، ورعايته لمن يقرؤه .

حزب اللطف :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .
« الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آمين .

اللهم اجعل أفضل الصلوات ، وأنمى البركات فى كل الأوقات على سيدنا

محمد أكمل أهل الأرض والسموات وسلم عليه ياربنا أزكى التحيات في جميع الحضرات .

اللهم يا من لطفه بخلقه شامل . وخيره لعبده واصل . لا تخرجنا عن دائرة الألفاف ، وآميناً من كل ما نخاف ، وكن لنا بلطفك الخفي الظاهر ياباطن يظاهر ، بالطيف نسألك وقاية اللطف في القضاء ، والتسليم مع السلامة عند نزوله والرضا . اللهم إنك أنت العليم بما سبق في الأزل فحفظنا بلطفك فيما نزل ، يا لطيفاً لم يزل ، واجعلنا في حصن التحصن بك يا أول يا من إليه الالتجاء وعليه المعول . اللهم يا من ألقى خلقه في بحر قضائه ، وحكم عليهم بحكم قهره وابتلائه ، اجعلنا ممن حمل في سفينة النجاة ووقى من جميع الآفات .

إلهنا من رعته رعايتك كان ملطوفاً في التقدير ، محفوظاً ملحوظاً بعنايتك يا قدير يا سميع يا قريب يا مجيب الدعاء ارعنا بعين رعايتك يا خير من رعى . إلهي لطفك الخفي ألطف من أن يرى ، وأنت اللطيف الذي لطفت بجميع الوري ، حجبت سريان شرك في الأكوان فلا يشهده إلا أهل المعرفة والعيان ، فلما شهدوا سر لطفك بكل شيء آمنوا به من سوء كل شيء فأشهدنا سر هذا اللطف الواقى مادام لطفك الدائم الباقي .

إلهنا حكم مشيئتك في العبيد لا ترده همة عارف ولا مرید ، لكن فتحت لنا أبواب الألفاف الخفية المانعة حصونها من كل بلية فأدخلنا بلطفك تلك الحصون يا من يقول للشيء كن فيكون .

إلهنا أنت اللطيف بعبادك لاسياً بأهل محبتك وودادك ، فبأهل المحبة والوداد خصنا بلطائف اللطف يا جواد .

إلهنا اللطيف صفتك والألفاف خلقتك ، وتنفيذ حكمك على خلقك حقك ، ورأفة لطفك بالخلق تمنع استقصاء حقك في العالمين .

إلهنا لطفت بنا قبل كوننا ونحن للطف غير محتاجين أفتمنعنا منه مع الحاجة له وأنت أرحم الراحمين ، حفنا بلطفك الكافي وجودك الوافي .

إلهنا لطفك هو حفظك إذا رعيت وحفظك هو لطفك إذا وقيت ، فأدخلنا سرادقات لطفك واضرب علينا أسوار حفظك يا لطيف نسألك اللطف أبداً ، يا حفيظ قنا السوء وشر العدا يا لطيف « ثلاثاً » من لعبتك العاجز الخائف الضعيف .

اللهم كما لطفت بي قبل سؤالي وكوّنني ، كن لي لا علىّ يا أمين وعوني .
الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز .

آيسئني بلطفك يا لطيف أنس الخائف في حال الخيف تآنسْتُ بلطفك يا لطيف ، وقيت بلطفك الردى ، وتحجبت بلطفك عن العدا ، يا لطيف يا حفيظ والله من ورائهم محيط . بل هو قرآن . مجيد في لوح محفوظ .

نَجَوْتُ من كل خَطْبٍ جسم بقول ربّي : ولا يثوده حفظهما وهو العلي العظيم .
سَلَمْتُ من كل شيطان وحاسد بقول ربّي : وحفظاً من كل شيطان مارد . كُفَيْتُ
كلّ هم في كل سبيل بقولي : حسبى الله ونعم الوكيل . الله لا إله إلا هو الحي القيوم
لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده
إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع
كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظها وهو العلي العظيم . لا إكراه في الدين قد
تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى
لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور
والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب
النار هم فيها خالدون .

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين

رءوف رحيم ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : لَا يَلَا ف قَرِيشَ إِيْلَافَهُمْ رَحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ .
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .
اِكْتَفَيْتُ بِكَهَيْعَصٍ . وَاحْتَمَيْتُ بِحَمَّاسِقٍ . قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ . سَلَامٌ قَوْلًا
مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ . أَحْوَنِي قِ أَدُمِّ حُمِّ هَاءٍ آمِينَ . اللَّهُمَّ بِحَقِّ هَذِهِ الْأَسْرَارِ قَنَا الشَّرَّ
وَالْأَشْرَارَ ، وَكُلِّ مَا أَنْتَ خَالِقُهُ مِنَ الْأَكْدَارِ . قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، بِحَقِّ
كَلَاءَةِ رَحْمَتِكَ اِكْلَانَا وَلَا تَكْلُنَا إِلَى غَيْرِ إِحَاطَتِكَ .

رب هذا ذلُّ سؤال في بابك لاحول ولا قوة إلا بك .

اللهم صلِّ على من أرسلته رحمة للعالمين ، محمد خاتم النبيين ﷺ ، ومجدِّ
وعَظَمَ وَشَرَّفَ وَكَرَّمَ ، سَيِّدِي لَا تُخْلِنِي مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْأَمَانِ يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ .
وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين » .
أما الوسيلة الكبرى لتقرب الشيخ من الله سبحانه وتعالى ، فهي ما لا تحظناه نحن
من تعلق قلبه دائماً بالله سبحانه وتعالى .

لقد كان مجلسه ذكر الله ، وكانت خلواته ذكر الله .

لقد كان من أولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم
ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه .
إن ذكر الله سبحانه وتعالى كان شعاره الدائم . وطابعه . وديدنه الذي لا ينفك
عنه . والذكر كما يقول القشيري ركن قوى في طريق الوصول إلى الحق سبحانه
وتعالى . بل هو العمدة في طريق القوم . ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر .
وقد وصل شيخنا بدوام الذكر إلى الله سبحانه وتعالى .

وللشيخ رضي الله عنه مبادئ ونصائح نفيسة في أصول الطريق ، وفيما يعين على

الطاعة ويقرب إلى الله . وفي آداب الذكر . وكتبتها بخطه . ننقلها على صورتها حرفياً .

أصول الطريق :

يقول رضى الله عنه ، مما يجب على المريد :

- ١ - أن يتقرب إلى الله تعالى بما شرعه وسنه رسول الله ﷺ .
- ٢ - أن تكون عبادته لوجه الله تعالى مخلصاً في قوله وعمله . دون رياء . مكثفياً بعلم الله فيه ، وإيأه وحب الظهور فإنه يقصم الظهور .
- ٣ - أن يحفظ جوارحه عن المحرمات ، وليدع الفضول في الأقوال والأفعال ، والتدخل فيما لايعنيه ، وأن يطهر قلبه من الرذائل والخواطر النفسية . وألاً يشغل نفسه بهم الرزق وخوف الخلق ، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .
- ٤ - ألا يعترض على الخلق ، وألاً يركن إلى دنيا أوجاه . وإنما يعتمد على الله وحده ، وأن يفوض الله تعالى في جميع أموره ، ويرضى عنه في السراء والضراء .
- ٥ - أن يكون عفواً صفوحاً عن زلات أخيه ناصحاً إن أمكن ، وألاً يهجر أخاه فوق ثلاث ، وأن يبدأه بالسلام إذا التقى به .
- ٦ - أن يتحلى بالصدق في الأقوال والأفعال ، وأن يتجمل بالصبر في كل أموره .

٧ - أن تلازمه مراقبة الله تعالى في السر والعلن .

٨ - أن يحسن الظن بربه والناس .

٩ - أن يكثر من الصدقات فإنها أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى .

١٠ - أن يجدد التوبة كلما وقع في هفوة أو شهوة أو غفلة .

١١ - أن يديم الاستغفار ويكثر من الصلاة على الرسول الأعظم ﷺ .

١٢ - أن يحاسب نفسه ويهتمها في كل شيء ، متوسلاً بجاه سيد البشر وبعترته الطاهرة .

١٣ - وعليه التسليم الكامل لشيخه ، والتفاني في . مته ، (اتباع أوامره .
وَألا يعزم على أمر حتى يستأذنه فأذنه سبب نجاحه .

١٤ - أن يشغل أوقات فراغه بمجالسة أهل التحقيق أو مطالعة كتبهم .

ومما يعين على الطاعة ويقرب إلى الله تعالى :

أن يملأ بطنه من طعام حلال ، وأن يتعد عمّا فيه شبهة من طعام أو شراب أو قول أو عمل واجتناب اللغو من الكلام والفرار من أهل الدنيا ما أمكن ، وألاً يسهر إلا في طاعة ربه ولا ينام إلا عن غلبة ، وعليه باستعمال السواك ودوام الوضوء وكلما أحدث توضأ ، وكلما توضأ ، صلى ركعتين مع المواظبة على الصوات الخمس في أول وقتها مع الجماعة ، وألاً يتخلف عن رباط الصوفية إلا لعذر وإلا حُرِمَ بركتهم ، وأن يصوم من كل شهر عربي ثلاثة أيام ، الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر .

وتلاوة مائيسر من القرآن يومياً وعليه بقيام الليل فهو سبب الخير .

ومن آداب الذكر فيما يرى الشيخ رضى الله عنه :

ألا يتلو ورداً إلا بإذن من شيخه ، أو يلقنه إياه ، وأن يجلس في الذكر على هيئة المشهد ، متوضئاً مستقبل القبلة ما أمكن مغمضاً عينيه ، وإذا يشغل قلبه حال الذكر بالمدكور ، وأن يراقب صورة شيخه في جميع عباداته ، وأن يستمد بقلبه من شيخه ، وأن يلاحظ أن استمداده من شيخه هو الاستمداد من النبي ﷺ لأن الشيخ الصادق نائب عنه .

وألا يشرب عقب الذكر مباشرة ، وليتظر قليلا في مكانه بعد الذكر صامتًا مستحضراً لتلقى مايرد عليه من وارد الذكر ، وليؤد أوراده كاملة في أوقاتها وإلا حُرِّم الممدد ، وينبغي ألا يتقدم أحد المريدين في بدء ذكر ولا حزب ولا ورد على من قدمه شيخهم مادام حاضراً .

٤ - إلهامات عن الطريق

وطريق الشيخ يتلخص - مع المحافظة على الفروض - في أمرين :
١ - ذكر كثير . ٢ - خُلُق كريم .

وكان مما يذكر رضى الله عنه لمريديه ما قاله أبو العباس المرسى رضى الله عنه :
طريقنا : المداومة على الذكر ، وترك الغيبة ، وترك سوء الظن بعباد الله . فمن واطب على ذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب .
ومن وارداته رضى الله عنه في شأن المريد :

١ - لزوم الجد في الطاعات ، وارتكاب أحوال المجاهدات وذبح النفوس بسكين المخالفات ، وحبسها في سجن الرياضة حتى يفتح الله عليه بالسراج في رياض المعرفة .

٢ - ومن شأنه أيضاً « المريد » أن يذكر في كل وقت حتى يصل إلى الغيبة والحضور . والغيبة عما دون الحق حتى يغيب عن نفسه إلى درجة ألا ينظر إلى نفسه في حال غيبة نفسه والحضور مع الحق ، فإن الغيبة عن النفس حضور مع الحق . وموقف المريد من العلوم ظاهرة وباطنة ، قد حدده الشيخ فيما يلي :

من لم يستعد بالعلوم الظاهرة تكون العلوم الحقيقية بالنسبة له ، ظلمات في القلب . ومن لم يستعد بالعلوم الباطنة تكون الظاهرة بالنسبة له ، ظلمات في القلب أيضاً .

إن المريد يحتاج في البداية أن يكون عارفاً علمياً ، فتكون نهايته عارفاً حقيقياً .
وينصح الشيخ المريد قائلًا :

راقب صورة شيخك وأنت تقرأ صورة وردك ، واستمد منه ، واعلم أن
الرسول محيط بكما ، والله محيط بالكل ، فهذه أسس الجمعية التي بها يتم الفلاح .
والنصيحة الحقبة بالنسبة للمريد هي :

المجاهدة في إزالة رذيلة ، وإحلال فضيلة محلها كمحو البخل وإحلال الكرم
محلّه ، أو استبدال الكبر بالتواضع .

وقد نصح الشيخ مرة مريديه - وكان ذلك يوم الجمعة ٢٤ من ذى الحجة
١٣٨١ هـ - فقال :

من عمل بهذه النصائح أبشره بدخول الجنة :
حفظ الجوارح جميعها إلا فيما يرضى الله .
ترك الغيبة أو نهش أعراض الناس .
عدم الاعتماد على حب الشيخ من غير عمل .
أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك .

المجذوب والسالك :

والإنسان في سيره إلى الله إما أن تكون بدايته جذبة من جذبات الحق ، وإما
أن تكون سلوكاً ، وفي المجذوب والسالك يقول الشيخ رضى الله عنه :
المجذوب : من جذبه الله إليه ، ولذلك كان سيره من أول خطوة في الطريق
بالله لا بنفسه ، وهذا جاء من باب القدرة : كن فيكون . ويوضح ذلك من فاجئاته
العناية فتغيرت حاله فجأة وانقاد إلى طريق مولاه وهذا هو المجتنبى مباشرة .

أما السالك فأنواع :

(أ) نوع قدر الله له الوصول ، وهذا يقال له : مُجْتَبَى من وراء حجاب .
لأنه أتى من باب الحكمة .

(ب) نوع ظل سائراً ولم يصل ، وفاجأته المنية ، وذلك يكمل الله سبحانه له الوصول في قبره .

(جـ) نوع لم يقدر الله له الوصول ، وذلك هو النوع المستدرج والعياذ بالله .
والسالك المقدر له الوصول أفضل من المجتبي مباشرة لأن المجتبي لم يجاهد ،
والمجاهد يجاهد نفسه وهواه وهذا هو مقام الجهاد الأكبر .

والمجذوب : فاته هذا المقام والدليل على ذلك قوله سبحانه :
(لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين
أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكُلًّا وعدَّ الله الحسنى . والله بما تعملون خبير) .
وهناك مرتبة أعلى من المرتبتين :

مرتبة « المجذوب المجاهد » . وهى مرتبة المجاهد الذى سلك بنفسه ثم أدركته
العناية فجذب واجتبى قبل الوصول ، فقد أحرز المنزلتين .

البصيرة :

وينتهى السلوك ، بتوفيق الله ، بالكشف عن البصيرة .
والبصيرة ناظر القلب ، والبصر ناظر القالب . وهى أى - البصيرة - أقسام :
بصيرة فاسدة : للكفار إذ أنها أنكرت نور الحق .

وبصيرة مسدودة : لمرض أصابها ، إنها محاطة بالنور ولكنها لا تقوى على
مشاهدته ولا تشهد قربه منها ولا بعده عنها ، وهى لعامة المسلمين . فالمسلم نطق

بالشهادتين وأقر بالوحدانية لكنه لا يرى هذه الوحدانية لما ران على قلبه بما سد ناظر بصيرته .

وهناك قسمان آخران للبصيرة وهما :

١ - عين البصيرة .

٢ - حق البصيرة : « وهما داخلان في نطاق مقام الإحسان » .

(أ) فعين البصيرة : نور الإحسان لأهل المشاهدة .

(ب) وحق البصيرة : نور الإحسان لأهل المكاملة .

وكل ما بعد ذلك ترقى في مقام الإحسان .

وقد أشار إلى ذلك ابن عجيبة ، وانفرد محيي الدين برأى خاص به ، بأن هناك

مقاماً فوق مقام الإحسان ، وهو ما بعد الصديقية الكبرى وقبل مرتبة النبوة ، وهو

مقام الإيقان الذي فيه الخضر ، وقد ذاقه ابن عربي .

والحق أنها ترقيات في مقام الإحسان ، وليس بعد مقام الإحسان إلا مقام

النبوة ، ويشهد لذلك حديث الإسلام والإيمان والإحسان .

ويجمع الطريق الوارد التالي :

لُذْ بجنايبنا واطرح أثقالك برحابنا ، واجعل مطالبك مطالبنا ، نجعلك إماماً

لنا ، أى من أئمتنا في الأرض الموالين لنا .

يقول الشيخ : إن هذا الوارد يقصد بذلك المشايخ السالكين ، وهذا الوارد

كما يقول - جمع الطريق كله مختصراً .

٥ - إلهامات في التفسير

ونبدأ بعون الله الآن في ذكر ما تحدث به الشيخ رضى الله عنه في تفسير آيات من القرآن الكريم .

١ - بسم الله الرحمن الرحيم :

افتتح السور بالبسملة ، لأن السور بيوت ومنازل ، فباب كل بيت البسملة . ومعناه أن من دخل آمن ؛ لأنه طمأنه بالرحمة التي في البسملة التي هي الباب .
٢ - (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

وموقف الملائكة من خلق آدم عدم منهم .

والأمر بالسجود للخليفة تشريف للخليفة .

وإبليس زعيم فرقة النار ، ومحمد ﷺ ، زعيم فرقة الجنة .

إبليس من الجن وعلا بالعبادة إلى رتبة الملائكة ، فلما أمرت الملائكة بالسجود له وهو معهم ، شمله الأمر ، فغلبت عليه نفسه باعتبار أصله ، فلم يسجد ، أما الملائكة فلأنهم أرواح محضة سجدوا .

٣ - (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

أى اشكروا نعمته الكبرى : الرسول ﷺ ، ووارثه في كل عصر ، وشكره التأديب في حضرته والعمل بما يحبه ، والرسول خير نعمته « إنما أنا رحمة مهداة » .

٤ - (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

الحكمة تقتضى عدم المغفرة لهم ، فكيف يخالف الحكمة ؟
المراد الستر فى المواقف من الفضيحة .

- ٥ - (لَا تَذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .
العارفون يدركونه ببصائرهم ، والآية نفي للإدراك بالبصر ، لا البصيرة .
٦ - أهل الأعراف : (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) .
مدحوا بقوله : رجال . سواهم الله بيدي الجلال والجمال ، فهم بين الغضب والرحمة ، النار والجنة ، فلو مال أحدهم إلى أيهما لا يكون كاملاً ، بل إن وضعه كالميزان لا يميل إلى الجنة ولا إلى النار . ويسلمون على أهل الجنة ، وقلوبهم مع الله لا مع الجنة .

ويقول الشيخ مرة أخرى .

- هناك من خلقه الله بيد : إما جمال محض ، أو جمال محض .
وهناك من خلقه الله بيدين : الجمال والجلال ، فهو الخليفة ، كآدم ، يقول الله تعالى : (مAMنعك أن تسجد لما خلقت بيدي) .
فكل من جعله الله خليفة يكون مخلوقاً باليدين جسماً وروحاً ، وله تسجد الملائكة كآدم .

- ٧ - (قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) .

ذلك المعصوم فكيف يرجع إلى ملة الكفر ، وذلك ينافى العصمة .

هذا من باب ملاحظة العلم المطلق ، فليس هناك فيه قيد ولا عصمة ولا غيرها ؛ لأن الشرع مقيد ، وعلمه المطلق لا اطلاع لأحد عليه .

ومنه دعاء النبي يوم بدر .

ومنه قول أبي بكر : لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الجنة .

ومنه قوله : (وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) .

٨ - الأفعال من الله : (يحبهم ويحبونه) .

ففي الحقيقة ما أحب إلا نفسه ؛ لأنه لا يحبهم إلا لفعلهم ، وهو منه .
نعم الأفعال كلها منه .

والفعل في حالة صدوره من الله لا يكون إلا خيراً ، ولكن الوعاء الذي تنزل عليك تلك الأفعال هو الذي يشكلها ، فلذا نسب لله في الصدور إن كان خيراً ، وللعبد في الظهور إن كان شراً ، لأن العبد هو الذي شكله .

٩ - (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

دليل على زيادة أرزاق الظلمة وكل من كان يريد بعمله الدنيا .

وقوله تعالى : (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة ...) إلخ .

قضاء عليهم ، وقصم لهم . وبيان لضيعاتهم فيما هو أهم في الآخرة .

١٠ - (وَيَصْنَعُ الْفُلُكُ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) .

لما كان نوح يصنع السفينة في البرية ، ويقول لهم سأعمل بيتاً يسير على الماء ، فكانوا يسخرون منه ، وكذلك المصلح يكون ظاهر حاله يدعو للاعتراض والعجب ، ولكنه على حق والعبرة بالنتيجة .

١١ - قول لوط : (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ) .

فهو يقول : لو أن لي بكم قوة ، يعني الجلال والغضب عليهم شديد .

والرحمة التي عليه خاصة . فهي أقل فيقول : لو أن الرحمة التي معي تغلب الغضب الذي عليكم . أو آوى إلى ركن شديد معناه : أويتجلى على مولاي بالرحمة العامة فتغلب كل غضب . ولقد كان لوط في كل حال يأوى إلى مولاه ولم يبرح الحضرة الإلهية . ولا يليق بنبي إلا كذلك ، ولذا قال الرسول ﷺ : « رحم الله أخى لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد » .

فيشير إلى أنه كان دائماً آوياً إلى مولاه . وإنما كان يطلب غلبة الجبال الجلال ، أو الرحمة الكلية العامة الغضب ، والله أعلم .

١٢ - (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير) . قوله ﷺ : « شيتني هود وأخواتها » . لقوله تعالى : (فاستقم كما أمرت) . فالذي شبيه قوله : (أمرت) لأن الأمر خلاف الإرادة . الأمر قد يُعصى ولكن الإرادة لا تُعصى أبداً ، فلو قال كما أردت لما شبيه ذلك ولم يكن ذلك له . بل لأتمته ، لأنه قائم بالأمر وزيادة لأنه مراد الإرادات .

١٣ - (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) . كيف ذلك لإبراهيم المعصوم ؟

المراد بالأصنام الأغيار والعلائق ، وكل ما يشغل عنه ، إذ أن ما يشغل العبد عنه يأسره . ويكون الإنسان عبداً له : « تعس عبد الدرهم » .

١٤ - (ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير) .

أو للتحقيق فامر الساعة للناس كلمح البصر ، وهو أقرب للأنبياء والمرسلين . ١٥ - (ما عندكم يتفد وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) . الذي عند نفسه فان ، والذي عند الله في مقام العندية لا ينفد علمه ، ولا يغني عرفانه .

١٦ - (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) . هناك أمر تشريعى ، وهو ما جاء على لسان الرسل ، وهناك أمر الإرادة ، والآخر لا بد من وقوعه وتحقيقه . والأمر قد يقع وقد لا يقع ، ومثل الأول الأمر بطاعة الله . ومثل الثانى : (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا) .

فهو أمر الإرادة أما قوله : إن الله « لا يأمر بالفحشاء » فهو أمر تشريعى ظاهرى وآدم عليه السلام ، رأى أمر الإرادة فأكل من الشجرة وكان الأمر الظاهرى مخالفاً لذلك ، فتركه لأنه رأى أنه غير واقع ، ولذا نال بعد ذلك الخلافة .

١٧ - (وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رَعْبًا) .

وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة والهيبة التى كانوا عليها من طول الشعر والأظفار وغير ذلك . ولم يتجل الله على سيدنا محمد ﷺ (٣) ، بمثل ذلك . وكانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذى يريد أن يتكلم .

١٨ - (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) . الجنة فى الدنيا ، والمراد الحث على الأوراد ، لأنها تسبب الأرزاق المعنوية والحسية ، وفى جنة الآخرة التى سقفها عرش الرحمن . وهم يعلمون مقدار اليوم بعلامات .

١٩ - (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) .

قول سيدنا موسى عليه السلام : (هى عصاى) : معرفتى بك ، أعتد عليها .

(٣) بل تجلى الله عليه بالهيئة والحجة معاً .

(أَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي) : أولادى فى التربية .
 (ولى فيها مآربُ أخرى) : من باب لى وقت مع ربى لاتسعى فيه أرض
 ولاسماء .

٢٠ - (فَأَكَلَا مِنْهَا قَبَذَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
 الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) . فكيف يعصى وهو معصوم ؟
 الحق أن هناك أمراً إرادياً لا يعصى أبداً وأمرًا شرعياً ، وهو قد يعصى ، وقد
 لا يعصى ، وعصيته تقتضى عدم عصيانه : إذ أنه اطلع على ما فى علمه ورأى عدم
 وقوع ذلك الأمر ، فعصى الأمر الظاهرى ، وغوى أمر الإرادة ، فهو طائع حقاً ،
 إذ أنه يعلم أن ما فعله هو الواقع حتماً .

والفرق بيننا وبين أمثال الأنبياء والمطلعين على علمه وعلى ما فى اللوح أنهم قبل
 الإقدام على العمل يرون ما فى علم الله ويشاهدونه ويأتون ما أراد الله سواء وافق
 الأمر الظاهرى أم خالفه . ومثلنا لا اطلاع له ، فلا يدري ما فى الإرادة ، وإنما يعلم
 أن هذا كان فى العلم بعد وقوع المقدور ، والعقاب والحساب على القدوم وعلى
 مخالفة الأمر وهو لا يدري ما أراد الله . أما هم فيرون ما فى علمه ، ويأتون الأمر
 الإرادى استجابة لما فى العلم لالشهوة ولا لهوى ونحوه .

٢١ - (وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ
 أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) .
 أى خرج من قومه من غير إذن . (لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) :

لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ وَنَضِيقِ . وهناك غلب الرجاء . والميزان استواء الرجاء
 والخوف .

٢٢ - (وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَابُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ) .

ولم يقل بالنهار ، دليل على أننا في غفلة تامة ، بالليل والنهار ، لأن النوم غفلة .
ومع غفلتنا التامة عنه ، وعن شهوده ومعرفته ، نرجوه ونطلب منه .
٢٣ - (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ) . إنك ببشريتك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء .

٢٤ - سأله مرة سائل في قوله تعالى :
(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .
قائلا : كيف يتفق أن النفس لا تدرى ماتكسب غداً مع ما يختص الله به
أوليائه من أسرار ومغيبات المستقبل ؟

فكان جوابه في إيجاز بليغ : لقد قال سبحانه : (وما تدرى نفس) ولم يقل
روح ، وإيضاح ذلك كما سمعناه منه ونرويه بالمعنى لا باللفظ :
أن النفس بما غطى عليها من ران الطباع ، وما غشاها من كثافة ذميم الخصال
لا يمكن أبداً أن تدرك شيئاً من أسرار الله . وهذه هي النفس المرادة في الآية .
فإذا ما ارتقت من نفس أمارة بالسوء إلى نفس لوامة ، ومن لوامة إلى ملهمة ،
ومن ملهمة إلى مطمئنة ، ومن مطمئنة إلى راضية ، ومن راضية إلى مرضية دخلت
في حيز النفس الكاملة ، وحينئذ تكون قد تخلصت من ران الطباع وكثافة ذميم
الخصال وتحكم سجن الجسد فيها ، فيكون لها الشفافية والإطلاق ، فتحكم هي
في الجسد ولا يتحكم الجسد فيها ، ويكون صاحبها روحانياً ، وهذه المرتبة هي التي
تسمى فيها النفس روحاً ، والروح سر من أسرار الله ، ولأنها سر الله فهي درآكة
عامة بما كان وما يكون ، فإذا ما وصل صاحبها إلى هذه المرتبة انكشف الغطاء ورأى
أمامه غرائب الماضي ، وخفايا الحاضر ، وعجائب المستقبل . وكل روح في أصلها
كذلك فإذا ما غيبت في الجسد سيطر عليها بكثافة ، وغطى ما تحويه من أسرار ، فمن

جاهد وأخرجها من هذه الكثافة عاد بها إلى أصلها واستحقت أن تنادى :
(يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارجعى إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي
عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتٍ) .

وأولياء الله الذين اختصهم بأسراره منهم من وصل إلى هذه المرتبة . ومنهم من
تجاوزها ، وبذلك تنجلي الشبهة في السؤال ولا تعارض الآية ما يختص الله به أحبائه
من أسرار . فهم علماء الله بحق ، الذين عناهم بقوله : (وما يعلم تأويله إلا الله
والراسخون في العلم) وهم بعينهم الذين تناولتهم الآية الكريمة (إنما يخشى الله من
عباده العلماء) (٤) .

٢٥ - (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) .

الأمانة المعرفة الحققة . وهى للغوث فما فوق ، وهى الخلافة الحقيقية . والإنسان
الحق ، كان قبل حملها ظلومًا جهولًا .

٢٦ - (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فسبحان الذى بيده
ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) . كيف يكون شيئًا ، ويقول له كن ؟
فإن كان موجودًا فلا داعى لوجوده ، وإن لم يكن موجودًا فلمن يقول له كن
ومن يخاطب ؟ يخاطب هذا الشىء المعلوم لله ، الموجود فى علمه . الحاضر لديه ،
المعدوم فى ذاته ، الذى لم يأت أوان خلقه ، إذ أن العلم تعلق بالمعلومات كلها وإلا
كان علمًا . لأن العلم لا بد له من معلوم يتعلق به ، إلا أن هذا المعلوم لله معدوم فى
ذاته فى حاجة إلى تكوين وبروز ، فيخاطب هذا المعلوم بالتكوين والخروج إلى حيز
الوجود .

(٤) من مذاكرت الأستاذ سليمان القاضى عن والده .

٢٧ - (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى . قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .
قوله تعالى : (إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) .

قال إسماعيل : (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) .

ولم يقل : مارأيت ، فلم يكن مارآه أمرًا ، ولو كان رآه أمرًا لقال : إِنِّي أمرت . وكيف يذبحه ولم يؤمر بذلك ؟ إنما ذلك شدة مسارعة لتنفيذ مارأى .
رؤيا الأنبياء والصالحين على قسمين :

١ - رؤيا كشف .

٢ - رؤيا تحتاج إلى تأويل .

فالأول : لا بد من حصوله كما هو . والثاني : يؤول .

فرؤيا الخليل عليه السلام ، - من الثاني إلا أنه لم يوقن أنها منه « من الثاني » فسارع إلى تحقيقها ، ولذا قال تعالى : (صدقت الرؤيا) ولم يقل صدقتنا . أما الرسول ﷺ ، فكان عنده علامة يعرف بها رؤيا الكشف من الرؤيا التي تؤول . مثال ذلك لما رأى أنه شرب لبنًا ، وأعطى الفضلة لسيدنا علي ، فقالوا له : ما أدلته ؟ قال : العلم .

ومثله رؤيا يوسف عليه السلام : رأيت أحد عشر كوكبًا .

احتاجت إلى تأويل . الكواكب : إخوته .

أمّا عن عروج النبي ﷺ ليلة الإسراء والمعراج : فقد كان ﷺ يرقى جسمه الشريف ويتلطف بما يتناسب والروحانية العلوية . فكان يرقى تدريجيًا من سماء إلى سماء حتى بصير في شفاية ملائكة كل سماء . حتى وصل مع جبريل إلى سدرة المنتهى . فكان غاية في الشفاية والروحانية . وهنا توقف جبريل وطلب منه سيد البشر أن يواصل سيره فقال :

٢٨ - (ومامننا إلا له مقام معلوم) . تقدم أنت يا محمد فهذا مقامك . وهنا زجَّ بسيدنا محمد ﷺ في الأنوار فوصل إلى حيث لا أين ولا بين ولا زمان ولا مكان . فقد انتفى حين ذلك المكان . وهنا لا مجال للقول ولا للعقل . وكل ما يمكن أن يقال : إنه رأى مولاه بعين بصيرته ويمكن تفسير قوله صلى الله عليه وسلم :

« رأيت ربي بعيني رأسي » . أى أنه قد انعكس نور بصيرته على بصره فرأت عيناه بنور بصيرته من ليس كمثله شيء .

٢٩ - (وقال ربُّكم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

قال رضى الله عنه : إجابة عن سؤال كيف نعبد الله بلا علاقة ؟ مع أنه تعالى قال : (ادعوني أستجب لكم) قال ادع الله اثمارة للطلب ولكن إظهاراً للعبودية والتذلل . ومثل ذلك سيدنا أبى الحسن مخاطباً الشيطان : أعوذ بالله منك . ومن أنت حتى أستعيز منك ؟ ولولا ما أمرنى ربى ما استعذت بالله منك .

٣٠ - (ولئن خاف مقام ربه جنتان) .

المراد : جنة فى الدنيا ، وهى جنة المحبين العارفين . وهى معنوية : لما يستشعرونه من لذة ومتعة فى عباداتهم . وأنسهم بربهم . ومن هنا يدرك معنى قولهم : « نحن فى لذة لو علمها الملوك . لجالدونا عليها بالسيوف » وهذا هو المعنى المراد من جنة الدنيا . وهو الأنسب والأليق .

وهل المراد بجنة الدنيا الجنة الحقيقية الحسية ؟ فالله يطعم أحبابه فى الدنيا من الجنة هذه . وذكر رضوان الله عليه قصة الولي الذى استضافه ملك . فقدم إليه فاخر الطعام . فعزف الولي عن هذه الألوان . فسأله الملك عن سبب امتناعه .

فقال : مثلى لا يأكل من هذا الطعام ، ثم أمسك بنوع منه وعصره ، فكانت عصارته دماً ، وأمسك اللحم وعصره فكانت عصارته قيحاً وصديداً ، فتعجب الملك ، ثم نظر إليه العارف قائلاً : أترضى أن آكل من هذا الطعام ؟ كله من حرام ، ومثلى لا يأكل الحرام . فسأله الملك ماذا تأكل ؟

فأجاب طعامى سيأتينى - وإذا بالباب يطرق . ثم يفتح فيدخل خادم يحمل طعاماً على رأسه . ويقدمه للولى قائلاً : سيدى الأكبر أمرنى أن أقدمه إلى سيدى الأصغر : ثم وضعه الولى أمامه وأخذ يمسك ببعضه ويعصره فتنزل العصاره لبناً خالصاً : ويمسك ببعض ثان ويعصره . فيجده عسلاً خالصاً : وبيعض ثالث فيجده خمراً لا غول فيها ولا هم عنها ينزفون . وبيعض رابع فيجده ماءً غير آسنٍ . وهى من أنهار الجنة الأربعة : ولعل الولى عمل هذا لحكمة . وهى عمل الملك . ليحثه على البعد عن الحرام عن طريق هذا التصوير البشع : فجنة الدنيا إما المتعة واللذة المعنوية التى تفوق كل لذة . وإما جنة المأكولات والملاذات .

وكثير من الأولياء : كان يخرج إلى الناس . ويُسَمُّ منه ريح الشواء وغيره من ألوان الأطعمة : ولم يعهد أنها عنده : أو طبخها فى بيته . إذ لم يكن لديه المال لجلب ذلك . ولذا كان الرسول يقول : « إني أبيت عند ربى يطعمنى ويسقبنى » . والمراد طعاماً حقيقياً حسيّاً يشبع منه . أما الجنة الثانية : فهى جنة الآخرة .

٣١ - (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) . قرئت هذه الآية أمام أبى يزيد البسطامى .

رضى الله عنه فقال : إن بطشى أشد :

وسئل رضوان الله عليه فى معنى ذلك . فقال : حقاً مايقوله أبو يزيد . لأن بطش الله ممزوج بالرحمة . أما بطش أبى يزيد فخالٍ من الرحمة .

٣٢ - (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) .

مع قوله : كنت نبياً وآدم بين الماء والطين . فكان نبياً للأرواح ، وعلم علوماً

لأنحصى ، فلما جاءت البشرية كانت لاتعرف شيئاً ، فكان يجب موافقة البشرية للروحانية ؛ فالبشرية ضالة عمّا فى الروحانية .

وموسى عليه السلام قال : « فعلتها وأنا من الضالين » أى الضالين لطريقتكم .
 ٣٣ - (أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ) . حب المال : الخلق عن الخالق ، المعرفة عن صاحب المعرفة ، الصفات عن الذات ، والأخيرة رحمة ، لأنه لولا ذلك لأحرقوا .

٢٤ - (ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) . السؤال يشير إلى رحمة الله ، لأن فيه تعداد النعم التى أنعم الله بها على العبد فى الدنيا ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصىها .

٦ - واردات

١ - من غلبته شهوته فهو حيوان ، ومن غلبت شهوته فهو إنسان . ومن غلبت ناسوتيته روحانيته فهو من الغافلين ، ومن غلبت روحانيته ناسوتيته فهو من الأوابين .

الأول : معاملات يعامل نفسه . والثانى : عبادات سائر فى مقام العبودية .
 ٢ - اعلم أن ابن آدم طلسم لا يدرى به إلا من اجتباه الله ، وأطلعه على سره الغامض فيه . فمن السر أنه مرقوم على كفه الأيمن رقم ١٨ وعلى كفه الأيسر رقم ٨١ ومجموع الرقمين ٩٩ أعنى أسماء الله الحسنى ، يتجلى بها عليه على حسب استعداده من الأزل .

أما خليفة الله فى كل عصر « الغوث » فهو متجلّ بها عليه ، على رأى منه وهذا سر قوله تعالى لإبليس عليه اللعنة : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدَى)
 يعنى كان السجود لآدم شكلاً ، ولكنه فى الحقيقة كان لله لا لآدم عليه السلام .

وهذه الأسماء جامعة للبين : أعنى الجمال والجلال . والقبض والبسط .
والأنس والهيبة . والعز والذل . والفقر والغنى . والكمال .
فمن أسعده الله وتحقق بهذه الأسماء . كان العبد الكامل . ونطق بالحكمة وخرج
صندوق نفسه إلى جوهر روحانيته ودررها ولؤلؤها ويواقيتها . وكان خليفة الله في
أرضه . ومن غفل عن ذلك فهو في مشيئة الله تعالى وعاش كحيوان يرتع في
الفلاة .

وإذا أفردت الرقم الذى فى الكف الأيمن نطق باسمه « الحى » وإذا أفردت
الرقم الذى فى كفه الأيسر نطق باسمه « الأحد المحيى » .
فمن عبد الله باسمه الحى ودام عليه واستغرق فيه ليلا ونهارا شاهد حياة كل
شئ . وكشف بسر الملك والملكوت . ومن عبد باسمه الأحد المحيى وأكثر منه .
ولاحد لأكثره . شاهد حياة كل شئ ومحياه . ومن ذكر بهم جميعا صعدت روحه
إلى الملاء الأعلى . وصعدت روحه إلى العرش . ليكتب عند الله من الكاملين
الصديقين . وكان أعجوبة زمانه عرف من عرف وأنكر من أنكر .
٣ - أكمل الكمال أن تعبد الله بالله بالإخلاص وتغنى عن الإخلاص بالإخلاص
لله بالله .

فالأول : لمن له تطلع للمقامات فى البداية .

والثانى : لمن طريقه عبودية الربوبية ، فهو النجم الذى لا يدرك .

٤ - أهل الخصوصية مزهود فيهم أيام حياتهم . متأسف عليهم بعد مماتهم .
وهناك يعرف الناس قدرهم حين لم يجدوا عند غيرهم ما كانوا يجدونه عندهم .
ولات حين مندم .

٥ - رأى من يقول له : اكتب هذا الكتاب الجامع لميزان الأعمال .

فقال له : نعم .

فقال : ليس لعبد أن يشغل قلبه بالاختيار بفعل شيء أو تركه في المستقبل .
 وإنما عليه أن يعطى ما أبرزناه على يديه حقه ، فإن كان طاعة حمدنا عليها واستغفرتنا
 من تقصيره فيها ، وإن كان معصية استغفرتنا من ارتكابه لمخالفة أمرنا ، وإن كان
 غفلة أو سهوًا فعل ما هو اللائق بمقامه . وقد قربنا لك طريق الأدب معنا في كل
 ماجريه عليك . سلم سلامًا باطنيًا وظاهريًا تسلم وتغنم .

٦ - لا تركز إلى عمل ولا علم واركن إلى حب من يحبهم الله ورسوله ، وسارع
 في هواهم تفلح دنيا وأخرى والسلام .

٧ - الله الصادق الوعد الأمين ، ويتجاوز عن الوعيد لأحبابه المخلصين .

٨ - القلب للمشاهدة ، واللسان للعبارة عن المشاهدة ، فمن لم يشاهد فهو
 شاهد زور .

٩ - آدم قرع بابنا يدخلك علينا بوابنا ، وثق أنك لا تدخل علينا إلا بواسطة
 بوابنا ، واعلم أن بوابنا حيينا ، وهو لكل خلقنا .

١٠ - الأقطاب الأربعة هم : « السيد البدوي ، سيدى إبراهيم الدسوقي .
 سيدى الرفاعى ، سيدى الجيلانى » .

أما السيد البدوي فهو حى فى قبره يجلس ويضطجع ويقابل جميع زواره هذا
 حاله .

أما سيدى إبراهيم الدسوقي فهو من الأفراد ، والمراد أنه ترك المقامات وزهد فيها
 حتى الغوثية تولاهما وتركها زاهدًا فيها .

(أ) السر فى الأشياء لافى الأذكار .

(ب) ومعنى قولهم السر فى الأشياء يعنى فى الإذن بالذكر .

(ج) الورد الحقيقى الذى يبلغ المريد هو المحبة من المريد لشيخه محبة صادقة .

(د) كل إنسان مركب من عقل . نفس . روح . فكر . قلب . فؤاد .
وما عدا ذلك فهو للأرض .

(هـ) الأولياء عرائس مخدرة ، من نظر إلى محمد رسول الله آمن به . ومن نظر
إلى يتيم قريش كفر به .

(و) الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة . لأن مدة الرسالة ٢٣ سنة
والنمام نصف اليقظة . ف $23 \times 2 = 46$ والله أعلم . كم من مصباح أطفأته
الريح .

(ز) من لا أول له ولا آخر : هو الله سبحانه جل شأنه .

ومن له أول وليس له آخر الروح : وملائكة العذاب والنعم .

ومن له أول وآخر : الإنسان والجن والحيوان والطير .

(ح) من طلب الحكمة لذاتها وكلّه الله إليها . ومن طلبها له وكلّها إليه .

١١ - قلوبهم أعجب من ذكر النائم ربه . معناه والله أعلم : أن قلوب أحبائه

أعجب شيء . إذ صاحب هذا القلب ذاكر ربه وهو نائم .

١٢ - وُجد بخط فضيلة مولانا الشيخ - في كتاب متن أبي شجاع « فقه

شافعي » . ويظهر أنه كُتب أيام الخلوة الأولى أو الثانية - مكتوبًا : وارد اليوم :

الإخلاص هو الشكر بالعمل والعمل بالشكر ، وله ظاهر وباطن : فظاهره العمل

وباطنه الشكر . والحافظ له ولتموه باطنه : أخلص لي عملك ولا تسألني وأنا أعطيك

أفضل مما أعطى السائلين ، وأما الشكر فهو تصرف كل جارحة لما خلقت له ، ثم

ينسى ذلك وإن لم ينس فيما شكر : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

فالإخلاص يقتضي العطاء والشكر يقتضي المزيد . فالإخلاص هو الأب

الصالح ، والشكر هو الابن الفالح . والفاعل لهما هو المقرب النافع ، فالعرف قدر

ما وصل إليك ، واعمل به تكن من الناجحين .

١٣ - العبادات كالحلواء المعجونة بالسلم . فكما لا ترضى النفس بالقليل منها فتسلم . كذلك لا تصبر على الكثير منها فتغتم .

١٤ - أشد العذاب سلب الروح . وأكمل النعيم سلب النفس . وألذ العلوم معرفة الحق . وأفضل الأعمال الأدب . وبداية الإسلام التسليم . وبداية الإيمان الرضا .

ثم الإيمان يتلون بحسب الجسد . والجسد بحسب المضغعة . والمضغعة بحسب إصلاح الطعمة . إياكم والجزع في مواطن الامتحان يمتحنكم الحق بأشد من ذلك . لا يكمل المريد حتى يحمل عن شيخه . فإن رمى أشغاله على شيخه فهو سيئ الأدب . مع أنه إذا تعود ذلك ألقت نفسه ذلك فينقص استعدادده . فإذا جاءت صدمة هدت جداره وشيخه ليس بمقيم له .

لا تأكل أبدًا طعام أحد إلا إن كنت وليه في التربية . أو من أهل آية : (ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم) . فإن كل لقمة نزلت في جوفك تنقص من عبوديتك بقدرها . وتسترقك لصاحب تلك اللقمة .

من اجتمع فيه نخصال أربع : الكبر . والنفاق . والغرور . والبخل . لابد من العلاج . فإن دواء الكبر التواضع . والنفاق دواؤه الإخلاص . والغرور دواؤه العجز والانكسار . وأما البخل فدواؤه التسخى .

فلا يصلح أبدًا إلا بهذا العلاج . ويحتاج إلى جهاد كبير وعناية ربانية . وطريقه وعمر وأعوذ بالله من غضب الله .

١٥ - وارد بصيغة سؤال :

س ١ : ممالك الجسم ؟

ج : ملاكه العقل ، والعقل عقلاان : عقل للنفس لتدبير أموال الدنيا ،

وعقل للروح لتدبير أمور الآخرة ، فإذا طغى عقل النفس على عقل الروح اندججا معاً ، وصارا عقلاً واحداً ، وكانا محلاً لهواجس النفس ، ووساوس الشيطان ، وإذا طغى عقل الروح على عقل النفس اندججا معاً ، وصارا عقلاً واحداً ، وكانا محلاً للترزلات الإلهية ، والمعارف الربانية ، وسعدا سعادة لاشقاء بعدها .

س ٢ : وما ملاك العقل ؟

ج : ملاكه الدين ، والدين هو التوحيد المطلق الكامل ، والوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة ، واعتبار الأكوان كلها رسلاً إليك ، تؤدي مآلديها من الأمانة من خير وشر ، ولذا وجب شكرها لها ، وأما شكرك للمكون لجميع ما وصل إليك من الرسل لأنها منه برزت . وجميع ما وصل إليك منه من القدرة : (أن اشكر لي ولو الديك) .

س ٣ : وما ملاك الدين ؟

ج : ملاكه النور المحمدي ، والنور المحمدي هو أول التعينات الربانية ، والتجليات الذاتية . وأول ظهور المظاهر الذاتية في وجود العمائية .

س ٤ : وما ملاك النور المحمدي ؟

ج : ملاكه الله جل جلاله ، وهنا تنطمس العقول والأبصار ، والقلوب والبصائر . (ماقدروا الله حق قدره) .

١٦ - الله أكبر في الصلاة : لها معنيان :

١ - التنبيه من الغفلة : لأن الله أكبر من كل شيء ، فلا ينبغي أن تنشغل أذهانتنا في الصلاة بشيء من شئون الدنيا ، وإلا فلا معنى لقولك الله أكبر . إذا لم يكن أكبر مما يشغلنا عنه ، ومن ذلك : تتكرر التكبيرة في كل ركعة نحو ست مرات ، وينطق بها المصلي في كل ركعة فهي تتخلل أعمال الصلاة وكأنها ناقوس

يدق بين الحين والحين ، ينبه الإنسان من غفلته ويوقظه من انشغاله .
 ٢ - وهناك معنى ثان لا يخاطب به إلا أهل الخاصة ، وهو مقام المتوسطين منه .
 ويتلخص في أن كل ركن إذا أداه الإنسان بخشوع . يتدبر كامل ، ينال به من الله درجة ، فختامه بلفظ الله أكبر ، بمعنى أنه سبحانه وتعالى ، أكبر من أن يقتصر عطاؤه على هذه الدرجة ، فإذا أنت أديت ركن الوقوف مع الفاتحة والسورة بالتدبير المطلوب ، حين ذاك تنطق الله أكبر وتركع ، ومعناه أن عطاء الله أعظم . ثم تؤدي ركن الركوع بخشوع فتنال درجة أرقى ، ثم تعتدل لتكبر من جديد ويكون معنى ذلك أن الله أكبر من أن يقتصر عطاؤه على ذلك المقام أو تلك الدرجة . فكلما أديت ركنًا نلت درجة وسلمك هذا الركن إلى ركن ثان ، وهكذا تصعد من درجة راقية إلى درجة أرقى حتى تتم الصلاة ، وكلمات الله لا تنهاى ، وذلك هو الخروج إلى أسنى المقامات الذى قصده الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « الصلاة معراج أمتى » . وهذا مقام المتوسطين .

والخلاصة أن معنى الله أكبر في هذا المقام : أن تجلى الله فى صلاتك - وهى مما يورده عليك - أكبر من صلاتك التى تؤديها ، أى ما يورده عليك من تجليات أكبر مما تورده من عملك .

أما مقام المنتهين الصديقين المقربين فهو عند تكبيرة الإحرام التى يدخل بها فى الصلاة يحس كل منهم بما يأتى : عند ألف لفظة الجلالة ، يحس أنه تدبر كل ما فى الصلاة من حركات وتكبير وتسبيح وقراءة .. إلخ .

وإذن فقد تدبر الصلاة عند نُطْقِهِ بِألف لفظ الجلالة ، وتكون بقية الصلاة بعد ذلك من أولها إلى آخرها شهودًا لذى الجلال والعظمة ، يترقون فى مقام الشهود عند كل تكبيرة حتى يفنى الحس فلا يكون فى الشعور إلا الله .

وبالطبع كل ركن ينال فيه مقامًا من مقامات الشهود ، ويسلمه ذلك الركن إلى

ركن آخر ينال فيه مقاماً أسمى وهكذا حتى يخرج العبد من الصلاة ومعه من العلوم والمعارف أبكار الأفكار التي لم تدون في كتاب .

أما الاستغفار بعد الصلاة كاستغفار الرسول ﷺ ، واستغفار الأولياء بطريق الميراث من أنه : « ليغان على قلبي لتراكم المقامات والأنوار » .

واستغفاره لترقيه من الأدنى إلى الأعلى ومعنى ذلك : أن ما كان فيه من مقام أدنى غير لائق فيستغفر الله لذلك وهكذا . وكل استغفار للرسول ﷺ من هذا القبيل .

مقدمة . . وخاتمة (١)

في هذا العصر الذي أخذت فيه الأرض زخرفها وزينتها من العناصر المادية ، وقامت فيه الحضارة الأوربية على المنهج الحسى المادى ولا تكاد تعترف بغيره من المناهج ، مازال في البيئات الإسلامية ، والحمد لله ، طوائف من أصحاب الفطر السليمة الذين يرجون للبشرية مستقبلا يضرب بأسهم وافرة في عالم الخير والحق ، عالم الدين والروح ، عالم الإخاء والإيثار .

وهذا العالم الذى تنبع أصوله من وحى السماء ، والذى يسير أفرادًا ، أو جماعات - هادفًا إلى تحقيق المنهج الإلهى والمبادئ الإلهية ، يمثله كنماذج أضواء ماتكون النماذج ، أئمة التصوف ، وأعلام الصوفية . إنهم يمثلونه في المنهج الذى اتبعوه ، ويمثلونه كحقائق واقعية في المبادئ والقواعد ، إن حياتهم - منهجًا وموضوعًا - ترسم التربية الإلهية ، وهدى الرسول ﷺ فيما عظم من الأمور ، وفيما هو سهل يسير . وهم يحاولون ما أمكن أن يكونوا بقدر الاستطاعة ورثة الأنبياء علمًا ، وورثة الأنبياء سلوكًا ، وورثة الأنبياء أحوالا ومقامات ، بيد أن بعض الناس لا يتبين في وضوح معنى التصوف ، ولا مدى الصلة بين الإسلام والتصوف .

(١) لقد فكرت في أن أجعلها مقدمة وفكرت في أن أجعلها خاتمة ، ثم سألت نفسى إذا كانت هذه هي المقدمة فما هي الخاتمة ، فوجدت نفسى تشير إليها فعدت إلى نفسى وسألتها ، إذا كانت هذه هي الخاتمة ، فما هي المقدمة ؟ فوجدت نفسى تشير إليها . إنها في حقيقة الأمر مقدمة وخاتمة ، وإنها من الأهمية عندى بحيث لو كان استساعًا أن أكتبها مرة كمقدمة ثم أعود فأكتبها مرة أخرى كمخاتمة لفعلت .
فلتكن مقدمة ، ولتكن خاتمة ، وأرجو الله أن ينير بها بصائر ، وأن يهدى بها قلوبًا .

ويتساءل عن ذلك بمناسبة الكتابة عن الشاذلى مثلاً ، أو عن أبى العباس المرسى ويقولون فى صراحة :

هل هذا النوع من السلوك الذى أخذوا فيه ، والذى يسمى « التصوف » : من الإسلام أو ليس من الإسلام ؟ ولقد تساءل عن ذلك الكثيرون ، بمناسبة إخراجنا كتاب « الشاذلى » رضى الله عنه ، وكتب بعضهم فى المجلات كتابة تنبئ عن عدم وضوح الرؤية فى موضوع التصوف ، وتنبئ عن حصول لبس فى مدى صلته بالإسلام .

وكل ذلك يحدث كلما ظهر كتاب عن شخصية صوفية ، وكلما نشر كتاب عن التصوف نفسه وسيحدث حتماً - والزمن يكرر نفسه - فى مناسبات أخرى ، ومن أجل ذلك نكتب هذه المقدمة عن صلة الإسلام بالتصوف ، ونحاول ما أمكن الاستدلال فيها بالنصوص الشرعية ، وبأقوال الصوفية ، مبينين - فى غير تحيز ولا عصبية - وجهة النظر السليمة ، ليهتدى من يهتدى عن بصيرة ، وليسلك من يشاء طريقهم على هدى وعلم ، وهى مقدمة أصبحت ضرورية ، ولعلها تأخرت نوعاً ما . بعد أن نشرت سلسلة أعلام العرب عدة كتب عن كبار الصوفية فنقول وبالله التوفيق :

١ - ماهو المنهج الملائم ؟

إن صلة التصوف بالإسلام - منهجاً وموضوعاً - لايتأتى فهمها صحيحاً إلا إذا عرفنا التصوف تعريفاً ينطبق على حقيقته أكمل مايكون الانطباق ، بيد أن تعريفه ليس من السهولة بمكان ، ذلك أن تعريفات التصوف - كما يقول مؤرخو التصوف القدماء - أريت على الألف ، وكلها تعريفات لها وزنها وقيمتها ، إذ أنها بأقلام الصوفية أنفسهم ، وإذا كانت هذه التعريفات بأقلام أرباب الشأن فإنه من

الصعوبة بمكان أن يقف الإنسان منها موقف الحكم ، يفضل بعضها على بعض .
 ويجعل بعضها في المرتبة الأولى ، ويجعل البعض الآخر ثانويًا ، ثم ينتهى بتعريف
 جامع مانع : ما هو المقياس ؟ وما هو الفيصل ؟ ثم بأى سلطان يتدخل الإنسان بين
 هؤلاء القوم ذوى المذافات الرقيقة ، والمشاعر الروحية الدقيقة ؟ أبسلطان العلم ،
 ملاحظة واستقراء ؟ ! أم بسلطان العقل ، بحثًا واستنتاجًا ؟ ! أم بسلطان الروح ،
 إشرافًا وإلهامًا ؟ !

٢ - التصوف والعلم :

هل يلج العلم بملاحظته واستقراءه حصن التصوف ؟ إنه إذا فعل ذلك فإنه لن
 يلاحظ إلا الشكل الخارجى . ولا يستقرئ إلا المظهر الشكلى ! ولاشئ بعد ذلك
 من روح التصوف وجوهره . ومعنى هذا الإخفاق التام .

وحقًا لقد أخفق - إلى الآن - علم النفس . وأخفق علم الاجتماع ، إخفاقًا
 كاملاً فى الوصول إلى كنه التصوف وحقيقته .

بل إن الدراسات النفسية الحديثة ، والدراسات الاجتماعية المعاصرة أفسدت
 الفكرة عن التصوف إفسادًا تامًا ، شأنها فى ذلك شأن كل ما اتصلت به من
 الدراسات التى تتصل بالروح ، وبالوحي ، وبالإلهام السماوى ؛ وبالدين على وجه
 العموم .

إن الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة حددت نفسها بالمادة وتقيدت
 بالظواهر المادية المحسوسة الملموسة : المرئية أو المسموعة . أو المذاقة مذاقًا حسيًا .
 أو المشمومة !

وهى تعترف اعترافًا صريحًا لالبس فيه أن مجالها إنما هو المجال المادى ؛ وأن كل

ماخرج عن المجال المادى فإنه لايدخل تحت مرصدها ومخبرها ومسبرها ، وإذن لا يدخل فى إطار بحثها .

والتصوف روح وإلهام وإشراق ؛ فلا يدخل فى مجالها .

ومن هنا كان اكتفاء هذه الدراسات بالمظهر والشكل . ومن أجل ذلك كان إخفاقها كاملا : وفشلها يفجأ النظر .

إن مانسميه « العلم الحديث » إنما هو العلم السائد فى أوربا وفى أمريكا ، وفى العصر الحاضر . وقد ألزم نفسه إلزاماً تاماً ألا يخرج عن دائرة المادة ، وحدد - مختاراً - دائرته تحديداً دقيقاً بأنها : المادة . وربط نفسه بذلك ربطاً محكمًا ، إلى درجة أن كل من يخرج عن المادة لايسمونه عالمًا ، وأن كل بحث فى غير دائرة الملاحظ . المحس لايسمونه بحثاً علميًا . ولسنا - الآن - بصدد تخطيط العلم الحديث أو تصويبه فيما ألزم نفسه به ؛ وإنما نريد أن نبين فى وضوح أن هذا الالتزام ينشأ نفيًا بآناً أن يتصل العلم الحديث - من قرب أو بعد - بجوهر التصوف ومفهومه الحقيقى . ومن أجل ذلك فإن كل ما قيل بلسان العلم عن التصوف لا يمس منه إلا المظهر والشكل ، ولا فائدة فيه بتاتاً من حيث الروح والجوهر .

٣ - التصوف والعقل :

أنلجأ إذن إلى العقل ؟ يبحثه المنطقى القياسى . وإلى استنتاجاته الناشئة عن المقدمات والأقيسة ؟

أيقودنا العقل - آمين - فى بحار التصوف اللامحدودة ، وفى رياضه التى لا تنتهى من حيث كونها نفحات من التجليات الإلهية اللانهائية ؟ ولكن المعروف أن العقل لا يدور إلا فى فلك المادة . إنه يتسامى إلى السماء ، فيبحث بأقماره وسفنه وصواريخه بين أرجائها الشاسعة ، وساحاتها الرحبة . ويغوص فى أعماق البحار فيظهر

مكوناتها ويكشف عن أسرارها . ويتعمق في طبقات الأرض ؛ فيخرج منها أثقالها ، ويزيل الغموض عن معمياتها .

إنه مبتدع الصناعة من الإبرة إلى الصاروخ . ومخترع الكيماءات سهلة كانت أو معقدة . ومكتشف النواميس الكونية في الأرض وفي السماء . وهو أساس العلم الكسبي : علم التوالد ، والاستنتاج ، والاستنباط على أشكاله المختلفة . ومناهجه المتعددة . ولكن العقل - ومجالاته المادة استنتاجاً ، واستنباطاً .

لا شأن له بالغيب : الغيب الإلهي .

لا شأن له بالمساطر : مساطر الملائكة الأعلى .

لا شأن له بكشف المحجوب : المحجوب الروحي .

لا شأن له بمعارج القدس . ولا بمنازل الأرواح .

لقد أخفق العقل في إيجاد مقياس عقلي يقيس به الصحة والخطأ في عالم الروح . وعجز عن اختراع فيصل يفصل به بين الحق والباطل في مجال الغيب ، لقد أخفق منهج أرسطو . وأخفق - منهج ديكارت . وأخفق إلى الآن - كل منهج عقلي يراد منه أن يصل بنا إلى عالم الإلهية ؛ يعرفنا أسرارها ، ويسير بنا في مساطيره . وإخفاق العقل في عالم التصوف قضية اعترف بها اعترافاً صحيحاً فيثاغورث ، وأفلاطون ، وأفلوطين .

واعترف بها الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، واعترف بها الغزالي . وجميع الصوفية على الإطلاق .

وقد اعترفوا بها لما علموا أن العقل لا يتأتى له أن يخرج عن دائرة المادة . بل إن الخيال نفسه . بل الوهم ، كل ذلك لا يخرج عن دائرة المادة . واعترفوا بها لما رأوه من خلال التاريخ الفكري للإنسانية ، من أن العقل وقف أمام منازل الروح ومعارج القدس عاجزاً لا يحير جواباً ، لقد اعترفوا بها وبرهنوا . وكان منطقهم من

السلامة بحيث صدقه الواقع التاريخي وليس ذلك بكادح في العقل ، فله مجاله الضخم في رحاب الكون . وفي أغوار الأرض . وفي أقطار السماء وعليه وبه . قامت الحضارة المادية الحديثة . متسلطة غلبة .

٤ - المنهج الصوفي :

وإذا عجز المنهج العلمي المادي عن دراسة التصوف في حقيقته ، وجوهره . وعجز المنهج العقلي كذلك . فإن الصوفية جميعاً . وفلاسفة الإشراق منذ فيثاغورث وأفلاطون إلى الآن يعلنون منهجاً محدداً يقرونه جميعاً ، ويثقون فيه ثقة تامة . ذلك هو المنهج القلبي . أو المنهج الروحي أو منهج البصيرة ، وهو منهج معروف أقرته الأديان جميعها . واصطفته مذاهب الحكمة : القديم منها والحديث . يقول الله سبحانه : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) . إنه سبحانه ذكر الفؤاد على أنه مسئول مثله في ذلك مثل السمع في محيطه . والبصر في محيطه . والإمام الغزالي « معبراً عن رأى الصوفية وعن رأى فلاسفة الإشراق » يرى أن الدليل القاطع على أن هناك معرفة ليس مرجعها إلى الحس . ولا إلى العقل ، إنما هما أمران :

أحدهما : عجائب الرؤيا الصادقة . فإنه ينكشف بها الغيب ، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسّات ، فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه .

الثاني : أخبار رسول الله ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل . وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره ، إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور . وشغل بإصلاح الخلق ، فلا يستحيل عليه أن يكون في الوجود

شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق . وهذا لا يسمى « نبيًا » بل يسمى : « وليًا » . اهـ .

فمن آمن بالأنبياء وصدق الرؤيا الصحيحة لزمه لاحالة أن يقر بالبصيرة . أو بتعبير آخر يقر بباب للقلب يفتح على عالم الملكوت ، هو باب الإلهام . والنفت في الروح والوحي .

والإمام الغزالي يتثبت بالرؤيا كبرهان . ودليل على أن هناك آلة للمعرفة غير الحسن والعقل ، ويردد ذلك في كثير من كتبه .

إنه يتحدث في المنقذ (٢) عن النبوة فيقول :

« وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأنه أعطاهم أنموذجًا من خاصية النبوة وهو النوم . إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، إما صريحًا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان بنفسه وقيل له : إن من الناس من يسقط مغشيًا عليه كالليت ، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره ، وأقام البرهان على استحالاته ، وقال القوى الحساسة سبب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها . فبالأيدركها مع ركودها أولى وأحق . وهذا نوع قياسي يكذبه الوجود والمشاهد » اهـ .

ولكن الإمام الغزالي لا يكتفى بهذين الوجهين من الاستدلال ، بل يأتي بشواهد الشرع ، ويذكر التجارب والحكايات .

أما الشواهد فيما يرى فهي قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

وقوله ﷺ : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم »

وقوله تعالى : (يأياها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا) .

(٢) انظر تحقيقنا للمنقذ من الضلال وتعليقنا عليه ، نشر دار المعارف .

قيل نور يفرق به بين الحق والباطل . وتخرج به من كل الشبهات وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى :

(أفن شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه) .

ماهذا الشرح ؟ فقال : هو التوسعة . إن النور إذا قذف به في القلب اتسع له الصدر وانشرح . وقال عليه الصلاة والسلام :

« إن من أمتي محدثين . ومعلمين . ومكلمين ، وإن عمر منهم » .

والمحدث : هو الملهم . والملهم هو الذي انكشف له الحق في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسات الخارجية . والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف .

ولم يكن علم الخضر عليه السلام علمًا حسيًا أو عقليًا ، وإنما هو العلم . العلم الرباني ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وعلمناه من لدنا علمًا) .

٥ - المنهج الصوفي منهج إسلامي :

المنهج إذن : منهج إسلامي صحيح سليم لا غبار عليه .. ثم هو منهج فلسفي برغم معارضة الفلاسفة العقلين يقره الكثير من كبار الفلاسفة الغربيين والشرقيين . ومن القدماء والمحدثين .

ثم هو منهج جرب فنجح . جربه الإمام الغزالي فنجح . وجربه غيره فنجح وعنه يقول الإمام الغزالي : « وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به : أني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة . وأن سيرتهم أحسن السير . وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئًا من سيرتهم

وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه . لم يجدوا إليه سبيلا . فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة . وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وبالجمله فإذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهى أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . ومفتاحها - الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله .

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها . وهى على التحقيق أول الطريقة . وما قبل ذلك كالدلهيز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء . ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى في الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » اهـ .

وعن هذا المنهج يقول الأستاذ رينيه جينو : الحكيم الفرنسى - في محاضرة ألقاها في جامعة باريس - يقول متهمكاً بهؤلاء الذين - يشكون في هذا المنهج ، ساخراً من موقفهم الذى يصور الكسل المزرى - « يتساءل قوم : أمن الممكن أن نتخطى الطبيعة فنصل إلى ما وراءها ؟ إننا لا نتردد في أن نجيبهم في وضوح واضح : ليس ذلك ممكناً فحسب ، ولكن ذلك واقع وموجود . سيقولون : تلك قضية تفتقر إلى برهان ؟ ولكن أى برهان يمكن أن يقدمه الإنسان على وقوع هذا الأمر ووجوده ؟ إنه لمن الغريب حقاً أن يطلب البرهان على إمكان نوع من المعرفة ، بدلا من أن يحاول الإنسان أن يصل إليها بتجربته الشخصية ، سالكاً إليها ما تتطلبه . إن الشخص الذى وصل إلى هذه المعرفة لا يعنيه في قليل أو كثير ما يثور حولها

من جدل ونقاش . وإنه لمن الواضح أن إحلال « نظرية المعرفة » محل « المعرفة » نفسها إعلان صريح على عجز الفلسفة الحديثة » اهـ .

٦ - لا يكتسب التصوف عن طريق القراءة :

والمنهج إذن : إنما هو تزكية النفس ، أو إجلاء البصيرة .
كيف يتأتى ذلك ؟

هل يتأتى ذلك عن طريق القراءة والدرس ؟ هل السبيل إلى معرفة الغيب مباشرة هو البحث والدرس والاستقصاء ، ويتفاوت الناس في الإشراف بتفاوتهم في شمول الدراسة ، وعموم التحصيل ؟ كلا قطعاً .

يقول الإمام الغزالي معبراً عن الرأي الصحيح المبني على التجربة نفسها :
« ابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم : مثل « قوت القلوب » لأبي طالب المكي ، رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات الماثورة عن الجنيد ، والشبلي ، وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال ، وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحاً ، وشبعان . وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران . بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة » .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا . فعلمت يقيناً : أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطرق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

وابن سينا حينما أراد أن يحدد طريق البصيرة حتى يصير سر الإنسان - على حد تعبيره - مرآة مجلوة ، لم يحدده بقراءة وبحث . وإنما حدده بإرادة ورياضة . وأبو الحسن النورى يرى فى صراحة أن التصوف ليس علماً ، ويعلل ذلك بأنه لو كان علماً لحصل بالتعلم . ولكن الأمر ليس كذلك وليس طريقه تزكية النفس . إذن العلم كسبى .

٧ - التصوف والأخلاق :

أهو الأخلاق الطيبة ؟

إن الكثير من الكتاب الحديثين - متابعين فى ذلك الكثير من الصوفية - قد حددوا التصوف نفسه - لا تزكية النفس وحسب - بأنه الخلق الطيب . يقول أبو بكر الكتانى [المتوفى سنة ٣٢٢ هـ] « التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء » (٣) .

ويقول أبو محمد الجريرى [المتوفى سنة ٣١١ هـ] - وقد سئل عن التصوف - « الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » (٤) .

أما أبو الحسن النورى فإنه ينفى عن التصوف أن يكون رسماً منهجياً تخطيطياً ، أو أن يكون علماً كسبياً ، ويجزم بأنه خلق . ويعلل النفس والإثبات فيقول :

(٣) الرسالة القشيرية ص ١٤٩ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٤٨ .

« ليس التصوف رسماً ولا علماً ، ولكنه خلق . لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم . »
على أن أبا الحسن النورى نفسه يحدد الأخلاق التى يرى أنها التصوف فيقول فى موضع آخر معرّفاً التصوف :

« التصوف : الحرية ، والكرم ، وترك التكلف ، والسخاء . »

على أن هؤلاء الذين ذكروا هذه التعاريف الأخلاقية للتصوف . ذكروا هم أنفسهم تعاريف أخرى وذلك - على الأقل - يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم : لم يروا كفاية الجانب الأخلاقى فى تحديد التصوف ، وتعريفه ..

والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو فى الجانب الأخلاقى الكريم ، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهباً وشعاراً ، فإننا نجدهم أشخاصاً مثاليين ، فى المحيط الأخلاقى وفى المجتمع . ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفية . ولو نظرنا فى البيئة لوجدنا داعية إلى الفضيلة وامتدّها بها ، ومحاولاً نشرها بشتى الوسائل . وبمختلف الطرق . سواء أكان ذلك بالدعوة الإقناعية أم بالمنطق الجدل ، أم بالأسوة الكريمة ذلك هو سقراط . ومع ذلك فإن سقراط هذا لم يكن صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة « صوفى » .

وإذا انتقلنا إلى البيئة الإسلامية فإننا نجد الحسن البصرى - رضى الله عنه - من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالية . لقد كان مثلاً صادقاً للشعور الأخلاقى فى طهره وصفائه . وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ، ومنطقه القوى ، وسلوكه المثلّى . ومع ذلك فلم يكن الحسن البصرى صوفياً بالمعنى الدقيق لكلمة « صوفى » . على أنه من الطبيعى أن تكون الأخلاق الكريمة أساساً من أسس التصوف . وأن

تكون الأخلاق في أسمى صورة من صورها ثمرة التصوف .
ومن الطبيعي أيضًا أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي فيما بين الأساس
والثمرة . فهي إذن ملازمة للتصوف ، وللصوفي ملازمة تامة ، لا تتخلى عنه
ولا يتخلى عنها . ويعبر ابن سينا عن بعض ما يتحلى به الصوفي من أخلاق ، معللاً
ذلك . فيقول : « العارف شجاع ؛ وكيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت ؟ !
وجواد ؛ وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل ؟ ! وصفّاح ؛ وكيف لا ونفسه أكبر
من أن تجرحها زلة بشر ؟ ونساء للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق ؟ ! » .
ولكن ليس معنى ذلك أنها هي التصوف .

٨ - التصوف والزهد :

هل الطريق هو الزهد ؟

إن كثيراً من الناس لا يكادون يفرقون بين التصوف والزهد . وكثير منهم يرون أن
الزهد هو الطريق المؤدى إلى التصوف ، أو هو هو الطريق المؤدى إلى جلاء البصيرة .
والواقع أننا حينما نفكر في الزهد نرى منه ألواناً عديدة :

إن منه هذا اللون المنطقي الفلسفي ، الذي يرى صاحبه أن أسمى ما في الحياة ؛
إنما هو الهدوء والسكينة ، وراحة البال ، وطمأنينة النفس ، ولا يتأتى ذلك بالجرى
وراء الدنيا . والكفاح في سبيل الثراء والانغماس من ورائه في الملاذ .

إن الناس يتكالبون على الدنيا تكالبًا شديدًا . وإلقاء الإنسان بنفسه في المعركة -
معركة التنازع على الدنيا - لا ينتج غالبًا إلا انشغال البال ، والهم ، والفكر ،
والقلق . وسبيل السكينة والراحة إنما هو البعد مصدر النزاع .

وهؤلاء الذين يفكرون هذا التفكير ، فيؤديهم إلى الزهد يكون زهدهم زهدًا
منطقيًا ، فلسفيًا . يقول ابن سينا : « المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم

الزاهد . وهذا الزاهد إما أن يكون هدفه سكينه في الدنيا ، لا يتطلع إلى غير ذلك . وهو ماسبق أن تحدثنا عنه . وأما أن يتخطى الدنيا . فلا تخط له على بال ، أو يكون أمرها في نظره ثانويًا . ويتجاوزها إلى الآخرة . يزهد من أجلها . ويعرض عن متاع الدنيا وطيباتها من أجل نعيم الآخرة فيكون الزهد عنده - على حد تعبير ابن سينا - « معاملة ما . كأن يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة » . وغاية هذا الزاهد من الامتناع عن طيبات هذا العالم أن يمنحه الله في الدار الآخرة طيبات ألد وأمتع . إن مثله . . فيما يروى ابن سينا : كمثّل التاجر الذي يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة . وهؤلاء الزهاد لهم أجرهم وثوابهم عند الله في الآخرة ، ولهم سكينتهم في الدنيا . ولكن هذه الطريقة من الزهد المنظور فيه إلى الجزاء والمكافأة والأجر - فيما يرى الصوفية - لا يقصد الله فيها مباشرة بالعمل ليكون الله سبحانه وحده هو المطلوب . وإنما يقصد في قليل أو كثير بطريقة شعورية ، أو لاشعورية إلى نعيم الآخرة وملاذها .

والزهد الفلسفي ، وزهد الراغبين في الأجر . لا يؤدي إلى أن يصبح السر مرآة مجلوة . ومامن شك في أن طريق الكشف عن البصيرة ينطوي على الزهد ويتضمنه . ولكنه زهد . هو تسامى عن أن يكون لغير الله شأن يشغل نفسه به . فكل ماسواه سبحانه لا يساوى جناح بعوضة ، إنه « تنزه ما » . إن الطريق ينطوي على الخلق الكريم ، وعلى الزهد الخاص ، ولكنه يتجاوزهما إلى شيء آخر .

٩ - التصوف والعبادة :

هل هذا الشيء الآخر هو العبادة ؟ !

هل الطريق هو المواظبة على فعل العبادات : فرائض ونوافل ؟ هل هو الإكثار من النوافل : قيامًا بالليل وصومًا بالنهار ونحو ذلك ؟

إن للعبادة أثرًا لا ينكره أحد في تصفية النفس وتركية الروح ، ولكنها إذا كانت تهدف من وراء ذلك إلى دخول الجنة ونيل الأجر والثواب . بقيت عبادة مشكورة مأجورًا صاحبها ، مثابًا عند الله سبحانه . ولا يتجاوز للقائم بها - على هذا الوضع وبهذه الصورة - وصف العابد إلى وصف الصوفى .

ووصف العابد من غير شك منزلة عظمى . ولكن العبادة على هذا النمط كأنها « معاملة ما »^(٥) . والعابد على هذا الوضع « كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة » : هي الأجر والثواب^(٦) .

أما الصوفى . فإنه « يريد الحق الأول . لالشيء غيره . ولا يؤثر شيئًا على عرفانه وتعبد له فقط . ولأنه مستحق للعبادة . ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة » . وتعبر السيدة رابعة العدوية عن هذا المعنى فتقول : « إلهى : إذا كنت أعبدك رهبة من النار . فاحرقنى بنار جهنم . وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنىها . وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك . فلا تحرمنى بإلهى من جمالك الأزلى » .

وتقول رضوان الله عليها : « ما عبدته خوفًا من ناره ، وحبًا لجنته . فأكون كالأجير السوء . بل عبدته حبًا وشوقًا إليه » .

والواقع أن الله سبحانه وتعالى إذا عبد رغبة فى الجنة : أو عبد رهبة من النار . فإنه سبحانه لا يكون المطلوب الأول : ولا يكون الغاية التى يسعى إليها العابد . وإنما يكون سبحانه كأنه واسطة بين العابد ومارغبه . وهو : الجنة . أو رهبة وهو : النار . وعبادة العباد التى على هذا الوضع : إذن : لا تنتهى بهم إلى أن « يصبح السر مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق » .

١٠ - وأن إلى ربك المنتهى :

والصوفي : عابد ، وهو زاهد ، وهو على خلق كريم . ولكنه يتجاوز ذلك كله إلى شيء آخر ، هو هذه « الإرادة والرياضة » الإرادة المصممة . الإرادة التي لاتلن ، الإرادة التي تزيل - لقوتها وتصميمها - كل ما يقف أمامها من عقبات في سبيل الوصول إلى الله سبحانه .

والرياضة التي تتخذ الله هدفها ، والتي تتمثل - في وضوح - في معاني الهجرة إلى الله ، والذهاب إليه سبحانه - والفرار إليه جل وعلا .
« الإرادة والرياضة » لتحقيق المعنى الجليل للآية القرآنية الكريمة :
(وأن إلى ربك المنتهى) .

وتتعاون الإرادة والرياضة في الوصول - بتوفيق الله - إلى هذا المنتهى الذي لا بد من الوصول إليه ؛ لتستقر الإرادة وتسكن .

إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا - على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم - بالفرار إليه : (ففروا إلى الله ، إني لكم منه نذير مبين) .

والإنسان يفر إلى الله من الكفر إلى الإيمان ؛ ويفر إلى الله من الطاعات إلى القربات ؛ ويفر من الكون إلى المكون ؛ ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الخلق إلى الخالق . ومن نفسه إلى ربه .

إن الفرار إلى الله لانهية له . لأن الترقى لانهية له . وكما أن الفرار إلى الله مستمر دائم . فإن الهجرة إليه سبحانه مستمرة دائمة . يقول سيدنا إبراهيم صلوات الله عليه :

(إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم) .

إنه صلوات الله عليه مهاجر إلى ربه بكل عمل يعمل . إنه مهاجر إليه بحركاته

وسكناته وأنفاسه . مهاجر إليه بنومه وصحوه . مهاجر إليه بكل نفس من أنفاسه .
 والهجرة إلى الله والفرار إليه بمعنى واحد . وهو بمعنى مستغرق شامل يشرحه -
 في عمومته وشموله - قول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه ممثلاً أمر الله سبحانه
 وتوجيهه في قوله تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين .
 لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

وصلاة الإنسان إذن نسكه . ومحياه ومماته : إنما تكون - في الوضع الإسلامي
 السليم - لله سبحانه وحده ، حيث لا شريك له : من حب مدح ، أو ثناء .
 أو زلفى ، أو جنة ، أو بُعد عن النار : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم
 بالغداة والعشي يريدون وجهه . ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا .
 ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ؛ وكان أمره فرطاً) .

والرياضة : ذكر دائم ؛ أى تذكر له سبحانه في كل لحظة ونفس . وهى اتجاه
 بكل الأعمال إلى الله ؛ وهى هجرة لا تنقطع إليه سبحانه . . وقد تتعذر في المبدأ
 وتشق في أول الطريق ؛ فكان لابد من تهيئة الجو المناسب للمران والتعبد فترة من
 الزمن . وهذه التهيئة تتمثل في الخلوة والعزلة فترة تطول أو تقصر بحسب طبيعة
 الإنسان . فقد لا تعدو أن تكون أسبوعاً ، أو ثلاثة أسابيع . أو أربعين يوماً . كأنها
 إجازة روحية . مثلها في ذلك - بالنسبة للروح - مثل الإجازة الجسمية التى يستمر
 الإنسان فيها في الصيف ما يقرب من ثلاثة أشهر .

على أنه بينما تتكرر الإجازة الجسمية كل عام أكثر من شهر لا تتكرر الإجازة
 الروحية . اللهم إلا في الاعتكاف في شهر رمضان : عشرة أيام من كل عام اتباعاً
 لسنة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بالنسبة لكل مسلم .

« الإرادة والرياضة » ومع ذلك فإن الأمر - كما يرى الصوفية - مرده الأخير

إلى : فضل الله وإحسانه . .

١١ - منهج التصوف فيما يرى الغزالي وابن خلدون :

وهذه المعاني يلخصها الإمام الغزالي فيقول :

« إن الطريق إلى ذلك إنما هو تقديم المجاهدة ، ومحو الصفات المذمومة . وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده . المتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة . وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة . وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية . فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة . وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام . والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة .

فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر . وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها . والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى « فمن كان لله كان الله له » وهو بفعله هذا . يصير متعرضاً لنفحات رحمة الله ، وليس له اختيار في استجلاب هذه النفحات . وليس له إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة . كما فتحتها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريقة . وإذا صدقت إرادته . وصفت همته . وحسنت مواظبته . تلمع لوامع الحق في قلبه . ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى . فينكشف له الغيب ، ويحصل على اليقين » .

ويلخصها ويحملها ابن خلدون فيقول :

« ثم إن هذه المجاهدة ، والخلوة ، والذكر ، يتبعها - غالباً - كشف حجاب

الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله . ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها . والروح من تلك العوالم .

وسبب هذا الكشف : أن الروح إذا رجعت عن هذا الحس الظاهر إلى الباطن : ضعفت أحوال الحس ، وقوى الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه . وأعان على ذلك الذكر ، فإنه كالغذاء لتنمية الروح . ولا يزال في نمو وتزايد إلى أن يصير شهوداً بعد أن كان علماً . ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذى لها من ذاتها . وهو عين الإدراك . فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية . والعلوم اللدنية . والفتح الإلهي ؛ وتقرب ذاته في تحقيق حقيقتها من الأفق الأعلى . أفق الملائكة . وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة ، فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم . وكذلك يدركون كثيراً من الوقائع قبل وقوعها . ويتصرفون بهمهمهم ، وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية . فتصير طوع إرادتهم ؛ فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ، ولا هذا التصرف ؛ ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالتكلم فيه . بل يعدون ما وقع لهم من ذلك محنة ؛ ويتعوذون منه . إذا وقع لهم . ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة . وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ؛ ولكنهم لم يقع لهم بها عناية . وفي فضائل أبي بكر . وعمر . وعثمان ، وعلى - رضي الله عنهم - كثير منها ، وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ، ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقهم من بعدهم » .

وهكذا نرى أن المنهج منهج إسلامي . وأن وسيلة المنهج أو طريقة تحق المنهج ، أو بتعبير أصح - خطوات المنهج - إنما هي خطوات إسلامية .

١٢ - ثمرة المنهج :

إلامَ يؤدي هذا المنهج ؟

إذا اتبعنا هذا المنهج . ووفق الله . فما هي النتيجة ؟ وما هو الهدف الذي يسعى الصوفي للوصول إليه ؟

إننا في سبيل الوصول إلى رأى سليم . نبدأ أولاً بتقسيم الإسلام للبشر من ناحية درجاتهم عند الله . والأساس في ذلك إنما هو قوله تعالى :
(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وطريق التقوى في ترقيه وتساميه . لا يكاد يقف عند حد . وإكرام الله للإنسان إذن مستمر كلما زادت التقوى حتى يصل هذا الإكرام إلى درجات لا يكاد يتصورها أحد . ويعبر عنها ويشرحها الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، عن رب العزة جلّ وعلا :
« من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه . وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به . وبصره الذي يبصر به . ويده التي يبطش بها . ورجله التي يمشي بها . وإن سألني أعطيته . ولئن استعاذني لأعيذنه » .

وأولياء الله هؤلاء قسمهم الإسلام - بحسب قربهم من الله - إلى طوائف بعضها أقرب من بعض . وكلها قريبة منه سبحانه . تنعم في رضاه ، وفي رضوانه ، فقال سبحانه : (ومن يطع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله . وكفى بالله عليماً) .

هناك إذن : أنبياء ، وصديقون ، وشهداء ، وصالحون ، هناك السابقون ،

وهناك أهل اليمين . هناك المقربون ، وهناك الأبرار . والناس منهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله . وتفاوتهم في التقوى مرتب على تفاوتهم في التوحيد .

وقفة التوحيد : أن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله . وهؤلاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله هم أولو العلم . يقول سبحانه : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم . قائمًا بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

هذه الشهادة في قمتها ليست مجرد كلمة تقال ، ولا مجرد لفظ ينطق به إنسان من بين شفتيه ، فيمر كما يمر أى لفظ آخر . إن لكلمة الشهادة معنى محددًا ، هو هذا المعنى الواقعى الذى يحدث حينما يكون هناك شاهد ومشهود . لا بد في الشهادة من شاهد ، ولا بد من مشهود . ولا بد من أن يشاهد الشاهد المشهود . وإلا فهي شهادة . . تجاوزًا .

ولقد شهد الله على الحقيقة ، وتشهد الملائكة على الحقيقة ، ويشهد أولو العلم على الحقيقة : أنه لا إله إلا الله .

ولقد اختص أولو العلم من بين البشر بهذه الشهادة ، فحققوا بها قفة التوحيد . وكانوا بسبب ذلك في الذروة من الإكرام الإلهى .

فشهدوا مع الله سبحانه ، ومع الملائكة بأنه تعالى : لا إله إلا هو . وشهادة التوحيد هى الغاية فى الدين . وهى دعوة الأنبياء جميعًا .

وهذه الغاية نفسها هى التى يلتمسها المتصوفة بكل وسيلة ، وهى التى يسعون إليها جاہدين . إنها أملهم ممسين ، وأملهم مصبحين . وهى - لا غيرها - التى تنأى بجنوبهم عن المضاجع ، بل تجعل جنوبهم نفسها تتجافى عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفًا وطمعًا . خوفًا من الحرمان ، وطمعًا فى القرب .

وغاية الصوفى إذن هى الغاية الإسلامية . وجوهر أهدافه هو جوهر أهداف

الإسلام ، إنها الشهادة ، إنها شهادة أن لا إله إلا الله .
 إن الطريق إنما هو تزكية النفس . والغاية الشهادة ، أشهد أن لا إله إلا الله ،
 والشهادة على حقيقتها . وهذا هو التصوف طريقاً ، وغاية .

١٣ - تعريف التصوف :

ولقد عبروا عن ذلك في صراحة لا لبس فيها ، وفي وضوح لا غموض فيه .
 ونبدأ بذكر أقوالهم في تعريف التصوف منظوراً إليه باعتباره منهجاً .

وهذه التعريفات إما أن تصور المنهج شاملاً ، وإما أن تصور جزءاً منه :

١ - الصوفي : من صفا قلبه ^(٧) (تزكية النفس) .

٢ - التصوف : تمام الأدب ^(٨) (المنهج في جانبه الأخلاقي) .

٣ - الصوفي : من صفى ربه قلبه ، فامتلاً قلبه نوراً ، ومن حل في عين اللذة
 بذكر الله ^(٩) .

٤ - التصوف : أن يختصك الله بالصفاء ، فمن اصطفى من كل ماسوى الله فهو
 الصوفي ^(١٠) .

٥ - وللعنيد بالنسبة لتعريف التصوف أكثر من تعريف ، كل منها يوضح جانباً
 من الجوانب ، منهجا كان أو غاية .

وقد بلغت تعريفاته أكثر من عشرة تعريفات . والتعريف الآتي يصور جوانب
 كثيرة ، ولكنه مع ذلك لا يأتى كل الجوانب . يقول :

(٧) بشر الحافي : (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ) .

(٨) أبو حفص الحداد : (المتوفى حوالى ٢٦٥ هـ) .

(٩) أبو سعيد الخراز : (المتوفى قبل ٢٩٧ هـ) .

(١٠) الجنيد البغدادي : (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ) .

« التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي ، ومفارقة أخلاق الطبيعة ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة نزوات النفس ، ومنازلة الصفات الروحية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، وعمل كل ما هو خير إلى الأبد ، والنصح الخالص لجميع الأمة ، والإخلاص في مراعاة الحقيقة ، واتباع النبي ﷺ في الشريعة .

وهناك بعض تعريفات تتصل بالغاية فقد سئل الشبلي : مبدء هذا الشأن ، وما انتهاؤه ؟ فقال : بدؤه معرفته وانتهائه توحيده ، أى نهايته أشهد أن لا إله إلا الله . بيد أن هذه التعريفات كلها تعتبر قاصرة ، وقيمتها الكبرى فى أنها تصور جانباً من الجوانب ، أو زاوية من الزوايا ، وهى حينما تصور المنهج وحسب ، فإنها لا تصور التصوف كاملاً . وحينما تصور الغاية وحسب ، فإنها لا تصور التصوف على ما يراه القدماء والمحدثون . وهؤلاء القدماء والمحدثون - سواء أكانوا من الصوفية . أم من مؤرخى التصوف - يتجهون إلى أن التصوف منهج وغاية . إنه طريقة وحقيقة إنه سلوك ونتيجة .

والصوفية يشبهون الوحدة التى تجمع بين المنهج والغاية بالدائرة ومركزها . ويقول الشيخ عبد الواحد يحى : « إن الطريقة هى الخط ، الذهاب من الدائرة إلى المركز . وكل نقطة على الدائرة هى مبدأ الخط وهذه الخطوط التى لا تحصى - كلها - إلى المركز إنها « طرق » وهى طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطباع البشرية ولهذا يقال : « الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم » .

ومهما اختلفت فالهدف واحد ، لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ ، تزول شيئاً فشيئاً مع زوال الآنية ، وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا ، تزول فيها : « صفات العبد » التى ليست إلا سجناً : « الفناء » فلا تبقى إلا الصفات الربانية « البقاء » .

والطريقة ، والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما : « التصوف » وهو ليس مذهباً خاصاً لأنه الحقيقة المطلقة . وليست الطرق مدارس مختلفة ، لأنها طرق ، أى سبيل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة « التوحيد واحد » .

١٤ - تعريف التصوف فيما نرى :

وفى خاتمة ماسبق نقول : إن التعريف الذى نراه ، والذى يجمع جوانب التصوف ، إنما هو تعريف الكتانى الذى يقول : التصوف : صفاء ومشاهدة . ونقول فى يقين ناتج من كل ماسبق وهو يقين يسد الطريق فى وجه كل من يحاول أن يثير أوهاماً ضد التصوف والصوفية : إن المنهج الصوفى ، إنما هو تحقيق واقعى لقوله تعالى : (قد أفلح من زكاها) .

فتزكية النفس هى صفاؤها وتصفيتها إنها الوصول بها إلى الصفاء والمنهج محاولة للقرب - ما استطاع الإنسان ذلك سبيلاً - من قوله تعالى : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

أما الغاية فلإنها : الوصول إلى المشاهدة التى يقول الله تعالى فى بيان من حققوها وتحققوا بها : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم)
إن الغاية هى الوصول إلى : أشهد أن لا إله إلا الله .

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
الفصل الأول : العارف بالله أبو الحسن الشاذلى	١٥
١ - حياته	١٥
٢ - شخصيته	٤٢
٣ - العمل بالكتاب والسنة	٧٣
٤ - الاستدلال على وجود الله	٧٦
٥ - أجواء فى القرآن الكريم	٨٤
٦ - الطريق الصوفى	٩٦
٧ - معارج ومراء	١١٥
٨ - الذكر والدعاء والأحزاب والأوراد	١٢١
٩ - خاتمة واعترافات	١٦٣
الفصل الثانى : العارف بالله أبى العباس المرسى	١٧٥
١ - حياته	١٧٥
٢ - المرسى	١٨٧
٣ - العالم	١٩٨
٤ - المكافح	٢٠٦
٥ - الصوفى	٢١١

صفحة

- ٦ - المفسر ٢٢٠
- ٧ - وحدة الوجود عند أبي العباس والصوفية على وجه العموم ٢٤٨
- ٨ - شخصيات - إلهامات - عادات ٢٥٩
- ٩ - الأحزاب والأوراد ٢٦٩
- ١٠ - مسجده وضريحه ٢٧٨

الفصل الثالث : العارف بالله الشيخ عبد الواحد يحيى ٢٨١

- ١ - كيف عرفت عبد الواحد يحيى ٢٨١
- ٢ - جيد وجينو ٢٨٥
- ٣ - حياة جينو ٢٨٨
- ٤ - دفاعه عن الإسلام ٣٠٥
- ٥ - في المعرفة ٣١٤

الفصل الرابع : العارف بالله الشيخ عبد الفتاح القاضي ٣٦٣

- ١ - كيف عرفت الشيخ عبد الفتاح القاضي ٣٦٣
- ٢ - حياته ٣٧٠
- ٣ - جهاده ٣٨٥
- ٤ - إلهامات عن الطريق ٣٩٢
- ٥ - إلهامات في التفسير ٣٩٦
- ٦ - واردات ٤٠٧

صفحة

٤١٥	مقدمة وخاتمة
٤١٦	١ - ما هو المنهج الملائم؟
٤١٧	٢ - التصوف والعلم
٤١٨	٣ - التصوف والعقل
٤٢٠	٤ - المنهج الصوفي
٤٢٢	٥ - المنهج الصوفي منهج إسلامي
٤٢٤	٦ - لا يكتسب التصوف عن طريق القراءة
٤٢٥	٧ - التصوف والأخلاق
٤٢٧	٨ - التصوف والزهد
٤٢٨	٩ - التصوف والعبادة
٤٣٠	١٠ - وأن إلى ربك المنتهى
٤٣٢	١١ - منهج التصوف فيما يرى الغزالي وابن خلدون
٤٣٤	١٢ - ثمرة المنهج
٤٣٦	١٣ - تعريف التصوف
٤٣٨	١٤ - تعريف التصوف فيما نرى

١٩٩٩/١٨٥٣	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5731-1	الترقيم الدولي

١/٩٨/١١٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحلِيم
محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامي
والتصوف في العصر الحديث ، ولقب بأبي
التصوف في العصر الراهن ، فقد أثري المكتبة
العربية بأهمّات الكتب بين تحقيق وتأليف
وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالي
وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل
النبوة » ، و « القرآن في شهر القرآن » إلى
جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور
الإسلامية المختلفة

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحلِيم
محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة
الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين
قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة
في عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمور
الدين ، وأيضا يستاز بقوة ورصانة الأسلوب
والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة
اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام
كل الفرق والمذاهب الإسلامية في شتى بقاع
العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه في قلوبنا على
مر العصور .

تأليف
د. محمد
عبد
الحليم
محمود



To: www.al-mostafa.com